جامعة ابن زهر
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية
أكادير

المقاومة المغربية ضد الاستعمار

1904 - 1955

الجذور و التجليات

1997

تحت الرعاية السامية
لصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني
نصره الله

ندوة المقاومة المغربية
ضد الاستعمار
الجذور والتجليات

المملكة المغربية
جامعة ابن زهر
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية
أكادير

سلسلة الندوات والأيام الدراسية

المقاومة المغربية ضد الاستعمار

1904 - 1955

الجذور و التجليات

أعمال الندوة العلمية
13-14-15 نونبر 1991

1997

تم تنظيم هذه الندوة بالتعاون
مع المندوبية السامية لقدماء المقاومين
وأعضاء جيش التحرير

تصميم الغلاف:

الفنان التشكيلي محمد السنوسي

رقم الإيداع القانوني: 96/1523

دار الهلال العربية للطباعة والنشر

ARABIAN AL HILAL Impression et Edition

21 Rue Descartes - Les Orangers, Tel: 70-60-99 - Fax: 70-77-51

الرباط 21 زنقة ديكارت حي الليمون - تلفون: 99-60-70 فاكس: 51-77-70

الفهرس

الجلسة الافتتاحية

كلمة السيد المندوب السامي لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير 11

كلمة السيد عميد جامعة ابن زهر 17

كلمة السيد قيدوم كلية الآداب والعلوم الانسانية 19

كلمة اللجنة المنظمة 23

المحور الأول:
جذور المقاومة المغربية
من الشمال إلى الصحراء (1)

- معالم الكفاح الوطني والمقاومة في سبيل الاستقلال والوحدة 29

محمد بنجلون

- تحديد مفهوم المقاومة المغربية: نموذج من الصحراء 39

مصطفى ناعمي

- دور العرش والأمة في استكمال الوحدة الوطنية والمحافظة عليها 47

شبيهنا حمداتي ماء العينين

- لمحة عن مقاومة الصحراء المغربية لتوغل الاستعمارين الفرنسي والاسباني 55

محمد زنيبر

المحور الثاني:
جذور المقاومة المغربية
من الشمال إلى الصحراء (2)

- جذور المقاومة المغربية ومراحل تطورها 67

عبد الله العياشي

- نسف المؤسسات التقليدية وتمهيد الاستعمار الفرنسي. 77

برادة ثريا

- مقاومة قبائل زعير للتدخل الفرنسي 1906-1912 95

علال الخديمي

- ملاحظات حول المقاومة المسلحة بين فرض الحماية واستقلال المغرب. 111

محمد الفلاح العلوي

- صفحات من دفاع المغاربة عن السيادة والوحدة الترابية ما بين 1900 و1913
نماذج من الصحراء المغربية. 129

محمد الشيخ الطالب اخيار الشيخ ماء العينين

المحور الثالث:

المقاومة المغربية بين عقد الحماية وسنة 1936

- جوانب مغمورة من المقاومة المسلحة في شمال المغرب 1913/1925 141

عبد العزيز التمسماني خلوق

- ملاحظات حول السياسة الاستعمارية في شمال المغرب. 151

أحمد مهدرها

- التدخل الفرنسي في حرب الريف أسبابه ونتائجه 1924/1926 159

محمد خرشيش

- صفحة من المقاومة المغربية إثر حرب الريف سنة1926 من خلال نص أجنبي. 167

محمد زنيبر

- سياسة فرنسا البربرية بالمغرب 1913/1930 179

عبد الحميد احساين

- السياسة الاستعمارية الاسبانية بشمال المغرب 1931/1936 191

بوبكر بوهادي

المحور الرابع:
النضال السياسي للحركة الوطنية المغربية

ـ دفاع أهل الجنوب المغربي عن الوحدة الترابية 1955/1904 203

الشيخ الأغضف لاراباس ماء العينين

ـ الانتقال من المقاومة المسلحة بالجبال إلى المقاومة السياسية بالمدن 1934/1927 209

بوشتى بوعسرية

ـ المقاومة السياسية بسلا خلال الثلاثينات... 229

العربي واحي

ـ برنامج الكفاح الوطني لحزب الشورى والاستقلال بين سنوات 1951/1947 237

محمد معروف الدفالي

ـ اليوسفية: إيديولوجية القومية المغربية. 257

علي حسن

ـ دور الصحافة في النضال السياسي للحركة الوطنية المغربية من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الاعلان عن الاستقلال.............. 271

جامع بيضا

ـ انعكاسات العمل الوطني على رجال الحركة الوطنية وعلى محيطهم. 285

بوشامة الحسين

المحور الخامس:
المقاومة المسلحة في الخمسينات

ـ جوانب من الحركة الوطنية بالدارالبيضاء خلال الخمسينات مقاربة تحليلية للمقاومة المسلحة......... ... 297

محمد رزوق

ـ انتفاضة 20 غشت 1955 بوادي زم: الجذور والوقائع 305

خالد بن الصغير

ـ أضواء على تاريخ الكفاح الوطني من أجل الاستقلال بمراكش 343

أحمد ازكروز

ـ اشكالية العلاقات بين حزب الاصلاح الوطني والحركة المسلحة 1956/1953 371

عبد المجيد بن جلون

ـ ملاحظة منهجية وأخلاقية حول كتابة تاريخ المقاومة المغربية 383

اغزادي لحسن

ـ إسهام القبائل الصحراوية في مقاومة المستعمر الاسباني والفرنسي وفي تحرير الأقاليم الجنوبية 389

إدريس الناقوري

ـ مقاومة الشيخ أحمد الهيبة للاستعمار الفرنسي 397

الحسن الباز

ـ المقاومة بالزوايا الرجراجية: زاوية ابن حميدة نموذجا 411

محمد السعيدي الرجراجي

ـ شهادة أعضاء جيش التحرير 427

ـ شهادة حول إحداث جيش التحرير بصحراء المغرب 429

البويري ادريس بن بوبكر

الجلسة الافتتاحية

كلمة السيد محمد بنجلون
المندوب السامي لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

السيد عامل صاحب الجلالة

السادة المنتخبين

السادة رجال السلطة المدنية والعسكرية

السيد عميد جامعة ابن زهر

السيد قيدوم كلية الآداب والعلوم الإنسانية

السادة الأساتذة والطلبة

إخواني قدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير

حضرات السادة والسيدات.

تنعقد هذه الندوة الهادفة في إطار العناية بتاريخنا والكشف عن أحداثه ومعانيه والمندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير وهي تعمل بتعاون مع كلية الآداب والعلوم الانسانية بأكادير على تنظيم هذه الندوة التاريخية تحت شعار «إلتحام وثيق من أجل الدفاع عن الوحدة الترابية»، التي يشارك فيها نخبة من الاساتذة الاجلاء بعد ان عرفت مدينة مراكش في نونبر من السنة الماضية تنظيم ندوة تاريخية بتنسيق مع كلية الآداب بها، لقيت من إقبال الطلبة والمقاومين واعضاء جيش التحرير والمهتمين الشيء الكثير، وذلك ما نتمناه لهذه الندوة ولندوات آخرى مقبلة للتعريف العلمي المنهجي بأمجادنا وتنوير أذهان الأجيال بمفاخر ملحمة الكفاح الوطني والمقاومة في سبيل الاستقلال والوحدة.

حضرات السادة

تأتي هذه الندوة في جملة المبادرات العديدة التي تقوم بها المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير وخاصة في الميدان الثقافي والفكري للتعريف بملحمة كفاح العرش والشعب من أجل استرجاع حرية البلاد وإعادة إقرار سيادتها.

ويجدر بنا التأكيد في هذا المقام على الدرر الثمينة التي ما فتئ صاحب الجلالة يضمنها توجيهاته الحكيمة وتحفل بها خطب جلالته وكلماته السامية إبرازا لضرورة الاعتزاز بأمجادنا التاريخية والتشبع بقيمنا ومعانيها والائتمان عليها وتلقينها للخلف، ومن ذلك ما قاله حفظه الله في الخطاب الافتتاحي للمؤتمر التأسيسي لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير «واعلموا إخواني ان عليكم رسالة مقدسة وعليكم واجبا مقدسا، ألا وأن تكونوا بمثابة الكتب الحية الناطقة لملحمة لم يكتب عنها إلا القليل، ألا وهي ملحمة الاستقلال، ملحمة شعب تضرع وأن تحت الاستعمار ما يزيد عن أربعين سنة، لا قوة له ولا حول إلا إيمانه وعزيمته، المستعمر بيده كل شيء، المال والجيش، والشرطة والوسائل، والمغاربة لا وسيلة لهم إلا الالتحام الوثيق بين ملك ضحى ووفى ما عاهد الله عليه، وبين شعب كان وفيا لملكه ومشى في طريق العز ومشى في ركاب الفخار، وإن أبناءنا وأبناء أبنائنا ليجهلون هذا كله، وليسوا مسؤولين، بل نحن المسؤولون كتبنا المدرسية خالية من هذا، كلياتنا لا تدرس هذا، معالمنا، حتى في الطريق، ليس لها ما يدل على هذا. فعساكم أن تسدوا هذا الفراغ، وأرجوكم أن تسدوا هذا الفراغ، فتكون أسرتي هذه بمثابة كتاب ناطق، كتاب حي في جميع البيوت، في جميع المجتمعات، في الأندية، في كل مكان، حتى يعرفوا ان هذا الاستقلال لم يأت سهلا ولم يأت عبثا ولم يأت صدفة ولكن جاء بعد سنين مريرة من التضحية والكفاح» انتهى كلام صاحب الجلالة.

وانطلاقا من هذه التوجيهات الملكية الحكيمة قامت المندوبية السامية لقدماء المقاومين واعضاء جيش التحرير بعمل متواصل يهدف إلى العناية بالجانب التاريخي

لحركة المقاومة المغربية لإبراز ما ينطوي عليه من دلالات وأبعاد بإحياء الذكريات الوطنية وتدوين بعض الأحداث البارزة وإصدار منشورات وإقامة معالم تذكارية وإطلاق تسميات لها ارتباط بحركة المقاومة على الشوارع والساحات العمومية والمؤسسات والمرافق الاجتماعية، وتجميع الوثائق التي لها ارتباط بالمقاومة والتحرير وتنظيم محاضرات والمشاركة في التظاهرات الثقافية وانشاء متحف وطني للمقاومة.

أيها الحضور الكريم

إن لقاءنا الآن في هذه الندوة العلمية الحافلة يؤكد العزم على السير قدما في هذا الطريق، طريق الاعتزاز بالمفاخر والأمجاد والمكرمات التي يزخر بها تاريخنا الذي هو أعز ممتلكاتنا كما وصفه صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله في خطاب 20 غشت 1986 وهو الحامي من كل زيغ عن الطريق القويم.

وقد قال حفظه الله في هذا المعنى وهو يستقبل ممثلي رجال التعليم العالي والبحث العلمي «يتعين عليكم دائما وأبدا ان تكونوا قبل كل شيء متضلعين ولو إجمالا في تاريخ بلدكم، وعليكم دائما ان تملحوا دروسكم التقنية والتكنولوجية والأدبية وغيرها بالتاريخ ومعالم التاريخ فمن كان له تاريخ مثل تاريخ المغرب ومن عرفه حق المعرفة لا يمكنه ان يخرج عن الطريق أو يزيغ عن السبيل وعن الصراط المستقيم، فالتاريخ هو مرجع والتاريخ هو حافزنا ودافعنا..» «انتهى كلام صاحب الجلالة».

إن كتابة تاريخ المقاومة المغربية كتابة نزيهة سليمة لمن الاهداف النبيلة المثلى التي نسعى جميعا لبلوغها مؤرخين وأساتذة ومقاومين ومهتمين حتى تكون كتابة تاريخنا كتابة واقية وموضوعية بأقلام مغربية وغيرة وطنية صادقة ولعل هذا ما تمثله هذه الندوات التي تعتبر فرصة ثمينة يلتقي فيها صانعوا الاحداث مع المفكرين والمحللين والباحثين صيانة للحقائق والشهادات الحية الناطقة ومن أجل تصحيح ما كتب بأقلام الأجانب وما ألحقوه بهذا التاريخ المجيد من ملابسات وتمويهات، وهذا ما

أشغالها على الفترة الممتدة من العهد العزيزي الى سنة 1912 ، وكذا الجامعة الشتوية بيفرن التي تناوُلت بالدرس إسهامات الأجيال عبر التاريخ في بناء المغرب العربي الكبير

حضرات السادة

إن مما يضفي على هذه الندوة مزيدا من الأهمية هو اقترانها باحتفالات الشعب المغربي بالذكرى السادسة عشر للمسيرة الحسنية الخضراء وبأعياد الإستقلال ثم بالفترة الحاسمة التي يجتازها المغرب في طريق استكمال وحدتنا الترابية، هذه الوحدة التي تبرز من جديد متانة الإلتحام الذي يربط الشعب المغربي بالعرش العلوي المنيف، وتستعيد فيها أسرة المقاومة وجيش التحرير ذكريات الكفاح الذي خاضته بقيادة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه ورفيقه ووارث سره جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله من أجل الاستقلال، واستمرارية دورها في معركة الوحدة والحفاظ على المقدسات العليا للوطن، وتؤكد من خلالها تجندها الدائم وراء عاهل البلاد وموحدها في المسيرات التي يقودها من أجل عزة المغرب وسؤدده وتقدمه وازدهاره.

إن اختيار شعار ندوتنا هاته، «إلتحام وثيق من أجل الدفاع عن الوحدة الترابية» ليجسد إمتدادا لثورة الملك والشعب ومواصلة لملاحمها الخالدة، هذه الملاحم التي تميز تاريخ المغرب منذ أقدم العصور والتي تتجلى حاليا في التعبئة الشاملة التي يعيشها الشعب المغربي من طنجة إلى الكويرة تعبيرا عن تمسكه بوحدته الترابية وتعلقه بمقدساته الدينية والوطنية ووفائه الدائم لميثاق البيعة والتي لن يزيدها الإستفتاء المزمع تنظيمه بالأقاليم الصحراوية إلا تأكيدا ورسوخا، هذا الاستفتاء التأكيدي الذي ما هو في الحقيقة إلا إحقاق للحق وإزهاق للباطل، وسنتعرف في هذه الندوة من خلال المرحلة التي تتناولها من 1904 إلى 1955 على العديد من الأحداث التي تمثل نماذج من صور هذا التلاحم الوثيق والارتباط المتين بين القمة والقاعدة وخاصة نضالات القبائل الصحراوية لتأكيد مغربيتها وارتباطها بالوطن الأب.

وغني عن البيان ما تكتسيه هذه الندوة من أهمية كبرى لما تشتمل عليه من محاور أساسية وكذا للعروض والمداخلات التي تحيط بمجمل هذه المرحلة، ومن هذه

المحاور ما يتناول جذور المقاومة المغربية من الشمال إلى الصحراء، ثم المقاومة المغربية بين عقد الحماية وسنة 1936، والنضال السياسي للحركة الوطنية المغربية، ثم شهادات حية لنضالات بعض رجال جيش التحرير في الصحراء المغربية، والمقاومة المسلحة في الخمسينات، ومقاومة الصحراء المغربية للاستعمار. ومما يبرز هذه الأهمية إستقطاب هذه الندوة لأزيد من أربعين استاذا من مختلف الجامعات المغربية متشبعين بروح البحث العلمي والتقصي الجاد، ومن أبناء الصحراء العزيزة، والمشاركة المتميزة لرجال المقاومة وجيش التحرير والطلبة في أشغال هذه الندوة.

حضرات السادة

لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل والثناء العاطر الى كل الذين ساهموا في تنظيم هذا اللقاء العلمي، والى كافة المشاركين من أساتذة وطلبة ومقاومين وأعضاء جيش التحرير آملا ان تحقق هذه الندوة أهدافها النبيلة خدمة لتاريخنا وللثقافة المغربية وللبحث العلمي الرصين.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة السيد مصطفى الدخيسي
عميـد جامعة ابـن زهـر بأكـاديـر

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم أكادير

السيد المندوب السامي

السيد رئيس المجلس البلدي

السيد رئيس المجلس الإقليمي

السادة النواب المحترمون

السادة رؤساء المؤسسات الجامعية والأساتذة الأجلاء

أيها الحضور الكريم

يشرفني بإسم جامعة ابن زهر بأكادير ان أبارك افتتاح هذه الندوة العلمية المنظمة بتعاون بين المندوبية السامية لقدماد المقاومين وأعضاء جيش التحرير وكلية الآداب والعلوم الانسانية بأكادير، إن تنظيم هذه التظاهرة في هذا الوقت بالذات ليكتسي صبغة وطنية خاصة، فهي تعقد والمغرب يحتفل من شماله إلى صحرائه بالذكرى السادسة عشرة لانطلاق المسيرة الخضراء المظفرة وفي ظرف يستعد فيه مواطنونا بالاقاليم الجنوبية لتأكيد مغربية صحرائهم، ويطيب لي بالمناسبة أن انوه بالهيآت التي أخذت هذه المبادرة وهيأت لها الظروف لانجاحها وأخص بالذكر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير وكذا كلية الآداب والعلوم الانسانية بأكادير وهي بادرة طيبة ستعمل على توطيد الثقة في النتائج التي ستحققها هذه الندوة لإثراء البحث العلمي في ميدان الدراسات التاريخية حول المقاومة المغربية.

إن تنظيم ندوة علمية حول تاريخ المقاومة المغربية ليس بالشيء الهين، وهذا الامر

يرجع في الواقع الى عدة أسباب، منها أن العديد من الوثائق والمذكرات والشهادات المتعلقة بتلك المرحلة لم ينشر بعد، وحتى الذي ظهر منها لم يصدر إلا في السنين الأخيرة ونتيجة لذلك فإن الخوض في الموضوع يتطلب الكثير من الحيطة والصرامة العلمية ولكن مع ذلك تمكنت اللجنة العلمية من تجميع ما يقارب من 35 مداخلة تغطي في معظمها أهم مراحل صراع الامة المغربية ضد الاستعمار والعديد من المناطق الجغرافية التي احتدم فيها هذا الصراع.

فشكرا للجنة العلمية التي سهرت على ملاحقة هذا الملف بكل تفاصيله كما أتوجه بالشكر الجزيل الى السادة الاساتذة الاجلاء الذين استجابوا للدعوة الموجهة إليهم رغم بعد المسافة وكثرة الالتزامات.

إذا كان الحديث عن تاريخ المقاومة المغربية يبرره الطموح العلمي بالدرجة الأولى، فإنه يشكل مناسبة لنا في الجامعة لاستحضار بطولات الماضي وأمجاده وأية أمجاد هذه التي نتعرض لها في هذه الندوة العلمية وهي التي تربط جزءا من ماضينا الغني بالملاحم بحاضرنا الذي نخوض فيه معركة الحسم، معركة الوحدة الترابية.

فبالامس قاوم المغرب ضد الاستعمار وقد تعاظمت حدة هذه المقاومة عندما أقدم المعمرون على نفي رمز السيادة الوطنية جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه وولي عهده آنذاك رفيقه في الكفاح الامير مولاي الحسن وأفراد العائلة الملكية الكريمة، وبفضل التحام العرش في معركة واحدة لم يكن بدا من الاستعمار إلا أن يرضخ لمطالب المغرب، فعاد الملك الشرعي الى وطنه منتصرا ليعلن لشعبه عن بزوغ عهد الحرية والاستقلال، وها نحن اليوم نخوض معركة استكمال الوحدة الترابية بقيادة جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وبذلك تكون مقاومتنا صراعا مستميتا من أجل الاستقلال والسيادة وضد التجزئة والانفصال.

أيها السادة الافاضل

إن آمالنا عريضة في أن تحقق هذه التظاهرة العلمية الاهداف المتوخاة منها وأن تتمخض عنها النتائج المرغوب فيها بحول الله وقوته.

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أنوه بجهود الهيآت المساهمة بما تم تقديمه من عون ودعم لاقامة هذه التظاهرة وأخص بالذكر المندوبية السامية للمقاومة وأعضاء جيش التحرير والمجلس البلدي وأطر كلية الآداب والعلوم الانسانية بأكادير

وفقنا الله لما فيه خير جامعتنا في ظل موحد البلاد جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأقر عينه بولي عهده الأمير سيدي محمد وصنوه الجليل الأمير المولى رشيد وسائر أفراد الأسرة الملكية الكريمة إنه سميع مجيب.

كلمة السيد حسن بنحليمة
قيدوم كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسول الله

سعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم أكادير
السيد عميد جامعة ابن زهر
السيد المندوب السامي لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير
السيد رئيس المجلس البلدي
السيد رئيس المجلس الاقليمي
السادة النواب المحترمون
السادة رؤساء المؤسسات الجامعية، زملائي الأساتذة الاجلاء
أيها الحضور الكريم

يسعدني ويشرفني بإسم كلية الآداب والعلوم الانسانية التابعة لجامعة ابن زهر بأكادير ان ارحب بكم في حفل افتتاح هذه الندوة العلمية حول تاريخ المقاومة المغربية ضد الاستعمار المنظمة بتعاون بين المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير وكليتنا.

كما يطيب لي أن أتقدم بعبارة التحية الى ضيوفنا الاساتذة الأجلاء وكل المقاومين الذين رحلوا الى مدينة أكادير للمساهمة بأبحاثهم وشهادتهم في هذا الملتقى العلمي الهام، وإن تنظيم هذه التظاهرة في هذا الشهر وفي هذا الظرف بالذات ليكتسي أكثر من دلالة، فشهر نونبر في تاريخنا الوطني المعاصر يقترن بأحداث

وطنية بالغة الأهمية بالنسبة لمصير الأمة المغربية فهو يرمز الى المقاومة والإستقلال والوحدة. فمن حسن الطالع أن يتم هذا الملتقى والشعب المغربي يحتفل بالذكرى السادسة عشرة لانطلاق المسيرة الخضراء المظفرة التي مكنت المغرب من استرجاع أقاليمه الجنوبية بصفة نهائية.

كما أنه في مثل هذا الشهر من سنة 1955 وبالضبط يوم 16 نونبر عاد إلى أرض الوطن من المنفى السحيق رمز السيادة الوطنية المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه محفوفا بولي عهده آنذاك، رفيقه في الكفاح الأمير مولاي الحسن والاسرة الملكية الكريمة، وذلك على إثر المقاومة البطولية التي خاضها الشعب المغربي من أجل عودة ملكه الشرعي رمز كيانه وسيادته. كما أن هذا الشهر عرف حدثا لا يقل أهمية وهو الاعلان عن استقلال المغرب وذلك يوم 18 نونبر من نفس السنة.

ونحن بصدد الحديث عن المقاومة كيف ننس أن يومه الاربعاء 13 نونبر يصادف إحياء الذكرى 77 لمعركة الهري بمنطقة زيان التي قادها البطل موحى أوحمو الزياني ضد الاستعمار الفرنسي والتي كبد فيها العدو خسائر فادحة، وكيف ننسى أن يوم 23 نونبر 1957 على مقربة منا في اتجاه الجنوب خاضت قبائل أيت باعمران معارك ضارية ضد الاستعمار الاسباني من أجل التحرير والوحدة، وهي القبائل التي كافحت طيلة عشرات السنين في واجهتين ضد الاستعمار الفرنسي شمالا وضد الاستعمار الاسباني جنوبا حتى تخوم الصحراء.

إن وقوفنا على هذه الاحداث الوطنية الهامة في هذه العجالة يوضح لنا بالملموس كيف أن المغرب كان رافضا لأي شكل من أشكال الغزو الأجنبي وكيف أنه هب للدفاع عن وجوده وكيانه وأبدع شتى أشكال المقاومة من أجل صيانة وحدته ومقوماته.

ومن أجل تسليط الأضواء على جوانب من هذا الكفاح البطولي والخوض في خباياه، جاءت بادرة تنظيم هذه الندوة العلمية الهامة وإن الوقوف على معالم هذا الكفاح وتحليله في ضوء مناهج البحث العلمي لهو الشرط الأول لمعرفة أصالتنا

المغربية الرافضة لكل أشكال الغزو الأجنبي والتجزئة، وهكذا ستتوزع أعمال هذه الندوة على عدد من المحاور تحاول كلها التعمق في البحث عن جذور هذه المقاومة وسبر مختلف جوانبها.

ولابد من الاشارة هنا الى أن الفضل في عقد هذه التظاهرة يرجع أولا إلى المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير التي اقترحت المشروع وثانيا الى شعبة التاريخ بمؤسستنا، والتي تحمست للموضوع ولاحقت كل مراحله ما يقارب من سنة ونصف، وهكذا جاء البرنامج كما تلاحظون غنيا بالأبحاث والدراسات الشيء الذي يؤكد التعدد المنهجي الذي سيطبع هذه الندوة.

وإننا لنعد بنشر كل الابحاث التي سيقدمها السادة الاساتذة المشاركون في هذا الملتقى لتعميم الاطلاع عليه، كما نأمل عقد ملتقيات أخرى في نفس الموضوع، سعيا وراء ارتقاء علمي أفضل.

وأخيرا اسمحوا لي ان أنوه بخصال التعاون التي حفزت كل الذين ساعدوا على تنظيم هذه التظاهرة، فأشكر أولا السادة الاساتذة الباحثين الذين لبوا دعوتنا للحضور في هذه الندوة، كما أشكر سلطات إقليم أكادير وعلى رأسها سعادة عامل صاحب الجلالة على رعايته لكل أنشطتنا، كما أشكر السيد عميد جامعتنا على ما أحاط به هذه التظاهرة من تشجيع واهتمام، كما أشكر كل الجهات التي دعمت ماديا هذه الندوة العلمية وأخص بالذكر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير في شخص مندوبها السامي ومندوبها الاقليمي وكذا السيد رئيس المجلس البلدي لمدينة أكادير، كما لا يفوتني أن أنوه بالجهود المضنية التي بذلتها شعبة التاريخ وبالخصوص لجنتها العلمية وكذا اللجنة الثقافية التابعة للكلية.

وفقنا الله لما فيه خير بلدنا في ظل موحد البلاد جلالة الملك الحسن الثاني وأقر عينه بولي عهده الأمير سيدي محمد وصنوه الجليل الامير مولاي رشيد وسائر أفراد الاسرة الملكية الكريمة إنه سميع مجيب.

كلمة السيد محمد المغراوي
عن اللجنة المنظمة

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المندوب السامي لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير
السيد عامل إقليم أكادير
السيد عميد جامعة ابن زهر
السيد قيدوم كلية الآداب
السادة الأساتذة المحترمون
أيها السادة والسيدات

تميز تاريخ المغرب بأنه تاريخ شعب مكافح رافض لجميع أشكال الاحتلال والتجزئة منذ أقدم العصور.

وانطلاقا من حرص المغاربة على سيادتهم، فإنهم لم يتوانوا في التصدي للهجمة الإمبريالية التي تعرضت لها البلاد، مستهدفة تقسيمها إلى مناطق حماية خاضعة لدولتين، وتفتيت هياكل الدولة المغربية. وهكذا وعلى مدى نصف قرن تقريبا من الحضور الاستعماري فإن المقاومة المغربية لم تخمد، حيث تجند الشعب المغربي بمختلف فئاته للكفاح ضد المستعمر مستعملا شتى الوسائل التي يملكها. وقد أبدع في مسيرته النضالية هذه، صورا وأشكالا جديدة من المقاومة أصبحت مثار الإعجاب.

ولتوضيح معالم هذا الكفاح تجتمع اليوم ثلة من الباحثين والمختصين للكشف عن خبايا المقاومة المغربية الغنية بالملاحم والبطولات والمفعمة بصور التضحية والفداء من أجل استقلال البلاد وحفظ وحدتها وذلك من خلال مجموعة من الجلسات يستقرئ خلالها المشاركون جوانب متعددة من تاريخ مقاومة الشعب المغربي، ويستنطقون كميات من الوثائق المغربية والأجنبية، ويبرزون إلى السطح ما ظل لمدة طويلة دفين ذاكرة المقاومين أو وثائق عهد الكفاح. لذلك فإن هذه الندوة تطمح إلى أن تقوم بتغطية لنشأة وتطور المقاومة المغربية منذ بداية التحرش الأجنبي بالمغرب إلى سنة 1955 وهي السنة التي عرفت تأجج نضالات خلايا المقاومة وكتائب جيش التحرير في سبيل إرغام أداة الاحتلال على الرضوخ لآمال الشعب المغربي في الحرية والاستقلال.

وستغطي أشغال الندوة مجموعة من المحاور تعالج مداخلاتها جذور المقاومة في كل ربوع الوطن من الشمال إلى الصحراء، لتؤكد بالدلائل العلمية أن وحدة المغرب الترابية لم تكن في يوم من الأيام مثار أي نقاش بين المغاربة، رغم ما بذله المستعمر من زرع لبذور التفرقة. كما ستتناول عروض أخرى تطور المقاومة المغربية ابتداء من سنة 1912 الى أواسط الثلاثينات حيث عرف النضال المغربي نقله من الجهاد المسلح الى العمل السياسي، والذي أعطى للعمل الوطني نفسا وطابعا جديدين تغلبا على الشعور الذي تركه إخماد المقاومة المسلحة في نفوس المغاربة.

وستركز بعض المداخلات على تاريخ النضال السياسي للحركة الوطنية وما أفرزه من هياكل وأشكال نضالية في جميع المناطق المغربية بادلت القمع الاستعماري بمواقف بطولية نادرة. كما ستعالج مجموعة من المداخلات نشأة وتطور المقاومة المسلحة في الخمسينات وما ترتب عنها من إرباك للمحتل وإفساد لخططاته، وإرغامه على مغادرة البلاد.

وقد حظيت المقاومة في الصحراء المغربية في برنامج الندوة بعدة مداخلات تهم مختلف جوانب هذه المقاومة وتركز على تشبث نضال المغاربة في الصحراء بوحدة الوطن ومحاربة سياسة التجزئة الاستعمارية في جميع المراحل.

وستكون هذه الندوة فرصة للباحثين والمتتبعين للاستماع إلى شهادات حية يقدمها عدد من المقاومين وأعضاء جيش التحرير خاصة من الذين حازوا شرف الجهاد في الأقاليم الصحراوية إلى ما بعد استقلال الأقاليم الشمالية.

إن هذه الندوة التي لم تكن لترى النور لولا الجهود المخلصة التي بذلت على مستوى كلية الآداب والعلوم الانسانية بأكادير وعلى مستوى المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير

وبمناسبة انطلاق اشغال هذا اللقاء العلمي لا يفوت اللجنة المنظمة أن تتقدم بشكرها الجزيل للسيد قيدوم كلية الآداب والعلوم الانسانية الأستاذ حسن بنحليمة على سهره ومتابعته لجميع أطوار الإعداد والتهييئ، وللسيد عميد جامعة ابن زهر وللسادة الأساتذة في شعبة التاريخ وفي اللجنة الثقافية للكلية ومن آزرهم من إداريي وأعوان الكلية.

كما يسعد اللجنة المنظمة أن تتقدم بعبارات الشكر إلى السيد المندوب السامي لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير على اهتمامه الخاص بهذه الندوة منذ الشروع في تحضيرها، وكذا للنائب الإقليمي باكادير وتارودانت السيد عبد الواحد مهني على متابعته لهذا الملف مع اللجنة المنظمة بشكل مستمر، وكذا لأطر النيابة الإقليمية باكادير والشكر الجزيل أيضا لكل من ساهم ويساهم في انجاح أعمال هذه الندوة بشكل من الأشكال خاصة الأساتذة الباحثين الذين ضحوا براحتهم ووقتهم من أجل تقديم هذه الندوة في مستوى علمي مشرف.

واللجنة المنظمة إذ ترحب بجمهور المتتبعين من باحثين ومثقفين وطلبة ومقاومين، فإنها تشكر الجميع على مؤازرتهم وتشجيعهم. وأملنا ان تتكرر الفرص للقاء من أجل مدارسة جوانب أخرى من ملحمة المقاومة المغربية.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

المحور الأول

جذور المقاومة المغربية
من الشمال إلى الصحراء

معالم الكفاح الوطني والمقاومة في سبيل الاستقلال والوحدة

محمد بن جلون
المندوب السامي لقدماء المقاومين
وأعضاء جيش التحرير

في بداية هذا العرض الذي يندرج كمساهمة متواضعة من المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير في أشغال هذه الندوة التاريخية التي ترتكز محاورها على جوانب هامة من تاريخنا المعاصر من شمال المغرب إلى تخوم صحرائه والتي تنعقد تحت شعار عظيم المعنى والدلالة ألا وهو التحام وثيق من أجل الدفاع عن الوحدة الترابية بمشاركة أساتذة جامعيين وأساتذة أفاضل من أبناء صحرائنا العزيزة، لابد من التأكيد على أن حافزنا في ذلك هو الحرص على الإسهام إبرازا لمدى اهتمام هذه الإدارة بسجل تاريخنا المجيد واعتزاز أسرة المقاومة والتحرير به. ويتخوخى هذا العرض تقديم لمحات موجزة عن أهم المحطات والمعالم التي تشكل المسيرة التاريخية خلال المرحلة الهامة التي تتناولها الندوة، هذه المحطات والمعالم التي يوجد بيننا متخصصون وباحثون كتبوا عنها بتفصيل شاف وبإحاطة علمية شاملة. حيث تفرغ الأساتذة المحترمون كل في ميدانه ومجال بحثه ودراسته إلى التركيز والدقة في الرواية والتحليل والإتيان بالجديد من الوثائق والحقائق، فلكم جميعا كامل التقدير وعظيم التكريم، وأرجو تقبل هذا العرض ليس باعتباره صادرا عن أهل اختصاص ولكن لكونه ينم عن غيرة وطنية واهتمام بتراثنا التاريخي والحضاري.

والرجاء معقود على الأساتذة الباحثين الذين برزت بوضوح خلال السنين الاخيرة اسهاماتهم لخلق نهضة علمية في مجال البحث الجاد في مختلف العلوم الانسانية لمواصلة جهودهم المثمرة وخصوصا للكتابة والتأليف فيما لا يزال مطروحا على الباحثين القيام به لإيلاء تاريخنا في الماضي البعيد والقريب ما هو جدير به من مكانة

وعناية. وإذا تأملنا محاور ندوتنا هاته وهي محاور لا تخفى أهميتها، فان ارتباطها بالحاضر وتأثيرها فيه واضح بجلاء، والدعوة موجهة إلى جميع الأساتذة والباحثين من أجل ابراز صفحات أخرى من سجل ملحمة تحرر المغرب ووحدته، وأخص بالاشارة ما يلي هذه المرحلة التي تركز عليها الندوة، وهي الصفحات المرتبطة باستكمال الاستقلال وبملحمة الدفاع عن الوحدة الترابية خدمة لتاريخنا ولوطننا ومساهمة في ابراز امجادنا وملاحمنا.

اقترح ان أقسم هذا العرض الذي يحمل عنوان «معالم من الكفاح الوطني والمقاومة في سبيل الاستقلال والوحدة» الى ثلاثة محاور أساسية

- محور أول نعرض فيه للمقاومة المسلحة التي شهدتها مختلف مناطق المغرب، في شماله وجنوبه وخصوصا بعد عقد اتفاقية الحماية.

- محور ثان ونتحدث فيه عن يقظة الوعي الوطني ومظاهر العمل السياسي المنظم الذي قادته الحركة الوطنية المغربية.

- محور ثالث وأخير نختم فيه بثورة الملك والشعب التي كانت بمثابة تتويج للعاملين المذكورين والتي جمعت في آن واحد بين الكفاح الوطني المقاومة وبطولات جيش التحرير.

المحور الأول المقاومة المسلحة

يتفق مختلف المؤرخين على ان اتفاقية عقد الحماية المبرمة بتاريخ 30 مارس 1912 كانت بمثابة احكام لبدايات التدخل الفرنسي في شؤون المغرب الذي اتخذ عدة أشكال مثل الاتفاقيات والمعاهدات غير المتكافئةوالحمايات القنصلية والضغوط الاقتصادية وغيرها.

وهكذا عرف المغرب منذ بداية هذا القرن عدة حركات وتمردات استهدفت النضال ضد مختلف اوجه التدخل الاجنبي، فمنذ 1907 بدأت قبائل الشاوية والقبائل المجاورة لها تعبر من خلال جهادها ومن خلال المعارك الدموية التي خاضتها ما يقارب السنة عن رفضها لكل دخيل أجنبي. كما شهدت مدينة فاس من جهتها، ومباشرة بعد عقد الحماية ثورة عارمة خلال شهر أبريل 1912 وهي الثورة المعروفة بأيام فاس الدامية. وأمام هذا المد الشعبي حاولت فرنسا ان تصبغ على تدخلها صبغة قانونية وشرعية تحت غطاء الاتفاقيات الدولية وخاصة منها ميثاق الجزيرة الخضراء لسنة 1906، كما حاولت ان يكون هذا التدخل تدريجيا مع العمل على اسغلال التنظيمات القبلية في تفكيك وحدة الجهاد المغربي الذي بدأت تزداد

حدته .

وعلى الرغم من كل هذه التحايلات الاستعمارية، واصل الشعب المغربي ثورته العارمة، حيث شهدت منطقة الاطلس المتوسط خلال سنة 1913 اعنف المعارك بقيادة البطل الشهيد موحى أوحمو الزياني الذي بايع السلطان مولاي الحسن الأول سنة 1887 وتسلم منه ظهير تعيينه قائدا على قبائل زيان. ولقد خاض هذا المجاهد البطل معارك عنيفة اشهرها معركة الهري الخالدة التي انهزمت فيها قوات الاستعمار الفرنسي بخططها العسكرية وتجهيزاتها الحديثة.

وبالتزام مع مختلف الاحداث المذكورة، لم يبق الجنوب المغربي بمنأى عن هذه الانتفاضة الشاملة، ففي غشت 1912 ناصرت قبائل سوس والصحراء الشيخ احمد الهيبة مجاهداً، وعلى اثر ذلك زحف المجاهدون نحو الشمال فدخلوا مراكش في نفس الشهر دون ان يتمكن المستعمر والمتعاونون معه من صد موجة الهجومات المتدفقة، غير أنه بعد معركة سيدي بوعثمان في أواخر 1912 يقرر المجاهد احمد الهيبة الانسحاب من مراكش والتركز بتارودانت ثم الاطلس الصغير وظل يتزعم الجهاد الى حين وفاته سنة 1919.

ونستحضر باعتزاز كبير ان الصحراء المغربية منذ بداية التكالب الاستعماري على المغرب لم تهدأ ثائرتها، وقد كان الملوك العلويون يدعمون حركة الجهاد بهذه المناطق العزيزة ويمدونها بالدخيرة والسلاح والمؤن، وفي هذا المجال يمكن أن نذكر امدادات المولى عبد العزيز للوليين الصالحين المجاهدين الشيخ سيدي أحمد العروسي والشيخ الكامل سيدي أحمد الرقيبي اللذين أبانا عن استماتة كبيرة في الدفاع عن وحدة الوطن وحوزته، كما نذكر الدعوة للجهاد بالصحراء التي أعلن عنها السلطان مولاي عبد الحفيظ، ومواقف أبناء الصحراء الذين كانوا على الدوام متمسكين بوطنيتهم ومغربيتهم أوفياء لبيعتهم التي ورثوها عن أجدادهم في المؤتمر الذي عقدوه سنة 1906 وأوفدوا على إثره ممثلين إلى مراكش لتجديد الولاء وتعزيز حركة الجهاد، ولا ننسى كذلك ما قام به المجاهد محمد الأغضف من أعمال خالدة في مواجهة الغزو وغيره من أبناء القبائل الصحراوية الأشاوس. وسيقوم اخواننا المحاضرون من أبناء الصحراء خلال مختلف جلسات هذه الندوة بالإفادة الشاملة والإحاطة الكاملة بجهاد القبائل الصحراوية وكفاحها الخالد.

ومن جهة أخرى أصيب المستعمرون بتصدع مماثل في تافيلالت على يد المجاهد بلقاسم النكادي الذي وقف سدا حصينا ضد الدخول الاستعماري إلى تافلالت وذلك إلى غاية سنة 1930 حيث شن الإستعمار الفرنسي هجوما كبيرا علي المنطقة

التي لم يتمكن من احتلالها إلا في سنة 1933 عندما انسحب المجاهدون إلى جبال أيت عطا.

وأمام الاحتلال الاستعماري لوادي درعة ودادس والمنخفض الفاصل بين الأطلس الكبير وجبل صاغرو خلال أعوام 1931/1929 تمكن المستعمر من محاصرة المجاهدين في جبل صاغرو الذي شهد معارك طاحنة أشهرها معركة بوكافر بقيادة المجاهد عسو باسلام التي أبان فيها المغاربة عن خبرة وعزم وصمود أذهل ضباط الاستعمار الفرنسي وجنوده.

ومن جهة أخرى فقد ظل الريفيون يواجهون توسع الإسبان ومناوشاتهم في مدينتي مليلية وسبتة طيلة القرن 19 وعندما حاول الإسبان سنة 1909 توسيع مناطق نفوذهم واحتلال منطقة مناجم الحديد قرب سلوان بالناظور، واجههم المجاهد محمد أمزيان وكبدهم خسائر فادحة، وعند نزولهم سنة 1911 بمدينة العرائش واحتلالهم شفشاون سنة 1913 عمدوا بسبب ظروف الحرب العالمية الأولى، إلى التعاون مع قبائل جبالة. وبانتهاء هذه الحرب تدخل منطقة الريف تاريخ المغرب الجهادي من بابه الواسع، إذ تعتبر حرب الريف التي قادها محمد عبد الكريم الخطابي من أهم الثورات التي عرفها تاريخ المغرب الحديث.

المحور الثاني النضال السياسي

في الوقت الذي كانت فيه الثورات التحررية المذكورة تشتعل في كل ربوع المغرب، كان العلماء في الحواضر يقومون بنشر الوعي الوطني معتمدين الحركة السلفية التي كانت بمثابة مقدمة للنضال السياسي الذي دشن بداياته بعد الظهير البربري بتاريخ 16 مايو 1930 والذي كان من بين أسباب تبلور الوطنية المغربية المنظمة تحت لواء كتلة العمل الوطني أولا ليتبلور لاحقا في صيغ أخرى أكثر تقدما.

كان هذا الحدث إذن نقطة تحول نوعي في تاريخ الحركة الوطنية المغربية حيث تم إثراء المسار الوطني الذي كان لحد هذا التاريخ يعتمد على المقاومة المسلحة، والاتصالات السرية، وهكذا تم الكشف عن الأسلوب السياسي الذي ينبغي للمغرب أن يتبعه بتجاوز مع أساليب أخرى ممكنة لتحقيق الاستقلال ولم يعد هناك تردد أو تحفظ في تنظيم مسيرات احتجاج على السياسة الفرنسية في المغرب التي لايسعى من خلالها إلا إلى تكريس مصالح المعمرين. وهنا يجب تأكيد تحول النظام الدولي للمغرب من حماية هدفها المساعدة على الإصلاح إلى استعمار قائم على الإدارة المباشرة لاستغلال الثروات الوطنية، في ظل هذا الشعور ترعرعت فكرة تبني

أساليب حديثة للتنظيم قصد إنجاح الحركة السياسية التي تقود البلاد تحت المظلة الملكية نحو استقلال يضمن حقوق الأفراد والجماعات التي أهدرتها السياسة الاستعمارية المدشنة بمخططات ليوطي، هذا الضابط السياسي الذي أخفى وراء وظيفته كمقيم عام أسلوبا خطيرا لتقسيم المغرب وتفتيت وحدة الأمة بالإقدام علي تدبير مؤامرة لم تصمد لوقت طويل.

لقد شهدت الحركة الوطنية الحديثة ميلادها بخلق الوطنيين المغاربة لعادة جديدة متمثلة في الاحتفال بعيد العرش تخليدا لذكرى البيعة وتجديدا لها، ويوم 18 نونبر 1933 مشهود به في مسار الحركة الاستقلالية.

إن هذه هي البداية للمسيرة الجديدة وليست خاتمتها. فقد فاجأ الشبان المغاربة بعد ذلك في يوم فاتح دجنبر 1934 الرأي العام المغاربي والفرنسي والإقامة العامة بتقديمهم لدفتر مطالب الشعب المغرب التي لا تنحصر في مطالب اقتصادية واجتماعية، بل تعدت ذلك إلى مطالب سياسية وثقافية، مما يدل على أن هذه المطالب لم تكن لحماية حقوق الأفراد والجماعات وحسب، بل هي أساسا اندفاع معقلن لحماية الهوية الوطنية وصيانتها بالمطالبة بالإنصاف في سياسة تعليمية فعالة واشراك المواطنين في صناعة القرار.

كانت هذه المبادرة منبع الخلية الوطنية المدعوة بكتلة العمل الوطني التي قادت صراعا مريرا ضد الإقامة العامة. ولم تكن إجراءات الجنرال نوكيس الذي عين بهدف إنهاء الغليان السياسي بقادرة على ردع هذا التيار وما يجسده من مطالب بما فيها المطالب المستعجلة التي قدمت سنة 1936 وهي اقتصادية واجتماعية في جوهرها.

لم يستطع الجنرال نوكيس الصمود في وجه الإعصار، بالرغم من إجراءات النفي التي قام بها في حق بعض الوطنيين، وبعد انقسام كتلة العمل الوطني إلى الحزب الوطني والحركة القومية، ظل يخامره نوع من اليأس وهو يتلقى نبأ سخط الشعب المغربي الذي آلمه رد الفعل العنيف لسلطات الحماية تجاه الوطنيين الذين صنعوا أحداث انتفاضة بوفكران بمكناس وذويهم من قادة كتلة العمل الوطني.

ولقد اتضحت نوايا نوكيس العدوانية بعد الهزيمة المبكرة لفرنسا في الحرب ضد ألمانيا وصعود حكومة فيشي، فرغم النداء الذي وجهه المغفور له محمد الخامس باسم الضمير الإنساني للوقوف في وجه المد النازي، فقد امتثل المقيم العام ضدا على الإرادة الإنسانية لحكومة فيشي وتوجهاتها الخادمة للحركة النازية الممجدة

لمقولة العرق الصافي.

رفض محمد الخامس طيب الله ثراه الرحيل إلى فاس كما طلب منه ذلك الجنرال نوكيس، ففضل البقاء في الرباط وقدم الحماية المولوية لأهل الذمة الذين استهدفهم القمع النازي، وازداد، وازداد دعمه للحلفاء في إطار ضرورة تقديم كامل المساعدة ضدا على مجرمي الحرب الذين يعاملون الإنسان تبعا لاصل عرقي مصطنع. وكانت لحظة توقيع ميثاق الأطلنطي بين ونستون وتشرشل رئيس وزراء بريطانيا وفرانكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة القائم على الإيمان بحق الشعوب في تقرير مصيرها.

واستغل جلالته انعقاد مؤتمر للحلفاء بأنفا في أوائل 1943 ليطرح فكرة استقلال المغرب على روزفيلت اقتداء بميثاق الأطلنطي وهو البديل عن ميثاق عصبة الأمم بعد أن احتجبت بسبب أحداث الحرب العالمية الثانية.

ويأتي يوم 11 يناير 1944 لطرح مشروع الاستقلال بتقديم وثيقة في هذا الاتجاه إلى سلطات الحماية وممثلي بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. وهذا ما أدى بفرنسا إلى تعيين المقيم العام المدني إريك لابون سنة 1946 الذي حاول القيام بمجموعة من الإصلاحات لجعل المغاربة يتغاضون عن فكرة الاستقلال. غير أن زيارة طنجة التاريخية يوم 9 أبريل 1947 خيبت آمال المعمرين وأعطت للقضية المغربية بعدا دوليا.

لقد كانت هذه الرحلة المولوية الميمونة مليئة بالدلالات والعبر سواء في اختيار المكان والزمان أو فيما تخللها من خطب ملكية وأميرية سامية، فهي أولا تعبير عن تحد شجاع وجريء للاستعمار الذي حاول ما في وسعه أن يثني جلالة المغفور له محمد الخامس قدس الله روحه عن القيام بزيارته. وهي ثانيا تعبير صريح وواضح، كما جاء ذلك في الخطاب التاريخي الذي ميز هذه الرحلة المباركة على وحدة المغرب شماله وجنوبه، وعلى عروبة المغرب وتشبثه بالدين الاسلامي الحنيف.

وهكذا تميزت فترة ما بعد هذه الرحلة التاريخية بنوع من الجفاء في العلاقة بين القصر الملكي والاستعمار الفرنسي الذي عين الجنرال جوان مقيما عاما لمواجهة التحديات المغربية المتزايدة. واستغلت الإقامة العامة تضامن الشعب المغربي مع الشعب التونسي إثر اغتيال المناضل النقابي فرحات حشاد لتزج بالوطنيين وقادة الحركة الوطنية في غياهب السجون والمنافي.

أمام هذا التصعيد النضالي الذي ما فتئت حدته تزداد ونتيجة لرفض الاستعمار

الفرنسي لمطالب الشعب المغربي ورفض جلالة المغفور له محمد الخامس لكل مساومة وتنازل على حساب المطلب الأولي للشعب المغربي المتمثل في الاستقلال، قامت القوات الدخيلة بتطويق القصر الملكي بالرباط يوم 20 غشت 1953، ونفدت مؤامرتها الدنيئة التي كانت الشرارة الأولى لثورة الملك والشعب. وغني عن البيان ما واكب هذه المرحلة، مرحلة النضال السياسي من أحداث كبيرة شهدتها الصحراء المغربية تجلت في مناهضة القبائل الصحراوية للمؤامرات الاستعمارية الهادفة إلى التفرقة وتقسيم الصحراء، وتأكيد ارتباطهم بالوطن الأب وولائهم للعرش العلوي المجيد وتشبثهم بأهذابه.

ونذكر في هذا المقام ما لقيه خطاب المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه في 10 ابريل 1947 بمدينة طنجة من بالغ الأثر في نفوس أبناء هذه القبائل لما تضمنه من تأكيد على وحدة المغرب وانتمائه للعروبة والإسلام ومطالبته بالاستقلال وزوال رواسب الاستعمار البغيض سواء في الشمال أو الجنوب.

وقد ظلت الروح الوطنية وجذوة الجهاد ملتهبة في التحام وثيق بين أبناء القبائل الصحراوية والعرش العلوي المنيف أب الوطنية ورمز المقاومة محمد الخامس وأسرته الملكية الشريفة.

المحور الثالث   ثورة الملك والشعب.

حين أقدمت السلطات الاستعمارية يوم 20 غشت 1953 على نفي رمز الأمة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه والأسرة الملكية الشريفة اندلعت في مختلف ربوع المملكة ثورة عارمة عبر من خلالها المغاربة قاطبة شيبا وشبابا نساء ورجالا على تعلقهم المتين برمز سيادة الأمة.

فقبل أيام قليلة من نفي المغفور له محمد الخامس، وبالضبط في يوم 16 غشت 1953، انتفضت مدينة وجدة انتفاضتها الشهيرة التي أذنت بانطلاق العمل المسلح في مواجهة غطرسة المستعمر الذي دشنه الشهيد علال بن عبد الله في 11 شتنبر 1953 بعمليته الفدائية الجريئة الانفرادية التي زعزعت الوجود الفرنسي.

وهكذا انطلقت التنظيمات السرية للمقاومة المسلحة وخاصة بمدينة الدار البيضاء التي تعتبر مهدا للعمل الفدائي المسلح، وسوف يطول الحديث بنا في هذا المقام إن شئنا التفصيل في ظروف تشكيل هذه التنظيمات والخلايا السرية والتعريف بمختلف العمليات الجريئة التي قام بها مقاومون وهبوا أرواحهم فداء للعرش والوطن، ويكفي للتدليل على مدى حدة العمل الفدائي أن نذكر أمثال

الشهيد محمد الزرقطوني وحمان الفطواكي ومحمد الراضي السلاوي ومحمد الحياني ولحسن طوطو ومحمد أقلا وغيرهم كثير الذين لفظوا انفاسهم تحت مختلف أنواع التعذيب والوحشي أو تنفيذ أحكام إعدام جائرة في حقهم أو بتفضيلهم الاستشهاد الطوعي على البوح بأسرار الخلايا والتنظيمات التي ينتمون إليها.

وقد سجلت هذه الفترة من 1953 إلى غاية 1955 عمليات فدائية شهيرة عمت مختلف مناطق المغرب. ويكفي أن نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قنبلة السوق المركزي في دجنبر 1953 وحادث القطار السريع الدار البيضاء ـ الجزائر وعملية اغتيال الدكتور ابرو بالدار البيضاء وحادث مسجد بريمة بمراكش إلى غير ذلك من العمليات الفدائية التي كانت موجهة ضد مصالح الإستعمار وأهدافه، وضد دهاقنته وغلاته وعملائه. ويضاف إلى ذلك ما شهدته مدن أخرى من مظاهرات وانتفاضات عارمة مثل مظاهرة مراكش والرباط ومكناس وبني يزناسن ووادي زم وخنيفرة أبانت كلها عن التحدي الشامل للوجود الاستعماري.

وبالموازاة مع العمل الفدائي بالمدن والحواضر امتدت حركة المقاومة التحريرية إلى البوادي والقرى، في السهول والجبال، وتركزت حول تنظيماتها جموع المواطنين مجسدين رفضهم القاطع للاحتلال ومناهضتهم له بشتى الوسائل والإمكانيات، ولم تنقطع الصلات بين المجاهدين في البوادي ورفاقهم في المدن شمالا وجنوبا، وازدادت العلاقات توطدا بين المهاجرين اللاجئين بالمنطقة الخليفية وإخوانهم في باقي المناطق الخاضعة للنفوذ الفرنسي وكذا مختلف الشخصيات الوطنية المتواجدة بأوروبا والشرق العربي، وتمخضت هذه التفاعلات عن ميلاد حركة جيش التحرير المغربي الذي سيكون لانطلاقته المظفرة في مطلع شهر أكتوبر 1955 بكل من إيموزار مرموشة وبورد وأكنول وتيزي وسلي التأثير الحاسم في مجريات الأحداث وتسارع وثيرتها، مما ستضطر معه فرنسا إلى الدخول في مفاوضات مع رمز الأمة المغربية المغفور له محمد الخامس قدس الله روحه الذي عاد من منفاه السحيق صحبة الأسرة الملكية الشريفة في مثل هذا الشهر من سنة 1955 إلى وطنه وشعبه حاملا لواء الحرية والاستقلال ليزف إلى شعبه انتهاء عهد وبداية عهد جديد لبناء مغرب موحد حر كريم.

وبالمناسبة في الأقاليم الصحراوية، فخلال هذه المرحلة الحاسمة، وانطلاقا من إقدام السلطات الاستعمارية الفرنسية على نفي المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه، أعلن الصحراويون الحداد وامتنعوا عن ذبح أضاحي العيد وقاطعوا السلع

الإسبانية والمنتوجات المستوردة، رافضين مؤامرة التجنيس، متضامنين مع إخوانهم في الشمال، معارضين التعامل مع السلطات الاستعمارية متظاهرين ضدهم، يحذوهم عزم وإيمان قوي وغيرة وطنية صادقة. وبدأت الخلايا الوطنية تتنامى عبر ربوع الصحراء ناشرة قيم المحافظة على الأصالة والدفاع عن المقدسات داعية إلى الاستعداد الكامل والتأهب في سبيل التحرير وعودة المشروعية.

ولقد كانت فرحة المغرب والمغاربة وفي مقدمتهم الرعايا الصحراويون كبيرة بالعودة الميمونة لبطل التحرير المغفور له محمد الخامس من المنفى في 16 نونبر 1955 محفوفا بوارث سره ورفقيه في الجهاد جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، إذ أعلن الصحراويون ابتهاجهم بهذا النصر العظيم ورفعوا الرايات ونصبوا الخيام وأقاموا الولائم والتجمعات تحديا للاستعمار وتعبيرا عن مغربيتهم وتمسكهم بالوطن والعرش العلوي المجيد. كما قاموا بعد ذلك بإيفاد بعثات تمثل قبائل الصحراء ومناطقها لتهنئة جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه وتقديم فروض الولاء والطاعة، واستقبلهم جلالته رحمه الله ووعدهم بأن يعمل المغرب على تحرير تلك المناطق العزيزة.

تلكم حضرات السادة معالم من ملحمة الكفاح الوطني والمقاومة في سبيل الاستقلال والوحدة، هذه الملحمة التي تواصلت أطوارها بمعركة استكمال التحرير خصوصا بعد تكوين جيش التحرير بصحراء المغرب سنة 1956 والمعارك التي خاضها أبطاله بالصحراء الشرقية وأيت باعمران والساقية الحمراء ووادي الذهب، وكذا الجهود الدبلوماسية التي بذلها المغرب والتي تحقق بفضلها استرجاع طرفاية سنة 1958 وسيدي إفني سنة 1969 لتكلل هذه الصفحات الغراء بالمسيرة الخضراء المظفرة التي أبدعها محرر الصحراء وموحد البلاد جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله سنة 1975 والتي تحقق بواسطتها استرجاع الساقية الحمراء ليليها عقب ذلك استرجاع وادي الذهب سنة 1979، ويشكل كل ذلك سلسلة متواصلة الحلقات في إطار استكمال تحرير باقي الأجزاء والجيوب المغتصبة من هذا الوطن المجاهد الذي كان ولا يزال قلعة حصينة من قلاع المجد والإباء والحفاظ على القيم السامية وعلى المقدسات الغالية.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

تحديد مفهوم المقاومة
نموذج من الصحراء

مصطفى ناعمي
المعهد الجامعي البحث العلمي
الرباط

يعد تحدي مفهوم المقاومة مطبا نظريا يصعب تناوله منهجيا دون الانزلاق في تعميقات غامضة ومصادرات فكرية أو الإسفاف في مسلمات وقضايا يدركها الخاص والعام. وحتى لا نلقي الكلام على عواهنه فإننا سنحاول هنا وضع الخطوط الأولى لنقد التحديدات الإعتيادية التي تربط مفهوم المقاومة بالتاريخ القريب والبعيد. ومعلوم ان تعريف كل مفهوم أو ظاهرة يقتضي اعتماد منهج التحليل العلمي المقارن. من هنا فإننا سنتساءل ما هي وما حدود أدواتنا المفهمية ونحن نتحدث عن مفهوم حضاري سياسي في بلاد ارتبطت منذ ظهور الإسلام بالجهاد كضرورة مقدسة ؟ هل من الممكن أن نحدد بدقة الصلة بين مفهومي الجهاد والمقاومة ؟ إذا كانت العادة قد جرت بعدم الفصل بين المفهومين، فإن منطلقنا اليوم هو على عكس ذلك، الفصل بينهما كإشكالية محورية لهذا العرض.

فلندخل إذن موضوعنا من زاوية الوعي التاريخي ممثلا في مقولة فقه اللغة التي طالما عرفت الجهاد كسلوك جمعي أو كتطبيق يشمل مجمل أوجه المقاومة ضد المد المسيحي. يشير ابن منظور في لسانه إلى الشق الذي يربط الجهاد بالمقاومة معتمدا في ذلك بما لا يدع مجالا للشك المنازلة والمصابرة كما وردتا عند ابن الأثير[1]. فمحاربة المد الصليبي تمثل بالنسبة إليه مرجعية ومرتكزا ومثالا أعلى. ندرك إذن أن

التفكير في مجابهة الاستعمار قد انطلق منذ بدايات هذا القرن من الحضور التقليدي الاعتيادي لمفهوم الجهاد. لقد كان لهذا المنظور تأثير بالغ على الواعي واللاشعور لانه كان يتجلى ككتلة من المكونات الثقافية العالمة التي انتجتها ظروف سياسية وأسستها مفاهيم تراوحت عناصرها ما بين الفقهي واللغوي. فوردت بذلك مكونات مفهوم الجهاد حاسمة في تحديد مفهوم المقاومة رغم الظروف الموضوعية المختلفة. من هنا فإن ميلاد مفهوم المقاومة ينبثق مرتبطا بالتقاليد السياسية التي أنتجها التفاعل ما بين الثقافة السياسية السلفية وفوضوية الترتيب داخل مفاهيم التحديث[2].

هذا التحديد يؤدي بنا إلى فهم أعمق لاشكالية يكون كعلينا الآن أن نخوض في تحليلها من خلال نماذج ملموسة. ويلزم أن تكون هذه النماذج مؤسسة على اخلاقيات القيم الاجتماعية والسياسية التي كان المجتمع يحمي بها مكوناته ومقدساته.

لقد عرف القرن السابع عشر بلورة إمارات الضفة الجنوبية للصحراء الأطلسية بأدرار وتكانت وغيرهما[3]. وقد جسدت هذه البلورة انتصار أعراب حسان على العنصر الصنهاجي المحلي. فكانت مراقبة المجال والمقدرة على احتكار تجارة الصمغ والعبيد مع المرافئ السبب في اختلاف الرأي بين حسان حاملي السلاح والزوايا حاملي الكتاب محتكري الحياة الثقافية والمعارف الدينية[4]. فإذا ما نحن اقتصرنا على إمارة الترارزة كنموذج فعلي[5]، وجدنا تمركزها على الضفة الشمالية الغربية لنهر السنغال، أساسا فعليا في مراقبتها الوكالة الأطلسية لبورتنديك Portendick، وقد تكونت هذه الإمارة عبر سلسلة من الصراعات بين المغافرة الحسانيين والزوايا المرابطين التي شملت كما رأينا خلال هذا القرن مجموع الوحدات الاجتماعية لما يسمى ببلاد القبلة.

لقد اندلعت الحرب المسماة شرببه التباري لتستمر قرنا كاملا من تداخل المصالح التجارية السياسية والمجالية. ونظرا لأهمية الموقع، فقد كانت إمارة الترارزة أكثر تعرضا للضربات الدبلوماسية والعسكرية الأوروبية حتى حدود استقرار الحكام

الفرنسيين الأوائل بسان لويس St. Louis خلال القرن التاسع عشر[6]. ومعلوم بهذا الصدد ان إمارة تكانت قد تميزت منذ بداية القرن الثامن عشر باسهامات في إنتاج وتسويق الصمغ عبر مرفأ بكل Bakel[7] . وعلى أي حال فإنه لم يكن من المستساغ أن نتصور انسجاما في الوعي بضرورة التحالف أو التنافر من التجار الأوروبيين بين حاملي السلاح وحاملي الكتاب. «لقد كان الصراع بين السفينة الشراعية والقافلة هو المفسر الحقيقي للصراع بين المحاربين والزوايا»[8]. فقد كان هؤلاء يستهدفون بالأساس طرد الأوروبيين وإفشال كل محاولاتهم التجارية كما تثبت ذلك تقارير مديري الشركات الأوروبية وكبار التجار الاوروبيين والدبلوماسيين. نرى إذن بأي وضوح يتجلى دور حاملي الكتاب الزوايا في المحاولة من شل حركة الرواج التجاري مع المرافئ المحلية. وهي مرحلة تاريخية تمثل دون شك حساسية التوغل الأوروبي داخل المسالك. ولقد اتضح من خلال التمايز المجالي للمناطق الاقتصادية أن هذه المرحلة قد أدت إلى تحديد الجهات المتخصصة في المبادلات وفي إنتاج العبيد. فلكي تتم المتاجرة بكامل الضمانات اللازمة داخل إمارة ما، أصبح من الضروري أداء ما اصطلح على تسميته بالعادة. وهي ضريبة جمركية تمثل رسوم حماية المبادلات من طرف الأمير. فنجد بذلك أنه لكي يتم التعامل مع المرافئ المستحدثة لهذا الغرض، أصبح لزاما على الأوروبيين أداء العادة عينا[9]. لقد اقتضت صياغة وتجهيز صناعة اللباس الأوروبي ازدياد الطلب على مادة الصمغ الذي كانت توفره المناطق الأميرية بما يكفي. وكان للأمير «حق الاحتفاظ لنفسه بخمس كريات كبيرة من الصمغ عن كل قنطار. كان القائم بهذه المهمة يطالب بتسديد ثمن قنطار كلما جمع للأمير هذا المقدار»[10].

بذلك نكون قد تابعنا بشكل من التحديد اشكالتنا على ضوء ما رأيناه من حدة التناقض المصلحية بين حاملي السلاح وحاملي الكتاب. وعلى هذا النحو فإن إستناد الزوايا الى مفهوم الجهاد قد جاء كنتيجة للفشل أما المشاكل المتزايدة التي فرضها الضغط الأعرابي، ذلك أنه لا حاجز يحول دون المسلمين والتبادل التجاري مع أهل الكتاب ما دام هؤلاء هم مصدر بيع السلاح. أما التواطؤ على بيع العبيد فإنه في

نظر الأمراء لا يعدو أن يكون حلقة من حلقات التبادل التجاري المشروع. وعلى نحو أعم فإن السند الاجتماعي للامارات هو علاوة عن حملها سلاحها، قوة المبادلات مع المرافئ. وهو أيضا وجود هيكل سياسي يعيش على الرسوم الجمركية مع الجهاز الأميري والعسكري الذي يرعاه.

بهذا التحديد الهيكلي نكون قد انطلقنا نحو تكتل وعي حضاري ساهمت في خلقه مجموعة التيارات الفكرية والدينية متباينة المنشأ متناقضة المشارب لا هوادة في الصراع بينها ستجعل ذلك الوعي مهزوزا ومتناقضا في ترجمته للسلوك الفردي والجماعي وفي بلورته لمفهوم الجهاد. ويصل بنا امتلاك هذه النظرة التقريبية مباشرة إلى نهاية القرن الثامن عشر عندما انتقلت انجلترا وفرنسا من المرحلة ما قبل الاستعمارية إلى مرحلة المراقبة الفعلية المباشرة للمجال[11] فنلاحظ ان دخول تمبكتو وتوات وسان لوي قد تم سنة 1894 بعد احتلال التراب الجزائري[12]. وهو ما يعني أن الطابع التاريخي للتحالفات الساحلية قد ولى وان سلطة الأمراء قد اصبحت موضوع جدل مع المراقبين المباشرين الجدد[13]. أما فداحة التناقض في هذه الصورة المتحركة فهو ما يترتب عنها من رؤية مهزوزة ومن تفكك لبنية الإمارات المحلية ومن تفكير يخلط بين الجهاد والمقاومة اللذين لا يقاسان إلا على الممارسة التي تفصل بين الدفاع عن ما هو ديني وما هو دنيوي محض[14]. وقبل أن نصل إلى نقطة الفصل بين المفهومين، نشير إلى أن القاسم المشترك بين الأمراء حاملي السلاح والزوايا حاملي الكتاب قد أصبح منذ دخول فرنسا مرحلة الاستعمار المباشر هو مجابهتها كضرورة مقدسة[15]. والسؤال المطروح هنا هو إذا كان جهاد الزوايا ضد التغلغل الفرنسي داخل التراب الإفريقي يعد من باب محاربة المد الصليبي، فبماذا نصف حمل الأمراء للسلاح ضد حلفائهم الأقدمين ؟

مع دخول القرن العشرين يكون الوضع السياسي بالصحراء الأطلسية قد بلغ درجة كبيرة من الاضطراب بفعل تضخم النفوذ الفرنسي. على أن قبائل الرحل لم تكن على وعي تام بخلفيات احتلال سان لوي وتمبكتو وتوات.

كان رؤساء القبائل يعتقدون بأن مضاعفات هذه المرحلة لن تتجاوز الرقابة على

التبادل والتوزيع[16]. غير أن موقع الأمراء وضعفهم المتزايد جعلهم يفكرون في البحث عن بديل لا يسعى إلى امتصاصهم موجهين أنظارهم نحو صيغة جديدة من المثالية تشبه مواقف الزوايا شكلا. نجم عن ذلك شيئا فشيئا التخلي الطبيعي عن الفرنسيين كحلفاء والاعتراف بالدور الإيجابي للزوايا في الحد من التغلغل الأوروبي. على أن هذه الحقيقة ليست إلا صورة أولى لمرحلة ما قبل الدخول الفرنسي المباغث سنة 1903 [17]. ففي هذه السنة دخل الجيش الفرنسي محتلا إمارتي الترارزة ثم البراكنة ليحتل بعد ذلك في بداية 1905 منطقتي تكانت وتيجكجة[18]. كان هذا الاحتلال إذن يعني ضرورة تخلي الأمراء عن إمارتهم. وتلك مأمورية على قدر من الأهمية بحيث إن التقارير تكشف عن بذل كابولاني Cappolani جهودا كبيرة لتحقيق سياسة مشخصة[19]. فاستنادا إلى هذه التقارير يتضح بما لا يدع مجالا للشك بأن سياسته قد اقتضت توسيع رقعة الحساسيات القبلية على تناقضاتها من أجل تفجير الأوضاع حتى يتم استعمال القوة كعامل تهدئة. وقد كان لهذا الحاكم العام من الاعتقاد الراسخ بأنه من القوة بمكان يسمح له بالقمع الصارم. وقد زاد من هذا الاعتقاد أن هذه الفترة على امتدادها لم تعرف أي رد فعل للمجابهة. فشجعت بذلك المقامات الفرنسية العليا سياسته وحملاته التأديبية. على أن ما لم يكن بالحسبان هو أن تأتي أول رد فعل بمقتل كابولاني نفسه في 12 مارس 1905 [20].

ولنلاحظ هنا بأنه أصبح من غير المستساغ خلافا لما كان عليه الحال من قبل، ألا نتصور انسجاما في المواقف بين حاملي السلاح وحاملي الكتاب. إن تحديد المواقف وتوحيدها في مواجهة الخطر الخارجي المشترك يعد من بين البديهيات التي كثيرا ما أطرت لبنيات وهياكل سياسة استمرت حقبا طويلة. فما تزال الرواية الشفوية تجعل من مقتل كابولاني حدثا يتصدر ملاحم المجابهة ويرتاد صور الفاعلية والإيجابية والإشراق. وتبقى النافذة مفتوحة على نفس السنة لتطل منها الجبهة التي جمعت بمنطقة أدرار بين مختلف فصائل وقبائل وإمارات الساحل. تؤكد التقارير الفرنسية على أن اجتماع هذه القبائل يومها كانت بهدف تمتين جبهة المواجهة. وإذا كان أقرب إلى الصحة أن نصف اللحظة بما تتصف به من ميسم التوحيد على الساحة بين أعداء الأمس، فإن ما يعطيها نوعا من التجسيم أن هذا الاجتماع قديم تحت رئاسة

الشيخ ماء العينين[21]. والأمير أحمد ولد سيد أحمد العيدة[22].

على امتداد الصحراء الأطلسية يعتبر الشيخ ماء العينين أكبر وجه صوفي ارتبط اسمه بالجهاد خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فقد هيمنت على مقاييسه ضرورة تأسيس السياسة والأخلاق على المعيار الشرعي لم يكن يتردد في الحكم بقساوة على ظروف وملابسات التحالف مع الاسبان والفرنسيين. وهي ظروف جعلته ينادي بالجهاد كحكمة وكأسلوب في مواجهة سياسة الأمراء. من بين هؤلاء يعد الأمير أحمد العيدة رمزا كبيرا من رموز القوة والمناعة ما تزال الرواية الشفوية توفيه حقه حيث يضرب به المثل بمجمل أرجاء الصحراء الأطلسية. من هنا يمكن أن نتساءل ما دام تحالف الشخصيتين من حيث هما كرمزين لبنيتين متناقضتين يعكسان رابطة لا تنفصم من الإدراكات المصلحية السياسية الواضحة، أية تنازلات نسبية قدمها الرجلان؟ كيف انقلب الشيخ ماء العينين حليفا للمقاومين من الأمراء، وكيف أصبح الأمير ولد العيدة حليفا للمجاهدين؟ «نلاحظ بأن الشخصين بحيويتيهما ووثوق كل واحد منهما بأحكامهما، قد ميزتا واستخلصتا لنا ما هو جوهري وحاسم في هذه اللحظة بالذات. إن ملء الفاصلة الزمنية التعاقبية يبرز بما يحمله من معان وخلفيات حقيقية البنية التحالفية بين القبائل والقدرة على التماسك اللازم لمواجهة الأخطار الخارجية المشتركة. وبعبارة أخرى فإن هذه الصورة تجسد الحدود الفعلية لحرب المفاهيم والمقدرة التطورية التي لا تراجع فيها. هذا التقييم الذي يبدو صحيحا تماما، ويتيح ترجيح الاتجاهات التي تظهر بصدد العلاقة بين صيرورة المجتمع وتناقضاته يكون قد وصلنا الفصل الحاسم بين مفهومي الجهاد والمقاومة رغم تكاملهما. نلاحظ بأن امتلاك هذا التاريخ يعني بكل تبسيط أن نعترف فيه انطلاقا من متطلبات الماضي بدور الجبهات في الخلط بين المفهومين.

المصادر والمراجع

(1) أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، 15 جزء، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1955/1374، أنظر خاصة الجزء XII صفحة 504.

(2) لنا عودة إلى هذا الموضوع في إطار دراسة مفصلة في طور الإنجاز.

(3) **P. Masson, Histoire des Etablissements et du Commerce Français dans l'Afrique Barbaresque (1560 - 1793)**, in 8e, XXII, Paris, Hachette, 1903, 676 p, Constant Hamès, l'évolution des émirats maures sous l'effet du capitalisme marchand européen in **Production Pastorale et Société,** Cambidge University Press, Ed M.S.H, 1978, 375 - 389 en particulier 380 - 381.

(4) L.A.R. Carson, "Deux Textes Sur le Sénégal" 1673 - 1677, **Bull. IFAN**, XXIX, B, N° 1, Dakar 1968, 323, P.Cultru, Premier Voyage du sieur Lacourbe fait à la coste d'afrique en 1685, Champion et larose, Paris 1930, id Lègendes guerriéres de Mauritanie in Quinzaine Coloniale, Paris, 25 Avril 1914.

(5) مصطفى ناعمي. الصحراء من خلال بلاد تكنة، دار عكاظ 1988 صص، 158 ـ 161

(6) J. Bonlègue "Relation du port du fleuve Sénégal de Jaâo Varbosa faite par Jaâo Baptisa lavanha vers 1600" in **Bull. IFAN, XXIV**, B, 3-4 Dakar, 1967, p 499.

(7) Auguste Chevalier, "Sur la production de la gomme arabique en Afrique Occidentale Française" **Revue de Botanique Appliquée et l'Agriculture coloniale**, Paris, 1924, 256-263, Delcourt. La France et les établissements Français au Sénégal entre 1713 et 1763, **Bull, IFAN**, Dakar, 1952.

(8) C. Hamès, **L'évolution**, 380.

(9) Sieur le Maine, **Voyages Aux Iles Canaries, Cap vert, Sénégal, Camp**, Paris, 1965, 72-73.

(10) P. Cltru, Premier Voyage, B. Barry, **le Royaume du Waloo**, Maspéro Paris, 1972-31.

(11) Mustpha Naïmi, "la politique des chefs de la confédration Tekna face à l'expansionnisme أنظر commercial européen", **Revue d'Histoire Maghrébine**, Tunis, N° 35-36, Décembre 1984, 153-173.

(12) A. Depont, "L'islam dans nos possessions de l'Afrique du Nord et de l'Afrique occidentale" Revue Univers. Paris 1901, 467-468, 491-493, 514-517, Bajolle, la question saharienne, **Bull. de la soc de Géogr. d'Oran**, Paris, avril - Juin 1891, 145-177.

(13) Ch. Demay, "Partage politique du sahara (Ifni, les Maures du sahara occidental)..", **Revue Encyclopédique**, Paris, 1895, 440-441, G. Poulet, Les Maures de l'Afrique Occidentale Française, Challamel, Paris 1904.

(14) "La pénétration au Sahel et la question maure", **Renseignements Coloniaux** 1990, 29-41. La Mauritanie et le Maroc, **Renseignements coloniaux**, Paris, 1909, 99-103, Muhamadu Ahmadu Ba, "l'emirat de l'Adrar mauritanien de 1872 à 1908", in **Bull. trimest. de la Société de Géographie et d'Archéologie d'Oran**, L III, fasc. 19, mars 1932, 83-119 et fasc 191, Juin 1932, 262-298.

(15) Ismaël Hamet, "Chroniques de la Mauritanie Sénégalaise", Nasser Eddine, Leroux, 1911, M

; Cortier, "une Rive à l'autre du Sahara", Larose, Paris, 1908. Xavier cappolani, "l'action religieuse musulmane dans le S/O Africain, les chorfa, les marabouts, les confréries" in **Revue francomusulmane et saharienne**, 1-2, 1102,

S. Caratini, Les Rgaybat (1610-1934), des chameliers à la conquête d'un territoire, l'Harmattan, 1989, 124. (16)

Cpt. Augieras, "La pénétration dans le sahara occidental, explorations et faits de guerre", **Renseignements coloniaux**, Paris, 1923, 225 259, Id, Chroniques de l'Ouest saharien 1900-1930, in **Renseignements coloniaux et documents publiés par comité de l'Afrique Française et le Comité du Maroc, Supplément à l'Afrique Française**, N° IV, 193-215, N° V, 273-295, N° VI, 355-372, Paris 1930. (17)

S. caratini les Rgaybat, 123. H. Hulot, "L'Oeuvre de pénétation en mauritanie", **Rev. des deux Mondes**, Paris, 15 mars 1908, 419-444. (18)

O. Dépont et Xavier cappolani, les Conféries Religieuses, Jourdan, Alger, 1897 ; - P. chistian, "l'Afrique Française, l'Empire du Maroc et les Deserts de Sahara", Paris Barbier, 1903, Sainte - Marie Flye", Dans **Renseignements coloniaux**, .oct. Nov. dec. 1905, Paris, 381-470, 533-544, Cl. Baron Lahure, "lettres d'Afrique. Maroc et Sahara Occidental", Lamberty, Bruxelles, 1905, - H. Chevans, "la mise en valeur de l'Afrique occidentale Française", F. Alcan, Paris, 1907. (19)

Cdt. Gillier, "la Pénétration en Mauritanie", Geunther, Paris, 1926, P. 135. (20)

P. Alber, "Cheikh Ma El A'inine de Seguiet el Hamra", in **Bull. de la soc de Géogr. d'Alger**, 4e trimestre. Alger, 1906, 401 - 405, Al Moutabassir, "Ma el A'inine ch-Chonguity", **Rev du monde musulman**. Paris, I, 1907, 434 - 351, -Mahammadu Ahmadu Ba, "Apropos de Smara: el cheikh "Ma el Ainin et Smara" (1898 - 1909)" l'Afrique Française, Paris, fevrier 1934, 95 - 97, -A. Domech Lafuènte, "Ma el Aïnin Senor de Smara", ed Marroqus, Tetouan, 1954, -H. T. Norris, "Shayh, Ma Aynayn el qalqami in the folk litterature of the spanish sahara", **Bull. of school of Oriental and African Studies**, XXXI, 113 - 136 et 347 376. (21)

P. Bonte, "Guerriers et repentants. La tauba et l'évolution" - 22 politique des émirats maures, **colloque Perspectives Anthropologiques sur l'Histoire Africaine**, 1984, Id, "The constitution of the Emirate and the transformations of systems of production in the Adrar Procuction Pastorale et Société", Cambridge University Press et M. S. H. Paris, 16, 1985, 33 - 53. (22)

دور العرش والأمة في استكمال الوحدة الوطنية والمحافظة عليها

حمداتي شبيهنا ماء العينين
الديوان الملكي الرباط

إنها لحظات خالدة، هذه التي تتيح لنا فيها جامعة ابن زهر والمندوبية السامية لقدماء المقاومين واعضاء جيش التحرير فرصة الاتصال بهذا العدد الكثير من شبابنا المتحفز للتحصيل وللبحث وللعمل ولمعرفة ماضيه التليد ليكون ذلك حافزا له على القيام بالدفاع عن قيمه الحضارية في المستقبل، وإنه أيضا لشرف عظيم أن أتناول الكلمة في هذا الجمع المبارك عن المقاومة في الصحراء، وأنا أجد أمامي قادة جيش التحرير الذين قادوا المعارك الطاحنة ضد المستعمر الفرنسي والإسباني في 1960-1959-1958-1957-1956: وهم السادة

- ادريس بوبكر - مصطفى بن عثمان - ناضل الهاشمي - صالح بن عسو فهؤلاء الأربعة كانوا قادة جيش التحرير الذين قدموا من نقط مختلفة داخل المملكة لينضموا وليؤطروا جيش التحرير الذي لم تبق قبيلة من سوس والصحراء إلا وشاركت فيه مشاركة فعالة، وهذا دليل على تماسك هذه الوحدة واستمرارها وتحديها لكل الطامعين فيها. أما عرضي هذا فسيكون مقتضبا وقد قسمته إلى أربعة مباحث

- المبحث الأول

بداية محاولات الغزو الأجنبي لجنوب بلادنا.

المبحث الثاني

جهود العرش المجيد في سبيل التصدي لأي تسلل يرمي إلى ابتلاع بعض السيادة المغربية.

ـ المبحث الثالث

كفاح أبناء الصحراء للمد الاستعماري وتصلبهم على بقائهم مشمولين بنفس الحكم الإداري الذي عم إخوانهم في شمال المملكة الشريفة على إثر قيام الحماية.

ـ المبحث الرابع

استمرار نضال العرش والأمة لاسترجاع الصحراء إلى حظيرة الوطن بعد استقلال ما استقل من البلاد.

ـ بداية من محاولة الغزو الاستعماري

ينبغي دائما أن نلقن أجيالنا الأسباب التي جعلت المستعمر الإسباني والبرتغالي في فترة متقدمة من التاريخ (وسيلحقهم المستعمر الإنجليزي والفرنسي فيما بعد) يحاولان التسلسل إلى ربوع هذه المناطق التي لم تكن أكثر إغراء من بقية البلاد المغربية الأخرى وإذا ما رجع الباحث إلى التاريخ وبحث عن الأسباب سيجد أن على هذا البلد الذي أوصل الإسلام إلى الأندلس ونشره بالأدغال الإفريقية وبنى الحضارة الإسلامية الشامخة لابد أن ينال حظه من حرب أعداء الاسلام وخصوصا على إثر سقوط دولة الأندلس، وسيطرة الاستعمار الإسباني على جزر الكناري فلابد لهم أن يبحثوا عن الوسيلة التي تحول بين هذا البلد وبين الانقضاض عليه من حين لآخر، وهم يتوجسون منه خيفة أن يعيد الكرة منها الي ماضيها، فقبل أن ينتهي من المشاكل الإنسانية والاقتصادية والسياسية التي أصبح عبؤها ملقى على كاهله بسبب سقوط دولة الأندلس، حاولت هاتان الدولتان ان تسيطرا على جنوب المغرب، وعلى أي حال، فلما تعاونت الدولتان الإسبانية والبرتغالية على محاولة السيطرة على أجزاء المغرب الجنوبية حولت التسلل بادئ ذي بدء دون أن تكون بينها اتفاقيات منظمة فأوشكتا على أن تصطدما فيما بينهما فعقدتا اتفاقية

الكثبان عام 1479 .

بعد ذلك أصبح خليفة السلطان ينتقل إلى الشمال ليزود بمعلومات وتأتيه البعثات، وتتلاحق الأحداث لتصل إلى عهد مولاي الحسن فيسترجع مدينة طرفاية من عند الانجليز ويدفع لهم 50 ألف ابرة، ويوقع غرنيط (سفير مولاي الحسن باسبانيا) المحضر على أنه استرجع مدينة طرفاية باعتبار ان الشاطئ الممتد من أكادير إلى الرأس الأبيض (الكويرة) لا يمكن أن يقيم فيه أي فرد منشآت كيفما كانت نوعها الا بإذن من سلطان الدولة المغربية. هذا محضر مكتوب، لم يكتب اليوم ولن نكتبه نحن، بعد أن عاكسنا بومدين وشرذمة الخونة في وحدتنا، ولا الدول التي تلكأت في شهاداتها. على إثر هذا تكونت بعثة ترأسها نائب باشا مدينة فاس هو محمد الحسن بن يعيش الذي سيصبح حاجبا لأربعة ملوك من المغرب، وأبحرت من مدينة الصويرة ونزلت في طرفاية، ووجدت في استقبالها ابن الشيخ ماء العينين مربيه ربه الذي سيقود الجهاد هنا، وعندما يشيع الفرنسيون على أنه يريد اقتطاع الصحراء من المغرب، سارع سنة 1937 ليؤدي البيعة لخليفة السلطان مولاي الحسن بن المهدي بتطوان مفندا كل الاحتمالات وكل التأويلات التي كانت ترى أن الجنوب يريد أن ينقطع عن المغرب فذهبوا الى الشيخ ماء العينين وقدموا عليه وحضرت كل القبائل الصحراوية بأسرها لمدينة السمارة وأدت بيعتها للسلطان، وليتعرف ناشئتنا على أن البيعة في الدولة الاسلامية هي الركن الأساسي لكل دولة، فالعالم الإسلامي والدولة آنذاك كانت تسير بمفهوم لا مركزي، أي أن لها سلطان وهذا السلطان يعطي ظهيرا لشيخ أو قائد في مكان ناء لا يستطيع أن يصله إلا في سنة، ولكنه ما دام يحمل ذلك المرسوم فهو تابع لتلك الدولة، وتلك الأرض تابعة له وهذا ما كان يشكل وحدة الدولة الاسلامية التي ترتكز على البيعة فقط، إذ لا وجود لعمالات ولا جيش ممركز في كل جهة يدافع عنها وقد كان هناك ما يسمى بالحركة وتجمع الجيوش - واستاذنا الباحث زنيبر الموجود معنا هو أدرى مني بهذا - كانت الحركة تكون في ظروف معينة، وتجتمع الجيوش بحيث لم تنظم الجيوش إلا في عهد متأخر جدا. ما عرف الإسلام الجيش المنظم المنتشر في ربوع المملكة أو ربوع الدولة إلا

مؤخرا، وكانت الجيوش في العاصمة. ولكن الجهات الأخرى توكل إلى مسيرتها الإقليميين. إذن البيعة كانت هي أهم ركائز أسس الدولة، وانتقل السلطان مولاي الحسن إلى عفو الله وخلفه مولاي عبد العزيز، وفي عهده أتى مولاي ادريس، وعين معه الشيخ ماء العينين ولديه، الشيخ الوالي والشيخ حسن، وذهبوا جميعا وانتصروا على الفرنسيين في معارك لازالت شاهدة على وحدة هذا الوطن، في قصر الترشان، نيملان، كنينت تيكويت، احميم. بعد هذا ستأتي مرحلة ثانية هي التي ستقوم فيها معارك سنتعرض اليها.

ولما اشتدت المقاومة، وأصبح المخزن غير قادر علي بعث رسل إليه، وانعقد مؤتمر الذي هو موضوع الندوة - والذي نتج عنه بروتوكول بين السلطات الفرنسية1904 والإسبانية يتركب من 11 بندا، ويزكي اتفاقية سرية كانت قد تمت بينهما سنة تحدد على أن اسبانيا تسيطر على نقطة الرأس الأبيض (الكويرة) تمتد شمالا1900 الى فم اساكا وتنتهي إلى واد درعة لتنتهي في حكم الفرنسيين، يبتدئ من فم اساكا حتى تنتهي بلاد أيت باعمران وسيدي محمد بن عبد الله تاركة المجال للحماية الفرنسية التي تمتد ايضا الى منطقة الشمال. بقيت هذه الاتفاقية حبرا على ورق وإن كانت المحاولات القديمة وقع فيها ما هو أهم من هذا هو أنه في 1885 أتى أحد البحارة الإسبانيين ونزل بالداخلة وأقام منشآت خشبية بها. فانقض عليه الأبطال المجاهدون أبناء دليم وأسروا ضابط المخابرات الذي كان يتستر تحت التجارة، وقدموه إلى الشيخ ماء العينين الذي قدمه للسلطان مولاي الحسن ووقعت المبادلة فيه بينه وبين السلطات الإسبانية.

إذا كانت هذه المناطق غير مغربية فلماذا ذهبوا بهذا النصراني إلى ملك المغرب وبينهم مسافة 2000 كلم ؟ أيضا على ذكر الأمير عيدة، وقعت قضية في هذه النقطة بالذات حيث اراد عيدة أن يذهب بهذا النصراني ومنعه الشيخ ماء العينين وقيلت قصائد شعرية في هذا الموضوع لازالت موجودة تبين على أن عيدة هو من ولاة المخزن.

بعدما اشتدت وطأة الاستعمار على المنطقة، هاجروا وأتوا لسوس، وهنا كانت المقاومة التي ما من قبيلة قبيلة وما من دوار ولا امرأة ولا صبي ولا رجل من سوس إلا

ويدفع فيها ماله ونفسه. وقادوا الجهاد لمدة ثلاثين سنة ضد الفرنسيين والاسبانيين والالمان والانجليز وهاته المناطق واقفة، ويكفينا فخرا أن جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله لما قدم هنا سنة 1972 قال «أنتم بقيتم محرومين من قدرات الحماية لانكم وفقتم في وجهها حتى 1934. والآن حان الوقت لتنصفكم دولتكم وتبني أرضكم التي تأخرت بسبب مقاومتها».

في هاته الفترة وقعت المعارك الأخرى في كل التراب الموريطاني وفي كل التراب الصحراوي، وشارك فيها جميع الصحراويين وكانت أولاها الزويزل التي قام بها أبطال الرقيبات والكليب الأخضر ثم احميم ثم الجفرة ثم النيملان ثم قصر الترشان ثم نواديبو هاته المحلات كلها سقتها دماء المغاربة دفاعا عن مغربيتنا بعد سنة 1934 لما تحتم الاستعمار، وكانت أرضنا من نصيب اسبانيا. ماذا وقع ؟ اجتمعت كل قبائل الصحراء، ورفضوا الدخول تحت الحكم الإسباني إلا إذا أتاهم بأمر مكتوب من جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه لأنه آنذاك هو الملك، واضطرت اسبانيا على أن تأتي بظهائر من خليفة السلطان بتطوان. ظهير لنائب الخليفة وهو العالم الجليل الشيخ محمد الأغضف وكل قبيلة أتت لها بظهير قائد على أن ينوب عن المخزن في منطقته، ونظم العمل وأصبحوا يباشرون العمل باسم الخليفة في طرفاية.

لما أرادت اسبانيا أن تقتص من المطقة التي لابد أن تكون في يوم تابعة لمغرب الحماية وهي منطقة طرفاية قسمت المنطقة إلى أربعة مناطق : ـ منطقة النفوذ ـ منطقة الاحتلال ثم الملكية. الداخلة لاسبانيا، الساقية الحمراء منطقة الاحتلال، طرفاية منطقة الحماية.

أصر القواد والخليفة على أن ينقلوا مقر عملهم من طرفاية إلى العيون حتى لا يتكرس وجود الاحتلال في المنطقة التي ادعوا انها احتلال. بقيت الأحداث من قصر التصلاد والحداد والمظاهرات وتنظيم فروع حزب الاستقلال على أساس أنه الحزب الوطني الموجود آنذاك في المنطقة هذه، انتزعناها من اسبانيا رغم أنفها، وأصبحنا ننشر المناشير التي نريد، ونتعامل مع إخواننا الوطنيين، نأويهم ونجمع التبرعات،

ونبعث بها إليهم لم تستطع اسبانيا في يوم ما أن تقول لنا أنتم لا يمكن أن تشاركوا في هذا العمل لأنكم لستم مغاربة. أبدا لما أرادت أن تمنحنا ورقة التعريف امتنع عنها جميع الصحراويين، إلا إذا كان مكتوب فيها بأننا مغاربة، وبقيت عندها مكدسة. لما طالبت بالعشور (الترتيب) قالوا لها بأن هذه الأموال كلها ملك لمحمد الخامس، لا يمكن أن يعطى لكم منها شيء إلا إذا أتى مرسوم مكتوب من محمد الخامس يأمرنا باعطائه لكم، هؤلاء الرجال، كلهم من جميع القبائل قاموا بهذا لعمل المشرف دفاعا عن وطينتهم. لما استقل المغرب، عقد مؤتمر أم لشكاك الذي أشار إليه المندوب السامي، وعين 87 شخصا ليؤدي البيعة باسم السكان لمحمد الخامس واستقبلنا، حيث كان لي شرف المشاركة فيه كأصغر اعضائه سنا يوم 3 ماي سنة 1956، وأدينا بيعتنا الرسمية وقال لن يهدأ لنا بال حتى يشملكم ما يشمل المغاربة من حرية.

أبريل 1957، ذهب محمد الخامس رضي الله عنه إلى المحاميد، استقبله وفد من الصحراويين، وألقى أمامه العبادلة رحمة الله عليه، وهو الشاب الغيور الذي يعرفه قواد جيش التحرير بوطنيته، كلمة الصحراويين جميعا، على أنهم مغاربة، وأنهم لابد أن يدافعوا عن مغربيتهم.

اجتمع جميع صبيان المنطقة بأمر من جيش التحرير وكان لي شرف جمعهم، وحملناهم في السيارات، ووزعناهم على مدارس المغرب كلها، ونالت أكادير وتافراوت الحظ الأوفى، ذهبنا بـ1200 شاب، (وهذا قطع على الاسبانيين لمدة 20 سنة)، فالصحراء أهلها ناضلوا، وبعدما ناضلوا أتاهم جيش التحرير، ويكفيني شرفا أنه كما قلت أن القواد الأربعة الموجودين معنا، ادريس أبو بكر، مصطفى بن عثمان، ناضل الهاشمي، صالح بن عسو هم الذين نظموا هذا الجهاد، وشاركنا فيه معهم، وجرت المعارك التي لا ينساها التاريخ من الروضة والدشيرة، والبلايا طريق السدرة، الكلات درمان، العركوب، ما من بلد من هذه البلاد الا وقاتل فيه الصحراويون في سنوات 1956 - 1957 - 1958، على مغربيتهم، في معركة الدشيرة أبيدفيلق كامل، وأزيلت الكتيبة الثالثة عشر من الجيش الاسباني الى اليوم لأنها

أبـدت في الكويرة ورئيـس المعركة هو صالـح بن عسو أمامكـم. إذن فنحن سـاهمنا بقسطنا في المقاومة، ولكن أتانا الوقت أيضا لنساهم اليوم في استكمال وحدتنا التي حققها رائد المسيرة الخضراء أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله.

أشكركم سيدي رئيس الجلسة على صبركم، واستسمحكم لأنني أطلت كثيرا، وأتمنى أن تكون هذه بادرة لأن يتعرف الشباب على تاريخنا، لأن مدة 20 دقيقة (مدة التدخل) لا تعطي للشباب حقائق عن التاريخ، ولكن أظن على أنه في المستقبل ينبغي على الجامعة أن تنظم الندوات على شكل محاضرات (محاضرة في اليوم) وتناقش حتى تعطي الحقائق كما هي لأنه نحن سنذهب عن الدنيا ويبقى ما كتبنا أو ما سجل منا لأبنائنا حتى لا تضيع هذه الملاحم من تاريخنا.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

لمحة عن مقاومة الصحراء المغربية لتوغل الاستعمارين الفرنسي والاسباني

محمد زنيبر
كلية الآداب والعلوم الانسانية
الربـاط

إن أهم حجة يمكن للمغرب أن يدلي بها في الدفاع عن وحدته الترابية ودعم حقوقه في الصحراء المغتصبة، إلى جانب الوثائق المكتوبة من معاهدات وظهائر وبيعات الخ.. تتمثل في موقف السكان من التوغل الاستعماري فهؤلاء السكان، خلافا لما يظن ويقال عند بعض المتشككين متصفون بروح الالتزام والوفاء للمباديء إذا آمنوا بفكرة أو بقضية لا يتراجعون عنها ويستميتون في سبيلها.

والتاريخ قدم خير الدلائل على ما نقول. فهل كان لدولة المرابطين أن تنشأ في جوف الصحراء وتتحول الى دولة كبيرة، ذات صيت في العالم باسره، ولو لم توجد روح الالتزام والانضباط عند صنهاجة اللثام التي كانت مسيطرة على المنطقة؟ ذلك أنها لما علمت بأن عبد الله بن ياسين جاء يحمل دعوة خير، لم تتردد في الالتفاف حوله لمساندة تلك الدعوة ونشرها والتآزر من أجل تحقيق المشاريع الكبرى التي كان يخطط لها قادتهم. وبذلك برهنوا على جديتهم وعلى قدرتهم على بناء الدول والممالك الكبرى والمساهمة في تنمية الحضارة العالمية، والدولة المرابطية جسدت بما لا يقبل مجالا للنقاش تلك الآصرة القديمة التي لا يعرف لها أول بين المغرب والصحراء وهي رابطة قبل أن يفرضها الانسان فرضتها الطبيعة، فالمنطقة الخصبة في المغرب الواقعة في الشمال كانت ملاذا ومنتجعا لقبائل الصحراء التي

تغلب عليها حياة الترحل بالأخص في الأيام المجدبة.

ولا بأس من الاستشهاد هنا بشيخ المؤرخين المعاصرين «فرناند بروديل» فهو يقول

«إن هاته الحركة الواسعة التي تدفع برحل الفيافي الى البحر ثم من البحر إلى الصحراء، كيف لا تكون إحدى الحتميات الكبرى لتاريخ البحر المتوسط، أو إذا شئتم، إحدى ايقاعاته ؟ وستكون الأمور على أحسن ما يرام لو كان المد والجزر يسيران بدقة التراقصات. ولكن بالإضافة إلى أحوال الجفاف الطارئة توجد عوامل لا تحصى من شأنها أن تحدث الخلل في النظام الطبيعي وأن تحمل الرحل على أن لا يقنعوا بالأرض المتروكة لهم. أي هنالك عدة أسباب تدفع بهم للاصطدام مع المستقرين. فمن الوجهة الأساسية لا غنى لمنمط الترحل عن المراعي ولكن يضاف إلى ذلك، عند الاقتضاء ارض للحرث بل ومدن يتخذ منها الرحل مراكز للتزود، وفي نفس الوقت مراكز لمشاريعهم السياسية» (la Méditerranée) 162

فارتباط سكان الصحراء المفرض عليه حياة الترحل، ليست مسألة اختيارية بل هي ضرورة حياتية، كما يفهم من هذا الكلام والإشارة الى الاحتكاك بين الرحل والمستقرين لا تعني انتقاء الاتصال والوئام، بل تدخل في توازن طبيعي، كما يشير إلى ذلك الجغرافيون والاجتماعيون. فهم إذا كانوا يتحدثون عن التناقض بين الفئتين، يلحون في نفس الوقت على التكامل بينهما، واحتياج بعضهما الي البعض الآخر (ن.م 164). وهاته العوامل الطبيعية تفسر، بما فيه الكفاية ارتباط الصحراء بالمغرب والمغرب الأقصى بموقعه بين البحرين وقربه من القارة الأوروبية وغناه من الموارد الزراعية كان أقوى جاذبية من غيره لسكان الصحراء، كما يبين ذلك التاريخ البعيد والقريب على السواء. ولولا الاعتصابات الأرضية التي قامت بها فرنسا في صحراء المغرب الشرقية وواحاته من تيندوف الى توات ومن السينغال الى حدوده الحالية، لكان اليوم أكبر مساحة من غيره من الأقطار المغاربية ولكن الاستعمار آذانا من جهة، وفرطنا في حقوقنا من جهة أخرى وهي حقيقة مرة عبر عنها عبد الرحمان حجي في ابيات بليغة وذلك حين يقول

انطوى عزنا وحل البلاء إذ غدونا تسوقنا الأهواء
وقبعنا في عقرنا مثل طير قص من ريشه فطال الثواء
واشتغلنا بمأكل وشراب وحسبنا السراب فيه ماء
وزهدنا فيما يعود علينا بنجاح يقوده الاهتداء
لم نصن من حدودنا قيد شبر ورقاب كأننا سفهاء
وأتتنا حماية كلها ختل ومكر تسعى به رقشاء
ومضى في ذاكم علينا زمان وما لنا في شؤوننا استفتاء

طبعا إن الوصاية الاستعمارية التي فرضت على المغرب طوال النصف الأول من القرن العشرين فسحت المجال للاستعماريين الفرنسي والاسباني للتصرف في أرضنا حسب هواهما، ضاربين عرض الحائط بالواجب الاخلاقي الذي يدعو الى المحافظة على الأمانة وردها إلى أصحابها عندما يحين الوقت. وكان ذلك الوقت هو سنة 1956 حيث حصل المغرب على استقلاله. لكن الدولتين المعنيتين لم تبادرا الى رد الأمانة وتمسكتا بما اغتصبتاه في عهود سابقة وأصمتا أذنيهما عن الانصات الى مطالب المغرب. وأثر محمد الخامس أن يسلك سبيل الحكمة والمفاوضة الدبلوماسية. فتجنب طريق العنف، دون أن يسكت عن حقوق المغرب ولا يظهر أي استعداد للتنازل عنها. وهذا ما أكده، رحمه الله في الخطاب الذي ألقاه في 6 شعبان 1377 بمحاميد الغزلان والذي ورد فيه «وإن مما يسعدنا أن يستقبلنا في قرية المحاميد التي هي باب صحراء المغرب أبناء الذين استقبلوا جدنا في قرية أخرى من الركيبات وتكنة أولاد دليم وسواها من قبائل الصحراء الشنجيطية، وأن نستمع إليهم ومعهم فقهاؤهم وأدباؤهم يؤكدون لنا كما أكد آباؤهم لجدنا ـ تعلقهم بالعرش العلوي واستمساكهم بعروة المغرب الوثقى التي لا انفصام لها، وإننا نحيي نفوسهم الأبية وعزماتهم القوية ونرحب بهم في وطنهم، وبين أهلهم ونؤكد لهم بدورنا ـ وليبلغ الشاهد منهم الغائب ـ أننا سنواصل العمل لكل ما في وسعنا لاسترجاع صحرائنا وكل ما هو ثابت لمملكتنا بحكم التاريخ ورغبات السكان، وهكذا نحافظ على الأمانة التي أخذنا أنفسنا بتأديتها كاملة غير ناقصة ألا وهي ربط حاضرنا بماضينا وتشييد صرح مستقبل زاهر ينعم فيه جميع رعايانا بالسعادة والرفاهية والهناء

(انبعاث أمة 150/3) .

كلام واضح لا لبس فيه ولا غموض يعبر عن عزم المغرب على استرجاع أراضيه المغتصبة . وكان محمد الخامس في هاته القضية ـ كما في غيرها من القضايا يعبر عن رأيه الحركة الوطنية وطموح الشعب المغربي بمنتهى الإخلاص والأمانة . ومن المعلوم أن الصحراويين كانوا آنذاك يتواردون زرافات ووحدانا على المغرب من جميع الآفاق ويتقدمون للملك الراحل بمطلبهم في تحرير بلادهم من الاستعمار . فيجدون لديه كل رعاية وترحيب مما مكنهم من مزاولة نضالهم ضدا على الاستعماريين المذكورين ، إذ تأسست صحافة خاصة بالموضوع وعقدت لقاءات ، ومؤتمرات شارك فيها الصحراويون . وإثر المؤتمر الذي عقده هؤلاء استقبلهم محمد الخامس في 20 صفر 5/1378 شتنبر 1958 ، قال لهم من جملة خطاب «وقد تأثرنا من الحرارة التي أبرزتم بها تمسككم بالقومية المغربية ، وتعلقكم بالعرش العلوي ، وما كان الشك ليخامرنا في صدق مشاعركم نحوهما ، فنحن نعتقد أنكم خير خلف لخير سلف ، وأننا وإياكم شيء واحد ديننا الاسلام ولغتنا العربية ، ووطننا هذا المغرب العزيز . سندرس مقرراتكم وملتمساتكم بكل ما تستأهل من عناية . وإن اهتمامنا لكبير برعيتنا أينما كانت ، ولاسيما أولئك الذين مازالوا تحت السيطرة الأجنبية (220) .

هاته الخطوات الأولى التي جرت بعيد الاستقلال تبين أن الصحراويين خلافا للادعاءات الكاذبة والدعايات المصطنعة التي نشاهدها اليوم لم يكن يخطر ببالهم أن لهم قومية أخرى غير القومية المغربية ، ولم تنشأ بين ظهرانيهم لا حركة ولا زعامة تقول بغير ذلك . ولولا التدخلات والدسائس الأجنبية التي ظلت تنشر أحابيلها في الظلام لاستمرت هاته الحركة في نفس الاتجاه دون أي اعتراض . ولكن روح الهيمنة الاستعمارية كما بينت الأحداث القريبة منا تسعى دائما الى تجزئة الدول وتشجيع الكيانات الصغيرة حتى يسهل عليها التلاعب بها والتحكم في منطقتها

لكن محمد الخامس لم يقصر خطابه على الداخل وعلى المواطنين المغاربة بل قام بمساع جادة لدى الدول المعنية بالقضية ، كما يتراءى ذلك من تصريحاته للصحافة

الفرنسية بتاريخ 15 شعبان 6/1377 مارس 1958، فهو بعد أن يذكر بسياسة المغرب الرامية الى المحافظة على العلاقات الحسنة مع فرنسا في دائرة الاستقلال والاحترام المتبادل يقول «ولا يكتمكم أنه برغم خطتنا هاته، نلاحظ أن بعض القادة الفرنسيين بدأوا يسلكون في المدة الأخيرة سياسة تبعد كثيرا عن الود والمجاملة. ومن مظاهرها تعاون القوات الفرنسية والاسبانية في العمليات التي يقومون بها ضد رعايانا، وفي مناطق تابعة لمملكتنا بشواهد التاريخ ورغبات السكان وقد قلت في المحاميد إننا لا نطالب إلا بما هو ثابت لنا بحكم التاريخ والأوفاق الدولية ومؤيد برغبات السكان.

ونحن نعلم أن أهل تلك الجهات يطلبون تحريرهم من السيطرة الاستعمارية ليتمتعوا بما يتمتع به باقي مواطنيهم من نعمة الاستقلال. وقد حجت إلينا وفودهم، وجددوا لنا ولاءهم أثناء زيارتنا الأخيرة للمحاميد. وعلى أي حال فإن كل تسوية ديموقراطية لمشكلة الصحراء ينبغي أن تكون موافقة لرغبات السكان. والكلمة الأخيرة والأولى في الموضوع إنما هي لهم.

إن كل مشكلة ـ ومنها مشكلة الحدود ـ يمكن حلها بالطرق السلمية إذا حسنت النية من الجانبين، ورغب كل من الطرفين في الخير لصاحبه ونحن من جهتنا، ما فتئنا نكرر حسن نيتنا، بل ونبرهن عليها في مختلف المناسبات. ونحن مستعدون للتفاوض بغية الوصول الى حل يعيد الحق إلى نصابه في تلك الجهات»(155).

قليل هم رؤساء الدول الذين يصلون الى هاته الدرجة من حسن النية فيظهرون رغبتهم في التفاوض ووضع مشاكل الخلاف في مجال البحث والحرص على السلم والعلاقات مع الطرف الآخر إنها بالفعل أخلاقيات مبنية على الشهامة والرصانة، وهي التي كانت قوة محمد الخامس وسلاحه الذي طالما كان له أعمق الوقع لدى مخاطبيه، خصوما كانوا أم أصدقاء، وبها حقق كثيرا من المطالب وبلغ كثيرا من الأهداف. لكن تعنت المستعمرين في إرجاع الصحراء إلى المغرب كان قد بلغ أقصى درجة من التصلب. فمنذ اكتشاف البترول في جنوب الجزائر تحلبت شفاههم وقويت أطماعهم وصاروا ينظرون إلى تلك الأراضي الخالية والمجدبة بمعنى الطمع

والجشع ويمكرون في سبيل المحافظة عليها .

وهنا بدت للعيان ضرورة القيام بنضال تحرير في عين المكان واللجوء الى السلاح مادامت الأخلاقيات لا وقع لها في سياسة الدول الكبرى، التي وإن كانت تتشدق بها في المحافل الدولية ، فهي تتناساها بالمرة في سلوكها الحقيقي ، وبالأخص إذا كان الأمر يتعلق بمصالحها . ولذا فقد فتحت صفحة أخرى من نضال جيش التحرير بالجنوب ، صفحة لا تقل بطولة ومجدا عما جرى في الشمال ، حيث كان للعمليات الأولى التي قام بها أثرها في التعجيل بعودة محمد الخامس من منفاه الى عرشه والحصول السريع على استقلال البلاد .

والحقيقة أن الجنوب المغربي كله من الأطلس الكبير إلى جوف الصحراء تحرك بآماله وراء جيش التحرير ، سيما وأن سكان الصحراء ما فتئوا يعبرون للإسبان في الساقية الحمراء ووادي الذهب عن كونهم مغاربة ، ويرغبون في الحاق أقاليمهم بالمغرب . ولقد عبروا عن شعورهم هذا بكل قواهم غداة إعلان استقلال المغرب في 1956فنظموا مظاهرات ورفعوا الاعلام المغربية ، وبرغم قمع السلطات الاسبانية عقدوا مؤتمرا كبيرا في أم الشك حضره ما لا يقل عن خمسة الاف من الصحراويين وكانت القرارات التي خرج بها ذلك المؤتمر تصب كلها في مقاومة الاستعمار والالتحاق بالوطن الأب . وجاء باسم المؤتمر وفد إلى الرباط لابلاغ وفاء السكان وولائهم الى ملك المغرب محمد الخامس ولاشعار الرأي العام المغربي بقضيتهم . ولم يضيع جيش التحرير كثيرا من الوقت ، إذ بدأ يتمركز في المنطقة ابتداء من أبريل 1956أي بعد حصول الاستقلال بشهر واحد وكان لمجيء جيش التحرير أثره في تنظيم مقاومة الصحراويين ، تبعا للخبرة التي اكتسبها من نظاله السابق في الشمال . ولا شك أن عزمه على مواصلة الكفاح لتحرير الأراضي المغتصبة في الجنوب كان له أثره الفعال في اجتذاب كثير من الصحراويين . وهو عزم عبر عنه أحد قادته لجريدة «Le Monde» .

ولم ينطلق جيش عمل التحرير بصورة ارتجالية أو بمبادرات فردية ، بل بتنسيق مع الخطة التي كان يفكر فيها محمد الخامس من أجل استكمال الوحدة الترابية

وباتصال وثيق مع قادة الحركة الوطنية فنجد الزعيم علال الفاسي بمناسبة ذكرى استشهاد محمد الزرقطوني، يصرح في 19 يونيو 1956 أثناء خطابه بأن المغاربةسيواصلون نضالهم إلى أن يحرروا كل أراضيهم المغتصبة في الصحراء وغيرها التي مازالت في يد الفرنسيين والاسبان. وفي شهر غشت اجتمع المجلس الوطني للمقاومة واتخذ قرارا بمواصلة الكفاح من أجل اتمام الوحدة الترابية باسترجاع الأراضي المغتصبة ودعم الشعب الجزائري في معركته التحريرية.

وفي نفس الصيف، توجهت وحدات أخرى من جيش التحرير الى المنطقة لتقوية الوحدات التي سبقتها هنالك منذ أبريل من نفس السنة. وحول هاته القوة المدربة على قتال الجيوش الاستعمارية تألفت القبائل الصحراوية، بحيث تكون من الجميع جيش وطني بكل معنى الكلمة إذ يضم عناصر من الساقية الحمراء ووادي الذهب ودكالة والشاوية والأطلس المتوسط والريف وتافيلالت وغيرها من أقاليم المغرب.

وابتدأت المعركة في أيت باعمران المتاخمة للصحراء وكان الهدف منها تحرير مدينة إفني ومنطقتها وإجبار الاستعمار الاسباني على التخلي عن تلك المنطقة المغربية والمناسبة تدعو هنا إلى التنويه كل التنويه بقبيلة ايت باعمران المجاهدة التي ضربت الرقم القياسي في مجالدة الاستعمار، إذ جابهته من سنة 1916 إلى 1934. ثم استانفت المعركة في 1956 ولا يتسع الوقت لذكر فصول كفاحها العظيم. واكتفي بالإحالة هنا على كتاب صديقنا المقاوم محمد الوديع الآسفي المعنون «منطقة آيت باعمران ملحمة البطولة»، وانقل من كتابه هذه الفقرة

«ويحل يوم 23 نوفمبر سنة 1957 ولم تكد الساعة السادسة من صباحه تدق حتى تنفجر الثورة الشعبية التي حددت لها الساعة المذكورة لتنطلق عارمة وشاملة عبر صعيد المنطقة الملتهبة حماسا وايمانا مستهدفة قوات العدو المرابطة عبر مراكزه المحصنة وحصونه المنيعة المقامة عبر المواقع الهامة داخل قبائل المنطقة بأجمعها. وبما أن أبناء المنطقة كانوا كلهم تواقين إلى الخلاص من نير الاستعمار للالتحاق بالوطن الأم، فقد كانوا بأجمعهم تقريبا قد رشحوا أنفسهم متطوعين، ومزودين بكل ما يحتاجون إليه من تغذية وسلاح للمساهمة في المعارك، التي كانوا يتطلعون إليها

بمنتهى الشوق واللهف فكانت مشاركتهم في الثورة العامة شاملة ومكثفة ذات فعالية عظمى. الأمر الذي أصبحت فيه كل المؤشرات تؤكد بأن النصر أصبح أمرا محتوما» (ص 116).

فقرة نقلتها بنصها حرفيا لأن صاحبها يتحدث كشاهد عيان تمكن من تصوير شعور الباعمرانيين وحماسهم والجو الذي كان يسود تحركهم. وقد انتصروا بالفعل، لأن الإسبانيين اضطروا الى الانسحاب من كل الأراضي المحيطة بسيدي ايفني وأصبحوا محاصرين داخل المدينة.

وانطلق جيش التحرير، اثر هاته الانتصارات الأولى الى مباشرة عملياته داخل الصحراء. وتتفق كل الروايات على أنه تقدم بسرعة كبيرة واكتسح اجزاء كبيرة من الساقية الحمراء ووادي الذهب ودحر الاسبان نحو الشريط الساحلي. بل إن إحدى وحداته «اجتازت الساقية الحمراء ووادي الذهب دون أن تصادف أية مقاومة ووصلت الى بئر شيمان الواقع شمال آطار على بعد مائة كيلومتر وهاجمت كوكبة فرنسية من المهاري (كوديو 214). وفي نفس الوقت قامت وحدات اخرى من جيش التحرير بطرد الفرنسيين من بويزاكارن وأسا وفم الحصن وطاطا واقا ومير اللفت وتاغجيجت.. الخ. ولدينا في هذا الصدد شهادة الضابط الفرنسي بيران Perrin الذي عاش هاته الأحداث عن كثب وألف في شأنها كتابا مفيدا لأنه من الأول إلى الأخير عبارة عن شهادة شاهد عيان.

حقق جيش التحرير المغربي انتصارات حاسمة على الإسبان في الصحراء واستولى على عدة مراكز من جملتها طانطان والسمارة والمسيد والكلتة. كما وصل إلى بوجدور حيث هاجم مراكز العدو العسكرية. ومن بين المعارك الضارية التي انتصر فيها جيش التحرير معركة العركوب وأكركر في يناير 1958. ولا بأس هنا من الرجوع إلى البلاغات التي كان يصدرها ذلك الجيش، كما أحيل على المقال المفيد الذي كتبه صديقنا عبد الرحيم أغماني مؤخرا في جريدة الاتحاد الاشتراكي بتاريخ 6 نوفمبر 1991 وقد باشر منذ سنوات تحت اشرافي بحثا في الموضوع يقع في حجك كتاب. فعسى أن يعده للنشر لسد ثغرة كبيرة في تاريخ الحركة الوطنية

المغربية.

وأثارت هاته الانتصارات السريعة بالطبع تخوفاتِ الاستعماريين الفرنسي والإسباني وباتا يحسبان ألف حساب لما يحمله المستقبل من خطر عليهما. وكما وقع في ثورة محمد بن عبد الكريم، عادا مرة اخرى إلى التفاوض والتواطئ من اجل القضاء على هاته الحركة التحريرية التي سار فيها جيش التحرير بخطوات واسعة. فدبرا حملة عسكرية ضخمة حشدا لها كل ما يمكن من الجنود والعتاد الحديث المتطور من طائرات ودبابات. فكانت معركة «ايكوفيون» أي «الفرشاة» التي أبلى فيها المجاهدون المغاربة البلاء الحسن بوسائلهم المتواضعة واستشهد منهم طائفة واضطر الباقون الى التراجع نحو قواعدهم بالشمال. وكان من الممكن ان ينتصروا لو توفرت لهم الوسائل ووصلتهم الإمدادات الضرورية وهنا مجال لمواصلة البحث في الأسباب والنتائج.

ومن جهة أخرى، قرر الاسبان ان ينتقموا شر انتقام من الصحراويين على مواقفهم الوطنية. فشردوا عددا من قبائلهم. فاضطر الآلاف منهم للالتجاء الى شمال المغرب. وهم الذين يطالبون اليوم بحق المشاركة في الاستفتاء من أجل تقرير المصير وحرمانهم من هذا الحق اذا وقع، يعني مواصلة القمع الاستعماري الذي عانوا منه منذ أزيد من ثلاثين سنة. وإن قضيتهم، كما هي مطروحة الآن، لخير دليل على وطنيتهم وصمودهم ومقاومتهم للاستعمار. كيف لا وقد جاءت مبادرة النضال منهم في أول هذا القرن مع حركة الشيخ ماء العينين الذي ترك لهم خير مثال في الآباء والحفاظ على الشرف.

ولا يتسع لنا الوقت للحديث عما جرى من بعد والذي سيتعرض له، ولا شك، مشاركون آخرون بالتفصيل. والمهم هو أن المغاربة، ملكا وشعبا، لم يتخلوا عن حقوقهم ولم يسكتوا عن مطالبهم ولم يتركوا الاستعمار الاسباني يتصرف حسب هواه دون أن ينازلوه في الميدان الدبلوماسي وفي أروقة الأمم المتحدة ودون ان يلجئوه الى التفكير في تطبيق مبدأ تصفية الاستعمار الذي نادت به المنظمة الأممية. وذهب المستعمرون في تأويلاتهم ومرواغاتهم وحساباتهم ما شاء لهم هواهم. فكان لابد

من قرار تاريخي حاسم يقدم البرهان الساطع على ارادة الشعب المغربي في تحرير أراضيه المغتصبة في الساقية الحمراء ووادي الذهب. وكان هذا القرار هو المسيرة الخضراء التي نادى بها جلالة الملك والتي كانت ابتكارا فريدا من نوعه في حل المشاكل المستعصية بالطرق السلمية. فالمسيرة التي ضمت 350.000 من المواطنين المغاربة جسدت عزيمة الشعب المغربي وبينت استعداده للتجند السريع لخوض معارك الله اعلم بمداها ومنتهاها. فأكسبت المغرب هيبة قبل سل السيوف من أغمادها ودفعت الخصم الى التفكير في العواقب والى الاتجاه لحل التفاهم والتراضي. فكان من وراء ذلك تحقيق للأهداف مع اجتناب إراقة الدماء وإشعال نار الحقد والعداء في المنطقة وتقديم المغرب بوجه البلد الناضج المتحضر، وذلك هو سر عظمة المسيرة الخضراء.

المحور الثاني

جذور المقاومة المغربية
من الشمال إلى الصحراء(2)

جذور المقاومة المغربية
ومراحل تطورها

عبد الله العياشي
مقاوم وباحث
الدار البيضاء

أريد في البداية أن أتوجه بكل التهاني إلى كل من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، والمندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير على إتخاذها مبادرة تنظيم هذه الندوة حول موضوع يكتسي أهمية قصوى، موضوع ذاكرة أمتنا وشعبنا.

وكما أعبر عن جزيل الشكر والامتنان على الدعوة الكريمة التي وجهت إلي والتي تمكنني بأن أحظى بشرف المساهمة في هذه الندوة بجانب أساتذة اجلاء سوف اتعلم منهم ولاشك الكثير في موضوع لايزال شعبنا ومناضلوه يسترشدون بدروسه في مواصلة النضال من أجل تتميم تحرير البلاد في افق التنمية والتقدم والحرية والديمقراطية.

المقاومة، بمفهومها الواسع، تندرج حسب ما اعتقد في مفهوم الحركة الوطنية وتاريخ الاولى هو بالذات تاريخ الثانية ووضع فرق بين المفهومين، في رأيي، يعاكس الواقع والحقيقة التاريخية ويعارض منطق التحديد العلمي ويتنافى مع منهجية التحليل.

التطرق إلى تاريخ المقاومة بهذا المنظور الشمولي، منظور الحركة الوطنية ككل،

أمر ضروري، وذلك للرد على آراء نسمعها ونقرؤها تنظر الى تاريخ الحركة الوطنية نظرة اتفاقية واحادية الجانب، نعم هناك من يحصر الحركة الوطنية في مظاهرها أو في مرحلة معينة من مراحلها أو في شكل من أشكال تنظيمها أو نوع من أنواع أهدافها. في هذا السياق تتجلى أهمية النقاش حول جذور الحركة الوطنية وتاريخ انطلاقها وظهور الحس ثم الوعي الوطني، إلخ..

في هذا الباب تبرز نظريات وآراء مختلفة ومتضاربة فهناك، مثلا، من يربط بداية الحركة الوطنية بمعركة وادي إسلي سنة 1844 ربما لأنها كانت أول مجابهة عسكرية بهذا الحجم الضخم تمت بين الجيش الفرنسي والجيش المغربي الذي بعثه السلطان مولاي عبد الرحمان تحت قيادة ابنه وولي عهده سيدي محمد، وذلك لنجدة الشعب الجزائري المحتل من طرف الاستعمار الفرنسي منذ 14 سنة فكانت أول هزيمة ذريعة يمنى بها الجيش المغربي في تاريخ الدولة العلوية، كما ترتبت عن هذه الكارثة عواقب وخيمة أدخلت المغرب في مرحلة تفاقمت فيها الأخطار على سيادته واستقلاله ووحدة ترابه.

ورأي ثان يقارن الانطلاقة الأولى للحركة الوطنية باحتلال الاسبان لمدينة تطوان في 1860، ذلك الاحتلال الذي كانت ذريعته الاقتصاص مما كان يمارسه سكان ضواحي هذه المدينة من مقاومة ضد المحاولات التي كان يقوم بها الجيش الاسباني قصد توسيع رقعة احتلاله لمدينتي سبتة ومليلية.

وكانت من عواقب هذا الاحتلال، ارغام المغرب على تأدية غرامة حرب فادحة لم تكن تتوفر الخزينة المغربية سوى على 40٪ من قيمتها، كما فرض عليه أن يقبل تعديلات ترابية وسعت بمقتضاها منطقة احتلال مدينتي سبتة ومليلية، ومنحت اسبانيا حق استعمال مرسى في منطقة افني. وأخطر من كل هذا، سمح لاسبانيا أن تنصب موظفين لها في المراسي المغربية لمراقبة المراكز الجمركية والاستيلاء على مداخلها لأخذ الغرامة المفروضة على المغرب مباشرة.

كانت حقا حقبة جد محرجة في تاريخ المغرب المعاصر، وبداية الأزمة العامة التي تفاقمت منذ ذلك الحين بكيفية متصاعدة إلى أن انتهى المطاف بفرض عقد الحماية

وفقدان المغرب لاستقلاله.

وبالطبع كانت قد أثارت هذه الحالة، كما كان الأمر اثر كارثة وادي اسلي، الاستياء والغضب في نفوس المواطنين واحدثت حملة عارمة تنادي إلى الجهاد لردع الكفرة المعتدين أعداء الله والوطن.

ومع ذلك لا يمكن في رأيي اعتبار هذا الذي حدث سواء بعد اسلي أو بعد احتلال تطوان، بداية المقاومة والحركة الوطنية لأن معارك مصيرية مماثلة عديدة اخرى اختلفت في الزمن وفي الشكل والأهداف قد سبقتها.

لكن الرأي الأكثر شيوعا، في هذا المجال، هو القائل بأن الحركة الوطنية انطلقت مع حركة اللطيف الاحتجاجية على الظهير البربري الصادر في 16 ماي 1930. وأصحاب هذا الرأي، في الواقع، يحصرون الحركة الوطنية في شكلها السياسي الذي انطلق منذ بداية القرن الحالي ولاسيما مع الحركة الدستورية التي ظهرت في سنة 1908 معناه حسب هذا النظر، لم تكن الحركة الوطنية إلا بعد ان وصلت الى المدن الحضرية ودخل في حلبتها المتمدرسون. وتأكيدا لهذا الرأي كتب أحد دعاته ما يلي:

«الذين نهضوا بعبيء الحركة الوطنية في بداية عهدها كانوا من أبناء البرجوازية الصغيرة في مدن فاس والرباط وسلا وتطوان من طلبة القرويين والمدارس وكثير منهم منحدرون من طبقة تمثل الطبقة المغلوبة التي لم تحرك ساكنا حينما احتل المستعمرون البلاد»*.

ـ جذور الحركة الوطنية تنغرس في النتفاضات الأولى ضد الدخيل الأجنبي:

في الواقع، ومن باب الموضوعية والحقيقة التاريخية، يجب تحديد بداية الحركة الوطنية مع بداية ظهور الحس الوطني عند سكان قبائلنا، ذلك الحس الذي نعتبره جنينا لما سيصبح، فيما بعد، الوعي الوطني الذي هو بدوره لم يستقر على طابع واحد بل تطور على الدوام بتطور الحركة الوطنية. ولقد وقع هذا التحول في وجدان

* عبد الكريم غلاب: تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب منذ نهاية الحرب الريفية الى بناء الجدار السادس في الصحراء. ص 18.

وتصرف سكان باديتنا لما بدأ الدخيل الاستعماري يغزو ترابنا ويدنس كرامتنا ومعتقداتنا ويعتدي على سيادتنا فشعروا، حينئذ، بحاجتهم الملحة والحيوية إلى تغليب ضرورة مجابهة العدو الخارجي والتصدي له، على نزاعاتهم القبلية التي كانت سائدة في ذلك العهد

ويمكن تحديد هذه البداية مع بداية نزول المستعمرين الإسبان والبرتغال على شواطئنا في أواخر القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر. وفي هذا السياق عرف المغرب حدثين كان لهما وقع عميق على شعبنا. الأول تمثل في اعتداء اقترفه الجيش الاسباني على مدينة تطوان عام 1399، اعتداء ترتب عنه تخريب المدينة عن آخرها وإبادة جزء كبير من سكانها وتشريد الباقي خارجها. قام الجيش الاسباني بهذا العدوان الأثيم بدعوى الانتقام من نشاط القراصنة المغاربة في البحر الأبيض المتوسط الذين في الواقع كانوا يحمون شواطئ البلاد. والحدث الثاني تجسم في احتلال البرتغاليين لمدينة سبتة في عام 1415 وانطلاقا من هذين العدوانين شرع الاسبان والبرتغال في انجاز مخططهم الذي كان يرمي إلى الإستيلاء على مجموع ترابنا الوطني بدءاً بغزو شواطئه. وبعد ان عمل في البداية كل جانب منهم على حدة ولحسابه الخاص، عقدوا تحت اشراف البابا ألكسندر السابع تحالفا تقاسموا بموجبه هذه الشواطئ فيما بينهم، فكان شاطئ المحيط لنصيب البرتغال وشاطئ البحر الأبيض المتوسط لحساب الإسبان.

إلا أنه ومنذ البداية اصطدم الغزو المزدوج بمقاومة القبائل ولا سيما منها المجاورة لأماكن الاحتلال ومما يدل على شراسة هذه المقاومة كون البرتغاليين كانوا مجبرين على أن يحبسوا أنفسهم داخل قلاع محصنة ومغلقة عليهم.

وكان منفذهم الوحيد هو البحر السبيل الأوحد لاستيراد حتى موادهم الغذائية بما فيها الماء الصالح للشرب، من البرتغال، ولاتزال شاهدة على ذلك بقايا هذه القلاع وخزانات الماء المحفورة داخلها ويمكن مشاهدة ذلك خصوصا في مدينتي الجديدة وأزمور، أما الإسبان فحوصروا في ثغور شاطئية محدودة ولم يستطيعوا حينئذ إنجاز ما كانوا يحلمون به من توسع وسيطرة على كامل بلادنا.

وهذا الجهاد الذي كان يغذيه الحافز الديني والغيرة الوطنية هو بدون جدال جزء لا يتجزأ من ثرات حركتنا الوطنية ولو كان يكتسي أشكالا ومضامين مغايرة عما عرفته في عهدنا المعاصر فهذا الجهاد الواعي سياسيا هو الذي جعل الاستعماريين الاسباني والبرتغالي يفشلان في بسط هيمنتهما وبكيفية دائمة على مجموع وطننا كما كانا يحلمان بذلك وكما نجحا في انجازه في العهد ذاته في مناطق وقارات أبعد من المغرب بكثير، أي في افريقيا السمراء وفي الجزء من أمريكا التي تسمى منذ ذلك الوقت بأمريكا اللاتينية.

إن البرتغال بعد مرحلة المد سرعان ما دخل في مرحلة الجزر ففي هذه المرحلة تكبد على أيدي مجاهدي القبائل وبقيادة رؤسائهم العشائريين وشيوخهم الدينيين الهزيمة وسارت الأمور على هذا النحو الى أن وصل بها المطاف الى الكارثة التي سلطها عليهم المغرب قاطبة، شعبا وملكا، والتي قضت بصفة نهائية، على وجوده فوق أغلبية المواقع المغربية التي كان يحتلها ولقد وقع ذلك كما يعرف الجميع، يوم 4 غشت 1578 مع ملحمة وادي المخازن المجيدة فسحق على اثرها جيشهم العرمرم وقتل ملكهم الذي كان على رأسه. كما كان من نتائج هذا النصر المبين الذي حققه المغرب تحطيم دولة البرتغال ذاتها والتي صارت خاضعة اثر ذلك لهيمنة شريكتها في العدوان والاحتلال اسبانيا ولقد اعتنمت هذه الأخيرة الفرصة لتستولي على مدينة سبتة في عام 1580 التي لم يتمكن المغرب من أن يسترجعها في سياق انتصاره على البرتغال.

ـ مواصلة وامتداد التقاليد ترسخت عبر القرون:

سيداتي، سادتي، إخواني الأعزاء

يتبين لنا إذن، ان الحركة الوطنية المعاصرة والتي انطلقت منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين هي امتداد ومواصلة للتقاليد النضالية التي رسخها شعبنا، وفي الدرجة الأولى قبائل باديتنا عبر القرون من التصدي لكل محاولة تستهدف غزو بلادنا واستعباد شعبنا.

فكانت المقاومة المسلحة الأولى التي عرفتها هذه المرحلة والتي اتسمت فيما استمت به، بالشمولية فلقد عمت جميع مناطق المغرب شمالا وجنوبا شرقا وغربا.

ولقد انطلق مسلسل هذه المقاومة من حيث كتب له ان ينتهي اي من الصحراء التي لاتزال الى يومنا هذا، شغل أمتنا الشاغل والتي سنجعل من استرجاعها أمرا لا رجعة فيه.

فمنذ أواخر القرن التاسع عشر وبعد أن تمكنت من السيطرة، بالنار والحديد على الجزائر ثم على تونس شرعت فرنسا في مساعيها للاستيلاء على المغرب. فمن صحرائنا الشرقية والجنوبية، دشنت فرنسا بتحالف مع اسبانيا انجاز مخططها الماكر الرامي الى استعمار وطننا وتجزيء ترابه وتوزيع اطرافه بين الاستعمار الفرنسي والاستعمار الاسباني.

ـ اتفاقيات بين المستعمرين تشهد بحدود المغرب التاريخية:

وفي هذا الشأن أبرمت بين هؤلاء المتآمرين عقود واتفاقيات لصوصية عديدة كلها على حساب استقلال البلاد ووحدتها الترابية. الا أنه، وعلى الرغم من ذلك، كانت لها بعض المزايا أفلتت منهم بغير قصد ومن هذه المزايا اعتراف بعض هذه الاتفاقيات بالحدود الحقيقية والتاريخية التي كان عليها المغرب حينذاك، وقبل أن يتنكروا لما جاء في نصوص سطروها بأيديهم وقبل أن يجادلوا المغرب ظلما وعدوانا في حقه المشروع في عودته إلى ما كان عليه قبل الإحتلال والتمزيق.

ومن ضمن هذه الاتفاقيات، تلك التي ابرمت في سنة 1890 بين فرنسا وبريطانيا والتي تعترف فيها الأخيرة للأولى بحق بسط نفوذها على المنطقة الممتدة بين فكيك والرأس الأبيض (نواديبو حاليا) وهذه الاتفاقية لم تكن سرية كما جاء في مقالات صحفية نشرت مؤخرا بحيث يوجد ذكرها في كثير من المراجع التاريخية ومنها كتاب تاريخ المغرب المتناول حاليا في مدارسنا. الا ان الشيء الجديد والذي وقع كشفه في الأيام الأخيرة وهو لا يزال حديث بعض الصحف، هو الإعتراف الواضح والرسمي بمغربية الصحراء المغربية. ولئن كان هذا لا يزيدنا شيئا في ايماننا بهذه

الحقيقة التاريخية ولا في تعلقنا بقضيتنا الوطنية الأولى، فهو على كل حال عنصر مهم في الوقت الذي نخوض فيه معركة ربح الاستفتاء لإضفاء الشرعية الدولية على استرجاعنا، بدون رجعة، لصحرائنا الغربية المغربية.

وبعد إمضاء هذه الاتفاقية الفرنسية البريطانية ابرمن في سنة 1900 اتفاقية بين فرنسا واسبانيا تحدد مناطق نفوذ كل واحدة منهما وتعترف لاسبانيا بحق التصرف الكامل في منطقة الساقية الحمراء. واتفاقية اخرى وقع امضاؤها في 1904 بين الدولتين تسمح لاسبانيا بحرية الاستيلاء على منطقة افني. الجدير بالذكر أن اسبانيا على الرغم من هذا التأكيد الفرنسي لها لم تتمكن من احتلال افني إلا في سنة 1934 أي بعد أن قاوم سكانها مدة ثلاثين سنة.

ـ مقاومة شاملة تتسم بالبطولة ونكران الذات:

نعم، لأن المواطنين الصحراويين، على غرار إخوانهم في باقي نواحي البلاد لم يبقوا مكتوفي الأيدي، بل كانوا يقاومون بكل مالديهم من امكانيات ومما كان يؤكد وعيهم بأن منطقتهم الصحراوية هي جزء من وطن كبير ودولة قائمة الذات، كان زعماؤهم يقودون هذه المقاومة بالتنسيق مع السلطة المركزية المغربية. وهكذا سجل التاريخ أن المجاهد ماء العينين، وهو ابرز وجه لهذه المقاومة، قد أتى في سنة 1907 إلى مدينة فاس العاصمة حينذاك لتجديد بيعة سكان الصحراء للسلطان عبد العزيز وليتسلم منه السلاح والذخيرة والزاد ثم يعود الى إقليم الصحراء ليتابع على رأس قبائلها المتكتلة المقاومة ضد الغزاة الاستعماريين الفرنسيين والاسبان.

وبعد وفاة المجاخد ماء العينين خلفه ابنه أحمد الهيبة الذي واصل المقاومة بالصحراء بل وساهم في الجهاد مع إخوانه بشمالها ولاسيما أحواز مدينة مراكش واستمر يقاوم الجيش الفرنسي في المنطقة إلى أن وافاه الأجل في سنة 1919 بعد أن سلم مشعل الجهاد الى أخيه الذي واصل المعركة إلى حدود 1934.

ومثل هذه المعارك الملحمية شملت كما قلنا سابقا، جميع مناطق باديتنا، فبالإضافة الى الصحراء، كما ذكرنا، كانت نار المقاومة ملتهبة على الحدود المغربية

الجزائرية لصد تسربات الجيش الفرنسي، وعلى شواطئ المحيط الاطلسي الكبير ولاسيما بعد قصفه لمدينة الدار البيضاء سنة 1907 وفي جبال الاطلس الكبير والمتوسط والصغير ولا تزال في ذاكرة شعبنا ذكرى ملاحم مجيدة وقادة ابطال مثل موحى أوحمو الزياني، وفي جبال الشمال حيث كانت ملحمة الريف وجبالة بقيادة البطل المغوار الخالد الذكر محمد بن عبد الكريم الخطابي.. الخ..

وبالاضافة الى طابع الشمولية اتسمت هذه المقاومة بالشجاعة النادرة والبطولة ونكران الذات قليلي النظر. وفي هذا الباب، نريد ان نستشهد بأحد رموز ما كان يسمى بحرب التهدئة، لأحد جبابرة المستعمرين وهو الجنرال گيوم السيء الذكر لقد جاء في كتابه «البرابر المغاربة وتهدئة الاطلس الأولى 1912 ـ 1933» ما يلي: «لم تأت إلينا تلقائيا ولو قبيلة واحدة. ولم نر قبيلة واحدة تستسلم بدون أن تحارب إلى أن تستنفذ آخر ما لديها من وسائل المقاومة» (ص 73).

ثم يزيد قائلا، بدون ان يستطيع اخفاء إعجابه بالمقاتل المغربي «إنه شجاع الى حد التهور والمخاطرة فهو يعرف كيف يضحي بدون تردد بكل ما يملك وحتى بعائلته وبأكثر سهولة بحياته وذلك دفاعا عن حريته..» (ص 80) إن الحق ما شهدت به الاعداء.

هذه الأمجاد لم تنبت من لا شيء مثل الفطر بل أن لها جذورا مغروسة في التربة التي أخصبت أمجادا مماثلة سبقتها، تكدست عبر قرون من النضال والمقاومة والاستشهاد وهي ذاتها التي ورثتها وواصلت تقاليدها مرحلة النضال الذي بفضله استرجعنا استقلالنا ووحدنا جل أجزاء ترابنا الوطني.

إلا أن هذه المقاومة المسلحة التي دامت أكثر من ثلاثين سنة لم يكن من شأنها إلا أن تفشل في إنجاز هدفها وهو الحفاظ على استقلال البلاد ووحدتها الترابية. وذلك بحكم الظروف التاريخية غير المساعدة والتي لا مجال لنا لتحليلها في هذه الكلمة القصيرة.

لقد توقفت المقاومة المسلحة قسرا ولكن بصفة مؤقتة وترك كذلك شعار

الاستقلال الذي ضاع، وتحول مركز المقاومة من البادية الى المدن وانطلقت حركة سياسية في البادية حول شعار واحد «اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير ولا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر».

إلا أن هذه الحركة السياسية الإصلاحية اكتست منذ بدايتها دينامية قوية اتسمت بتطور مضطرد ومتصاعد ضد القمع والاضطهاد بدون ان يستطيع هذا القمع والاضطهاد توقيف نموها وتطورها. وفي عهدها وضع اول برنامج «مطالب الشعب» ثم «المطالب المستعجلة». كما ظهر أول تنظيم سياسي «كتلة العمل الوطني» وأول حزب سياسي «الحزب الوطني» ثم «الحركة القومية».

وتطورت هذه المرحلة الاصلاحية في المجابهة المستمرة والمتصاعدة مع الاضطهاد الاستعماري وكان تصعيد النضال وتجذير شعاراته هما الراجحان في كل الأحوال. الى أن حدث المنعطف التاريخي الذي تبلور في تقديم وثيقة الاستقلال يوم 11 يناير 1944 فكانت القطيعة مع عهد المطالبة بالاصلاحات وكان الدخول في مرحلة العمل الجذري لتحقيق الاستقلال. ولقد وقع التحول الجذري في مسار وتطور الحركة الوطنية تحت تأثير وعي جديد صار يتحلى به شعبنا بحكم تجربة نضال دام أحد عشر عاما، وتحت وقع نتائج الحرب العالمية الثانية وما احدثته من تحولات عميقة على الصعيد العالمي، وفي سياق الانتفاضة العامة والعارمة التي نهضت بها شعوب المستعمرات مطالبة بتحريرها وباستقلالها الوطني.

ولم ينفعل الاضطهاد في اخماد هذه الحركة التي لم تعرف سوى التصعيد والتجذير، مما أدى إلى حوادث دجنبر 1952.

ولقد اظهرت هذه الحوادث محورها من المدن التقليدية الى المراكز العمالية ولاسيما الى عاصمة البروليتاريا الدار البيضاء، كما كانت مناسبة أظهرت دخول الطبقة العاملة بكل ثقلها كطبقة اجتماعية طلائعية في معركة الاستقلال مع كل ما يمثل ذلك من تأثير ديناميكي فعال.

واتسمت هذه المرحلة بتشديد الاضطهاد من جهة وتصعيد النضال من جهة

أخرى وكان آخر مطاف هذه المرحلة، المؤامرة الدنيئة على العرش بنفي الملك الشرعي واطلاق العنان للإرهاب الاستعماري ضد الحركة الوطنية وكل الجماهير الشعبية.

لكن الارهاب الاستعماري لم ينتج عنه سوى تجذير النضال كما تجلى ذلك في العودة إلى المقاومة المسلحة، أولا في المدن، وبالخصوص في عاصمة البروليتاريا الدار البيضاء، ثم في البادية بانطلاق جيش التحرير من جبال الشمال - فكانت قمة الصراع بين النضال والمقاومة من جهة والاضطهاد والارهاب الاستعماريين من جهة اخرى - فانقلبت الاوضاع رأسا على عقب وبكيفية جذرية - فجاء الانتصار المبين بعودة ملك البلاد الشرعي الى عرشه وكان الإعلان عن الاستقلال وفتحت آفاق تتميم التحرر الوطني ولا سيما بتوحيد جل أجزاء التراب الوطني واسترجاع صحرائنا الغالية الى حظيرة الوطن كما حدث بالفعل إثر المسيرة الخضراء المجيدة.

فجاءت هذه الانتصارات تتويجا لمقاومة انطلقت مرحلتها منذ بداية القرن الخامس عشر ومرت عبر المقاومة المسلحة التي لم تتوقف إلا في سنة 1934، وتواصلت بالنضال السياسي الذي انطلق في بداية الثلاثينات وتوجت بالعودة الى النضال المسلح للمقاومة وجيش التحرير

هذه هي بإيجاز جذور ومراحل الحركة الوطنية المغربية، حركة واحدة تطورت في مواصلة لم تنقطع وإن اتسمت بالتغيير المستمر في أشكال التعبير عنها في تنظيمها.

لكن جوهرها واحد منذ البداية إلى يومنا هذا وهو الدفاع عن السيادة والكرامة والاستقلال والوحدة الترابية ضمن وطن واحد: المغرب الخالد.

نسف المؤسسات التقليدية وتمهيد الاستعمار الفرنسي

برادة ثريا
كلية الآداب والعلوم الانسانية
القنيطرة

لم يكن عقد الحماية سنة 1912 إلا حلقة من حلقات صراع طويل بين بلد مسلم ذي تقاليد استقلالية، وبين بلدان معادية للاسلام وذات أطماع استعمارية وهو صراع بدأ منذ التقهقر الاسلامي في الأندلس، وفي حوض البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة، حيث بدأ المد الصليبي يصل إلى السواحل المغربية الشمالية والغربية، ودخل المغرب في مواجهات عسكرية خرج منها في بعض الأحيان منهزما وفقد سيطرته على بعض مدنه الساحلية كسبتة ومليلية، وطنجة والعرائش، والجديدة الخ. إلا أن ميكانزمات الاستقلال كانت تعود دائما للعمل من جديد وتتحرك المؤسسات السياسية والعسكرية لتجعل هذا الاحتلال محدودا في الزمان والمكان، وتعيد للبلاد وحدتها وسيادتها على جميع أطرافها.

ولكن سقوط المغرب تحت الحماية كان ذا طابع أخطر وأوسع إذ لم يكن نتيجة مواجهة عسكرية اندحرت فيها القوى المغربية أمام القوى الأجنبية، بل كان نتيجة سياسة استنزاف استهدفت المؤسسات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية، وقضت على مناعتها وانسجامها وسهلت التغلغل العسكري الفرنسي، ومهدت الجو لعقد معاهدة الجماية.

سلسلة الاستنزاف هذه بدأت منذ استقرار الفرنسيين في الجزائر، حيث كان هذا

نهاية عهد التعايش السلمي Modus vivandi الذي توصل إليه المغرب والامبراطورية التركية بعد سنين طويلة من المواجهات والأطماع.

فاحترام الحدود المطاطية القائمة الذي ضمن منذ عهد مولاي اسماعيل علاقات سلمية بين دولتين إسلاميتين أصبح مستحيلا بين دولة احتفظت بتقاليدها وحميتها الاسلامية رغم ركود سياسي واقتصادي وفكري، وبين دولة تحدوها طموحات توسعية وتدعمها قوة عسكرية وسياسية واقتصادية متطورة.

لهذا فمنذ احتلال الفرنسيين للجزائر اصبح حتميا، سواء بالنسبة لاستقرار الجزائر أو بالنسبة لمستقبل مشروع الإمبراطورية الفرنسية في جنوب حوض البحر الأبيض المتوسط أن تدخل فرنسا في مواجهات مع المغرب.

وبالرجوع للوثائق الفرنسية المتعلقة بالفترة التي تفصل بين دخول الفرنسيين الجزائر وبين عقد الحماية 1912، سواء منها المراسلات بين السلطات العسكرية في الجزائر ووزارة الدفاع الفرنسية أو بين هذه الأخيرة ووزارة الشؤون الخارجية أو بين هذه الأخيرة والممثلين القنصليين الفرنسيي في المغرب وبين هؤلاء والسلطات العسكرية الفرنسية في الجزائر أو الكتابات والبحوث الأجنبية حول المغرب لنفس الفترة، يتضح رغم تباينها في الزمن والمكان والغايات والأساليب، ورغم الأحداث الحاسمة التي تفصل بينها من هزيمتين عسكريتين ومعاهدات غير متكافئة وتنازلات اضعفت مناعة الكيان المغربي، يتضح أن فرنسا بقيت طول هذه الفترة تضرب الحساب لقدرة المغرب على المقاومة ولقدرة مؤسساته على التجديد واسترجاع حيويتها في حالة هجوم أجنبي على التراب المغربي.

ومن الوثائق يتضح كذلك أن السياسة الفرنسية انكبت منذ احتلال الجزائر على دراسة هذه المؤسسات والعمل على تعطيلها.

وأول المؤسسات التي حظيت بأكبر قسط من الاهتمام والدراسات وتعرضت الى نسف ممنهج طوال هذه المدة هي الهياكل السياسية العسكرية.

فمع ان الفرنسيين كانوا على علم بضعف القوة العسكرية المركزية وتآكل

السلاح والتجهيزات كما تدل على ذلك التقارير العسكرية الفرنسية حتى قبل استقرار فرنسا في الجزائر[1]، وأن هذا الضعف تأكد للجميع في معركة إسلي ثم في حرب تطوان، وطوال النصف الأخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، إلا أن فرنسا بقيت تتخوف من القوات الدفاعية الهائلة التي كان يتوفر عليها المغرب ومن الدور الذي كان في استطاعة السلطان ان يقوم به لبلورة هذه القوات المشتتة، إذا استعمل نفوذه الديني والسياسي لتحريكها للجهاد، خصوصا وأنها تأكدت من أن هذا النفوذ قد يتعدى الحدود المغربية منذ الوهلة الأولى لهجومها على الجزائر، فقد لمست هذا الخطر حينما استنجد أهل تلمسان بسلطان المغرب ودخلوا تحت بيعته، بصفته أمير المؤمنين، كما ان المجاهد عبد القار بن محي الدين بقي يستمد الشرعية الدينية بإعلانه أمام القبائل بأنه كان خليفة السلطان مولاي عبد الرحمن حتى بعد انسحاب الجيش المخزني من تلمسان ونواحيها.

وظلت فرنسا تنزعج طوال القرن التاسع عشر من هذا النفوذ وتتبع عن كثب الاتصالات القائمة بين الزوايا الجزائرية وسلاطين المغرب، خصوصا في عهد مولاي الحسن حيث راجت عدة اشاعات عن احتمال اعتراف السكان الأفارقة به كأمير للمؤمنين عوض السلطان التركي[2].

كما بقي «الجهاد» الهاجس الأكبر للأوروبيين بصفة عامة والفرنسيين بصفة خاصة اذ كانوا على علم بأنه أمل يراود نفوس المغاربة، وأنه كان يطرح نفسه بحدة عند كل أزمة مثلا بعد احتلال الفرنسيين للجزائر، ثم بعد انهزام معركة إسلي، وقبل وبعد احتلال تطوان من طرف الإسبانيين، وبعد احتلال توات وتوغل الفرنسيين في الأقاليم الصحراوية وبعد معاهدة الخزيرات واحتلال وجدة والدار البيضاء. وقد تجسمت هذه الرغبة الشعبية في خلع مولاي عبد العزيز ومبايعة مولاي حفيظ كسلطان للجهاد.

وقد كانت الهياكل السياسية العسكرية المغربية في بنيتها التقليدية، قابلة لبلورة حركة الجهاد فطبيعة الإنسان المغربي، والنظام القبلي، الذي كان توازنه يرتكز على تكافئ القوى بين القبائل مما يقتضي أن تكون كل قبيلة وحدة عسكرية،

وكل افرادها جنودا مستعدين لمواجهة أي اعتداء دون أن تختص فئة بالأعمال المدنية أو العسكرية على عكس ما كان في بعض المجتمعات كالمجتمع الفيودالي مثلا أو المجتمع الياباني الذي كان يجعل من كل القبائل مستودعا للجنود والخيل والسلاح، ويحصر دور الدولة في كيفية استغلال هذه الطاقة العسكرية الهائلة الجاهزة وضبطها، وتوحيدها أو تشتيتها حسب الاختيار السياسي، والاحتفاظ من بينها بقوة عسكرية دائمة وكافية لتدعيم السلطة المركزية.

وهذا يفسر أن القوة العسكرية المغربية بقيت إلى حدود ما يسمى بالإصلاح العسكري قائمة على التكامل بين الجيش المخزني المكون من العبيد وقبائل الجيش التي كانت ملزمة بالخدمة العسكرية مقابل استغلالها لبعض الأراضي واعفائها من الضرائب والتي تنضم إليها في وقت الحركة قبائل النايبة وبين القوات القبلية التي تلتف حول الجيش المخزني في وقت تعرض البلاد لخطر خارجي(3)، وهذا النظام كان يضمن للبلاد قوة عسكرية لا تثقل نفقاتها كاهل الدولة، وتخلق نوعا من التوازن بين القوة المركزية والقوات القبلية وتجعل مهمة الدفاع عن البلاد من اختصاص الجميع في إطار الجهاد بمعناه الاسلامي، اذ يصير فرضا عينا على كل مسلم ومسلمة حينما تتعرض البلاد لغزو الكفار، كما يجعل جميع القوات العسكرية عند رهن اشارة السلطان لأن واجب وحق إعلان الجهاد موكول إليه شرعا بصفته أمير المؤمنين.

لهذا فقد استهدفت المخططات الاستعمارية تعطيل ميكانيزمات الجهاد بسلخ النواة المخزنية عن باقي العناصر العسكرية المكملة، ومنع كل بلورة لهذه القوات حول شخص السلطان، مما جعل مقاومة المغرب للغزو الأجنبي التي لم تنقطع منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر إلى فرض معاهدة الحماية مقاومة متشتتة، لم تستطع رغم أشكالها البطولية أن تعكس الإدارة والقوة العسكرية الحقيقية للبلاد.

ويتضح هذا التخطيط من خلال أنواع وأشكال الضغوط التي فرضت سرا وعلانية على المخزن، فقد كانت كلها في جوهرها وشكلها ترمي الى اجباره على تنازلات وأخذ قرارات تثير سخط الرعية وتوسيع الهوة بينه وبينها.

وانكب الاهتمام كذلك على نسف الهياكل الاقتصادية والاجتماعية فهذه الهياكل على بدائيتها كانت في بنيتها قابلة للتجديد والحفاظ على توازن واستقلال البلاد من التبعية الاقتصادية وما يتبعها من فقدان السيادة.

فالاقتصاد المغربي في أوائل القرن التاسع عشر كان اقتصادا معاشيا بالأساس، مبنيا على توازن بين الإنتاج والاستهلاك وعلى مبادلات داخلية حرّة ولكن متكافئة، وهو اقتصاد وإن كان يتعرض لأزمات ظرفية تخضع بالأساس لعناصر طبيعية من جفاف وفيضانات وأوبئة، وفائض إنتاج إلا أنه كان يحمل في طياته ميكانزمات التقويم التي كانت تساعد على مواجهة هذه الأزمات واجتيازها لتعود البلاد من جديد لحياة اقتصادية عادية ومن أهمها التحكم في قوانين العرض والطلب سواء على الصعيد المحلي عن طريق خزن الفائض او على الصعيد المركزي عن طريق مراقبة الصادرات والواردات بإخضاعها لرسوم جمركية مطاطية تتغير حسب المعطيات والحاجيات الداخلية. وإذا كانت الدول الأوربية في صراعها حول الأسواق والمواد الأولية قد فتحت الاقتصاد المغربي على الاقتصاد الرأسمالي قاضية بذلك على التوازن التقليدي ومعرضة إياه لأزمات من نوع جديد زيادة على أزماته التقليدية التي اكتست طابعا أكثر حدة في نهاية القرن التاسع عشر، فإن فرنسا على الخصوص لم تكن أغراضها اغراضا تجارية محضة كإنجلترا مثلا، بل كان هذا داخلا في مسلسل اضعاف مناعة البلاد وتهييئها للسيطرة الأجنبية.

لهذا نجد أن ضغوطها الاقتصادية والمالية منذ استقرارها في الجزائر إلى 1912 كانت ضغوطا ترمي الى إضعاف البلاد وتفكيكها اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا لأن فرنسا كما قال جاجر سميث(4) في 1853 «لم يكن من مصلحتها من وجهة نظر سياسية أن يسير المغرب نحو التقدم الاقتصادي بل كان يجب عليها أن تترك هذا البلد التعس يتفكك» وأن تعوق كل انتعاش من شأنه أن يقرب السكان من عاهلهم. ويمكن تمييز ثلاث مراحل في هذا النسق، على ما في تحديد مرحلة تاريخية من اجحاف بالفلسفة التاريخية وقواعدها العلمية لأن التاريخ سلسلة من حلقات مرتبطة بعضها ببعض واستمرار يتخلله أحداث ذات قيمة نسبية، ولكن هذا

التقسيم على تداخل مراحله واحداثه يساعدنا على تتبع تدهور الهياكل التقليدية وتداعيها في آخر المطاف :

1 ـ مرحلة اختيار القوى واضعاف قدرة المخزن على المقاومة 1830 ـ 1860 .

وهي مرحلة بدأها مولاي عبد الرحمان بإظهار عزمه على احترام العقد السياسي الديني الذي ارتكزت عليه مشروعية الحكم في المغرب منذ الفتح الإسلامي، اذ تقبل بيعة أهل تلمسان، وأرسل جيشا من العبيد والأودايا لحمايتهم، وأرهف السمع للتحمس الشعبي للجهاد ضد «العدو الكافر الذي دنس دار الإسلام وشرع في تفقد حاميات السواحل وفي اقتناء الأسلحة، وقدم الإعانة المادية والمعنوية للمجاهد عبد القادر ابن محي الدين، وسلك سياسة «لم آمر بها ولم تسؤني» مع القبائل المغربية الشرقية التي كانت تتوغل في التراب الجزائري وتغير على الجيش الفرنسي وهذا أدخل المغرب وفرنسا في اختيار قوي.

فقد استعملت هذه الأخيرة كل أنواع الضغوط والمناورات لجعل المخزن يتراجع عن هذا الاختيار ويظهر هذا في عهد السلطات العسكرية الفرنسية لاعدام بعض المغاربة في الجزائر(5)، وحجز ممتلكاتهم وإرسال مبعوثين عسكريين بانذارات قاسية، واظهار السفن الحربية على السواحل المغربية بل تنظيم توقفات منظمة للسفن العابرة للبحر الأبيض المتوسط والمتوجهة للمحيط الأطلسي أمام طنجة لنشر الرعب والبلبلة(6) واختيار وقت الأزمات الداخلية كثورة الأودايا، والغرب وزعير وتادلا، لتوغل الجيش الفرنسي في الحدود الشرقية ولارسال انذارات صارمة، والقيام بمناورات كمحاولة اقناع المخزن تارة بخطر شعبية عبد القادر عليه وأطماعه السياسية وتواطئه مع القبائل المغربية ضده(7) وتارة بعزم فرنسا على الاتفاق مع عبد القادر وتدعيمه ضد السلطة المركزية المغربية، وبنيتها في البحث بين اقرباء السلطان عن بديل محتمل تشجعه على زعزعة الاستقرار(8)

كما سعت لإحباط كل ما من شأنه أن يقوي شعبية المخزن ومعنوية المغاربة، كتحركها الدبلوماسي حينما علمت بنية اسبانيا التي كانت تواجه صعوبات مالية بسبب الحروب الأهلية عن التنازل عن مليلية وحجرة بادس للمغرب . لأن هذا

التخلي كان من شأنه ان يقوي شعبية المخزن ويجعل المغاربة يؤمنون أن الأوربيين عاجزون عن البقاء فوق ارض اسلامية[9]

وكتشجيعها للسويد والدنمارك على التخلص من الاتاوة التي كانت تؤديانها للمخزن، ولكن المخزن بقي مصمما على الصمود واحترام الاختيارات الأساسية للرعية مع حرصه على تلافي مواجهة عسكرية مفتوحة بالالتجاء الى الأساليب الدبلوماسية لتبرير كل مواقفه: فقد بقي يعلل رفضه بالتعهد بعدم التدخل في شؤون الجزائر، بأنه عمل ديني اذ ليس في استطاعته كأمير المؤمنين أن يرفض بيعة مجموعة من المسلمين[10] وعدم معاقبته للقبائل المغربية المغيرة على الجيوش الفرنسية بأنها قبائل غير مطيعة، وحاول أن يضفي السرية على إعانته لعبد القادر وأن يتبع أساليب تجارية ملتوية لتزويده بالزاد والعتاد وأن يبرهن على تعلقه «بالسلم» والعلاقات الودية وحسن الجوار بإرسال التهنئة والهدايا الى ملك فرنسا بمناسبة عودة الملكية، وبالتعهد بعدم الزيادة في واجبات الجمارك قبل ستة اشهر من اعلام فرنسا، وقبول تعيين ممثل قنصلي للمغرب في مدينة الجزائر أو وهران، واعفائه لقائد حامية تلمسان بلعامري جبراً لخاطر السلطات العسكرية الفرنسية التي استاءت من تصرفاته[12]، ثم تفسيره سحب الجيش المغربي من تلمسان على اثر ثورة الأودايا بحرصه على العلاقات الودية. ولكن كل هذا لم يكن ليرضي السلطات العسكرية الاستعمارية في الجزائر التي كانت تريد إعطاء «درس للمخزن» وإظهار ضعفه على عكس السلطة المركزية السياسية في فرنسا التي بقيت تتخوف من اثارة الحساسيات التي قد تحول غضب القبائل الى قوة تهدد أمن الفرنسيين ومصالح الأوربيين بصفة عامة[13]، في المغرب وبمرور 4 سنوات على وصول بيجو BUGEAUD ونجاح أساليبه العنيفة في الحصول على انتصارات داخل أراضي الجزائر ودفعه بالمجاهدين داخل التراب المغربي ومتابعتهم وقيام مواجهات دامية في 30 مايو و15 يونيو 1844 بين الجيوش المخزنية الموجودة على الحدود تحت قيادة الكناوي وبين فيلق من الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال لامورسيير وهجوم جيوش BUGEAUD على التراب المغربي الذي ذهب ضحيته 275 من مشاة القبائل

ودخول وجدة، وارتفاع الاستياء داخل كل الأوساط المغربية وظهور هذا الاستياء في أمارات العداء للأجانب من مظاهرات فرسان القبائل في طنجة أمام القنصليات الأوربية وإصابة قنصل السويد بالرصاص، ومقتل القنصل الإسباني في الصويرة[14]، لكل هذا أصبح من المستحيل على الطرفين الحفاظ على السلم دون المساس بمظهر القوة الذي كان كل منهما يريد الحفاظ عليه امام القبائل الجزائرية والمغربية فيما يخص السلطات العسكرية الفرنسية وأمام الرعية فيما يخص السلطة المركزية المغربية.

وقد جاءت حرب إسلي لتلخص سياسة الطرفين لهذه الفترة. فمولاي عبد الرحمان حاول ان يقوم بدوره السياسي والعسكري والديني بالاستجابة لرغبة في الجهاد وفي نفس الوقت تجنب مواجهة عسكرية إلى آخر لحظة، لهذا أرسل نحو المناطق الشرقية جيشا بقيادة ابنه سيدي محمد مع اعطائه أوامر بأن لا يكون البادئ بالهجوم[15]

كما أن بيجو BUGEAUD الذي كان يريد الحرب للقضاء على مقاومة المخزن وإظهار القوة الفرنسية أمام القبائل المغربية دون التعرض لخطرها جعلها حربا خاطفة، سبقها ترحيل كل الأوربيين من طنجة وعلى رأسهم الوزير المفوض الفرنسي، وصاحبتها قنبلة طنجة لإشعار المخزن ان البلدان الأوربية لا تنوي حمايته من الغضب الفرنسي، وقنبلة الصويرة لإنذاره بأنه باستطاعتها تهديم موانئه والقضاء على أهم مداخله المالية الممثلة في الواجبات الجمركية[16].

وبالفعل فإن معركة إسلي أضعفت مقاومة المخزن لا فقط للضغوط الفرنسية بل لكل الضغوط الأجنبية إذ غيرت العلاقات بينه وبين كل الدول المسيحية كما كان يتوقع BUGEAUD فقد اضطر لقبول معاهدة لَلأمغنية بشروطها السياسية والاقتصادية «وللتنازل للسويد والدانمارك عن الواجبات التي كانت تؤديانها، وللسكوت عن احتلال اسبانيا للجزر الجعفرية وتوسيعها لمنطقة سبتة ومليلية، وقبول المعاهدة التجارية مع انجلترا 1856، مع ما كانت تثيره هذه التنازلات من اضطرابات داخلية بلغت ذروتها سنة 1859 على اثر أحداث مليلية، التي كانت

السبب المباشر في حرب تطوان.

وعلى ان هذه الحرب كانت مواجهة بين اسبانيا التي كانت ترمي من خلالها الى فرض وجودها كقوة استعمارية امام فرنسا وانجلترا والى وجود مخرج من ازمتها السياسية والاقتصادية الداخلية، وبين المغرب الذي أصبح استقراره الداخلي والخارجي مهددا بسبب الضغوط الأجنبية فإن هذه الحرب يمكن إدخالها في المخطط الفرنسي لإضعاف المغرب إذ أن وثائق متعددة تشهد على سعيها لجعل الحرب تندلع بين اسبانيا والمغرب منذ 1844 «لشغل المغرب في المنطقة الشمالية المغربية وإضعافه اقتصاديا[17] وعلى الدور الذي لعبته في قيام حرب تطوان من تشجيعات الإمبراطور بونابارت لاسبانيا على الحرص على الحصول على مصالحها المشروعة... الخ[18]، في الوقت الذي كانت توهم فيه المخزن بأن اسبانيا لا تنوي الحرب حتى ان وزارة الدفاع الانجليزية اعتبرت هذه الحرب مؤامرة حقيقية بين باريس ومدريد[19] بل ان فرنسا قامت بتدخل سافر حينما قامت سفنها الحربية Le Bretagne و Saint Louis بقنبلة الحامية المغربية التي كانت تحرس مدخل النهر المؤدي لتطوان قبل اندلاع الحرب مباشرة[20]

وعلى كل حال فإن حرب تطوان حققت ما كانت تصبو إليه فرنسا منذ استقرارها في الجزائر بإضعاف السلطة السياسية والعسكرية المركزية، وتخليها نهائيا عن فكرة اللجوء للقوة العسكرية لمواجهة الضغوط الخارجية.

2 ـ مرحلة النسف الدائم للبنيات العسكرية والاجتماعية والاقتصادية للدولة (1860 ـ 1900)

بعد ظهور التباين الشاسع الذي أصبح بين القوة العسكرية الأوربية والمغربية ونوع الأخطار الداخلية والخارجية التي تهدد استقرار البلاد في حالة مواجهة عسكرية أخرى فاشلة أصبحت سياسة المخزن طوال هذه المدة لمواجهة الضغط الخارجي ترتكز على مبدإ أخف الضررين واغتنام الجو السياسي العالمي للحفاظ لأطول مدة ممكنة على ما تبقى من استقلال البلاد واستعمال قوته العسكرية التي اصبحت غير ذات مفعول ضد القوات الأجنبية والاضطرابات الداخلية الناتجة عن

هذه الضغوط.

أما فرنسا التي كانت رؤياها الاستعمارية في المغرب قد اتضحت ولم تعد تنتظر الا الظروف الدبلوماسية الدولية السانحة لتحقيقها فقد استغلت هذه الفترة التي تميزت بحدة الصراعات الأوربية لتوجيه هذا الصراع لكل ما من شأنه أن ينسف هياكل البلاد العسكرية والاقتصادية ويهيئها للغزو الفرنسي، فعلى الصعيد العسكري: عرفت هذه الفترة تحولات عميقة في البنية العسكرية للبلاد قضت شيئا فشيئا على نظام التكافل والانسجام بين مختلف القوات العسكرية، هذه التحولات وإن كانت تظهر لأول وهلة اختيارا داخليا محضا فإن تتبع مسلسل ما سمي فيما بعد بالإصلاح العسكري يسمح بالقول بأن فرنسا لم تكن غائبة عن هذا الاختيار أو على الأقل وجدت فيه فرصة سانحة للتدخل في ميدان حيوي أساسي له امتداد في كل الميادين الأخرى سواء منها السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية ونسفت أهم عناصر قوته وشلت قدرته عن مواجهة أطماعها التوسعية فيما بعد[21].

فقد وجهت محاولات المخزن الإصلاحية التي انطلقت أساسا من اعتبارات دفاعية وجهادية منذ معركة إسلي وتأكدت بعد حرب تطوان لتأخذ حجما متميزا في عهد مولاي الحسن تدريجيا لتوطيد مصالحها عوض الوقوف في وجهها.

إذ استغلت شروع المخزن في اقامة «جيش النظام» على النمط الأوربي، وما يتطلبه هذا من تداريب للتغلغل داخل الجيش والمخزن خصوصا منذ 1877، محققة بذلك حلما كان يراودها منذ احتلال الجزائر وهو «أن تكون لنا أعين تتطلع على ما يروج في هذا البلد ووجود مستمر داخل المخزن المتنقل حتى تقاوم التأثيرات الضارة وأن يكون لها من يعيش داخل المخزن ويوجه اختياره موهما إياه بأنه هو الذي يختار»[22].

وهكذا «فحينما انتهزت فرنسا سنة 1877 ما أظهره مولاي الحسن من اهتمام بالشؤون العسكرية واغتنمت الفرصة لإقامة بعثة عسكرية بالمغرب، فإن سياستها كانت لا تستهدف إعانة المخزن الشريف على تدريب جيشه تدريبا عسكريا أوربيا بل إحاطة السلطان بهيئة قادرة على تتميم العمل السياسي الذي تقوم به

قنصلياتنا»[23]

وقد كان «وجود عسكريين فرنسيين داخل الجيش المغربي معناه، استقرار الجيش الفرنسي داخل المخزن وهو يعزينا عن بقاء جيشنا رغم قوته عاجزا عن تعدي الحدود، بسبب اللعبة الدبلوماسية»[24]

ومن الناحية الاقتصادية والاجتماعية جاءت كل المعاهدات التي فرضتها فرنسا على المغرب أو شجعتها في هذه الفترة لزعزعة التوازن الاقتصادي وتفقير الفلاحين والحرفيين وتقليص مداخيل الدولة.

فمعاهدة Beclard سنة 1863 أعطت إطارا قانونيا لكل الخروقات التي كان يرتكبها الأجانب فيما يخص التجارة الخارجية والحماية.

اذ أنها سدت كل الثغرات التي بقيت في المعاهدة الانجليزية المغربية 1856 والمعاهدة الاسبانية المغربية 1861 التي كان المغرب يعتمد عليها قانونا للاحتجاج لدى الدول الأجنبية كالبند الرابع من معاهدة 1856، الذي كان ينص على أن المستخدمين لدى التجار الانجليز يعاملون كباقي المغاربة والذي أكد في معاهدة 1861 مع اسبانيا.

وفي الوقت الذي كان فيه محمد بن عبد الرحمن يحاول أن يحد من الحماية وأن يتمسك بحق الدولة في منع التجار الأجانب من مناقشة الفلاحين في الأسواق الداخلية فيما يخص المواد الأولية الضرورية كاللحم والصوف، معتمدا على هذه البنود، بقيت فرنسا تعرقل ذلك وترجع دائما الى البند الثاني من المعاهدة الفرنسية 1767، الى ان استطاع Beclard الوزير المفوض الفرنسي في طنجة أن يفرض المعاهدة التي حملت اسمه والتي فتحت الأسواق المغربية نهائيا وقانونيا للرأسمال الأوربي مخلة بالتوازن الغذائي والقدرة الشرائية للفلاح والحرفي، كما أنها وسعت نطاق الحماية بما كان يعنيه هذا من تقليص سلطة المخزن ومن ارتفاع عدد المتملصين من الضرائب وأغلبيتهم من ذوي الدخل الكبير واثقال كاهل الباقين وأغلبيتهم من الفلاحين الصغار والحرفيين، وما يتبع هذا من مظالم وغرامات وثورات وحركات[25].

وقد بقيت فرنسا تعرقل كل محاولة تغيير، يقوم بها المخزن في هذا الباب إلى أن دولت المسألة وانعقد مؤتمر مدريد سنة 1880 ولكن موقف الممثل الفرنسي وضغطه على ممثلي دول أخرى كإيطاليا وألمانيا وجه المؤتمر اتجاها معاكسا لما كان يسعى إليه المغرب، إذ خرج من هذا المؤتمر كما كان يخشاه مولاي الحسن «كمن جاء يطلب قرنين فرجع بالأذنين»[26]

ويمكن أن نلخص هذه الفترة فيما كتبه مولاي الحسن للرعية سنة 1886

«ونحن ندافع ونسدد ونقارب بما يقتضيه الوقت والحال عما يقول سيد الوجود في وقائع وقضايا «سددوا وقاربوا» لابقاء ما كان على ما كان، إذ لا أقل من ذلك سيما في هذا الزمان الذي أشار إليه النبي (صلعم) بقوله «يأتي على الناس زمان يمر فيه الحي على قبر الميت فيقول ليتني كنت مكانك»[27]

وبالفعل فقد بقيت الهياكل العسكرية والسياسية والاقتصادية الى اخر هذه الفترة تظهر متماسكة وقائمة: رغم ما اصابها من فخر وأعطاب، فحركات مولاي الحسن المتعددة اخمدت مؤقتا الثورات الداخلية الناتجة عن الضغط الأجنبي والتفوق التقني للجيش المخزني على القبائل سمح باستخلاص الضرائب والمحافظة على مداخيل بيت المال، وتأدية مختلف الغرامات والتعويضات للدول الأوربية ومحمييها ومصاريف الجيش لهذا لم تنعكس الأزمة الاقتصادية والمالية على خزينة الدولة وبقي المغرب كما تقول أحد التقارير «امبراطورية ليس لها ديوان فهو ليس فقط ذا ميزانية متوازنة بل تتوفر كذلك على رصيد قوي من المعدن، انها حالة يجب التنبيه اليها»[28]

كما ان مولاي الحسن استطاع ان يحافظ على مظهر استقلال الجيش وطابعه الوطني لحرصه على التقليل من نفوذ البعثات العسكرية الأجنبية داخل الجيش يضرب بعضها ببعض وتفرقة المهام بينها، وعدم السماح لها بالظهور داخل المحلة «بزيها العسكري الأوربي، وكذلك بالاحتفاظ الى جانب العسكر بالجيش التقليدي ومع أن الفرنسيين شرعوا في احتلال المناطق الجنوبية الشرقية باحتلال الكوليا،

سنة 1891 فإن اهتمام مولاي الحسن بإعادة التنظيم الإداري من تندوف وتدكلت. وتقويته لحامية فجيج وحركته لتافيلالت سنة 1893 قللت من آثار الصدمة التي أحدثها هذا الاحتلال.

3 ـ مرحلة تداعي المؤسسات والتغلغل العسكري (1900 ـ 1992):

يمكن أن نلخص هذه الفترة في ما جاء في رسالة من الجنرال ليوطي:

«منذ 1903 أمكننا أن ننشر النظام من بشار إلى البحر لأننا وجدنا أمامنا عناصر متفرقة استعملنا بعضها ضد الآخر لو كنا وجدنا أمامنا كتلة مغربية لكنا في حاجة إلى وسائل ومصاريف من حجم آخر، ولو كانت هذه الكتلة قد وحدت بينها السلطة وكره الأجنبي والعصبية لكانت حالتنا خطرة»[29]

وبالفعل، ففي هذه الفترة بدأت مختلف عناصر الدولة المغربية تبدو متنافرة وغير منسجمة واضمحل المظهر الذي احتفظت به إلى أواخر ما سماه الفرنسيون بالمغرب العنيف أو التقليدي إذا بالهياكل لم تصمد أمام تصعيد الضغط الذي مورس عليها منذ انتهاء فترة Statuquo المغربي بانتهاء التنافس الأوربي الذي جعل المغرب موضوع مقايضات تقرر مصيره اتفاقات اوربية كالمعاهدة الأنجليزية الفرنسية سنة 1890 الفرنسية الإسبانية لنفس السنة والفرنسية الإيطالية والأنجليزية الفرنسية أو ما سمي بالاتفاق الودي 1904

على أن هذه المعاهدات أطلقت يد فرنسا في المغرب وأعطت الضوء الأخضر للغزو العسكري الذي شرعت وزارة الحرب الفرنسية في وضع مشاريعه التقنية منذ سنة 1891 وانطلق فعلا بعد احتلال الكوليا باحتلال تدكلت وكورارة واكلي وتوات إلا أن فرنسا حرصت على أن تمر العمليات العسكرية في ظل تداعي المؤسسات، ضمانا لنجاح هذه العمليات وتلافيا لكل احتمال تعبئة عامة للطاقات المغربية.

إذ من الصعب تفسير بطء هذه العمليات، وحذرها، وضيق نطاقها إلى حدود 1912 ومحاولة فرنسا إعطائها دائما قناع الشرعية كالتدرع بمقتل الدكتور موشان في مراكش لاحتلال وجدة وبمقتل عمال فرنسيين لاحتلال الدار البيضاء والشاوية،

وبالدفاع عن مولاي عبد الحفيظ لاحتلال فاس أو بتعهدها الدولي باحترام سيادة السلطان أو بموقف ألمانيا في القضية المغربية.

ففي نفس الوقت الذي بدأت فيه العمليات العسكرية الفرنسية في توات، وارتفع فيه الغضب المغربي ضد كل ما هو فرنسي كما ذكرت صحيفة Export[30] الأنجليزية التي تنبأت بقيام ثورة عارمة ضد الفرنسيين، واشتد الحماس للجهاد وصارت أخبار المقاومة البطولية في تافلالت تنتشر في كل الأوساط، وبدأت الاتصالات بين القبائل والمخزن لتعزيز هذه المقاومة استعملت فرنسا «المعول» كما نصح بذلك De segonzac[31] لنسف الجسور بين هذه الطاقات وتكريس القطيعة بين مؤسسات الدولة وباقي المؤسسات من قبائل وعلماء وزوايا، فقد حرصت أن يصبح وجودها ووجود الأجانب الآخرين داخل المخزن وجودا سافرا يستفز السكان، بتعدد المدربين والتجار وبائعي الأسلحة وكل المخترعات الحديثة، وذهاب وإياب المهندسين والمراقبين داخل القبائل في إطار الإصلاحات الإدارية ومشروع إقامة خط تلغرافي للسكك الحديدية، مما أثار قبائل أحواز فاس ومكناس من بني مطير وكروان وزمور. وبالرفع من عدد المدربين الفرنسيين في الجيش في إطار الإصلاح العسكري، والظهور داخل الحركة المخزنية بالزي العسكري الأوربي مما جعل العسكر المغربي يفقد كل اعتبار خصوصا حينما بدأ التعاون بينه وبين الجيش الفرنسي في الجزائر للقضاء على ثورة بوحمارة ثم حينما صار القواد الفرنسيون يقودون الحركات ضد القبائل[32]، وقد نتج عن هذا تعدد حالات الهرب داخل الجيش ورفض القبائل الدخول في الجندية والخروج عن طاعة الحكم المركزي، وعمت الاضطرابات حتى قبائل الجيش التي كانت الركيزة السياسية والعسكرية للمخزن قبل ان يمس الإصلاح العسكري بامتيازاتها وزاد من حدة توتر العلاقات بين العسكر والقبائل انهيار الحالة المادية للجنود حينما أصبح المخزن عاجزا عن تأدية أجورهم مما جعلهم يعيشون من أكل القبائل التي صارت تلقبهم بالجراد[33].

وتعمقت هذه الهوة تدريجيا مع «الإصلاح العسكري» وعجز المخزن عن الحفاظ بنفسه عن الاستقرار الداخلي، مما كرس التبعية السياسية والعسكرية منذ سنة 1904.

وبصفة موازية كثف الضغط لتسقط الدولة المغربية تحت التبعية الاقتصادية الفرنسية.

ففي الوقت الذي ارتفعت فيه الحاجيات المالية للدولة لمواجهة حاجيات الجيش والأسلحة وشراء مختلف الآلات، وتأدية أجور المدربين والمهندسين الأجانب والغرامات التي ارتفعت بارتفاع عدد المحميين والأجانب، ضغط على المخزن ليجعل نهاية للنظام الجبائي القديم وليشرع في تطبيق نظام الترتيب الذي نصت عليه معاهدة مدريد في 1880 والذي بقي مولاي الحسن يؤجله إلى وفاته.

وبالفعل منذ 1901 أوقف المخزن استخلاص الزكوات والأعشار والنايبة ولكن الدول الأوربية لم تعط موافقتها على الضريبة الجديدة إلا سنة 1903[34] أي بعد سنتين.

تضررت مداخيل المخزن إذن وتعودت القبائل على عدم أداء الضرائب، وهنا جاء دور رؤوس الأموال والأبناك لتقديم قرض انجليزي فرنسي سنة 1902، ثم قرض 1904 الذي فرضت فرنسا أن يكون قرضا فرنسيا تحكم فيه بنك Paribas وأن يكون قرضا يلزم المغرب على الأقل مدة.

رهن المغرب في هذه الأثناء ما تبقى من مداخيله وهي الجمارك، وفي يوليوز من نفس السنة استقر المراقبون الأوربيون في الموانئ ووقفت السفينتان الحربيتان Gal-ilée وKleber لحماية المصالح الفرنسية.

وقد تفاعلت الأزمة السياسية والعسكرية مع الأزمة المالية والاقتصادية لتخلق الجو الذي تكلم عنه ليوطي إذ تعطلت المؤسسات المركزية وأصبحت عاجزة عن بلورة المقاومة الشعبية التي لم توقفها لا دعاية الزوايا الموالية، ولا تحركات المحميين، ولا ندرة السلاح الذي حرم دخوله بعد معاهدة الجزيرات، ولا الوسائل العنيفة التي استعملها Drude في الشاوية، وسلكها Lyautey وBrulard وClay وGouraud في تقدمهم نحو فاس من احراق الغرس والحرث وإطلاق نيران المدافع بالليل لقنبلة القبائل من باب الاحتياط[35] ولكنها لتشتيتها وانفصالها عن السلطة المركزية

بقيت تظهر كثورات جهوية دون فعالية ودون أي تأثير على مخططات الاحتلال وإذا كانت معاهدة الحماية قد توجت سياسة النسف الفرنسية، فإنها كانت في نفس الوقت اشارة انبعاث لجميع المؤسسات المغربية، ومنها القبائل التي استرجعت مباشرة حيويتها وحرية قرارها، مما كبد المستعمر خسائر عسكرية ومادية وأخر الاحتلال الفعلي في كثير من مناطق المغرب أو المؤسسات السياسية الأخرى التي استدرك موقفها بعد مدة من الخنوع، وأكبر دليل على هذا الانبعاث هو وجودنا اليوم أمام مناضلين في جميع أنحاء المغرب من الريف والصحراء ومختلف المدن والقرى المغربية، وحد بينهم الجهاد وتبلورت حركتهم حول شخص السلطان محمد الخامس مما أعطى لمقاومتهم فعالية قادت البلاد للاستقلال.

المصادر والمراجع

A.M.G: Archives Vincennes Ministère de la guerre.

M.A.E.P: Ministère des Affaires Etrangères, Quai d'Orsay, Paris.

1 ـ تظهر هذه الفرحة من خلال المذكرة التي قدمها القبطان Burel إلى نابليون الإمبراطور سنة 1850 والموجودة في: A.M.G, CA.

"Mémoire Militaire sur l'empire du Maroc"

2 ـ مذكرة حول القضية المغربية، بـ A.M.G, 3h 21.

3 ـ حول النظام العسكري المغربي قبل «الإصلاحات»: برادة ثريا، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر «رسالة السلك الثالث، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية الرباط.

4 ـ L. Miège, "Le Maroc et l'Europe"; T, II.
Presse Universitaires Françaises, Paris 1961.

5 ـ M.A.E.P, CP Maroc N°3.

6 ـ M.A.E.P, CP Maroc N°4 et 5.

7 ـ M.A.E.P, CP Maroc N°15.

8 ـ M.A.E.P, CP Maroc N°15.

9 ـ M.A.E.P, CP Maroc N°5.

10 ـ M.A.E.P, CP Maroc N°13.

11 ـ M.A.E.P, CP Maroc N°13.

12 ـ M.A.E.P, CP Maroc N°12.

14 ـ M.A.E.P, CP Maroc N°12.

M.A.E.P, CP Maroc N°12. - 15

M.A.E.P, CP Maroc N°12. - 16

J.L. Miège, "le Maroc et l'Europe", Op cit, T II, P: 363 - 17

Ibid - 18

Ibid - 18

Ibid - 20

21 - ث. برادة Hespéris Tamuda ج xxv n 1987

St, R, Taillandais, "Les origines du Maroc Français", Paris 1930, p. 6. -22

A.M.G, H 268. - 23

ST; René Taillandais, Op cit. - 24

J.L, Miège, Op cit T II p. - 25

26 - ابن زيدان عبد الرحمن، إتحاف اعلام الناس، 5 أجزاء الرباط 1929 - 1933 .

27 - أحمد الناصري، الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى، ج: 9 دار الكتاب الدار البيضاء 1956 .

ص 182

28 -

29 - رسالة من الجنرال ليوطي لرئيس الحكومة الفرنسية في 1 غشت 1912 .

M.A.E.E, P.1, Maroc 238 . - 30

A. Ayache, "Le Maroc; le bilan d'une colonisation", Editions sociales, Paris 1956, p. 61 - 31

32 - تقاييد الحجوي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط .

M.A.E, PI Maroc 238 - 33

A. Ayache, Op, cit p. 58 - 34

Gourard, "Au Maroc 1911-1914 Souvenirs d'un Africain", Librairie plon, Paris. 1919 - 35.

مقاومة قبائل زعير للتدخل الفرنسي

1906 ـ 1912

علال الخديمي
كلية الآداب والعلوم الانسانية
الرباط

تقديم :

تجدر الاشارة في بداية هذا البحث، إلى أن فرنسا لما احتلت الدار البيضاء في صيف 1907 ، كان في نيتها توسيع احتلالها ليشمل كل قبائل الشاوية . وذلك ما تم بالفعل في خريف 1908 وبعد مقاومة باسلة قل نظيرها ، إذا أدخلنا في اعتبارنا موازين القوى وسهولة الميدان بالنسبة لجيش الاحتلال .

وبكل تأكيد ، فقد كان في نية الأوساط الاستعمارية توسيع الاحتلال ليشمل كل المغرب . عندما تهيء الظروف السياسية والعسكرية الملائمة .

ويبدو أن الأوساط الاستعمارية الفرنسية ، قد أحست بقدرتها على العمل في المغرب سنة 1911 لما تمكنت من فرض شروطها على مولاي عبد الحفيظ في اتفاقية سنة 1910 وقبل أن نخوض في الموضوع ، لابد من التذكير ببعض الملاحظات .

أولا إن قضية زعير التي أثارتها الأوساط الاستعمارية الفرنسية في حادث 14 يناير 1911 ، قد جاءت في ظرفية سياسية دقيقة جدا بالنسبة للمغرب وبالنسبة للعلاقات الألمانية الفرنسية : فعلى مستوى الوضعية الداخلية ، فقد كان مولاي عبد الحفيظ يجرب كل طرق التساهل لإقناع فرنسا بالتخلي عن احتلال الشاوية ، وإبرام

اتفاقيات مع المغرب لمساعدته على حل أزمته المالية الخانقة، وكانت الحكومة الفرنسية بدورها تغدق الوعود المعسولة وتتحين الفرص، بل تعد الفرص لتقريب يوم احتلال المغرب.

أما على المستوى الدولي، فقد وصلت المفاوضات بين فرنسا وألمانيا حول كيفية تنفيذ ما اتفقتا عليه سنة 1909، من الاستغلال الاقتصادي المشترك للمغرب إلى طريق مسدود، نتيجة لرغبة الحكومة الفرنسية في إبعاد النفوذ الألماني عن المغرب (1).

ثانيا: أننا عندما شرعنا في تهيئ موضوع مقاومة زعير، تبينت لنا أهمية واتساعه، فقررنا عدم تتبع المعارك التي خاضها مجاهدو زعير ضد قوات الاحتلال سنتي 1911 و1912 وقد أحصينا حوالي عشرين معركة واشتباكا.

ثالثا: أما من ناحية المنهج الذي اتبعناه، فقد آثرنا ـ توضيحا للموضوع ـ أن تبدأ الدراسة بالتعريف بقبائل زعير، ثم تتبع علاقتها مع الأجانب خلال القرن XIX ومقاومتها للتدخل الفرنسي في بداية القرن XX. وفيما يتعلق بالمصادر، فقد كان الاعتماد بالدرجة الأولى على وثائق وطنية ومستندات أجنبية بالإضافة إلى الرواية الشفوية وبعض المراجع.

من هم زعير: تكون زعير مجموعة قبلية كبيرة مجاورة لمدينتي الرباط وسلا، ولقبائل الشاوية وزمور، وزيان وتادلا. تنقسم زعير إلى قسمين كبيرين، أحدهما يسمى «الكفيان» يضم القبائل المجاورة للشاوية وتادلا، والثاني يسمى «المزارعة» وهو القسم الذي يحتل شمال شرق زعير، ويمتد مجاله من الرباط من جهة الشمال الغربي إلى زمور في الشرق وزيان في الجنوب الشرقي، ويضم القسمان معا حوالي ثلاث عشرة قبيلة.

الأصول: هناك غموض فيما يتعلق بتفسير الاشتقاق اللغوي لكلمة زعير. فالشائع في النطق عند الناس هو زعير، بجزم الأول وفتح الثاني، أو بفتح الأول والثاني، كما ينطق في اللغة الفرنسية ZAER بيد أننا إذا ما راجعنا روايات

الاخباريين، نجد أن الكلمة تنطق وتكتب هكذا زعير . أي برفع الأول وفتح الثاني[2]

وإذا وجدت بعض الروايات القليلة التي تنسب زعير إلى الأصل البربري، فإن معظم الروايات التاريخية، تؤكد على أن زعير من عرب معقل، انتهت إلى مكانها اليوم في أواخر القرن السابع عشر الميلادي[3] كما تعتبر لهجة زعير من أكثر اللهجات غنى بمفردات اللغة العربية الفصحى(3 مكرر) .

قبائل زعير والتدخل الأجنبي خلال القرن التاسع عشر

1 ـ أخبار زعير عند الرحالة والمسافرين الأوربيين :

يبدو أن قبائل زعير كانت مستعصية على المسافرين الأوربيين، ولذلك لم يتمكن أي واحد ممن كتبوا عن أسفارهم، خلال قبائل الحوز ودكالة والشاوية وقبائل الغرب، أن يدخلوا الأرض القبيلة. وهكذا قنع أوائل الأجانب الذين كان هدفهم هو الاستخبار، بجمع أخبار زعير من المخبرين وقد شاع في مؤلفاتهم أن زعير قبائل صعبة الاختراق، وأنها قبائل سائبة كثيرة الشغب شديدة المراس، نظرا لتعصبها وتوحشها، ولهذا جاءت تلك الروايات بعيدة عن الحقيقة أحيانا ومبالغا فيها أحيانا أخرى.

والواقع أن زعير، مثلها مثل كثير من القبائل المغربية الأخرى، كانت بالفعل صعبة الاختراق على الأوربيين. بيد أن الكلام عن سيبتها وتوحشها وشغبها يحتاج إلى مزيد من الدلائل، لتعميم اثباته / ثبوته في الزمان والمكان.

إننا إذا ما سألنا مستندات الدولة المغربية وخاصة مراسلات المخزن مع زعير، نفاجأ بحقيقة تاريخية لايمكن إنكارها، وهي أن قبائل زعير لم تشد في علاقتها مع السلاطين، عن القبائل المجاورة لها، وخاصة قبائل الشاوية، المشهورة ضمن قبائل الصلاح، حسب اصطلاح المخزن.

ويبقى على الباحث المعاصر في التاريخ طبعا أن يدخل في حسابه، عوامل الجغرافيا بما فيها البيئة وأنماط الحياة، والأحوال الاجتماعية وحتى النفسية، بالاضافة إلى العامل الديني، إذا أراد أن يحلل علاقات بعض المجموعات البشرية

سواء مع مجموعات مشابهة، أو مع السلطة المحلية والمركزية، ثم مع الأجانب.

والواقع أن علاقة زعير بالمخزن لم يختل توازنها لصالح القبيلة وتحررها شيئا فشيئا من قبضة السلطة المركزية، إلا في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن XX. وهذا تطور تشترك فيه معظم القبائل المغربية، بما فيها قبائل السهول الساحلية وقبائل الحوز، التي ظلت فيها قبضة القياد نافذة. ثم إن بعض هذه القبائل، وخاصة المجاورة منها للسواحل الوسطى، قد عرفت انتفاضات واضطرابات، كانت مظهرا صارخا لاهتزاز سلطة المخزن وتدني هيبته. ولا جدال، في أن ذلك التطور السلبي، الذي كان يسيء لتوازن واستمرار الدولة المغربية، يجد تفسيره في تراكم عواقب التدخل الأوربي في المناطق المشار إليها.

وعلى هذا الأساس يمكننا القول مطمئنين إلى التحليل السابق: إن الكلام عن سيبة زعير وشغبها، لا يفسر إلا بحوادث متفرقة، وبخاصة تلك الحوادث التي ارتبطت بمعارضة ومقاومة القبائل المعنية لمظاهر التدخل الأجنبي، خلال العقود الأخيرة من القرن الماضي وبداية القرن العشرين.

2 ـ أهمية زعير في نظر الملاحظين الأجانب:

أول رواية في هذا الباب ـ حسب مبلغ علمنا ـ أوردها دوفوكو DEFOUCAULD الذي ذكر، أن زعير يكونون قبيلة قوية تمتلك عددا وافرا من الخيول بالرغم من أن بلادها جبلية[4]

وقد أكد هذه الرواية كيدانفلدت QUEDENFELDT وهو مسافر ألماني، بمزيد من التدقيق فقال: «تمتلك هذه القبيلة القوية عددا وافرا من الخيول، من النوع الممتاز، الذي ينافس خيول عبدة ودكالة. وقد قال لي أحد أهالي القبيلة، أن عدد خيولها يصل الى 40.000 وأنا أميل إلى أن هذا العدد مرتفع كثيرا»[5]

وعندما تحدث DEVERDUN عن قوة قبائل الرحامنة وعلاقتها بمدينة مراكش، شبهها بقبيلة زعير من حيث علاقتها مع الرباط[6].

والملاحظ أن الحديث عن شغب زعير وتعصبها ومعاداتها للأوربيين قد انتشر بين

الملاحظين الفرنسيين مع بداية القرن العشرين. وليست الظاهرة بغريبة، لأن الأمر يتعلق باصطدام الأطماع الفرنسية في الرباط وسلا وأحوازهما، مع إرادة قبائل المنطقة في رفض تلك الأطماع ومقاومتها.

وهكذا ذهبت بعض الروايات، التي كتبها فرنسيون مطلعون، لعبوا أدوارا هامة في التهييء لاحتلال المغرب إلى اعتبار وجود زعير وزمور قرب الرباط وسلا من أسباب عزلة المدينتين وتعصب سكانهما. فقد كتب طبيب فرنسي عاش بالرباط مدة، في معرض حديثه عن عدم انفتاح المدينتين للأجانب، وصعوبة تنظيم نزول عسكري بهما قائلا: «ويضاف إلى هذا العائق المادي، أي الجرف الساحلي، وإلى هذا الحاجز المعنوي أي العادات، سبب أخير وقوي لعزلة الرباط وسلا، إنه تواجد مجموعتين بشريتين كبيرتين شبه مستقلتين بالقرب من ضواحي المدينتين هما زعير وزمور.

إن هذه القبائل المعادية منذ القديم للأوربيين، والتي تخالطها اليوم رؤى المعارك والجهاد والنهب، قد أصبحت أكثر كراهية وأكثر وحشية من ذي قبل، إلى الحد الذي لا يجعلها تقف مترقبة قلقلة إلا الخوف وعبرة العقوبات الدموية[7]

إن هذه الحالة النفسية، تجعل كل محاولة للاستعمار الأوربي بالقرب من الرباط وسلا مزعزعة اليوم أكثر من السابق[8].

إن هذا النص يطلعنا على حقيقة موقف زعير من الوجود الأوربي، بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء (1906)، الذي رفض المغاربة جميعهم شروطه. فقد بدأ زعير يهددون الجالية الأوربية بالرباط، ويصادرون مصالحها بضواحي المدينة. وأصبحت بادية زعير ممتنعة كليا على المسافرين والسياح الأوربيين[9].

وعندما جلس المراقبون الماليون الفرنسيون، بمرسى العدوتين الى جانب الأمناء هددت زعير الجالية الأجنبية بالطرد. فقد جاء في تقرير للقنصل الفرنسي بالرباط قوله: «إن جلوس المراقب الفرنسي بديوانة الرباط، يمكن أن يثير عواقب وخيمة على الأوربيين وبالفعل لقد تقدمت مجموعة من فرسان زعير، يبلغ عدد أفرادها

حوالي مائة (100) فارس، إلى باب المدينة، وهددوا بنهب البريد واختطاف أوربي، وأنهم لن يرجعوه إلا إذا غادر المواقب الديوانة»[10].

هكذا يظهر أن وضع الجالية الأوربية أصبح خطيرا بالرباط إثر جلوس المواقبين الماليين الفرنسيين بالديوانات وازداد الوضع حرجا، بعد حادث الدار البيضاء الذي قتل فيه تسعة أوربيين، وما أعقب ذلك من قنبلة الأسطول الفرنسي للمدينة واحتلالها. لقد بدأ الاحتلال إذن، وانتشرت الدعوة للجهاد بسرعة. إن ضغط زعير على الرباط، يدخل في إطار هذه الحركة الجهادية المعادية للفرنسيين المحتلين. لكن يبدو أن زعير لم يهاجموا المدينة، ليطردوا الجالية الفرنسية حتى لا يعرضوا سكان الرباط وسلا لخطر القنبلة من طرف الأسطول الفرنسي[11]

زعير والجهاد ضد الاحتلال الفرنسي:

أ ـ زعير والجهاد بالشاوية:

إن احتلال الشاوية قد وضع زعير وجها لوجه مع المحتلين الفرنسيين[12] ولقد انتشرت بها الدعوة للجهاد انتشارا واسعا، بعد احتلال الدار البيضاء وازداد الحماس للجهاد بعد إعلان بيعة مولاي عبد الحفيظ بمراكش، وقد انضم زعماء كثيرون من قبائل زعير للحركة الحفيظية[13]

ويطلعنا كتاب من السلطان مولاي عبد العزيز، على حقيقة تحمس زعير للجهاد، فقد جاء في هذا الكتاب الذي بعثه السلطان فيما يبدو للقبائل المجاورة للمراسي، وخاصة إلى أعيان وقواد قبيلة الشياظمة المجاورة لمدينة الصويرة: إن قبائل زعير تتهيء للجهاد مع قبائل أخرى وهي لا تعلم عواقب ذلك، ولذلك فالسلطان يأمر أعيان وقواد الشياظمة بالحيلولة دون انتشار أخبار التهيؤ للجهاد وإبطال مفعولها وأثرها، وانتظار ما يقوم به المخزن لحل مشكلة الدار البيضاء حلا مرضيا[14].

وكتب أحد خلفاء الشيخ ماء العينين بالحوز، الى خليفة الشيخ ومقدم زوايته بالصويرة، يخبره بأن قبائل عديدة، منها زعير وزمور وزيان، قد طلبت من الشيخ ماء العينين، الذي كان قد وصل للحوز في خريف 1907، المجئ الى الدار البيضاء مع

مولاي عبد الحفيظ لتزعم الجهاد[15]

وبالفعل لقد ساهمت زعير في جهاد الشاوية. وإن كنا لا نستطيع تحديد حجم تلك المساعدة، فبالامكان التأكيد وإثباب حضور جماعات من المجاهدين، ومشاركتها في قتال الفرنسيين، فقد ورد في تقرير بعثه الجنرال درود DRUDE قائد قوات الاحتلال، الى وزير الحربية بتاريخ 20 غشت 1907 «ان هناك جماعات من قبائل الشاوية كزناتة والمذاكرة، بالاضافة إلى زعير، الذين هم ليسوا من الشاوية، وأعراب الرباط، تتجمع بتيط مليل ودار الحاج بوعزة، بهدف مهاجمة المعسكر الفرنسي»[16]

يضاف إلى ما سبق مثلث زعير المجال الحيوي لمجاهدي الشاوية الذين كانوا يتزودون من زعير بحاجياتهم، ويلتجئون إليها لتنظيم أنفسهم والعودة لقتال الفرنسيين. وخاصة قبائل المذاكرة والأعشاش والزيايدة، وهي القبائل المجاورة لزعير من الشاوية.

مقاومة التدخل الفرنسي بزعير 1910 ـ 1911

في اطار النشاط المتزايد لمصلحة استخبارات جيش الاحتلال الفرنسي في القبائل المجاورة للشاوية، وفي قبائل زعير على الخصوص حاول المحتلون ربط الاتصال مع بعض أعيان زعير وقد حققوا بعض النتائج. وقد وصل الأمر بالضباط الفرنسيين، الى حشر أنفسهم في بعض الخلافات. ومن أمثلة ذلك النشاط المتزايد للمحتلين، أن ضباط حامية (بولو BOULHAUT) أي سيدي ابن سليمان، حاولوا في شهر فبراير 1910 أن يلقوا القبض على بعض الزعريين قرب المركز المذكور، لكن قائد السرية التي أرسلت لتنفيذ الأمر توغل داخل زعير، حيث وصل الى عين فوزار[17].

وكانت نتيجة هذه المغامرة، قتل قائد السرية وأحد مساعديه. وردا على هذا الحادث الذي وقع يوم 18 فبراير 1910، قرر قائد جيش الاحتلال بالشاوية، الجنرال موانيي MOINIER أن يستغل الفرصة لينفذ أول عملية عسكرية فرنسية بزعير، ويظهر أن الضابط الفرنسي أراد أن يستعرض قوة الجيش الفرنسي أمام أعين

زعير، الذين ظلوا طيلة ثلاث سنوات، رافضين للتعامل مع المحتلين، ليدفعهم إلى عدم معارضة التدخل الفرنسي في بلادهم.

وهكذا ذهب القائد الفرنسي، على رأس قوة هامة، قوامها ألف (1000) رجل، حسب الرواية الفرنسية، وعسكر بعين فوزار يوم 28 فبراير، أي في المكان الذي قتل فيه الضابط الفرنسي[18].

وفي يوم فاتح مارس، غادر موانيي المكان، لا ليعود من حيث أتى، بل ليتوغل في بلاد زعير، يتعرف على المنطقة، ويمهد الطريق لمرور المدفعية في المستقبل. بيد أن القوات الفرنسية فوجئت ـ حالما تحركت ـ بهجوم خاطف وشديد قرب وادي كريفلة، فاضطرت الى العودة الى معسكرها بعين فوزار[19]

ومن ذلك المكان، أبرق الجنرال موانيي، الى وزير الحربية يخبره بما وقع وختم برقيته بقوله «إن هذا العقاب، هو ما في الإمكان، حسبما يظهر الان، وأنوي أن أرجع بالطابور الى BOULHAUT بعد تنفيذ الأشغال الضرورية والقصيرة: لكي نتمكن في حالة الاضطرار من جلب مدفعية الميدان لهذه المنطقة الوعرة جدا، والمشهورة بصعوبة الدخول اليها الى حد الآن»[20].

وفي يوم 8 مارس، هاجمت زعير القوات الفرنسية بمعسكرها، فاضطر الجنيرال لمغادرة زعير يوم 12 مارس 1910. وهكذا فشل الجنيرال موانيي في مهمته الأولى بزعير، واكتفى بتسجيل الدين في دفتره، إلى أن يهيء الحزب الاستعماري الظروف المناسبة.

حادث 14 يناير 1911

بعد سنة من التدخل الفرنسي الاول بزعير، يبدو أن رئيس مكتب استخبارات جيش الاحتلال القبطان NANCY أقنع الجنرال موانيي بأن الوقت قد حان، ليقوم بجولة داخل زعير، يتمم فيها عمل المخبرين، ويربط اتصالات مع بعض الأعيان والقياد، أو على الأقل، يدفع بعضهم الى قبول النفوذ الفرنسي المتزايد في المنطقة.

وهكذا قاد القبطان نانسي NANCY سرية من الكوم، يوافقه ضابطان أحدهما

برتبة ليوتنان. وكانت وجهة السرية قصبة مغشوش حسب الرواية الفرنسية، حيث يقطن المرابط عبد القادر المباركي، الذي كان في هذه الاثناء طريح الفراش[21]

وبعد أن توغلت السرية *الفرنسية داخل زعير، تعرضت للهجوم بفرقة أولاد* دخو مساء يوم 14 يناير *1911*. وقد أسفر الهجوم عن مقتل وجرح معظم أفراد القوة الفرنسية. واستولى السكان على مجموع الخيول والاسلحة. ولم ينج قائد السرية إلا بلجوئه لحماية أحد أعيان المنطقة[22]

ما هي التطورات التي أعقبت حادث 14 يناير؟

سنكتفي بتحديد مواقف الاطراف المعنية مباشرة بالأحداث، ولن نتعرض لوصف الوقائع التي اعقبت حادث 14 يناير ببلاد زعير، وخاصة الحوادث المرتبطة بالاحتلال، صيف وخريف 1911 [23]

أولا الموقف الفرنسي: لقد أقام الحزب الاستعماري ضجة إعلامية حول ما سماه بـ«اعتداء زعير» وجعل من حادث 14 يناير قضية هامة في العلاقات الدولية، بين فرنسا والمغرب وألمانيا، سميت بقضية زعير، ولكي تستغل الأوساط الاستعمارية الحادث، طلب قائد قوات الاحتلال بالشاوية في 17 يناير، السماح له بالتدخل في زعير، وإرسال إمدادات عسكرية تمكنه من معاقبة المسؤولين عن حادث يناير[24] ثم ذهب إلى باريز، لاقناع المسؤولين بمشروعه. والواقع أن الحكومة الفرنسية ترددت في البداية، ولم يوافق وزير الخارجية S. PICHON على تصرفات العسكريين، خاصة وأن الحكومة الفرنسية كانت لا زالت تتفاوض مع السلطان مولاي عبد الحفيظ، الذي كان يأمل ان تحترم الحكومة الفرنسية تعهداتها له، بالانسحاب من الشاوية، وتقديم مساعدات مالية له.

ولكن تردد الحكومة الفرنسية، زال بتولي J. CRUPPI كروبي لوزارة الخارجية. فقد ساير الوزير الجديد مخططات الأوساط الاستعمارية. وقبل إرسال إمدادات جديدة للمغرب، بدعوى المحافظة على الأمن بالشاوية ومعاقبة زعير. وفي الوقت الذي قررت فيه الحكومة الفرنسية إرسال مزيد من الامدادات للمغرب بدل سحب

قواتها من الشاوية إلى الساحل، أبدت ألمانيا معارضتها للمخططات الفرنسية، وبدأت تستعد لردود الفعل.

ثانيا موقف زعماء الجهاد أو كيفية تنظيم المقاومة:

الملاحظ أن زعماء المقاومة، كانوا على جانب كبير من الوعي بخطورة الموقف وقوة الفرنسيين. وبدون شك فإنهم كانوا على علم تام بجهاد الشاوية وصمودها في وجه الاحتلال الاجنبي، وخضوعها في النهاية. ومع ذلك فقد صمم المجاهدون على مواجهة المغيرين مهما كان الثمن[25]

والأمر الذي يؤكد لنا ما قررناه، هو ان زعماء حركة الجهاد لم يقفوا مكتوفي الأيدي، ينتظرون حتى يدق عليهم العدو الباب، بل نشطت الاتصالات بين القبائل، وأرسلت الوفود للقبائل المجاورة لدعوتها إلى الجهاد، وقد أعطت هذه الاتصالات نتائجها بسرعة.

ففي يومي 30 ـ 31 يناير 1911، أي بعد الحادث بستة عشر يوما، عقدت وفود قبائل زمور وزيان وبني خيران وتادلة وزعير تجمعا عاما قرب مدينة الرماني اليوم. وعن النتائج التي اسفر عنها الاجتماع، نترك الحديث للاستخبارات العسكرية الفرنسية:

فقد جاء في تقرير سري لأحد المخبرين[26]:

«لقد تبادل ممثلو القبائل السلاهم، وهي علامة على التحالف. وتقرر أن توزع القيادة كما يلي

القائد حمو الشليح[27] على رأس مجاهدي المزارعة وزمور.

علي بن حمو[28] على رأس مجاهدي الكميان وبني خيران وتادلة وريان.

كما تقرر في الاجتماع، تخريب الطريق التي مهدها الفرنسيون لجلب المدفعية داخل زعير بالفؤوس. وإلقاء القبض على القياد الذين يتصلون بها وقتلهم. وقد أرسلت الوفود لتنفيذ هذا الغرض يوم فاتح فبراير. وكان قد ألقى القبض على قائد

اولاد كثير قبل 30 يناير، ثم سرح إلى أن يقع القبض الجماعي على أمثاله».

وهكذا يتأكد لنا عزم زعير على الجهاد، ونلاحظ ان الامر لا يتعلق لا برد فعل عفوي، ولا بمقاومة لخطبة محدودة في الزمان والمكان، بل إن رؤساء حركة الجهاد كانوا يعلمون قدرة الغزاة وتفوق سلاحهم، ولكن إرادة الدفاع عن الذات والأرض والكرامة، جعلت زعير، يردون بعنف على تدخل الفرنسيين، وتجرئهم على الدخول لبلاد زعير، اعتمادا على القوة فقط. لقد قتل الضباط المتدخلون، وشرع زعماء الجهاد في تنسيق المقاومة، وتنظيمها ما أمكن التنظيم، والبحث عن سند ما أمكنهم البحث. لقد اتصلوا بقبائل تادلة المجاورة واتصلوا بزمور المجاورة واتصلوا بقبائل زيان، بل وذهب أحد زعماء الجهاد وهو علي بن حمو إلى خنيفرة عند القائد المجاهد موحا أوحمو الذي يعلمون جهاده بالشاوية، لطلب مساعدته والتعاون معه ضد الغزاة النصارى. أليس هنا وعي من المجاهدين بضرورة تعاون المغاربة ضد الغزاة. بلى إن الأمر يتعلق بإرادة صلبة تأبى الخضوع للمحتل دون بذل النفس والنفيس.

وبالفعل فمن التقارير العسكرية الفرنسية، نعلم أن سكان زعير قد عارضوا التدخل الفرنسي في بلادهم معارضة شديدة. ونعلم كذلك أن المجاهدين قد بدأوا، بعد اجتماعهم المشار إليه أعلاه، في مصادرة أموال من يتعاون أو يتصل بالفرنسيين. وأن المعاملات التي كانت جارية بين الشاوية وزعير قد قطعت إثر تدخل الفرنسيين في زعير، وأن بعض القياد المهتمين بالتعاون مع الفرنسيين قد هربوا ليلا إلى الشاوية. و«أن قسم المزارعة من زعير هم الذين يحرضون على الجهاد، وأن بعض قبائل الشاوية مثل المذاكرة قد بدأت تتخوف من الوضعية وتخشى نهب قطعانها». ولهذا أصدرت قيادة الاحتلال أوامرها «بوجوب التخييم في دواوير قادرة على الدفاع عن نفسها»(29)

وكتب المكلف بالاشغال، الفرنسي بطنجة إلى وزير الخارجية يقول: «تبعا للأخبار التي تلقيتها من الدار البيضاء، فإن الاضطراب يزداد بزعير: حيث يتعرض عملاؤنا لأنواع الذعائر إن المسؤولين عن حادث 14 يناير الذين كانوا قد فروا عادوا لمقراتهم القديمة. ونظموا زيادة على ذلك احتفالا يوم 9 فبراير قرب قصبة

مغشوش»[30]

وهكذا أبدى الزعريون رغبتهم في تحدي تهديد الغزاة، وأكدوا عزمهم على الجهاد[31] ويبدو أن ذلك العزم، زيادة على موقف مولاي عبد الحفيظ، هو الذي جعل السلطات الفرنسية تضغط على السلطان ليقوم بمعاقبة زعير بنفسه ومنع سكانها من تسوق أسواق الرباط والدار البيضاء.

ثالثا موقف السلطان مولاي عبد الحفيظ:

في الوقت الذي كان فيه السلطان عبد الحفيظ يعيش أزمة مالية حادة ويرغب في تنظيم جيش قوي لفرض سيطرة المخزن على البلاد، أحدث الفرنسيون قضية زعير، في إطار مسلسل يهدف إلى إبقاء الاضطراب بالمغرب، وإضعاف السلطان وجعله يخضع لأوامرهم.

والواقع أن مولاي عبد الحفيظ قد استاء للحادث ورأى فيه تصعيدا من جانب الفرنسيين لا مبرر له إلا مبرر الضغط عليه. كما رأى في الحادث برهانا آخرا على سوء نية الفرنسيين ومخالفة أفعالهم لأقوالهم وتعهداتهم. وهكذا اتهم السلطان في لقاء مع القنصل الفرنسي بفاس العسكريين الفرنسيين بالتهور وعدم التعقل المطلوب، وحملهم مسؤولية الحادث وطلب من القنصل إصدار التعليمات لضباط الاحتلال، حتى لا يتسببوا في حوادث جديدة، تجر بدون شك القتال بين القبائل والقوات الفرنسية(32).

وقد بعث السلطان بتعليماته الى المقري الذي كان بباريز يتفاوض مع الفرنسيين، يأمره بتحري نوايا الحكومة الفرنسية، حول ما شاع في الجزائر من عزمها «على توجيه حملة عسكرية. للضرب على قبيلة زعير». وقد أبدى السلطان استياءه الشديد لما في الأمر من مخالفة الحكومة الفرنسية لتعهداتها، وأن تدخلها إذا حصل فسيؤدي الى فتح باب الفتنة بالمغرب يعسر سدها، «مع أنه لولا مجاوزة أولئك العساكر حدودهم - يقول السلطان - لما وجد من يرومهم بسوء، ولكنهم لما بدأوا بالعداء جنوا على أنفسهم عاقبته»[33].

ويبدو أن موقف زعير الرافض للاحتلال، وموقف السلطان الذي ندد بالعسكريين الفرنسيين وحملهم المسؤولية، وطلب من الحكومة الفرنسية التعقل، يبدو ان هذا الموقف المغري الصامد قد دفع بالاوساط الاستعمارية الى تصعيد الأحداث بالمغرب. وهكذا تولد عن مشروع معاقبة زعير مشروع أعم وأخطر هو تنظيم حملة لاحتلال فاس، بدعوى انقاذ الجالية الاوروبية بها من خطر هجوم القبائل المجاورة.

وبدون شك كان الأمر موجها ضد السلطان لاسكاته بالمرة، ويهدف كذلك، الى جعل المثلث الوعر الذي تحتله قبائل زعير، رهن قبضتي الجيش الفرنسي المحتمل لفاس ومكناس من جهة الشرق، والدار البيضاء والرباط من جهة الشمال الغربي. وبالفعل لقد نظم الفرنسيون حملتهم على فاس. وبعد احتلال فاس ومكناس وجهوا جيوشهم لزعير عبر محورين، محور اتجه من مكناس نحو الشاوية، ومحور آخر اتجه من الشاوية لعمق زعير. وقد التقى المحوران في كلتة الفيلا، وهو مكان مشهور وسط قبائل المزارعة في غشت سنة 1911.

الهوامش

1 علال الخديمي «أزمة أكادير 1911 والعلاقات الالمانية الفرنسية المغربية».
أعمال ندوة أكادير الكبرى، المحور التاريخي. نشر كلية الاداب والعلوم الانسانية بأكادير 1990. صص. 123 - 153

2 - ابن أبي محلي، الإصليت، مخطوط الخزانة الحسنية، ص 76 فعندما نسب شيخه سيدي امحمد مبارك الزعري قال: «وهو رضي الله عنه من قبيلة عرب يقال لها زعير بلغة التصغير، والنسب إليها على التكبير»

- قارن كذلك: محمد بن عمر ابن سودة المري، قبلية زعير قديما وحديثا، الجزء الأول، 1977 ص 48 وما بعدها وحول أصل زعير

- وكناش رحلات السلطان مولاي الحسن، مخطوط الخزانة الحسنية.

3 - أشار الحسن الوزان (ليون الافريقي) إلى وجود زعير آدخسان قرب خنيفرة اليوم خلال القرن الخامس عشر الميلادي بقوله:

«فهناك أرض صالحة جدا للقمح والرعي، هذه السهول في أيدي أعراب يسمون زعير من أتباع الملك»

وصف أفريقيا، تعريب محمد حجي، والاخضر غزال، 1، 232.

3 (مكرر) ـ قارن ما كتبه ابن سودة نقلا عن عبد العزيز بن عبد الله في الموضوع. المرجع السابق.

4 ـ DEFOUCAULD, "Reconnaissance au Maroc, 1883-1884" Paris, 1888, P. 264.

5 ـ QUEDENFELDT, "Division et repartition de la population berbère au Maroc", traduit de l'allemand par H. Simon, Alger, 1904, pp. 52-53.

6 ـ DEVERDUN (G), "MARRAKECH des origines à 1912", Rabat 1959 p.524.

7 ـ كان الكاتب يتحدث عن أحوال سنة 1907 ويلمح إلى ما جرى بالدار البيضاء.

8 ـ DR. MAURAN, "Le MAROC d'aujourd'hui et de demain", Paris 1909, P. 45.

9 ـ P. Albin, Le coup d'Agadir, P. 107

- **Bull Afrique Française**, 1907, P. 231

- **Archives de guerre Vincennes**, (A.G.V) 3h 15, 14 Avril 1906

10 ـ **Archives Etrangères**, Paris (A.E.P) Nouvelle série (N.S) Maroc- A.G.P. Martin, Quatre Siècles d'histoire marocaine, P. 441.

11 ـ بعد قنبلة الدار البيضاء هدد المحتلون سكان الرباط وسلا، بقنبلة المدينتين إذا تعرض الأوربيون لأي سوء.

12 ـ P. Azan, l'Expedition de Fez. p. 29

13 ـ CICARD, l'organisation des ZAER. R.M.M. 1910. P. 25

14 ـ NEHLIL, Lettres chérifiennes, Planche CXXIL

15 ـ من أحمد بن أمبارك إلى محمد بن سالم 3 شعبان 1325 الموافق 11 شتنبر 1907.

- A. E. P. MAROC, NS. T. 187, P. 27

16 ـ A. E. P. NS. T. 46, P. 226

17 ـ محل معروف في الطريق الرابطة بين مدينة الرباط ومدينة مراكش عبر زعير، كانت مركز تخييم محلات السلاطين. كما جرت فيه معارك بين المغاربة والفرنسيين. ويقع في جنوب شرق ابن سليمان قرب مركز سيدي بطاش.

18 ـ A.G.P. MARTIN, Quatre Siècles, op. Cit, P; 527 -

bull. AF. FR 1910 P. 105 - 106

19 ـ معركة الصباب الاولى 1 مارس 1910، قتل فيها حوالي 12 من المجاهدين. وقد شاركت في المعركة قبائل المزارعة أي القسم الشرقي من زعير. ويتهم الفرنسيون المزارعة بكراهية الاجنبي وبكونهم المحرضون للكفيان على رفضه التعامل مع الفرنسيين.

قارن CICARD, op. cit, P. 25.

20 ـ A.G.V. 3H 78, MOINIER à guerre 1 Mars 1910.

21 تقع قصبة مغشوش بالقرب من مدينة الرماني اليوم، في الطريق الواصلة بين الرماني والدار البيضاء. وقد بنى القصبة المرابط عبد القادر بن البشير المباركي بمساعدة مولاي عبد العزيز.

22 ـ قتل في الهجوم الضابط MARCHAND الذي أطلق اسمه على قرية الرماني التي كانت تسمى في عهد الحماية معسكر مارشان Camp MARCHAND

23 ـ لن تتدخل القوات الفرنسية في زعير إلا بعد احتلال فاس ومكناس صيف 1911.

J.C. Allain, Agadir, 1911. P. 254 ـ 24

25 ـ لقد حاول الاخوان سيدي الحبشي وسيدي العربي، أخوي المرابط عبد القادر بن البشير المباركي أن يتوسطا لايجاد حل، على أساس إعادة الاشياء التي استولى عليها المغاربة وإذا أراد الفرنسيون الهجوم، فإن المجاهدين مستعدون للمقاومة والجدير بالذكر أن الاخوين المذكورين اتهما بالتواطؤ مع الذين فتكوا بالسرية الفرنسية يوم 14 يناير.

A.G.B. 3H 78, 2 - 2 1911 - 26

27 حمو الشليح مجاهد من قبيلة أولاد خليفة، كان مقدما وزعيما من زعماء زعير.

28 ـ يعتبر علي بن حمو من أشهر زعماء الجهاد بزعير، انضم لمولاي عبد الحفيظ منذ البداية ـ كان شديد المعارضة للمخططات الفرنسية ـ وفي الوقت الذي حدث فيه الاجتماع المذكور كان علي بن حمو في زيارة للقائد الزياني موحا أوحمو بهدف تنسيق الجهاد وطلب مساعدته.

A.G.V. 3H 18,3 eucheron 9.2. 1911 ـ 29

Documents dipl. FR. Affaires du Maroc, 1910, p. 96 ـ 30

- aussi, Martin, op. cit. pp 540 - 541

وعن الاحتفال المشار إليه يتعلق الامر بحصول أحد المجاهدين على ورقة حماية ألمانية.

31 ـ كتب رئيس البعثة العلمية L. DE LACHARRIERE في الحقيقة كان زعير في حالة عداء تجاهنا رغم أنهم كانوا في علاقات مستمرة مع مراكزنا بمعسكر بولو ومعسكر بوشرون.

. Cité par A. TARDIEN, Mystère d'Agadir, p. 104

ملاحظات حول المقاومة المسلحة
بين فرض الحماية واستقلال المغرب

الأستاذ محمد الفلاح العلوي
كلية الآداب والعلوم الانسانية
عين الشق – الدار البيضاء

تمهيد :

في بداية هذا العرض أود أن أشير الى أن موضوع المقاومة المسلحة بالخصوص لم يحظ باهتمام كبير لان المعلومات المتداولة عنه غير كافية من جهة ومتناقضة في بعض جوانبها وتفصيلاتها من جهة أخرى. فالمعلومات المستقاة من الروايات الشفوية لمقاومين سابقين أو مشاركين في الحركة الوطنية سياسيا أو بواسطة السلاح أو من كتاباتهم، وان كانت تحاول أو تكون موضوعية، فهي متأثرة بالذاتية أحيانا وبتبرير مواقعهم الاجتماعية والسياسية في مغرب اليوم.

وعلى يالرغم من الجهود التي بدلت من طرف بعض المؤلفين والباحثين والمغاربة من أجل الخروج بتاريخ صحيح عن العمل الوطني والكفاح المسلح فان المعلومات المقدمة تبقى مع ذلك غير نهائية لذا فإن الملاحظات التي سأبيدها في هذا العرض اعتمادا على مقارنة المعلومات المتداولة في هذا الموضوع تبقى أولية ومطروحة للنقاش والتأمل، وللبحث عن الأسئلة الصالحة لسبر أغوار أحداث الكفاح الوطني من أجل التحرر من الأجنبي.

I ـ المقاومة المسلحة بين 1900 و 1930

1 ـ الدوافع

لقد كان لاشتداد الضغط الامبريالي على المغرب في نهاية القرن 19 ومطلع القرن العشرين دور حاسم في الدفع بمسلسل المقاومة المسلحة إلى الظهور على الساحة المغربية بعد أن عرف المخزن عدة صعوبات تتعلق بتدهور الأوضاع الاقتصادية والمالية، وانتشار الاضطرابات والثورات واختلال النظام وانعدام الامن مما جعل المخزن يشعر بصعوبة مواجهة التدخل الاجنبي عموما والفرنسي على وجه الخصوص فترك الامر للقبائل لتقاوم اعتمادا على امكانياتها ووسائلها الذاتية خصوصا بعد الهزائم التي مني بها في إسلي وتطوان وما ترتب عنها من نتائج، وهكذا رفض المخزن بتاتا تحركات المواجهات العسكرية استنادا لأوضاع المغرب المتخلفة أمام قوة المتغلب[1]، واكتفى بأسلوب الاحتجاج الدبلوماسي حين ما استغلت فرنسا تفوقها المادي والعسكري وعملت على احتلال مناطق من التراب المغربي[2] وفقا لمخطط استعماري استمر حتى فرض الحماية سنة 1912، وتميز بسياسة التوغل السلمي في المغرب اقتصاديا[3] ودلبوماسيا، وبنهج سياسة خارجية متميزة عملت على ربح رهان احتلال المغرب[4]

أما هذه الوضعية المتردية عبر المغاربة عن رفضهم للتدخل الأجنبي بأشكال متعددة أبرزها الدعوة إلى الجهاد خصوصا بعد وضوح ضعف المخزن وتخليه عن مسؤلياته الكبرى التي منها الدفاع عن أرض الوطن وقد تطور هذا الرفض أخر الامر إلى مقاومة مسلحة كان متزعموها يشعرون بوجود فراغ سياسي لابد من تعويضه ولو على المستوى المحلي، خصوصا بعد تولي السلطان مولاي عبد العزيز أمر تسيير شؤون البلاد بعد وفاة الحاجب باحماد في 20 ماي 1900م الذي دشن مسلسل التخلي عن السيادة المغربية حينما تورطت سفارته إلى باريس في 20 يونيو 1901 في تنازل شبه رسمي عن إدارة المخزن وسيادته على توات ووادي الساورة بعد احتلالها من طرف القوات الفرنسية[5]، هذا المسلسل الذي ختم بعقد الحماية الموقع من طرف السلطان مولاي عبد الحفيظ الذي بايعته النخبة المغربية كسلطان للجهاد، إلا أنه

أمام الضغوط الفرنسية لم يسعه إلا أن يوقع عقد الحماية ويتنازل عن العرش. وكان من أبرز مواد هذا العقد المادة الثانية التي تنص على ما يأتي

«يقبل جلالة السلطان منذ الآن أن تشرع الحكومة الفرنسية وبعد إعلام المخزن في الاحتلالات العسكرية التي تراها ضرورية لاستتباب السكينة وتأمين الحراسة برا وبحرا في المياه المغربية»(6)

أمام هذه الوضعية، بدأت فرنسا في تنفيذ بنود معاهدة الحماية، فتصاعد للتو مسلسل المقوامة المسلحة للوجود الأجنبي والتعبير عن رفض المغاربة لاستسلام المخزن، وهكذا يعبر الجنرال ز. جويوم عن ذلك بقوله « ... والذي أدهشنا كثيرا هو أن أخلص القبائل للسلطان ثارت عليه حينما وقع الحماية، وكانت أشد مقاتلة لنا ونقضا علينا من بعض القبائل التي عرف عنها أنها تثور بمختلف المناسبات».(7)

تجدر الاشارة كذلك إلى أن من أهم الدوافع التي كانت وراء المقاومة المسلحة عند فرض الحماية هو ذلك الشعور الفطري لدى المغاربة باستقلالهم والذي يستمدونه من البعد التاريخي لكفاحهم لكل تدخل أجنبي طرأ على بلادهم في السابق، إلا أن هذا الحس الوطني كان ممتزجا بالروح الدينية السائدة لدى الجميع ومصطبغا بها، فلا يكاد ينفصل عنها(8). وعلى الرغم من صعوبة الخوض في مناقشة هذه النطقة بسبب طبيعة المجتمع المغربي في هذه المرحلة وانعزالية مناطقه المختلفة عن بعضها لأسباب جغرافية تترتب عنها صعوبة المواصلات وآخرى احتماعية مترتبة عن النظام القبلي فإنني أكتفي هنا ببعض الشهادات التي تدل على وجود الشعور الوطني والحس الوطني و نموه ضمن أحداث التدخل الأجنبي.

يقول النائب الاشتراكي جوريس في جريدة «لومانتيه» عدد 25 غشت 1908 «والعمليات العسكرية إذ تستفحل تثير مقاومة تشهد على تعلق المغاربة بحريتهم واستقلالهم، هذه المقاومة التي لا يمكن أن تنسب إلى التعصب، فبرؤيتهم رجالا مسلحين وقذائف تتساقط وبنادق تلمع يقولون لأنفسهم لقد عشنا حتى الآن أحراراً مستقلين واباة، ثم يدافعون عن أنفسهم وأنتم تشوهونهم باسم المتعصبين»(9).

كما يقول المرحوم علال الفاسي في معرض حديثه عن حرب الريف أن الأمير محمد ابن عبد الكريم الخطابي قد أخبره بأنه «وصل الإتفاق بين الأفراد والجماعات إلى حد أن ذوي الثأر الذين لن يكونوا يكملون رازئيهم تآخوا معهم وتناسوا كل ما بينهم من حزازات وسامحوا قاتلي أبائهم وأقاربهم في سبيل المثل الأعلى الذي بعثه هذا الزغيم النبيل في نفوسهم وألبهم للدفاع عنه والموت في سبيله، وهذا المثل الأعلى لم يكن إلا تحرير المغرب واستعادة وحدته الترابية»[10].

كما يدل على ذلك من جهة أخرى ذلك الالتفاف الذي كان حول معركة الهيبة ابن ماء العينين من طرف القبائل الجنوبية مما أدهش السلطات الفرنسية «حينما شاهدت القبائل العديدة المتساكنة فيما بين مدينة مراكش والسينغال كلها تتجمع تحت قيادة شخص واحد، متناسية كل الاعتبارات المحلية، مدافعة عن فكرة واحدة هي استقلال المغرب ووحدته»[11].

هذا الحس الوطني هو نفسه الذي دفع قبائل الجنوب الى تناسي صراعاتها إلى درجة أن عامل تافيلالت السداتي يقول عنهم في رسالة إلى الحاجب أبا أحمد يوم 22 ذي الحجة من سنة 1317هـ ما يأتي

«واتفقوا بينهم على... الهناء بينهم عامين، وأنهم تائبون إلى الله في ما بينهم من العداوة وأنهم الآن اخوان، وعدوهم هو الرومي الذي هو بقرب يكلي»[12].

هذا الالتحام والتلاؤم بين المغاربة هو الذي دفع بشخص آخر هو السيد ميلوا أن يقول عند احتلال وجدة والدار البيضاء والمقاومة التي لقيها الفرنسيون أثناء ذلك أن هذه الوضعية «أدت داخل المغرب إلى تهدئة المشاجرات المحلية وإلى تقارب عام، وأن التميز السابق بين بلاد المخزن وبلاد السيبة قد اختفى، فالكتلة المغربية تشكلت من الناحية المعنوية»(13).

ومهما يكن من أمر فإن مناقشة هذه الفكرة تحتاج إلى الكثير من الحذر والتروي في تفسيرها والتعليق عليها، الشيء الذي لن نتمكن منه إلا بالكشف عن المزيد من تفاصيل وإحداث المقاومة المسلحة في هذه المرحلة التاريخية المبكرة من العمل

الوطني.

2 ـ الخصوصيات

ان ما يميز حركات المقاومة المسلحة في مرحلتها الأولى هذه أنها حركات محلية ومعزولة عن بعضها البعض وقد شملت المناطق التالية

2 ـ 1 ـ الجنوب حيث اشتهرت حركة الشيخ ماء العينين بمعاركها الضارية مع جيش الاحتلال الاجنبي من 1904 إلى 1910، ثم تابع ولده الهيبة نفس المهمة انطلاقا من تيزنيت سنة 1912 إلا أنه تخلى عن مشروعه بالزحف شمالا بعد دخوله مراكش وهزيمته قرب سيدي بوعثمان في شتنبر 1912. فاستمر التفاف القبائل حوله في الساقية الحمراء بعد ذلك.

2 ـ 2 ـ الجنوب الشرقي حيث نشطت حركة مقاومة الأجانب حتى قبيل سنة 1900 بقيادة سكان الواحات وقبائل آيت عطا وآيت خباش[14] ثم في تافيلالت بقيادة الشريف السملالي موحا وحموا نيفروطن ثم من بعده أبو القاسم النكادي الذي واصل المقاومة إلى حدود منتصف الثلاثينات 1935 حيث استسلم[15].

2 ـ 3 ـ في الأطلس المتوسط حيث جرت معارك عنيفة عديدة ما بين 1911 و1933 تزعمتها قبائل متعددة وأبطال كثيرون أشهرهم موحى أوحموا الزياني وسعيد وعلي مهاوش وغيرهم[16].

2 ـ 4 ـ شمالا في جبالة والريف حيث تصدى للاسبان أول الأمر بطل الريف الأول الشريف محمد أمزيان بين 1909 و1912، والشريف الريسوني متزعم قبائل جبالة سنة 1913، ثم انطلقت بعد ذلك ثورة الريف الكبرى بقيادة ابن عبد الكريم الخطابي والتي استمرت حتى 1925.

هذا بالإضافة إلى الانتفاضات العديدة لمدن وجدة والدار البيضاء سنة 1907، ومراكش 1911 وفاس 1912، إضافة إلى البوادي المجاورة لهذه المدن.

وهكذا نلاحظ أن هذه المقاومة المسلحة استمرت حوالي 35 سنة ما بين 1900 و1935، وحققت مجموعة من الانتصارات المهمة ضد العدو، حيث تكبد خسائر فادحة خصوصا في معارك أنوال والهري والقصيبة 1913 وغيرها، إلا أن ما يقلل من

شأن تلك الانتصارات أن المقاومين كانوا دائما في حالة دفاع لا تمكنهم من استغلال انتصاراتهم.

وعلى الرغم من محدودية الرقعة الجغرافية لكل حركة وضعف التنظيم وطغيان طابع العفوية عليها كردود فعل أولية، فقد كان لبعضها طموح لأن ترقى إلى مستوى الحركة السياسية الساعية إلى ملء الفراغ المخزني الأنف الذكر[17] ويتجلى ذلك بالخصوص في حركتي الهيبة والخطابي.

هذا ويمكن اعتبار سنة 1912، وخصوصا ما بعد 31 مارس تاريخ عقد الحماية بمثابة الحدث المنعطف الذي أجج رواد حركات المقاومة، والذي أعطاها دافع شرعيتها في كل مكان بالمغرب بعد أن كانت للمخزن نفسه وهو في أحلك فترات ضعفه لا يستطيع مديد المساعدة لها إلا سرا[18]، إلا أن هذا الأمر لا يخص إلا المناطق الجبلية والجنوبية التي استطاعت الصمود لوقت طويل بعد سنة 1912.

3 ـ أسباب التوقف

لا شك أن هذه الحركات لم تتوقف عن العمل إلا بعد أن استنفدت كل وسائل الصمود الممكنة رغم ما كبدت العدو من خسائر، وما حققته في معاركها من انتصارات لم يكتب لها الاستقلال التام، وذلك طبعا لتباين ميدان القوة بين الطرفين، فهي لا تمتلك نفس المعدات الحربية التي يتوفر عليها العدو من مدفعية ودبابات وطائرات وكذلك لمجموعة من الأسباب الذاتية المتعلقة بهذه المقاومة نفسها والتي يمكن أن نذكر من بينها:

أ ـ الاستغلال السيء للدين وخصوصا عند الطرقيين الذين كان فكرهم في صراع مع الفكر السلفي على صعيد المجتمع المغربي عموما، وبالتالي إستغلال فرنسا لهذا الجانب استغلالا ذكيا باستقطابها لرؤساء الزوايا الدينية بطرق مختلفة واتهامها المغاربة بالتعصب الديني، ولم تسلم من هذه الآفة حتى الحرب التحريرية الريفية التي اعتمدت الفكر السلفي كايديولوجية، حيث يقول زعيمها محمد بن عبد الكريم عن أسباب هزيمته سنة 1925 ردا على سؤال صحفي أوروبي مايلي

«مما تسبب في هزيمتي التعصب الديني واعترف بأنني استعملت كذلك من جهتي الشعور الديني في بعض الأوقات، أي لما استولى الاسبان على أجدير، ولكن الاسلام الحق بعيد عن التعصب الديني ويمكنني أن أكد حسب ما أعلم - أنه لا علاقة له بما يسير عليه الجزائريون والمغاربة.. أن الطرقيين لم يساهموا في الجهاد لأنهم كانوا يقولون أن الكفاح في سبيل الوطن لا يهمهم حيث أن مهمتهم تنحصر في الدفاع عن الايمان وقد عملت كل سيء لتطهير الوطن من نفوذهم الذي هو عرقلة كبرى في سبيل الحرية والاستقلال» [19].

كما يتجلى هذا بالنسبة لحركة الهيبة كذلك في اعتقاده المفرط والساذج بالغيبيات، فهو الذي قاطع الشيخ ابي شعيب الدكالي الذي نصحه بالتخفيف من غلواء طرقيته بقوله «بهذه السبحة افتح القاهرة ودمشق»[20].

ب عدم وجود أي تنسيق بين مختلف قيادات المقاومة في مناطق المغرب المتعددة رغم تزامن احداثها. ولعل ذلك راجع للبعد الجغرافي بينها وبصعوبة المواصلات وانتشار الفوضى والاضطرابات في عموم المغرب وضعف الجانب الاخباري وما للسلطات في ذلك بقصد عزلها بعضها عن بعض. إلا أنه من واجبنا عدم اغفال محاولة الزعيم الزعري بن عبد الكريم الخطابي الذي حاول الاتصال بباقي مناطق المغرب من أجل التنسيق لكن دون جدوى[21].

ج انهيار بعض القبائل أمام اغراءات الأجانب بالاستجابة لهم وخدلان إخوانهم المجاهدين، كما هو الشأن مثلا في حركة البطل محمد أمزيان حيث لجأ الاسبان إلى إغراء قبائل قليعة وبني شيكر ومزوجة التي انفضت من حوله وتسببت في إحدى هزائمه[22].

د التنافس بين زعماء القبائل وأبطال الكفاح مثل ما كان موجودا بين موحا أوحمو الزياني وعلي امهاوش من منافسة[23].

إذن بفعل هذه العوامل إضافة إلى عامل القوة الاستعمارية التي بذلت جهودا جبارة بصورة تدريجية رغم الصمود الكبير للمقاومين الذين غلبتهم القوة على

أمرهم فأصيبوا بدهشة العسكري المغلوب الذي لا يستطيع أي عمل بعد تجريده من السلاح على حد تعبير المرحوم علال الفاسي. فتوقفت المقاومة المسلحة في مرحلتها الأولى لتفسح المجال لجيل جديد متشبع بروح المقاومة السلمية التي لا تعطي السلاح المقام الأول في كل معركة[24]

II ـ المقاومة المسلحة الثانية من نهاية الحرب العالمة الثانية إلى استقلال المغرب

منذ الثلاثينات توقف العمل المسلح ضد المحتل سواء في الشمال أو في الجنوب، واستطاعت فرنسا واسبانيا أن تتنفسا الصعداء عسكريا، إلا أنهما واجهتا مقاومة أخرى من نوع آخر هي المقاومة السلمية في إطار الحركة الوطنية، واستمر نضال هذه الحركة حتى بعد الحرب العالمية الثانية حيث حدثت مجموعة من المتغيرات جعلت فكرة الكفاح المسلح تطفو على السطح من جديد ببروز فئات أكثر راديكالية في فهمها للأحداث مما جعلها تحيي العمل المسلح من جديد، فما هي الدوافع الأساسية لهذا الاحياء؟

1 ـ الدوافع

لقد اثمر عمل الحركة الوطنية السلمية وبدأت دهشة الاستسلام العسكري السابق للمغاربة تضمحل خصوصا بعد ظهور مجموعة من الأحداث التي ولدت لدى المغاربة شعورا بزوال هيبة فرنسا وقرب اضمحلال نفوذها في المغرب بسبب ماعانته أثناء الحرب العالمية الثانية من صعوبات[25]

وقدكان من نتائج ذلك التغيير الواضح في موقف السلطان سيدي محمد بن يوسف من سلطات الحماية وتعبيره في أكثر من مناسبة عن استعداده للدفاع عن حقوق بلاده ومؤازرة للحركة الوطنية مما أكسبه شعبية كبرى لم يطمح للحصول عليها أسلافه القريبون في الحكم[26]، خصوصا بعد تأسيس الأحزاب واتجاه الحركة الوطنية للمطالبة بالاستقلال الكامل بدل المطالبة بالاصلاحات في ظل الحماية. لقد جاء تعيين الجينرال جوان في 14 ماي 1947 بمثابة رد فعل قوي حول هذه المتغيرات بسبب السياسة التي نهجها والتي تبلور قرار فرنسا باستخدام قوة ضد السلطان والحركة الوطنية مما كان له رد فعل مماثل من طرف الشعب المغربي عن طريق

المظاهرات والاصطدامات مع جنود الاحتلال، هذه المظاهرات التي كانت بمثابة تعبير عفوي عن كل التطورات السياسية والتي تظهر في علاقة الاقامة العامة بالسلطان وبالحركة الوطنية[27]

لقد كان عزل السلطان سيدي محمد بن يوسف ونفيه في غشت 1953 بمثابة أخر حلقة في مسلسل التصعيد الذي واجهت به الإقامة العامة السلطان والحركة الوطنية مما دعم الاتجاه الراديكالي داخل هذه الحركة الذي دعى إلى الكفاح المسلح وإعطائه الأولوية إلى جانب الكفاح السلمي.

لقد أثير نقاش كبير حول مسألة تبني حزب الاستقلال لحركة الكفاح المسلح في هذه الفترة أو عدم تبني لها، إلا أن المرجح أن قيادة الحزب لم تتحمس للعمل المسلح إلا بعد أن أصبح واقعا فرضته عليها الساحة الشعبية والقاعدة الحزبية التي لعبت دورا أساسيا في تفجير الوضع بعيدا عن القيادة[28] التي أدانت عملية قنبلة السوق المركزي لدى حاكم دائرة الدار البيضاء بونيفاس[29]، ومما يؤكد هذا الصراع كذلك التصريح الذي أدلى به عمر بن عبد الجليل في اجتماع سري للحزب بعد سلسلة من الأعمال الفدائية استهدفت بعض المتعاونين مع الحماية، حيث قال «اليوم أنا متأكد أن المغرب سيتحرر لأنه يوجد في مغربنا رجال أقوياء يضربون بعنف لا نعرفهم نحن ـ فبالاحرى كيف يعرفهم الاستعمار»[30]

ومهما يكن من أمر فإن حركة الفداء المسلح قد ظهرت من جديد متوازية مع التطورات السياسية التي تشهدها البلاد بعد الحرب العالمية الثانية مدعومة بمتغيراتها الملخصة في

ـ التطور الجذري في مطالب الحركة الوطنية ومطالبتها بالاستقلال.

ـ التغير الجذري والمعلن في موقف السلطان من الحماية والحركة الوطنية.

ـ سياسة التصعيد والقوة التي تبنتها الاقامة العامة في عهد المقيمين العامين جوان وكيوم المدعومة بتحركات الخونة والمتعاونين مع الاستعمار.

2 ـ الخصوصيات :

على الرغم من الغموض الذي يسود المعلومات المتعلقة ببداية الكفاح المسلح بعد الحرب العالمية الثانية إلا أنه يمكن اعتبار الاصطدامات والمواجهات التي كانت تقع بين الشعب وقوات الاحتلال أثناء المظاهرات التي حدثت بين الفينة والآخرى قبل 1953 بمثابة البداية الخجولة لعمل المسلح ضد الوجود الاجنبي في هذه المرحلة، وقد عاصرتها بعض الاعمال الفردية كتلك العمليات التي قام بها كل من الحنصالي ومحمد سميحة 1951 [31]

وقد انتقل العمل المسلح بعد ذلك إلى مرحلة التنظيم السري إنطلاقا من المدن وقد لعبت الدار البيضاء دورا اساسيا في هذا الانطلاق باعتبارها ملجأ الهجرة من مختلف مناطق المغرب بكل العناصر النشيطة التي حاولت الإفلات من يد المراقبين المدنيين وضباط جيش الاحتلال الفرنسي إضافة إلى مكانتها كأول مركز حضري في المغرب[32].

أما بخصوص تنظيم العمل الفدائي، الملاحظ أن مجموعة من التنظيمات بأسماء متعددة ظهرت إما انبثاقا من خلايا حزبية منشقة عن التنظيم السياسي أو منظمات لم تكن لها أية علاقة بالأحزاب مثل منظمات اليد العاملة التي تكونت بالدار البيضاء من المدينة القديمة برئاسة ابراهيم البحري سنة 1953. وكان جل أعظائها غير متحزبين[33]. هذا بالاضافة إلى أن هذه المنظمات ساهم فيها مقاومون من أصول بدوية وحضرية ومن الطبقة الشعبية عموما وممن لم يساهموا في العمل السياسي.

هذه المنظمات ساهمت في تمويل نفسها بطرق مختلفة بالمال والسلاح وتنظيم عملياتها الفدائية بمنتهى السرية. وقد بلغ العمل الفدائي مستوى من التنظيم جعله يغطي المغرب بأكمله انطلاقا من خلايا الدار البيضاء إلى المجلس الاداري لاتحاد الجنوب[34]

إضافة إلى العمليات السرية التي كان أفراد المقاومة ينظمونها فقد كان لهم دور في تنظيم المظاهرات المختلفة التي شهدتها مختلف مناطق المغرب مثل مظاهرات وجدة «16 ـ 17 غشت 1953» ومظاهرات سيدي قاسم «1 غشت 1954» وغيرها.

لقد استعانت المقاومة المسلحة كذلك بعناصر عسكرية تعمل ضمن الجيش الفرنسي (غالبا من الكوم) وقد كانت مظاهر هذا التعاون متعددة إما بتسهيل بعض العمليات أو تهريب السلاح أو غير ذلك وبالتالي المشاركة الفعالة في بعض التنظيمات كما هو الشأن بالنسبة للضابط محمد بن عمر المعروف ببويفادن، والذي يرجع إليه الفضل في إطلاق فكرة جيش التحرير وتنظيم المقاومة في الجبال(35).

وقد تطور هذا الأمر فيما بعد، بعد تأسيس جيش التحرير في مطالبة الجنود المغاربة المجندين ضمن الجيش الفرنسي في المغرب إلى الإلتحاق بصفوف جيش التحرير المغربي، وتذكرنا رسائل جيش التحرير إلى هؤلاء المغاربة الجنود برسائل المطالبة بالجهاد التي كانت ترسل إلى القبائل قبيل الحماية في مطلع القرن حيث نلاحظ استمرار الربط الوثيق بين الحس الوطني والعقيدة الدينية وهذا مثال على ذلك

«الحمد لله وحده...

6 أكتوبر 1955

إلى إخواننا المسلمين الموجودين في الجيش الفرنسي السلام عليكم ورحمة الله تعالي وبركاته، وبعد فاعلموا انكم مسلمون ونحن إخوانكم في الاسلام والوطن وعليه فالشريعة الاسلامية تمنعنا من محاربة بعضنا، ولذلك نكتب لكم تنبيها على ما انتم عليه من غفلة لانكم تدافعون عن عدونا وعدوكم وتريدون ان ينتصر الكفر على الاسلام وهذا الامر لا يليق بكل مسلم كيفما كان، واعلموا ان كل من مات منكم في صف القتال فجزاؤه جهنم، ومن مات معنا فسيشاهدالجنة قبل إزهاق روحه، واذا كنتم تفضلون الشهادة فاقدموا علينا في أمان الله والاسلام ومن قدم فستكون له مرتبة سرجان.

جيش التحري الاسلامي المغربي»(36).

هذا ويمكن اعتبار عزل السلطان سيدي محمد بن يوسف يوم 20 غشت 1953، بمثابة منعطف آخر من منعطفات الكفاح المسلح المغربي لان أعمال الفداء التي

كانت محصورة في بعض المناطق قبل هذا التاريخ والتي لم تكن حتى الحركة الوطنية السياسية مرتاحة لها، ألزمت الجميع بالخصوص في هذا الميدان بالدفاع عن الشرعية والبحث عن الحرية والاستقلال، فعم الكفاح الوطني المسلح مختلف جهات المغرب وسجلت البطولات المعروفة للعديد من زعماء الكفاح الوطني مثل محاولة الشهيد علال بن عبد الله يوم 11 شتنبر 1953 وما تلاها من حوادث عمت المدن والبوادي المغربية.

3 - النتائج

لقد أدى التطور السريع للمقاومة المسلحة في الخمسينات وقوة أعمالها إلى ان تنتهي بتشكيل جيش تحرير وطني بدأ انطلاقته يوم 2 أكتوبر 1955، محققا بذلك أهم نتائج الكفاح الفدائي المسلح وموسعا هذا الكفاح من المدن الى البوادي. لقد كانت منطقة الريف بحكم تاريخها الثوري المدشن في مطلع القرن مهد ميلاد جيش التحرير وانطلاق عملياته. وبذلك ساهمت هذه المنطقة في احتضان حدثين متميزين في تاريخها النضالي المسلح ألا وهما ثورة ابن عبد الكريم الخطابي وجيش التحرير المغربي[37]. وقد أفاد هذا الاختيار التنظيم العسكري الجديد من نواحي متعددة منها حرية التحرك التي وفرها الحياد الاسباني في المنطقة وسهولة الحصول على الامدادات الآتية من الخارج، خصوصا الدعم العربي من المشرق، هذا بالاضافة إلى سهولة القيام بعمل التنسيق مع المقاومين الجزائريين[38].

وعلى الرغم من الاحتياطات المتعددة التي اتخذها الفدائيون المغاربة فقد اكتشفت السلطات الفرنسية مجموعة من مدبري اعمالها مما فتح لها الباب للقيام بمجموعة من المحاكمات طيلة السنوات من 1952 إلى 1955 [39]

من النتائج كذلك تأسيس عصابات فرنسية مضادة لمقاومة المقاومة المسلحة وتصفية عناصرها الوطنية المغربية ومن يسندها من الفرنسيين[40]

هذا ومن نافلة القول الحديث عن النتائج المادية المعروفة الناتجة عن هذا الكفاح المسلح كبروز اسماء لامعة في ميدان الكفاح المسلح والنجاح في الكثير من

العمليات الفدائية الكبرى. وطبعا سيبقى حصول المغرب على استقلاله وعودة جلالة الملك محمد الخامس الى بلاده اكبر نتيجة حققها هذا الكفاح المسلح في تاريخ المغرب المعاصر

خاتمة :

يجدر بي في نهاية العرض أن أستخلص بعض الملاحظات الناتجة عن المقارنة بين مرحلتي الكفاح المسلح المذكورتين

1 - المقاومة المسلحة الأولى انتهت لتفسح المجال للحركة الوطنية السياسية، أما الكفاح المسلح الثاني، فقد انطلق ليتجاوز هذه الحركة الوطنية السياسية بعد الاقتناع بعدم الاقتصار عليها فقط.

2 - لقد حققت المقاومة المسلحة الأولى مجموعة من الانتصارات العسكرية في معارك بين الثوار وجيش الاحتلال في مواجهات علنية وجماعية.

أما الكفاح المسلح الثاني فقد نظم مجموعة من العمليات الفدائية ضد أهداف استعمارية معينة ولم تظهر فيه المواجهات المباشرة إلا أثناء المظاهرات.

3 - لقد شعر بعض متزعمي المقاومة المسلحة الأولى بالفراغ السياسي الذي نتج عن ضعف المخزن فطمحوا الى الرقي بحركاتهم الى مستوى الحركات السياسة لملء الفراغ.

أما الكفاح المسلح الثاني فهو تشبث بالشرعية السياسية المتمثلة في الملك محمد الخامس ودفاع عن هذه الشرعية أساسا لارتباطها الوثيق به.

4 - الملاحظ في كلا المرحلتين ارتباط الشعور الوطني بالمعتقد الدِّيني الذي كان يطغى عليه خصوصا في المرحلة الأولى (الدعوة الى الجهاد)، وعلى الرغم من وضوح فكرة الوطنية كشعور قومي في مرحلة الخمسينات فقد بقيت مرتبطة بتفسيراتها الدينية (رسالة جيش التحرير الى المغاربة في الجيش الفرنسي).

5 - انطلق الكفاح المسلح في المرحلة الأولى في عدة مناطق دون تنسيق فيما بينها، أما في المرحلة الثانية فقد عم العمل الفدائي مجموع الوطن مع وجود بعض

التنسيق المنبثق عن التنظيم السري للعمل الفدائي.

6 ـ إذا كانت المقاومة المسلحة الأولى قد انطلقت من مناطق بدوية وتمركزت في الجنوب وفي الجبال فإن العمل المسلح في المرحلة الثانية قد انطلق من المدن بسبب تركز الثقل الشعبي فيها نتيجة الهجرة «مثال الدار البيضاء» هذا مع عدم إغفال انتفاضات المدن في المرحلة الأولى الدار البيضاء، وجدة، مراكش، فاس.. الخ. (وعدم اغفال انتشار العمل الفدائي حتى في البوادي بعد أحداث غشت 1953).

7 ـ اذا ما اعتبرنا تاريخ 31 مارس 1912 منعطفا لتوسع حركة المقاومة في مرحلتها الاولى فان تاريخ 20 غشت 1953 هو منعطف توسع العمل الفدائي في المرحلة الثانية.

8 ـ الملاحظ ان المقاومة في المرحلة الأولى استمرت مدة طويلة منذ حوالي 1900 إلى 1935 مما يدل على قوة صمود المغاربة وطول نفس مواجهتهم للمستعمر رغم قصور الامكانات والتنظيم وغيرها. أما في المرحلة الثانية فقد كانت مدة الكفاح المسلح قصيرة بالمقارنة مع سابقتها حيث كللت سريعا بالنجاح واستفادت من مؤازرة العمل السياسي لها وإن كان هذا الكفاح قد استمر في الجنوب حتى ما بعد 1955

9 ـ في المرحلة الأولى للمقاومة لعبت القيادات الفردية دورا أساسيا في الملاحم العسكرية توجيها وتنظيما وقيادة، بينما اعتمدت المرحلة الثانية على العمل الجماعي والشخصي لا القيادي وانتهت إلى تكوين جيش للتحرير.

الهوامش

1 ـ محمد المنوني مظاهر يقظة المغرب الحديث الدار البيضاء 1985 ج. 2 ص. 10.

2 ـ مر التغلغل العسكري عبر المحاور التالية

ـ التسرب عبر الحدود الشرقية منذ 1900 باحتلال مناطق

عين اصلح، تيدكلت، تيموم، توات.

ـ التسرب العسكري عبر الشواطئ منذ 1907 باحتلال وجدة والدار البيضاء وفاس.

ـ تقوية دور الفئة العسكرية الفرنسية وجعلها تشرف على الجيش المغربي منذ 23 أكتوبر 1910.

3 ـ على الصعيد الاقتصادي تمت الاستفادة من تقارير المستكشفين والجواسيس الفرنسيين واستغلال نتائج العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا ومنافسيها وذلك بتشكيل الشركات التجارية وفتح فروع لشركات فرنسية في المغرب وتشجيع المستوطنين على امتلاك اراضي مغربية (أكثر من 100 ألف هكتار حتى يناير 1912)، واسقاط المخزن في فخ الاقتراض سنوات (1902-1903-1904-1905-1907-1910) من أجل تمويل سياسة الاصلاح واخماد الفتن.

4 ـ تمثلت هذه الخطة الدبلوماسية في

ـ الاعتراف لايطاليا في اتفاقية 1902 بعدم التعرض لها في ليبيا.

ـ الاعتراف لبريطانيا في اتفاقية 8 أبريل 1904 باحتلال مصر.

ـ التعهد لاسبانيا في اتفاقية 3 أكتوبر 1904 باعطائها من الارض المغربية جنوبا وشمالا اتفاقية 4 نونبر 1911 مع ألمانيا باقطاعها 275 ألف كلم 2 من مستعمرة الكونغو بعد المناورات السياسية لهذه الاخيرة وبعد زيارة امبراطورها غليوم 2 لطنجة 1905 وحذرها في مؤتمر الجزيرة 1906 وتهديدها العسكري بزيارة بارجتها الحربية لأكادير 1911

5 ـ وفق 20 يونيو 1901 بباريس بين وزير الخارجية المغربي عبد الكريم بن سليمان ووزير خارجية فرنسا ديلكاسي. انظر محمد المنوني مظاهر اليقظة المغرب. ج. 2 ص، 22.

6 ـ من نص المعاهدة المنشور في موقف الأمة المغربية من الحماية الفرنسية. نشر حركة الوحدة المغربية. تطوان 1946 صص. 18-21.

7 ـ علال الفاسي الحركات الاستقلالية في المغرب العربي الرباط : 1980 ص. 109.

8 ـ يمكن التعرف علي هذه الصيغة الدينية من خلال رسائل التحريض على الجهاد كرسائل الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني وغيره.

نحيل على رسالته لقبيلة زعير لحثها على قطع الطريق على فلول الجيش الفرنسي حينما يمر بأراضيها.

انظر الكتاني أشرف الاماني في ترجمة الشيخ الكتاني ص. 213-214.

9 ـ جورج أوفيد : اليسار الفرنسي والحركة الوطنية المغربية 1905-1955 الدار البيضاء. دار توبقال. ج. 1 ص. 68.

10 ـ علال الفاسي مرجع سابق ص. 117

11 ـ نفسه. ص. 109.

12 ـ محمد المنوني مرجع سابق. ج. 2. ص. 31.

13 ـ جورج أوفيد مرجع سابق. ج. 1 ص. 68.

14 ـ عبد الحميد احساين المقاومة المسلحة في الجهة الجنوبية بين سنتي 1900 و1912 بحث قدم لندوة مراكش حول المقاومة المسلحة نونبر 1990. (مخطوط).

15 ـ علال الفاسي الحركات الاستقلالية. صص. 107-108

16 ـ للمزيد من تفاصيل هذه الحركات الرجوع بالخصوص الى محمد العلمي حركة تحرير الاطلس.

17 ـ لقد بويع الشيخ أحمد الهيبة كسلطان للجهاد في تزنيت والتفت حوله قبائل متعددة بايعته في مراكش مثل آيت باعمران والاخصاص وجزولة وغيرها، حتى القبائل التي كانت في حالة تمرد دائم ضد المخزن مثل قبائل إيداوتنان جنوب غرب الأطلس الكبير. أنظر المختار السوسي المعسول ج. 4 ص. 126. ونفس الامر يقال بالنسبة لحركة عبد الكريم الخطابي التي يطلق عليها لنظامها اسم جمهورية الريف. الوزاني مذكرات حياة وجهاد. ج. 2. حرب الريف.

18 ـ نذكر على سبيل المثال مساعدة السلطان عبد العزيز للشيخ ماء العينين بمده بالسلاح سرا. كما يؤكد هذا الامر الضغط الفرنسي على السلطان عبد الحفيظ الذي أرسل الى أحمد الهيبة بنصحه بعدم القدوم الى فاس لمقابلته سنة 1910 حيث كان يقصد استشارته في أمر الجهاد.

المختار السوسي المعسول ج. 4 صص. 95-96.

19 محمد بن الحسن الوزاني مذكرات حياة وجهاد ج. 2. ص 429.

20 ـ المختار السوسي المعسول ص. 148.

21 ـ لقد كانت أبرز محاولاته الاتصال بفاس والدار البيضاء وجبال الاطلس وقبائل زيان وقبائل ناحية تازة من التسول وغياثة البرانس، انظر محمد الحسن الوزاني. مرجع سابق صص. 427-434.

22 ـ الوزاني مرجع سابق ص 12-14

23 ـ محمد العلمي حركة تحرير الاطلس ص. 101

24 ـ علال الفاسي الحركات الاستقلالية ص. 127

25 ـ يتجلى ذلك في تأثر المغاربة بهزيمة فرنسا الساحقة سنة 1940م في الحرب وانقسام الفرنسيين ونزول القوات الامريكية في المغرب سنة 1942 وصعوباتها في سوريا ولبنان.

26 ـ تجلت هذه المواقف في ما عبر عنه أثناء مقابلته للرئيس روزفلت ثم أثناء زيارته لمراكش سنة 1945 وزيارته لطنجة 1947 ثم رفضه توقيع ظهائر الاصلاحات الادارية التي تقدم بها المقيم العام جوان.

27 ـ يمكن تلخيص أبرز التطورات السياسية في هذه المرحلة كالتالي

ـ اعلان الجنرال جوان عن مشاريع اصلاحات تقوم على أساس السيادة المزدوجة باشراك الفرنسيين في الادارة على كل المستويات.

ـ رفض السلطان التوقيع على ظهائر الاصلاحات ورفض جزب الاستقلال لها..

ـ التضييق على الحركة الوطنية خصوصا في 1948

ـ فشل مفاوضات باريس 1950 بين السلطان ورئاسة الجمهورية.

ـ محاولة اجبار السلطان على التبرؤ من الحركة الوطنية بجمع فرسان القبائل حول فاس والرباط بزعامة القواد الكبار ورؤساء الطرق الدينية.

ـ خلع السلطان في 20 غشت 1953

28 ـ محمد الميلي المغرب العربي بين حسابات الدول ومطامح الشعوب بيروت ـ دار النشر كلمة. 1981. ص. 23.

29 ـ نفس المرجع والصفحة.

كما تجدر الاشارة الى الكثير من شهادات المقاومين الذين يؤكدون على عدم تبني الحزب للعمل المسلح.

انظر مصطفى الديكي واد زم الشهيدة ص. 48-49.

30 ـ مصطفى العلوي الاغلبية الصامتة ص. 52.

31 ـ علقت جريدة أنوال في مقال نشر بها بعدد 215 سنة 1985 تحت عنوان المجد والخلود لشهداء الاستقلال والبؤس لعائلاتهم والاهمال، بالقول «ان الحنصالي وسميحة اللذين قدما روحيهما فداء لحرية الوطن لم يعترف لهما لحد الساعة بصفة مقاوم لانهما بدءا الكفاح المسلح قبل 15 غشت 1953 الذي يعتبره القانون بداية للمقاومة المسلحة».

32 ـ مصطفى العلوي الأغلبية الصامتة. ص. 38.

33 ـ من خلال بحث انجز حول بيوغرافية بعض المقاومين المغاربة أمكن حصر أكثر من 12 منظمات فدائية انتمى إليها المقاومون المعرف بهم وهي منظمة القيادة السرية المنبثقة عن حزب الاستقلال.

ـ منظمة البادية التابعة لحزب الاستقلال.

ـ منظمة اليد العاملة.

ـ منظمة تحرير البادية.

ـ منظمة الزرقطوني.

ـ منظمة اليد السوداء.

ـ منظمة سيف الله وأنصار محمد الخامس.

ـ منظمة الجبهة الوطنية.

ـ منظمة يعقوب المنصور.

ـ منظمة الهلال الاسود.

ـ المنظمة الحسنية.

عن بحث بيوغرافية لبعض المقاومين المغاربة. انجاز الغربوس زهراء كندوس حكيمة. سعيد صالح. اشراف الاستاذ بوعزيز مصطفى. بحث لنيل الاجازة في التاريخ. 1989 ـ 1990.

34 ـ مصطفى العلوي الأغلبية الصامتة. صص، 47-48.

35 ـ نفس المرجع ص 55

36 ـ الفرقاني خالد : جيش التحرير المغربي. بحث لنيل الاجازة منطقة الاطلس المتوسط أو منطقة الريف

الشمالي على الحدود بين منطقتي النفوذ الاسباني والفرنسي إلا أن حوادث واد زم جعلت المقاومين يستبعدون منطقة الاطلس التي روقبت من طرف الاجانب بقوة بعد تلك الاحداث.

38 ـ الفرقاني خالد مرجع سابق صص 14-15.

39 ـ مصطفى العلوي الاغلبية الصامتة صص 40-41.

40 ـ من أشهر هذه العصابات عصابة اليد الحمراء التي قامت بتصفية كل من عمر السلاوي ـ عبد الكريم الديوري ـ الطاهر السبتي ـ لوميكر دويري. عن مصطفى العلوي : الأغلبية الصامتة. ص. 44.

صفحات من دفاع المغاربة عن السيادة والوحدة الترابية ما بين

1900 و 1913

نماذج من الصحراء المغربية

محمد الشيخ الطالب أخيار ماء العينين
منظمة الايسيسكو
- الرباط -

الحديث عن السيادة وعن الوحدة الترابية لدى المغابة ليس بالحديث الجديد في الساحة السياسية والثقافية، فقد قيل فيه الكثير ولازال المجال مفتوحا للكشف عن ذلك المجهود الضخم الذي بذله المغاربة ولازالوا يبذلونه من أجل حماية سيادتهم ووحدة ترابهم من مختلف المخاطر التي تهددها.

والحديث اليوم سينصب على منطقة بعينها وهي منطقة الصحراء المغربية الغربية، ولفترة زمنية معينة هي الممتدة بين أواخر القرن التاسع عشر وبداية الحرب العالمية الأولى. والذي حذا بنا إلى اختيار هذه الفترة بالذات هو ما لاحظناه في كتب المؤرخين من إهمال التأريخ لهذه المنطقة من جهة وذلك لأسباب متعددة ليس هنا مجال بسطها ومناقشتها، ومن جهة أخرى ما نال بعض الصفحات التي كتبت عنها من تشويه متعمد كثير من الأحيان لغرض في نفوسهم لا يخفى، وغير متعمد في بعض الأحيان من طرف مؤرخين مغاربة وغير مغاربة إما لجهلهم بتاريخ هذه المنطقة وإما لاستنادهم على مراجع أجنبية مشوهة، وإما لنظرتهم المتعصبة في كتابة تايرخ بلدهم. وكيفما كان الحال فكتابة التاريخ عملية لا تنتهي، إذ باكتشاف الجديد الذي لا ينقطع، وتعدد الزوايا التي نظر منها المؤرخون إلى تاريخ بلدهم معين، وغنى وتغدد البيئات والثقافات داخل المغرب يجعل من كتابة تاريخه عملية معقدة تحتاج

إلى كثير من الجهد والوقت كي تكتمل، وإذا أظفنا إلى ذلك أن التاريخ حي لا ينتهي بزمن مضى بل منه يصنع الحاضر وتحدد آفاق المستقبل، أدركنا إلى أي مدى نحن في حاجة إلى الكشف عن الصفحات المشرقة من تاريخنا. والحديث عن السيادة وعن الوحدة من جهة أخرى هو حديث عن مفهوم شمولي لا يتجزأ لأنه مفهوم حضاري يشمل الأرض والإنسان والثقافة بمعناها الواسع، أي الأدب والفنون والعلوم والفلسفة... الخ كما يشمل التاريخ في جميع أبعاده. وكل هذه العوامل تتداخل وتتفاعل، إذ لا يمكن أن تبقى الوحدة السياسية لبلد ما إذا لم تدعمها الوحدة الثقافية ترسي دعائمها، وتحافظ على متانتها من مختلف الهزات التي قد تعترضها، من خلال وحدة المفاهيم وصهر الخصوصيات في بنية وطنية لها مقوماتها خاصة ومتميزة، تغتني بالخصوصيات الإثنية واللغوية، وتفاعلاتها مع البيئة المحلية الوطنية.

كما أن الوحدة الثقافية لشعب من الشعوب لا يمكن أن تنمو وتستمر وتغتني إلا إذا عملت الوحدة السياسية على خدمتها ومدها بمقومات الاستمرار والنمو. العوامل إذن متداخلة ومتفاعلة إلى درجة ان الحديث عن جانب واحد دون الجوانب الأخرى لا يمكن أن يتم إلا لاعتبارات منهجية.

وإذا عدنا إلى موضوع حديثنا قلنا إن الأستاذ العروي يرى بالنسبة لجنوب المغرب أن المصادر تحتفظ لنا بعدة أسماء ممن قادوا المقاومة ضد الفرنسيين والإسبانيين والإيطاليين في المغرب العربي من 1900 إلى 1935.

وبغض النظر عن حركة الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي في الشمال فإن المقاومة ظهرت في الجنوب المغربي في بداية القرن حسب عبد الله العروي الذي يصنفها إلى فئتين بغض النظر عن النجاح أو الفشل في تحقيق أهدافها

ـ الفئة الأولى كانت على اتصال مستمر مع السلطان، وكان قادتها يلتجئون إليه عندما يواجههم خطر محقق من طرف الاستعمار. ويضيف العروي بأن هذه الفئة كانت متسعة الآفاق نظريا إلا أنها عاجزة، وعجزها مرتبط بالعجز العسكري المخزني.

ـ الفئة الثانية وتعمل تحت توجيه الجماعة أو القيادة المحلية وتأثيرها لا يتجاوز حدود المنطقة الموجودة فيها وهي ضيقة.

ويحدد الأستاذ العروي لهذه الفئة الثانية أربع مميزات لحركتها وتتمثل في

ـ أولا الانقطاع عن النخبة التاريخية التي تعرف جيدا ميزان القوى بين جيش

الاحتلال وما تستطيع حركة المقاومة تجنيده من مجاهدين.

- ثانيا انتظار قوى خارقة للعادة (إلاهية) لصد العدوان الأجنبي.

ثالثا الخلافات الداخلية بين قادتها والتنافس الحاد فيما بينهم وما يخلفه ذلك من آثار سلبية على حركة المقاومة.

- رابعا رفض الوضع القائم المتمثل في الخطر الأجنبي والعجز الداخلي عن صده إذا كانت هذه هي مميزات حركة المقاومة في كثير من مناطق المغرب، فإنها في الجنوب أي الصحراء المغربية الغربية من 1904 تقريبا إلى 1910 لم تنتظر صد الهجوم الاستعماري الزاحف من الخارج، بل إنها نظمت صفوفها وواجهت المستعمر كما سنبين فيما بعد.

صحيح أنها رفضت الوضع القائم آنذاك إذ يمكننا أن نقول مع فيمان G.DESIRE VUILLEMIN أن القضية المغربية لم تكن محدودة في بلاد المخزن ولا على خط الأطلس إذ أن التأثيرات لا تقف عند الحدود ولا تنمحي مع مصالح القبائل البدوية كذلك، ولذلك اتبع المستعمر الفرنسي والإسباني سياسة ذات وجهين

- الأول يتمثل في رعاية مصالحه مباشرة والحفاظ عليها بأي ثمن وبأي وجه كان وتتعلق بمنطقة مصدر القرار أو المغرب النافع كما يسمونه في قاموسهم.

- والثاني سياسة النفوذ في المناطق البعيدة عن مصدر القرار، مثل الصحراء المغربية التي حاولوا عزلها عن طريق المعاهدات المفروضة بالضغط تارة وبالاغراء تارة أخرى.

ونحن نعتقد أنه بالرغم من سياسة التفريق هاته، فإن الوحدة المغربية هي عنصر التوحيد عندما يواجه المغرب خطرا خارجيا عبر تاريخه، وقد ازداد ذلك تبلورا منذ القرن السادس عشر كما يرى المرحوم جرمان عياش حيث إن الشعور الوطني بالمعنى الحديث لكلمة الوطني قد تبلور لدى المغاربة منذ القرن السادس عشر عندما واجهوا خطر التوسع الأوربي في بدايته، أي عندما بدأ الغزو البرتغالي والإسباني للشواطئ المغربية، فأحس المغاربة أن الوضع الدولي قد انقلب من حالة كانت فيه الامبراطورية المغربية تتواجد في شبه الجزيرة الايبيرية وقامت على امتداد التاريخ الإسلامي بالأندلس بحملات عسكرية من أجل حماية المسلمين بها حتى سقوطها.

انقلب الوضع إذن إلى امبراطورية تحاول القوى الأوربية الناهضة اقتطاع أطرافها، بل وصل الأمر إلى احتلال مواقع استراتيجية في سواحل توابها.

أما بالنسبة للصحراء فإن وقع ذلك كان كبيرا لدى السكان الذين فهموا أن قدرهم ودورهم التاريخي والعقائدي كان دائما في العمل على نشر الإسلام في ربوع إفريقيا جنوب الصحراء، واكتساح المواقع غير المسلمة وتوسيع دائرة الدين، فإذا بهم يهاجمون في عقر دارهم من طرف المسيحيين، وتتم المحاولات لفصلهم عن السلطة المركزية التي هي سلطة دينية وسياسية في نفس الوقت، وإذا تذكرنا أن تونس والجزائر لجاتا إلى الاحتماء الأجنبي المسلم أي الأتراك العثمانيون واعتبروهم أهون الشرين، فإن المغرب ظل وحيدا صامدا في وجه كل من العثمانيين والأوروبيين وظل كل المغاربة متشبثين بالسلطان كرمز للوحدة والسيادة.

أما السياسة التي اتبعتها السلطة الشرعية في المغرب داخل الصحراء فقد اعتمدت على زعامة الشيخ ماء العينين زعامته الدينية وولائه لها وحماس القبائل وغيرتها على استقلال البلاد ووحدتها ومن ثم استماتتها وصمودها في الجهاد.

ولا شك أن مركز المقاومة والالتحام بين مختلف القبائل من جهة، وبينها وبين السلطة المركزية من جهة أخرى قد انطلق من السمارة التي أصبحت مركز وآلة تنفيذ سياسة السلطان في الصحراء.

وفي هذه الفترة بالذات ركز المستعمر اهتمامه على هذه المنطقة من خلال

أولا سياسة المراكز التجارية

في سنة 1877 حاول المستعمر الاسباني تحديد موقع مكتب قديم أطلقوا عليه اسم «سانتاكروز دوماربكينيا» غير المحدد جغرافيا وغير معروف تاريخيا، فأخذوا باخرة ومجموعة من الجغرافيين وخرائط قديمة ومعلومات غامضة، معتمدين في ذلك على بعض المعاهدات المزعومة، وكان الضابط «غاليانو» من الوزارة الإسبانية قد حدد مكان هذا المكتب في جنوب وادي النون، غير أن اللجنة المشتركة المغربية الاسبانية حددت مكانه بتاريخ 22 يناير 1878 بسيدي إفني. كما حدد المكتب قبل ذلك بأكادير وبمناطق أخرى قرب طنطان وطرفاية.

بعد ذلك قام المهندس الإنجليزي دونالد ماكينزي بتأسيس مكتب تجاري بطرفاية وأطلق عليه اسم «پورفكتوريا» بالرغم من الاحتجاجات الرسمية للسلطان مولاي الحسن، إلا أنه لم يلتفت لاحتجاجات السلطان فظلت عدة شركات من لندن ومارسيليا تكثر من علاقاتها التجارية بالمنطقة وتحاول أن تكثر من مكاتبها التجارية على الساحل الأطلسي.

وهكذا عمد الكولونيل «لاهير» المزداد ببروكسيل سنة 1835 وهو ضابط بالقيادة

العليا للجيش البلجيكي، يهتم منذ سنة 1859 بالمغرب، وهو الذي حارب من قبل ضمن الجيش الفرنسي في إخماد ثورات بني يزناسن، وفي سنة 1888 يكلف من طرف الملك ليوبلد الثاني بتنفيذ سياسته الاستعمارية، وذلك باكتشاف المنطقة التي أطلقوا عليها كاپو خوبي (طرفاية) التي تحتضن المكتب التجاري لماكينزي، والعمل على تأسيس شركة للعمل الخيري بها SANATORIUM. والحقيقة أن الهدف الحقيقي للبلجيكيين هو إيجاد موطئ قدم على الساحل الأطلسي، وبالذات في هذه المنطقة قصد تسهيل اتصال البلجيكيين بمستعمراتهم في الكونغو.

هكذا وصل ماكينزي بصفته ضابط البحرية البلجيكية الكولونيل لاهير إلى طرفاية في 4 شتنبر 1888 وقام لاهير باستكشافاته للمنطقة في فترات تراوحت بين عشرة أيام وشهر في كل جولة، واتصل بالسكان على امتداد المنطقة حتى حدود الساقية الحمراء وواحات درعة، وعلى إثر ذلك ظهر مكتب تجاري لدى آيت باعمران بمبادرة من الإنجليزي «دجيمس كورت» وهو تاجر أتى سنة 1879 إلى المنطقة.

ولما لم تؤد المفاوضات الكثيرة إلى نتائج تذكر، قامت مجموعة من العسكريين المغاربة بالهجوم على المكتب التجاري لما كينزي سنة 1888 قتل خلاله الدكتور ماكينزي وحجزت جميع ممتلكاته، وفي النهاية اشترى المغرب من بريطانيا العظمى مكتب ماكينزي بمبلغ 50 الف جنيه استرليني، كما نصت على ذلك اتفاقية فاتح مارس 1895 التي أكدت في نفس الوقت حق المغرب وسيادته على هذه المنطقة.

وعلى بعد مئات كيلومترات من طرفاية، أسس المكتب التجاري بالداخلة وكان في ملك الشركة عبر الأطلسين الاسبانية في شهر نونبر 1884. وكان مؤسسها إيميليو بونيللي. ولا شك أن أول تواجد إسباني بالداخلة يرجع إلى هذه الفترة. غير أن الهجوم على المكتب تم سنة 1885 من طرف قبيلة أولاد دليم المجاهدة وبذلك تم فشل بعثة ايميليوبونيللي الذي لم يمكث بالداخلة سوى بضعة أشهر، كما أنه لم يتجاوز هذه المدينة.

ثانيا الحملات العسكرية

بالإضافة إلى سياسة المكاتب التجارية هذه لجأ الاستعمار إلى الحملات العسكرية المباشرة بعد أن عقدت دوله عدة اتفاقات فيما بينها تتعلق بتقييم المستعمرات ولعل الذي يهمنا منها هنا هي اتفاقيتي 1900م و 1904م.

هكذا نصت اتفاقية 1900 التي عقدت بين كل من فرنسا وإسبانيا وانجلترا

وغيرها من الدول على تجزئة المغرب، فحصلت إسبانيا على الشمال والجنوب المغربيين بما في ذلك سيدي إفني.

وفي 8 أبريل 1904 حصلت فرنسا على تخلي انجلترا عن أطماعها في المغرب مقابل تخلي فرنسا عن أطماعها في مصر.

لكن اتفاقية 3 اكتوبر 1904 في باريس التي عقدت بين فرنسا وإسبانيا وظلت في طي الكتمان لمدة 15 سنة هي، التي رسمت حدود مناطق النفوذ بين الدولتين الاستعماريتين في الجنوب المغربي والشمال الموريتاني.

أما بالنسبة لسياسة السلطان فقد تميزت بدعم المقاومة والتأكد على الروابط التي تجمع سكان هذه المناطق بالسلطة المركزية، هكذا نجد مثلا أن السلطان مولاي الحسن الأول توجه إلى سوس سنوات 1864 و 1882 و1886، في محاولة منه لمواجهة الدول الاستعمارية، ولإعادة صهر روابط البيعة والالتحام القائمة بين السكان والسلطة الشرعية، وتقديم ما يمكن تقديمه من دعم مادي ومعنوي لحركة المقاومة.

وإذا كان الاستعمار الإسباني قد بقي في عزلة داخل هذه المنطقة، كما أن نهايته بها ظلت متأخرة (1975) تأخر إسبانيا نفسها (المعزولة داخل أوربا على عهد فرانكو)، فإن القواعد الاستعمارية داخل الصحراء لم تتجاوز مناطق ضيقة إلا بعد سنة 1935 والسبب في ذلك يرجع إلى بسالة المقاومة المغربية وشراسة مواجهتها للعدوان الاستعماري.

وسنذكر هنا بعض الوقائع التي نعتقد أنها كانت أبرز المحطات في دفاع المقاومة المغربية ضد الاستعمار الإسباني.

يذكر الجنرال غورو أنه في شهر أكتوبر سنة 1906 وبالتحديد في 24 منه كانت المعركة البطولية التي جرت في نيملان، بزعامة الشيخ ماء العينين وقد شاركت فيها عدة قبائل وزعماء نذكر من بينهم الركيبات وأولاد دليم والعروسيين وأولاد بوسباع وبعض قبائل تكنة، كما شارك فيها أبطال من شمال موريتانيا أمثال الأمير سيدي أحمد، كما شاركت قوات بعث بها السلطان المولى عبد العزيز تحت قيادة عمه الشريف المولى إدريس للقيام بالجهاد ضد المستعمر. في هذه المعركة تكبد المستعمر خسائر فادحة، فقد فيها الملازمين أندريو ANDRIEUX وفرنسو FRANSSU وكذلك ضابطي الصف فلوريت وفيليب، وتم حصار تيجبجا عسكريا لمدة شهرين من طرف المولى ادريس.

ولا شك أن سنة 1908 كانت سنة إيجابية بالنسبة للمقاومة، فقد تمت محاصرة

المستعمر في عدة نقط، وتعددت المناوشات، وطبقت استراتيجية الحرب المتحركة والخاطفة (حرب العصابات) الذي تقول JENEVIEVE DES VUILLEMIN أن الشيخ حسنا هو المخطط لها ومبتكرها في نفس هذه المنطقة وسيلجأ الجنرال غورو بتنسيق مع القيادة الاستعمارية الاسبانية بالمنطقة، على إثر ذلك، إلى الدراسات الطبوغرافية، والبحث عن التحالفات واستغلال بعض أفخاذ القبائل واستعمال كافة أشكال التجسس للقضاء على المقاومة في هذه الفترة مستعملا في ذلك أسلوب السيطرة على الآبار والواحات والممرات الرئيسية، وواكب ذلك تنظيم سوسيو - إداري للمنطقة، وتلغيم النظام التقليدي الاجتماعي قصد تفجيره أو إرضاخه للسلطة الاستعمارية. وظل الأسلوب الاستعماري بعد ذلك هو تنظيم حملات عقابية ضد القبائيل الثائرة أو المتعاونة مع المجاهدين وبناء القواعد العسكرية، وشراء الجمال لتنقل الجنود ومحاولة تكيفهم مع البيئة، بالاضافة إلى تسميم الآبار وتضييق الخناق على السكان الثائرين الذين يرفضون التعاون مع المستعمر

ورغم ذلك فقد كانت سنة 1909 سنة تصعيد الحملات الجهادية ضد المستعمر في كل من أمطليش واينشيري وازويكا.

ففي 5 يناير من هذه السنة قرب تيفو جيار والواد الأبيض تعرضت كتائب كلوديل وماركوني لهجومات مكثفة من طرف المجاهدين. وفي 28 أبريل 1909 تعرضت الكتيبة الثالثة بقيادة الرائد بابلون BABLON لهجوم في رأس الرمث لقي فيها قائدها حتفه، كما جرح الملازم فيولي VIOLET وفقدت المقاومة عشرة رجال وجرح اثنا عشر رجلا

وقد ألحق هذا الهجوم هزيمة نكراء بنفسية القوات الاستعمارية الفرنسية التي كانت تعتقد آنذاك أنها لن تغلب منذ احتلالها لأدرار وكانت معركة حاسمة لصالح المقاومة.

وفي 27 يوليوز من نفس السنة دارت معركة أكصير الطرشان الشهيرة التي قادتها المقاومة بقيادة الشيخ الولي ضد المستعمر، والمؤشر على ضراوة هذه المعركة هي مشاركة عدة كتائب بقيادة كل من POULLET و DUYERTUIS و BERTONET، وقد أطلقت فيها 6965 رصاصة، وخلالها توفي الملازم VIOLET الذي تزعم بعض المصادر الشفاهية أنه المسمى BOUDARS و MANGIN والذي سيلقى مصرعه في معركة أخرى. وفي 27 دجنبر من نفس السنة، افتقدت كتيبة الملازم GERARD أربعة رجال وعشرة جرى في كمين نصبه رجال المقاومة.

هناك وجوه خالدة للمقاومة المغربية في الصحراء ضد المستعمر يصعب حصرها بشكل كامل في هذه العجالة، نذكر من بينها الحبيب بن البلاد، اعلي ولد ميارة من شرفاء الرقيبات وبعض أوجه قبيلة أولاد دليم، وسيدي أحمد ولد أحمد العيدة من يحيي بن عثمان، وسيدي أحمد بن تكدي من أولاد غيلان وسيدي أحمد ولد محمد فال ولد سيدي الملقب بولد الديد الذي قطع الخط الهاتفي الفرنسي 17 مرة والأمير الشهيد بكار، كما يجب أن نذكر المعركة التي قادها الشيخ محمد الأغضف بمشاركة قبيلة الركيبات أساسا تلك المعركة التي توفي فيها القائد جرار وهو والي منطقة الترارزة سابقا ورأس القيادة العليا خلال معركة أدرار. وقد دفعت نتائج هذه المعركة بالكولونيل PATET ؛ القائد العسكري لموريتانيا، إلى التنسيق مع السلطات الاستعمارية الإسبانية للانتقام من المجاهدين، فقامت كتيبة الكولونيل MANGIN بهجومها الغاشم على مدينة سمارة وقنبلت زاوية الشيخ ماء العينين بها وأحرقت مكتبته الشهيرة.

ولم تقتصر المقاومة على هذه الأشكال التي ذكرنا بل إنها بعثت بموفديها إلى كل من تزنيت وتارودانت في المعارك التي قادها الشيخ طالب خيار. وكذلك إلى معارك مراكش التي قادها الشيخ أحمد الهيبة وبعده خليفته في الجهاد الشيخ مربيه ربه، وقد كان هدفها خلال كل المراحل هو محاربة الأجنبي والحفاظ على السيادة والوحدة الترابية، بتنسيق مع السلطات المركزية. إلا أن بعض المؤرخين للأسف الشديد أبوا إلا أن يشوهوها في إطار سياسة فرق تسد ولا عتبارات أخرى تعرضنا لها في بداية هذا البحث. كما أن علاقة المجاهدين في الصحراء الغربية المغربية بإخوانهم في سوس، ومساندة بعضهم البعض في المعارك وفي النضال ليعد مبعثا للفخر والاعتزاز، ودليلاساطعا لا يقبل الطعن في وحدة المغاربة واستماتتهم في الدفاع عن وحدة وطنهم وسيادته.

وقد اكتفيت بذكر الوقائع دون غيرها مع العلم بأني أتوفر على أسماء جميع المجاهدين تقريبا وذلك من خلال المصادر المكتوبة والشفاهية التي يصعب على الباحث أن يقدمها من خلال عرض موجز. وقد أكون أغفلت بعض الوقائع الهامة التي كان يجب أن تذكر، أو بعض الأسماء التي من حقها علينا أن تذكر في الأمثلة، وعذري في ذلك أنها كثيرة ومتعددة، وأني اقتصرت على الفترة الممتدة بين 1900 و 1913

وختاما أقترح على الباحثين أن تخصص ندوات دراسية لتسليط الأضواء على كل منطقة داخل الصحراء، لأنه ما من معركة إلا وشاركت فيها جل القبائل المجاهدة،

وأن تسلط الأضواء على العلاقات النضالية التي لحمت أوصال العلاقات بين سكان سوس والقبائل الصحراوية.

كما أقترح بأن يتم تسجيل الوقائع وتوثيقها من خلال المصادر الوطنية وكذلك المصادر الأجنبية إسبانية وفرنسية بالخصوص، دون أن نغفل ما يمكن للمصادر الشفاهية أن تمدنا به.

ويمكن أن أوصي بالتفكير في إعداد «أطلس» ATLAS بأسماء المجاهدين والوقائع التي شاركوا فيها والقبائل التي ينتمون إليها... الخ حتى لا تذهب سدى هذه الصفحات المشرقة من تاريخنا، وحتى تظل شاهدا حيا على وحدة الشعب المغربي واستماتته في صيانة سيادته.

المحور الثالث

المقاومة المغربية بين عقد الحماية وسنة 1936

جوانب مغمورة من المقاومة المسلحة في شمال المغرب

(1913 - 1925)

عبد العزيز التمسماني خلوق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- الرباط -

تكتسي المقاومة الشعبية المسلحة التي انطلقت من أعماق الجبال المغربية أهمية كبيرة، فهي تقترن بالشعور الوطني الذي لم يكن مقصورا على جهة دون أخرى، بل تبلور في كل المناطق. ذلك أن البادية المغربية لم ترض عن وضع البلاد تحت السيطرة الأجنبية بعد أن فرضت الحماية عليها وأصبحت أمرا واقعا. لقد رفضت واقع الاحتلال الجائر رفضا قاطعا، ولم تستسلم بسهولة أمام المحتل الغاصب.

وهكذا قام الصراع قويا وحادا بينها وبين العدو، فكانت شديدة الصمود في الدفاع عن كل شبر من أراضيها، واستطاعت أن توقف، بصلابة وضراوة، جيوش الغزو عند مشارف الجبال ومداخلها فترة طويلة، بعد أن حاولت هذه الاخيرة ترويضها بالقهر والمكر. إذ لا يخفى أن هذا الوسط القروي قام بثورة عاصفة، فهبت الشرائح الفقيرة من قلب الاصقاع الصحراوي والسوسية والأطلسية والريفية والجبلية، حاملة لواء الجهاد نابذة روح الاستسلام والاذغان والهزيمة، واقفة، بتحد وإباء، في وجه قوات فرنسا وإسبانيا.

وهنا لا يتسع المجال للحديث عن هذه الموجة العارمة من المقاومة التلقائية التي استمرت الى أواسط الثلاثينات، وسأكتفي بالوقوف وقفة قصيرة عند صفحة مشرقة من هذا التراث التحرري مقتصرا على بعض الجوانب التي تكاد تكون مجهولة من كفاح الكادحين المغمورين الذين خاضوا المعارك المسلحة الضارية، وأبلوا

فيها البلاء الحسن، في المناطق الخاضعة للنفوذ الاسباني بالشمال في الفترة الواقعة بين عامي 1913 و 1925 وسأركز اهتمامي على ثلاث مسائل تاريخية وهي

أولا أعمال القصف الجوي والبحري الاسباني لتدمير وإبادة جبالة منذ ربيع 1913

ثانيا انضام مجاهدي جبالة الى ثورة الريف التحريرية.

1 ـ تدمير بلاد جبالة غداة الحماية

إن نقطة الانطلاق في هذا العرض تحاول إماطة اللثام عن حروب الغازات السامة التي تعرضت لها قبائل الشمال الغربي عشية الحرب العلمية الأولى. فهذه الكارثة الرهيبة ـ التي لم تحظ، فيما أعلم، من منظور مغربي، باهتمام الباحثين ـ تمثلت في أعمال القصف الاسباني للمداشير والدواوير. فإذا رجعنا إلى الوثائق التي تزخر بها دور الارشيفات الاوربية فسنجدها معينا لا ينضب من صور صارخة بالهجومات الانتقامية ضد القرويين الذين تحملوا ألوانا من المحن والشدائد، مسلحين بالايمان والشهامة، حاملين شعلة النضال الجماعي.

بالفعل، قام الطيران الاسباني، في السنوات الاولى من الحماية بشن غازات وحشية على الفلاحين، فأسقط القنابل على نطاق واسع، وقذف بالمواد المدمرة نحو القري المجاورة لتطوان وأصيلة والقصر الكبير وشفشاون، ووجه ضربات عنيفة الى معالمها وآثارها وأضرحتها، مخلفا نتائج وخيمة على المجال الزراعي ملحقا به أكبر الخسائر لهذا فليس صحيحا ما يذهب إليه نفر من كتاب عهد الحماية من أن أهل جبالة كانوا فريسة سهلة أمام الكابوس الاسباني. ذلك أن المراسلات الدبلوماسية الفرنسية والتقارير العسكرية الاسبانية ـ التي أستند إليها في هذه المساهمة ـ تساعد المهتمين بهذه الفترة على إدراك ما كانت تنطوي عليه العمليات الحربية من مخاطر ودمار، وتعطي صورة مغايرة لتلك التي رسمت عن سياسة التسرب الاسباني السلمي، وتقدم تفاصيل وإيضاحات حول الحركة الجهادية التي انبثقت من الهبط والقرى العلمية والغمارية، وحملت السلاح لتقف بحزم في وجه الزحف الاسباني نحو منطقة جبالة. هذا في الوقت الذي لاذت فيه المدن الشمالية بمحميها وأرستوقراطيتها التجارية والعقارية بالصمت، فكانت ترزح تحت أقدام الجنود الاجانب، وتتألم في حسرة وعجز وتتنصل من عبء المسؤولية، وتستكين للاستسلام وتركن الى الهدوء.

فاعتمادا على الاستقراء الذي قمت به في الأرشيف الفرنسي، لاحظت أن تقارير

قنصل فرنسا بتطوان لوتشياردي "lucciardi" ووكيلها بطنجة هنري مارطان "henri martin" تمد المطلعين عليها بمعلومات هامة عن الخسائر والاضرار التي كانت تحدثها الحملات العسكرية الاسبانية بالشمال الغربي منذ ربيع 1913، وتشير بوضوح الى أنها ارتبطت بالغارات الجوية المكثفة.

في هذا الصدد، يخبرنا الممثل الفرنسي بطنجة، في رسالة موجهة الى باريس (1) بأن أسراب الطائرات الاسبانية قصفت رباط دار ابن قريش الحزمري، مهد حركة الجهاد الاولى في بلاد جبالة.

من جهة أخرى، تفيدنا رسالة اخرى (2) مؤرخة في 16 يونيو 1913، كتبها هذا القنصل لوزارة الخارجية الفرنسية، بأن القطع البحرية الاسبانية كانت ترصد تحركات مجاهدي أنجرة والحوز، مشيرا إلى أن الطرادتين اكسترمدورا وكاطالانا "Ex-tremadure و Catalana" كانتا حاضرتين أمام تطوان بمرتيل.

كذلك يورد نفس القنصل في رسالة (3) أخرى، مؤرخة في 9 ماي 1913 المعلومات التالية المتعلقة بالتقديرات الاجمالية لعدد البنادق المتوفرة لدى مجاهدي المنطقة

القبائل	عدد البنادق
أنجرة	6.000
وادرس	3.000
بني يدر	4.000
بني عروس	4.000
الخماس	8.000
غمارة	10.000

فعلى ضوء هذه المعطيات، يتضح لنا مناخ الحماس الشعبي الذي كان سائدا منذ الاحتلال الاسباني لتطوان يوم 19 فبراير 1913، وهي لا تدع مجالا للشك في أن هذا العالم القروي كان يقتني، بشتى الوسائل، البنادق الحربية الحديثة(5) لمواجهة جور المحتلين بإرادة صلبة، سيما وأن القبائل كانت متضامنة تضامنا مطلقا مع تلك التي لم تدخل في علاقة مع مكاتب الشؤون الاهلية الاسبانية.

2 ـ المقاومة تجسيد لروح التآخي بين قبائل الشمال

بخصوص هذه المسألة، يتعين القول بأن وثائق القنصلية الفرنسية بطنجة تقدم

مادة غزيرة تتعلق بشجاعة المجاهدين القتالية كلما حمي الوطيس وتبرز الالتحام الذي وقع ـ خاصة منذ احتلال تطوان سلميا ـ بين قبائل غمارة وبني أحمد ومجاهدي وادارس وبني مصور وجبل الحبيب وبني يدر توبني كرفط وأنجرة(6).

وهكذا فإن القارئ لهذه الربائد الفرنسية يخرج بانطباع أولي، هو أن الترغيب في الجهاد التحريري جعل الشعور بوحدة النضال والاهداف والرؤية ينمو ويتزايد. ومن المهم أيضا أن نلاحظ أن هذه المجموعة الوثائقية تشير الى تقاطر الريفيين في هذا الوقت بالذات، على الجبهة الشمالية الغربية بقيادة الشريف محمد اخمليش لتعزيز المقاومة التي كان يقودها الشريف محمد ولد سيدي لحسن(7)، متحدثة بإسهاب عن الدور الذي قام به هذا الاخير في استنفار أهل شفشاون، واستنهاض همم مجاهدي الاخماس(8) تجدر الاشارة هنا الى أن مستندات القسم التاريخي العسكري(9) بمدريد تتحدث بدورها عن القبائل الغمارية التي انضمت الى حركة المجاهدين الجبليين الذين عقدوا العزم على تحرير المنطقة ـ باعتبارها جزءا لا يتجزأ من البلاد ـ من القيود والأغلال معتقدين أن الكافر الغاصب لا يجوز التعامل معه إلا بالسلاح لقناعتهم بأن النضال الذي وحد كلمتهم وصفوفهم يعتبر الاسلوب الوحيد لمواجهة المد الاستعماري والهيمنة الاجنبية.

كذلك تركت لنا وثائق قصر فانصين العسكرية(10) معلومات غنية عن التنظيم الحربي لجبالة، وتتضمن ربائد وزراة الخارجية الفرنسية بباريس ونانط معطيات بموضوعنا هذا، وهي علي جانب كبير من الاهمية أيضا من ذلك التقرير(11) الذي وجهه القناصل الفرنسي بطنجة الى باريس بتاريخ 13 غشت 1913، يخبر فيه عن نشاط المجاهدين المرابطين في ناحية القصر الكبير وعن الكفاح المسلح برئاسة القائد الشريف أحمد تازية الوهابي. ويذكر نفس التقرير أن قوات الاحتلال منيت بهزائم ساحقة أذهلت المقيم العام الاسباني(12). وقد سبق لي أن تعرضت، في بحوث منشورة، لعلاقة هذا المجاهد بالقادة القرويين المغمورين الذين عرفوا بصلابة الموقف (13) حيث إنهم أدانوا العناصر المتعاملة مع الغزاة واتهموها ـ كما تفصح مجموعة من رسائل القنصل الفرنسي(14) بتطوان عن ذلك ـ بالتنازل عن أرض الوطن للعدو، واتخذوا اتجاها متصلبا في مقارعتها وهكذا، فقد قاموا ضد مغامرة الغليان القروي ضد هذه النخبة المتخاذلة ووقفوا ضد مغامرة غزو قلب جبالة. وجسد محمد ولد سيدي لحسن هذا التيار الشعبي الذي تبلور مباشرة وبصورة تلقائية بعد أن تقاسم الفرنسيون والاسبان المغرب وتمكن المجاهد انطلاقا من رباط دار ابن فريش بنواحي تطوان، من قيادة القبائل الجبلية للجهاد ضد قوات الاحتلال ولقيت حركته

تأيدا واسعا(15).

مع ذلك، فإن دعاة الحلول الاستسلامية الذين كانوا يجنحون الى المهادنة، ويتقاعسون عن المشاركة في مجهود الجهاد، لجأوا الى سلاح الخديعة، وتمكنوا من زرع الشقاق داخل هذه الحركة الجهادية القروية التي منيت بالشلل.

من جهة أخرى، أصبحت الناحية الغربية من الشمال، في الفترة نفسها، مسرحا واسعا لطموح أقلية من الأعيان إلى الزعامة ورغبة التكتل القروية في مواصلة الكفاح إلى آخر رمق. بيد أن قادة هذا النضال المستميت شعروا بخيبة كبيرة ومرارة شديدة بسبب ظمأ الزعامات المحلية إلى السلطة.

وبطبيعة الحال فقد تعرضت الكتابات المغربية، المعتمدة على روايات شيوخ القبائل واقوال بعض المجاهدين للصراع الذي كان قائما بين الشريف محمد ولد سيدي لحسن التاكزرتي والقائد أحمد الريسوني في حدود سنة 1915.

انتهى البعض منها إلى أن «محمد بن لحسن فضل الخروج من الرباط [رباط دار إبن قريش]، والعزلة في داره، لما تحول الجهد الى حرب أهلية مستسلما لليأس. فكان هذا اليأس سببا في تفرق المرابطين...» خاصة بعد الهجوم على رباط البيوت بقوات مشتركة بين الجيش الاسباني(16). بينما خلص البعض الى أن المحتل «لجأ إلى الحيلة وبدأ يفكر في الاحتلال السلمي، وطلب فتح باب المفاوضة مع المجاهدين، وهنا انطلقت الشرارة الأولى لزرع بذور الخلاف بين الشريف الريسوني وشريف تاكزرت. فالأول كان يرى أنه لا مانع من الحوار والتفاهم مع الجيش الغازي، ويرى الثاني العكس، فلا مفاوضة ولا مهادنة ولا أمن ولا احترام مع عدو يحتل جزءا من التراب المغربي. وتمسك كل فريق برأيه وانقسم الناس إلى مؤيدين ومعارضين(17).

مع ذلك، ظلت الحرب مع الإسبان قاسية، وكان الأمر فيها سجالا بين المجاهدين المتطوعين والعدو. فكانت خطة الغزاة تهدف، بعد الحرب العالمية الأولى، إلى احتلال بلاد جبالة من الشمال الشرقي والجنوب بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، فأصبحت الجبهة الغربية تشكل قطاعا أساسيا للسيطرة على قلب الجبل والزحف إلى خليج الحسيمة(18).

وفي سياق هذه الخطة العسكرية قام الجيش الإسباني، منذ خريف 1919، بسحق القبائل الجبلية الغربية، وتم هذا الغزو باسم السلطة الخليفية وشعار «التهدئة».. وتميزت سنوات 1919 ـ 1921 بالتوغل في قلب الجبال الغمارية بمساندة المتعاونين من الشخصيات ذات النفوذ الروحي. وفي هذا الإطار تفيد الوثائق الإسبانية المتعلقة

بهذه الحملات العسكرية أن الحركة الريفية بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي ستساهم في إيقاف المخططات العسكرية القمعية حيث ستتوجه الأنظار إلى الجبهة الشرقية وستخلف الانتفاضة الريفية انعكاسات هامة بعد وصول المجاهدين بقيادة محمد بن عبد الكريم إلى قلب جبالة(19). وفي تلك الأثناء التحقت الكتل الساحقة من القرويين بصفوفهم وتوثقت صلاتها بهم. وهنا أنتقل الى الحديث عن رموز المقاومة الجبلية التي ساندت الحركة الجهادية الريفية وتعاطفت معها.

3 ـ انضمام رموز المقاومة الجبلية إلى الجبهة الريفية

سأقتصر على رمزين بارزين قادا معارك القتال بجانب مجاهدي الريف فألحقا الهزائم النكراء بالعدو، وفتكا بجيوشه فتكا ذريعا، أعني بهما الشهيدين أحمد تازية الوهابي الشهير بمولاي أحمد البقار أو البكار وأحمد اخريرو الحزمري.

لقد خاض أحمد تازية معارك عنيفة ومتواصلة ضد قوات الاحتلال الاسباني لمدة تزيد على ست عشر سنة. وهكذا تعرضت الوثائق الاسبانية لحركته الجهادية بالهبط فاتخذتها إسبانيا ذريعة لانزال جحافلها بميناء العرائش يوم 8 يونيو 1911 واحتلال القصر الكبير يوم 10 يونيو من نفس السنة قام بتحريض أهل سريف ومصمودة والخلوط وحثهم على الجهاد. وتتحدث الأخبار والروايات التي التقطها كارسيا فيكراس (Garcia Figueras) وخللها في مقالاته(20) وكتبه(21) عن الصراع الذي انفجر بين أحمد تازية وبين جماعة من أتباع الرسيوني. كانت هذه المواجهة بداية لمرحلة جديدة، فتراه ينضم إلى الجبهة الريفية ويعاضد قادتها. وكان من ضمن الوفد الجبلي الذي قابل محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي اختاره قائدا على قبيلة بني عروس، وتحدث محمد أزرقان عن مخطوطه «الظل الوريف في محاربة الريف» عن ذلك فقال «وصلوا (المجاهدون) إلى أجدير صحبة بعض اعيان القبائل الجبلية ليؤدوا طاعتهم بين يدي الأمير، وقد قوبلوا هناك بكل حفاوة واعتبار، وأقاموا هناك أياما في ضيافة الأمير المذكور. ثم أصدر تعيين القياد منهم على قبائلهم، فنصب على قبيلة أهل سريف القائد الطالب الشاوني، وعلى قبيلة بني عروس القائد مولاي أحمد البكار»(22).

تجدر الإشارة إلى أن التقارير العسكرية الإسبانية تركز على استمرار مسيرة القائد تازية الوهابي النضالية بعد استسلام محمد بن عبد الكريم الخطابي. وهكذا فقد رفض هذا المجاهد المنطق الانهزامي، وأبى أن يستسلم بحيث دعا إلى مواصلة المعركة ضد الاسبانيين ومارس نشاطا واسعا لتعبئة جماهير المجاهدين الذين التجأوا إلى قلب بلاد جبالة. ويمكننا أن نقف على مضمون هذه التقارير الحربية من خلال

البرقية التالية الموجهة من الجنرال سانخورخو إلى رئيس الحكومة الإسبانية في 29 يوليوز 1927

«في الوقت الراهن، ونظرا للانتفاضة الحاصلة في جبالة من طرف بعض الثوار ذوي العناد وعلى الأخص اخريرو وكورطيطو ومولاي أحمد البكار، وفي بني خالد وكتامة من طرف عصابات الفارين من الريف والمنطقة الفرنسية، تلك العصابات التي يحاول تنظيمها الشريف المكي الوزاني، أحمد أقرباء الشريف احميدو من سنادة، نظرا لكل ذلك، فإن العمل السياسي يلاقي عراقيل كبرى، الأمر الذي يستوجب مساندته بنشاط عسكري إذا كنا نريد تجنب قيام ثورة ضدنا في جبالة وجنوب غمارة»(23).

استشهد الشريف الوهابي في صيف سنة 1927 عندما كانت أسراب الطائرات الاسبانية تقصف مداشير قبيلة بني عروس. ودفن على مقربة من ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش بجبل العلم.

أما الشهيد أحمد اخريرو(24) فقد كان أصدق رمز لارادة الجهاد. في دراسة سابقة تناولت حياته الحافلة بأخبار الشهامة وروح التضحية، وذكرت أن التقارير الإسبانية تحدثت بإسهاب عن انضمامه الى صفوف المقاومة الريفية وعن الدور الذي اضطلع به في عرقلة الانسحاب الإسباني الذي بدأ في أوائل شتنبر 1925، وهي تبين بوضوح أنه كبد القوات المنسحبة من وادي لو وشفشاون خسائر فادحة، حتى اضحت كارثة انسحابها الرهيب شبيهة بكارثة اندحارها في معركة انوال. وفضلا عن ذلك، فقد واصل أحمد اخريرو المقاومة بعد المرحلة الخطابية، واستشهد يوم 3 نوفمبر 1926 وحمل المجاهدون جثته إلى قبيلة بني عروس، ودفن بضريح مولاي عبد السلام بن مشيش.

في الختام، لابد من استخلاص العبرة من كل ما سبق. لقد أردت في هذا العرض أن ألفت النظر إلى أن المقاومة المسلحة في الشمال شكلت وحدة منسجمة، عميقة الجذور، تمثلت في التيار الشعبي الذي لم يكن يعرف أية وسيلة للتعامل مع الإسبانيين سوى وسيلة الكفاح. ولم يكن قادة الجهاد ـ وجلهم ما يزالون مغمورين حيث لم يزدنا عن اخبارهم إلا النزر اليسير جدا ـ سوى تجسيد لهذه الإرادة الشعبية.

الهوامش

1- "Les insurgés concentrés à Dar Karik s'étaient dispersés pour être moins exposés aux bombes des aéroplanes espagnols", lettre du Ministre plénipotentiaire chargé de l'Agence générale de France à Tanger au Président du Conseil, Ministre des Affaires Etrangères, le 28 avril 1914.

2- "Les croiseurs" Extremadura et "Catalana" croisent devant Rio Martin prêts à appuyer l'action des troupes, lettre du Consul général de France à Tanger au Ministre des Affaires Etrangères à Paris, le 16 juin 1913.

3- De source indigène, je reçois les renseignements suivants sur l'état des tribus dans la zone espagnole :

Andjeras	6,000 Fusils
Gued Ras	3,000 Fusils
Béni Messara	3,000 Fusils
Béni Idder	4,000 Fusils
Béni Arous	4,000 Fusils
Khénis	8,000 Fusils
Ghmara	:10,000 Fusils
B. Ahmed	2,000 Fusils
Ahl Schérif	6,000 Fusils

4- عبد العزيز التمسماني خلوق، «احتلال تطوان وردود فعل الحركة الجهادية الجبلية (1913-1915)»، العلم الثقافي، السبت 19 أكتوبر 1991.

5- جرمان عياش، «دراسات في تاريخ المغرب»، تعريب محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمسماني خلوق، الرباط، 1986، ص 213.

6- عبد العزيز التمسماني خلوق «الغزور الاستعماري الإسباني لبلاد جبالة» مجلة دار النيابة، العدد 2 ربيع 1984 ص 30.

7- Le chef du mouvement contre les Espagnols, le chérif Sidi Lhcen, continue à recevoir de nombreuses délégations des tribus montagnardes et à parcourir le pays des Chechaouen à Moulay Abdesselam lettre du Consul génénral de France) Tanger au Ministre des Affaires Etrangères à Paris, le 28 Mais 1913.

8- Le chérif Ould Moulay L'Assen qui est le chef du mouvement contre les Espagnols se trouve actuellement à Chechaoun avec une petite harka, et Sidi Mohammed Alhemerich Essedek, marabout très influent du Rif, qui a avec lui plusieurs centaines d'hommes bien armés, lettre du Consul général de France Tanger au Ministre des Affaires Etrangères à Paris, le 9 Mais 1913.

9- انظر هامش رقم 6.

10- نفسه.

11- Khalouk Temsamani Abdelaziz, "Raissouni et les affrontements diplomatiques (1914-1918)", Revue Dar Al- Niaba, n° 13, hiver 1987.

12- Ibid, p. 4.

13- عبد العزيز التمسماني خلوق «أسماء مغمورة لقادة الجهاد في المغرب» مجلة دار النيابة 12 خريف 1986. صص 30-33.

14- نفسه.

15 ـ عبد العزيز التمسماني خلوق «تقويم سياسي عام لنظام الحماية الإسبانية على المغرب الشمالي» مجلة دار النيابة العدد 18 ربيع 1988 ص 49.

16 ـ عبد العزيز التمسماني خلوق «المجاهد المرابط محمد ولد سيدي لحسن» مجلة دار النيابة العدد 14 ربيع 1987

17 ـ نفسه ص 56.

18 ـ انظر هامش رقم 15

19 ـ نفسه.

20 ـ Tomas Garcia Figueras, "Muley Ahmed ben Mohamed Raisuni", in Africa du n°22 (ect. 1943) à (avril 1955)

21 ـ انظر هامش رقم 13.

23 ـ نفسه.

24 ـ عبد العزيز التمسماني خلوق «القائد أحمد الحزمري» مجلة دار النيابة العدد 9، شتاء 1986 ص ص 48-46.

ملاحظات حول السياسة الاستعمارية الإسبانية في شمال المغرب

(1912 ـ 1925)

أحمد مهدرها
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
ـ مراكش ـ

بداية، نرى من الضروري تحديد الإطار الذي تتم فيه هذه المداخلة، فهدفها كما قد يفهم من عنوانها ليس إحصاء كل السلبيات العالقة بالسياسة الاستعمارية الإسبانية، بل استقراء بعض النماذج التي أثرت على طبيعة وآلية الحركة الاستعمارية الإسبانية في منطقة حمايتها. كذلك لن تكون ملاحظاتنا عامة بقدر ما ستركز على طبيعة هذه السياسة في المنطقة الغربية من مجال الحماية الإسبانية، وذلك لاعتبارين أساسيين أولهما أن هذه المنطقة كانت مهد المقاومة مباشرة بعد إعلان الحماية. وثانيهما أنها كانت تشكل مجال تواجد المؤسسات الإسبانية، وبالتالي تعطينا صورة واضحة عن شكل عملها وفعاليتها. كما يجب التأكيد كذلك على أن الإشارة إلى أخطاء الجهاز الاستعماري لاتنال مطلقا من قيمة المقاومة ولاتشرح وجودها المقاومة ولاينحصر في فهم طبيعة الجسد المغربي الذي أنتجها والآليات التي اعتمدتها فقط، بل نعتقد جازمين أن فهم الظرف الآخر في المعادلة ينير لنا عدة جوانب ويفيدنا في تحليلها أكثر.

انطلاقا من هذا الإطار العام، سنورد بعض المواصفات التي طبعت السياسة الاستعمارية الإسبانية والتي لاتقتصر على زمن الحماية، بل يمكن استقراؤها حتى خلال المرحلة السابقة لها. فإذا كانت السياسة الاستعمارية الفرنسية قد اتسمت باهتمام استكشافي واستشراقي واسع، فإن الاهتمام بالمغرب عبر خلق الجمعيات ونشر المؤلفات التي تتعلق بالمغرب وتدريس اللغة العربية وغير ذلك من الجوانب التي تصاحب الحركة الاستعمارية لم يعرفه الإسبان إلا ابتداء من سنة 1904 وإن كان

الاهتمام بإفريقيا عامة قد بدأ قبل ذلك ببعض سنوات(1). ولم يقتصر هذا التأخير على الحركة العلمية، بل إن العناصر الأخرى التي تلعب دورا حاسما في المسألة الاستعمارية قد عاشت نفس الشيء، فرجال الأعمال والمؤسسات البنكية، الذين لعبوا دورا هاما في بسط السيطرة الاستعمارية الفرنسية(2)، لم يكونوا أبدا متحمسين للعملية الاستعمارية الإسبانية. ففضلا عن عدم الانسجام بين رجال المال والسياسة بصدد المسألة المغربية، كانت الحكومات تجد صعوبة كبيرة لاقناع رجال الأعمال بجدوى القضية المغربية.

وقد أدى ذلك إلى أن الحركة الاستعمارية الإسبانية اتصفت بضعف قوي وعدم وضوح على مستوى تحقيق أهدافها. فالجالية الإسبانية كانت في مجملها عبارة عن فقراء حاولوا البحث عن فرصة الاغتناء عبر قيامهم بمغامرة عبور جبل طارق. وبما أن الشخص الإسباني لم يحمل رأسمالا آخر غير عضلاته، فإنه أصبح منافسا لليد العاملة المغربية .نظرا للعوامل السالفة الذكر، فإن الحركة الإسبانبة لايمكن حصر دوافعها في البحث عن الأسواق الخارجية والبحث عن المواد الأولية إلى غير ذلك مما عرفته القوات الاستعمارية الأخرى، بل إن ذلك يجد جذوره في تعويض المستعمرات الأمريكية الخاذعة وتصدير بعض المشاكل السياسية الداخلية، وهو ما يشرح عدم اقتناع الرأي العام الإسباني بالمسألة المغربية.

ولعل ما يوضح أكثر ما نرمي إلى عرضه، وجود العامل الديني كعنصر أساسي في نشاط الحكومة الإسبانية في الضفة الجنوبية لجبل طارق. فالمشروع الحكومي الذي صادق عليه البرلمان لسنة 1905 كان يخصص 25 ألف بسيطة للحركة التحضيرية من الحضارة (civilisatrice Mission) الإسبانية) بينما يخصص مبلغ 120 ألف بسيطة للعملية التبشيرية(3). وهذا يوضح أن العوامل الاقتصادية كانت بعيدة على أن تكون الوازع الأساسي وراء الحركة الاستعمارية الإسبانية.

وإذا كنا نلاحظ وجود العديد من السلبيات العالقة بالسياسة الاستعمارية الاسبانية، فإنه يمكن التأكيد على أن المجهود الديبلوماسي الإسباني كان يعاني من نفس النقص. فالحصول على شمال المغرب لم يكن ثمرة العمل السياسي الإسباني بقدر ما كان نتيجة الوفاق البريطاني ـ الفرنسي والذي يراعي الشرط الإنجليزي المبدئي بمنح الضفة الجنوبية لجبل طارق لدولة محايدة وضعيفة نسبيا. ولقد كان هذا الإحساس سائدا حتى داخل شبه الجزيرة الإيبيرية، وهو ما جعل أحد الكتاب (En-rique Arques) يؤكد أن «إسبانيا لم تتخذ أية مبادرة في مؤتمر الجزيرة الخضراء، بل كان دورها ينحصر في ملء أحد كراسي القاعة»(4). ولم يكن الشعور بالضعف

يتعلق بهذا المؤتمر فقط، بل أنه طبع الإتفاقيات السابقة وكذلك اللاحقة.

ولم تقتصر هذه الصفات على طبيعة الحركة الاستعمارية الاسبانية فيما قبل الحماية، بل إن ممارستها بعد 1912 قد حافظت على نفس السمات. فعلى عكس فرنسا التي حاولت بسط حركتها الاستعمارية باسم المخزن، فقد كان هدفها وضع المقاومين في خانة السيبة، فإن إسبانيا لم تكترث بذلك ولم تعر المؤسسات المخزنية كبير الاهتمام. ولقد أدى ذلك إلى أن يكون تدخل القوات الاسبانية مباشرة وبالتالي لم يكن من الممكن نعت المقاومين إلا بالمجاهدين مع ما تحمله هذه الكلمة من امتيازات في الدنيا والاخرة. انطلاقا من ذلك، فرن الخليفة، والذي كانت صلاحياته توازي صلاحيات السلطان في المنطقة الجنوبية(5)، بقي تواجده صوريا وهامشيا بالنسبة للأحداث التي عرفتها المنطقة. فمولاي المهدي عم السلطان والذي تم اختياره لهذه الوظيفة، لم يكن معروفا بالمنطقة مما جعل قراراته غير ذات جدوى ولاتعرف التطبيق. ولم يقتصر الأمر على هذه الموسسة الوحيدة، بل رن الصدارة العظمى والتي شغلها ابن عزوز تذهب في نفس الاتجاه حيث بقيت هاتان المؤسستان بدون حضور فعلي وسط القبائل. ونفس السلوك يمكن ملاحظته مع زعيان المنطقة ونخص بالذكر منهم الريسوني. ففي المنطقة الجنوبية، حاولت فرنسا اعتمادا سياسة القياد الكبار لتسهيل مهمتها وخفض نفقاتها وخساراتها، بل النقص أحيانا في عدد قواتها وخاصة خلال الحرب العالمية الأولى وهي تعمل بذلك في نفس الوقت على نقل الحرب من حرب بين المغاربة والفرنسيين إلى حرب بين المغاربة أنفسهم. أما بخصوص الإسبان، فإنه رغم الاستعداد وتسهيل مزمورية الاحتلال الذي اتضح في البداية، وهو ما سهل احتلال مجموعة من المدن كالعرائش والقصر الكبير وبعض المراكز القروية، فإن السياسة الإسبانية لم تستطع الحفاظ عى مكتسباتها. هكذا كانت سياسة سلفستر تذهب عكس ذلك في إضعاف قوة المخزن معتقدا أن أي فصل بين قوات المخزن والقبائل سيكون في صالح القوة المستعمرة. بل إن سلفستر نجده يتدخل في قدر الضرائب التي يفرضها الريسوني كموظف مخزني(6)، وهو ما جعل وزير الخارجية الإسبانية يثير لانتباهه إلى الصفة المخزنية لحلة الريسوني والانعكاسات الخطيرة لتصرفاته من الناحية القانونية(7). أما إذا انتقلنا إلى الجهاز العسكري الرسباني وشكل عمله، فإن ذلك هو الآخر لم يخل من سلبيات كثيرة، فزول المشاكل التي عانت منها القوة الإسبانبة على مستوى تطبيق سياستها يتمثل في تعدد مراكز القرار داخل المغرب. فهناك التمثيلية الديبلوماسية بطنجة، والقيادة العامة للقوات الإسبانية بالعرائش، ثم الإقامة العامة التي كان مركزها بتطوان. ولم تكن هذه المراكز ترتبط بتراتب إداري فيما بينها،

بل كان كل جهاز يتمتع باستقلالية تامة عن المركز الاخر ويتصل مباشرة بمدريد. ولقد كان هذا التعدد يشكل عائقا أمام الفعل السياسي الإسباني إذ لم تتصف هذه الأجهزة بالانسجام فيما بينها، بل على العكس من ذلك اتسمت بالاختلاف في الرؤى والتناقض في القناعات السياسية مما وصل أحيانا إلى اتخاذ العزم المسبق بإفشال المبادرات السياسية لبعضها، ومما جعل سياستها لاتأخذ إلا بعدا جوهريا. ذلك انه إذا كان الاتجاه السياسي للاقامة العامة والتمثيلية اليدبلوماسية يتجلى في اعتماد سياسة التفاوض أحيانا، فإن القناعة الثابتة لسلفستر كانت دائما تتمثل في بسط السيطرة الاستعمارية باعتماد القوة العسكرية. فالنزعة العسكرية لسلفستر كانت ثابتة(8)، ولم يكن من الممكن تعايشها مع السياسة التفاوضية التي تبنتها بقية الأجهزة الأخرى أحيانا، ولم تتخذ الحكومات الإسبانية المتتالية عناء حسم هذه المسألة، مما أدى إلى استقالة المقيم العام ألفاؤ Alfau. ورغم هذه الاستقالة، فإن الحكومة الإسبانية حافظت على نفس التناقض داخل جهازها الاستعماري مما أدى إلى استقالة المقيم العام الثاني على إثر اغتيال علي القلعي من طرف اتباع سلفستر، وهو الذي بعثته الإقامة العامة كوسيط لها للتفاوض مع الريسوني.

وإذا كان التناقض والتعدد قد طبعا التوجيهات السياسية الإسبانية في المرحلة الواحدة، فرن التوجيه السياسي الإسباني كان لايعرف أية استمرارية ما بين المرحلة والأخرى، فبتعداد المقيمين العامين تتعدد السياسات المتبعة في منطقة الحماية الإسبانية. وهي بذلك لاتخضع لبرنامج محدد الأهداف، بقدر ما تخضع للظرفية السياسية، وهذا ما يجعل كل مرحلة تلغي مكاسب المرحلة التي سبقتها. فتغيير المقيم العام لم يكن يعني تغييرا في الأشخاص واستعداداتهم وكفاءاتهم، بل كان يعني بالضرورة تحولا في السياسة المتبعة في منطقة الحماية. ويمكن أن نضيف كأدلة أن تعيين مقيم عام جديد كان يعني في غالب الأحيان تعاقب حكومة أخرى والتي كانت تعمل على تغيير سياسة الحكومة السابقة نافية بذلك كل ما تحقق خلال المرحلة السابقة، وهذا رغم تراكم التجربة الاستعمارية لهذا البلد. ولم يكن الأمر دائما بهذا الوضوح، إذ نجد أحيانا تناقضا وتعددا في الرؤى داخل نفس الحكومة وهذا الغموض هو الذي أدى في جزء كبير منه إلى إقدام المقيم العام خردانا Jordana على الانتحار(9)، مما جعل أحد الكتاب يرجع أسباب وفاته ـ في طرف منها ـ لسياسة مدريد(10).

إضافة إلى كل ما ذكرنا من سمات طبعت العمل السياسي الإسباني، فان ثقل الآلة العسكرية لم يكن هو الاخر يخضع لمتطلبات عملية الاحتلال، بل كان الجندي

يصلح للقيام بكل المهام. ففي غشت 1922 نجد أن عدد الجيش الإسباني الموجود داخل شمال المغرب يصل إلى 150 ألف جندي(11). وإذا علمنا أنه شساعة المنطقة الخاضعة للحماية الفرنسية، لم تكن القوات الفرنسية تشتمل إلا على 6 جنرالات، فإن عدد هؤلاء في المنطقة الشمالية كان يرتفع إلى 17 جنرالا(12). ومن الممكن كذلك ملاحظة جهل الجندي الإسباني كليا بالمجال الجغرافي المغربي، مما نستخلص معه أن الجيوب الإسبانية Presidios ورغم قدم احتلالها لم تفد بتاتا في تهييء عملية الاحتلال. وحتى إذا أخذنا بعين الاعتبار بعض المناطق التي تم احتلالها باعتماد العمل العسكري، فإن ذلك غالبا ما كان يتحقق بنفقات باهضة تتجاوز المكتسبات المحققة. ولقد طبع الرأي العام الإسباني عامة نفور من العمل العسكري خاصة وأن المغرب أصبح يعني مقبرة للجنود الإسبان. ومما زاد هذا الرفض استفحالا إمكانية إعفاء البعض من الخدمة العسكرية، وذلك بتأدية غرامة مالية(13). وأمام عدم المساواة التي كان يجسدها هذا القانون، فلقد أصبح الهروب ضمن المجندين للخدمة في المنطقة الغربية. هكذا نجد هذه النسبة حسب ميكيل مارتين تصل 20% سنة 1913 و 22% سنة 1914

إضافة إلى كل العناصر التي ذكرناها، يمكن كذلك الحديث عن الارتباط الذي عرفه الجيش الإسباني بالعمل السياسي. فلم يكن الجيش يكتفي بتطبيق السياسة الحكومية على المستوى العسكري، بل كان يسمح لنفسه بمناقشة هذه القرارات وانتقادها وأحيانا إصدار بيانات بشأنها وتوجيهها إلى الحكومة.

ولقد كانت مدارس الضباط تشكل مراكز أساسية لمناقشة القرارات السياسية، كما لم يكن الاقتناع بالعمل السياسي في المغرب حاصلا لدى الجميع. ولعل ذلك مادفع أحد الكتاب (Jean Meyer) إلى القول بأنه في غالبية الحالات، كانت تدخلات الجيش تتم في اتجاه تقدمي ومتحرر(15). ويضيف أن الجيش الإسباني كان يتدخل غالبا كحكم في اتجاه وطني وتقدمي.

ولكنه بعدما يتطرق للحالة التي كان يعيشها الجيش، سيستخلص أن القضية المغربية أفادت في تزسيس جيش حقيقي وبمعنى معاصر للكلمة، في بلد لم يتحقق له بعد ذلك نظرا لضعف وطنيته وحداثته وحركته الامبريالية(15).

ولم يكن حدث الانقلاب العسكري الذي وقع في شتنبر 1923 غريبا عن هذه الأحداث، إذ أن زعيم الانقلاب Primo de Rivera قد أدى بتصريحات سياسية قبل ذلك في عدة مناسبات. وعوض معاقبته كان يحصل على بعض الامتيازات فيما بعد باعتباره يعبر عن قناعات طرف كبير في الجيش والمجتمع المدني(16).

وإذا كـان الرأي العـام في بعض البلدان يتـأثر بـبعض الخسـارات التي تحـدث في المستعمرات، فإن الرأي العام الإسباني لم يكن مستعدا بتاتا لتحمل التضحيات التي تفرضها العملية الاستعمارية. ونظرا لذلك فإن استياءه كان ثابتا من جانب، كما كان وراء العديد من التراجعات التي عرفتها السياسة الاستعمارية الإسبانية من جانب آخر ونعتقد كذلك أن الحالة التي كان يوجد عليها الرأي العام المدني هي التي تشرح التردد الذي طبع الحكومات المتعاقبة في مدريد بين الاندفاع العسمري الذي يتميز به الجندي والاتجاه الوقائي التفاوضي الذي يطبع رجال السياسة، خاصة وان المصاريف والنفقات التي كانت تتطلبها القضية المغربية أصبحت تشكل خطرا على ميزانية في شبه الجزيرة الايبيرية. وعامة إذا حاولنا قراءة السياسات المتبعة فقط عبر التغييرات التي عرفتها الإقامة العامة، فإننا ستجدها تنتقل من سياسة تفاوضية مع الفاو Alfau إلى سياسة مزدوجة تعتمد التفاوض والعمل العسكري مع مارينا Marina ثم رجوعا إلى اعتماد السيطرة عبر العمل السلمي مع جردانل Jor-dana، وبعد ذلك تتشبع بالنزعة التفاوضية مع بورغيتي Burguete وتحمل بعد ذلك بشكل مطلق شعار الحماية المدنية مع Aziz puru ثم نجدها تتحول إلى يد متزعم الانقلاب العسكري Primo Rivera بريمودي ريفيرا بعد ذلك. ولعل في هذا ما يوضح لنا مدى السرعة والتحول والاستقرار الذي طبع السياسة الاستعمارية والإسبانية في المغرب، والذي يرجع إلى عدة عوامل نخص بالذكر منها حالة المقاومة الشديدة التي تلقاها الجيش الإسباني داخل المغرب وما ينتج عنها من تأثير على معنويات الجيش وعلى مستوى الرأي الإسباني داخل المغرب وما ينتج عنها من تأثير في معنويات الجيش وعلى مستوى الرأي العام الإسباني في شبه الجزيرة الإيبيرية.

الهوامش

1 - Victor Moralez LEZACANO, EL Colonalismo espanol en Marrucos (1898 - 1927), Ed el Siglo Veinteuino de Espana. Madrid. 1976. PP. 23 - 25.

2 - أنظر في هذا الموضوع كتاب

- Pierre Guillen, Les empeunts Marocains. 1902 - 1904 Ed. Richelieu. Paris 1979

3 - تقرير من دولاماركوري De la Marguerie، القائم بأعمال فرنسا في مدريد، إلى وزير الشؤون الخارجية في 27 نونبر 1905.

4 - Enrique Marques, El Momento le Espana en Marruecos. Ed. Vicesecretaria de Educacion popular. Mad. 1942. PP 45 - 46.

5 - انظر في هذا الموضوع كتاب

Mohamed LAHBABI, Le Gouvernement Marocain à l'aube du XXe siècle, Ed. Magrébins Casablanca. 1975.

6 - أنظر كتاب محمد ابن عزوز حكيم الشريف الريسوني والمقاومة المسلحة في شمال المغرب - مطبعة الساحل - الرباط. صص. 31 - 32.

7 - نفس المرجع ص 32.

8 - في عدة مناسبات عبر سلفستر في اقتناعه بالعمل العسكري كوسيلة وحيدة لبسط السيطرة الاستعمارية. أنظر مثلا

Léon Rollin, l'espagne au Mroc, l'Afrique Française. 1925.

9 - أنظر الرسالة التي كتبها المقيم العام خردانا قبل وفاته والتي يشرح فيها كل القلق الذي كان يعاني منه خلال مزاولته لهذه الوظيفة.

10 - Lopez Rienda; Frente al Fracaso, Raïsuni de sylvestre à burguete. ed. Sociedad General Espanola de libreria. mad. 1923. P. 246.

11 - أنظر تقدير الملحق العسكري بالسفارة الفرنسية بمدريد إلى وزير الحربية بتاريخ 20 دجنبر 1923.

12 - أنظر تقدير ليوطي إلى وزير الخارجية عن محادثاته مع ملك إسبانيا بتاريخ 9 نوفمبر 1913.

13 - Maria Rosa de Madriaga, "Le parti socialiste espagnol et le parti communiste face à la révolte rifaine", in Abdelkrim et la République du Rif. Ed. Maspero. Paris 1976 P. 329.

14 - Miguel Martin, El colonialisme espanol en Marruecos. (1860 - 1956)/ Ed. Ruedo Iberico. France. 1973 P 60.

15 - Jean Meyer, "Les conséconces politiques de la guerre du Rif en Espagne, in. Abdelkrim et la Rupublique de Rif.op cit. P. 304.

16 - أنظر تقدير بيتريتي دي لاروكا، سفير فرنسا بمدريد إلى بريند وزير الخارجية في 15دجنبر 1925.

التدخل الفرنسي في حرب الريف

(1924 ـ 1926)

محمـد خرشيـش
كليـة الآداب والعلوم الإنسانيـة
ـ تطـوان ـ

لقد اندلعت كما هو معلوم، الحرب الفرنسية الريفية يوم 13 أبريل 1925 أي بعد مرور 4 سنوات تقريبا عن معركة أنوال (21 يوليوز 1921) . فهاته الفترة الطويلة نسبيا حافلة بالاحداث والتطورات التي تقدم عناصر موضوعية وإشارات هامة ومعلومات مركزة حول الأسباب البعيدة والقريبة التي أدت في نهاية المطاف إلى التدخل حول الأسباب البعيدة والقريبة التي زدت في نهاية المطاف إلى التدخل الفعلي للقوات الفرنسية في الصراع العسكري المباشر إلى جانب الشركاء الإسبان الذين كانوا قد ذاقوا الامرين ويئسوا من إمكانية إحراز تقدم في مواجهتهم مع المجاهدين الريفيين.

كيف يمكن، إذن، تفسير التماطل الفرنسي في المشاركة المباشرة في حرب الريف إلى حدود 1925 ؟

أصبح الآن معروفا، انطلاقا من المعلومات القيمة التي تقدمها لنا الوثائق الفرنسية و«المغربية»(1)، أن العلاقات بين الإدارة الفرنسية وقيادة المقاومة الريفية طيلة السنوات الأولى من حرب الريف كانت طيبة إن لم نقل جيدة، ويظهر هذا جليا في الزيارات المتعددة التي قام بها مبعوثون ريفيون إلى كل من فاس، تاوريرت، وجدة، والجزائر والميتربول (METROPOLE) الفرنسي، كما فتحت الحدود أمامهم لاقتناء ما كانوا يحتاجونه من مواد مختلفة.

هاته الخاصية ترتبط ارتباطا وثيقا بالوضعية السياسية العامة للمغرب كبلد مقسم ومحتل من طرف قوتين استعماريتين فرنسا وإسبانيا، أي أن العلاقات بين الطرفين كانت جد متدهورة في هاته الفترة بسبب المشاكل المتفاقمة والنزاعات

العالقة حول مصير منطقة طنجة "Statut de Tanger" والتصرفات الإسبانية، التي كانت غير مقبولة من طرف الفرنسيين أثناء الحرب العالمية الأولى بتشجيعهم «للعملاء الألمان» وفي مقدمتهم عبد الملك بن محيي الدين...

لكن هذا لاينفي في شيء الطابع التكتيكي للتقارب الفرنسي الريفي، خاصة وأن السلطات الفرنسية كانت مركزة اهتمامها إلى حدود نهاية سنة 1923، على المشاريع ذات الأولية القصوى، ويدخل في هذا الإطار إلى جانب «المغرب النافع» على تعبير LYAUTEY، ممر تازة الذي كانت أهميته بالغة لضمان الاتصال مع المغرب الشرقي والجزائر، وعلى المدى المتوسط منع كل اتصال بين المقاومة الريفية والمجاهدين في الأطلس المتوسط عامة وبني وراين خاصة.

كيف تعاملت السلطات الفرنسية مع الواقع السياسي الجديد الذي تبلور بعد معركة أنوال؟

- التركيز على العمل السياسي للحد من تأثير المقاومة الريفية المتزايد في قبائل ورغة:

انطلاقا من سنة 1922، أصبحت المقاومة الريفية تحظى باهتمام وعطف قبائل ورغة، مما دفع بمحمد بن عبد الكريم الخطابي إلى إرسال مبعوثين للمنطقة، وعلى رأسهم أخوه امحمد، للتأكد من متانة الشعبية التي كان يتمتع بها الزعيم الريفي واستعداد هاته الأخيرة، أو على الأقل قسم هام منها، للانضمام إلى حركة مقاومة المستعمر. وقد حققت هاته الحملات الاستقصائية هدفها المنشود، بإعطاء الدعم الملموس والمعنوي للقبائل الحدودية (بين المنطقتين الفرنسية والرسبانية)، بل أكثر من ذلك أبهرت إلى حد كبير السلطات الفرنسية وأقلقتهم في نفس الان خاصة بجانبها الديناميكي الفعال، وترتب عن ذلك إحراز تقارب مفاجىء في العلاقات بين ابن عبد الكريم واعمر ولد احميدو (مرنيسة) الذي تم تعيينه على رأس قبيلة مرنيسة.

فبالرغم من ظرفية هذا التقارب، فإن اعمر ولد احميدو ظل على اتصال مستمر بمصلحة المخابرات الفرنسية، كما تؤكد ذلك التقارير الموجود بربائد وزارة الحرب الفرنسية، (Vincennes)، ولم يقدم على هذا التقارب إلا لربح رهان التنافس الذي كان يجمعه مع أولاد يدري(2)، ومن جهة أخرى لأنه كان يشك في أن نهاية الصراع ستكون لصالح القوات الموالية للمقاومة الريفية.

لكن السلطات الفرنسية لم تبق مكتوفة الأيدي، وجاء رد فعلها على شكل

حملات دعائية ضد المقاومة ورجالاتها سيقوم بتطبيقها حليفها في كزناية القاذد المذبوح، والذي سينضم إليه فيما بعد اعمر ولد احميدو الذي لم يكن ينتظر إلا الضوء الأخضر من مسخريه للالتحاق بركبهم.

إن هاته الحملات التي قامت الإدارة الفرنسية بإعدادها والتخطيط لها، وقام بتنفيذها كل من القائد المذبوح واعمر ولد احميدو، كان الغرض منها إيقاف الخطر الريفي والحفاظ على منطقة معزولة تحول دون إقامة اتصال مباشر بين قبائل المنطقتين : الفرنسية والإسبانية.

إن قيادة المقاومة الريفية التي كانت تتابع باهتمام بالغ تطورات الحالة السياسية بمنطقة ورغة، ركزت في توجيه ردها على مستويين

1 ـ الرد العسكري

قامت المقاومة بشن هجومات في اتجاه قبائل ورغة وعلى رأسها مرنيسة ركزناية، استطاعت بموجبها إعادة السيطرة على هاته المناطق بعد أن أجبر على الفرار إلى المنطقة الفرنسية كل من اعمر ولد احميدو والقائد المذبوح في الأيام الأولى من شن العمليات العسكرية.

2 ـ الرد السياسي أو الديبلوماسي

عمل محمد بن عبد الكريم الخطابي على إرسال رسالة احتجاج إلى الماريشال ليوطي ليؤكد له القناعة الراسخة لقادة المقاومة، أن كل التحركات الدعائية التي قام بها القائد المذبوح من وحي السلطات الفرنسية(3).

ـ احتلال النقط الاستراتيجية على ضفاف نهر ورغة من طرف فرنسا

في البداية 1924، كانت الحالة العامة على الحدود بين المنطقتين الفرنسية والإسبانية تتميز بما يلي

أولا الفشل الذريع الذي لاحق حلفاء فرنسا (القائد المذبوح ـ اعمر ولد احميدو) في مواجهاتهم العسكرية مع قوات المقاومة، دفع بهؤلاء إلى اللجوء للمنطقة الفرنسية، مما كان له أثر بالغ على معنوية سكان القبائل المجاورة بالرغم من مواصلة الشريف الدرقاوي لعدائه التقليدي لمحمد بن عبد الكريم.

ثانيا النشاط السياسي الذي كان يشكل حجر الزاوية للسياسة الفرنسية في الجبهة الشمالية ما بين (1921 ـ 1924)، لم يعد كافيا لضمان المصالح الفرنسية الحيوية في المنطقة، إضافة أن المشاريع التي كانت قد أعطيت لها الأولية تم تنفيذها بنجاح

خاصة في حدود أواخر سنة 1923.

يمكن القول، إذن، إن التطورات التي عرفتها الوضعية في المناطق الحدودية، والسمعة الحسنة والشهرة اللامعة التي أصبحت لقبائل المقاومة لدى جل القبائل الجنوبية (ورغة) وخاصة لدى القبائل العي كانت تحت السيطرة الفرنسية، كل هاته المعطيات الجديدة أخذت تقلق أكثر من أي وقت مضى السلطات الفرنسية. ومنذ ذلك الحين، لم يتوقف ليوطي عن إطلاع الحكومة على خطورة الموقف والإجراءات التي كان ينوي اتخاذها لمواجهة، أو على الأقل عرقلة، «الدعاية الوطنية وكراهية الأجانب»(4) التي كانت قد زادت حدة، على حد تعبيره، في الشهور الأخيرة والتي يمكن أن تعمل على هدم كل ما تم بناؤه منذ سنوات من طرف السلطات الفرنسية.

وفي هذا الإطار، ركز الماريشال ليوطي، في تقرير أرسله إلى وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ 13 فبراير 1924، على التأييد الشعبي الكبير الذي أصبح يحظى به محمد بن عبد الكريم الخطابي لدى مختلف القبائل المحاذية لنهر ورغة خاصة بعد الهزيمة الساحقة التي ألحقت بحلفاء فرنسا، وألح على ضرورة احتلال المرتفعات الاستراتيجية الواقعة على ضفاف نهر ورغة لتشكل مراكز متحركة (Postes mobiles) لمراقبة تحركات قوات المقاومة، وسدا منيعا أمام أي هجوم مفاجيء من طرفها وتحول دون تجسيد الاتصال المباشر بين قبيلة بني ورايين وابن عبد الكريم. وبتاريخ 27 مارس من نفس السنة، قام ليوطي بإرسال مبعوث «رسمي» إلى أجدير في شخص أحد أعيان مدينة فاس، وكلفه بإبلاغ ابن عبد الكريم عزم فرنسا على توسيع مجال نفوذها على النقط التي تدخل ضمن منطقتها.

المسؤولون الريفيون الذين استقبلوا مبعوث الإدارة الفرنسية عبروا عن رغبتهم في حل المشكلة بالطرق السلمية واقترحوا فتح مفاوضات في هذا الشأن، وبعد ذلك عاد المبعوث مرة ثانية إلى الريف ليبلغ ابن عبد الكريم الاقتراح الفرنسي القاضي بإرسال مبعوث رسمي إلى فاس، وهذا ماتم بالفعل يوم 9 ماي 1924 تاريخ وصول علي بن حدو، المعروف باسم علوش، إلى فاس لشرح موقف قيادة المقاومة من المشروع الفرنسي، والذي يمكن تلخيصه في نقطتين

أ ـ طالبت القيادة الريفية من الفرنسيين إعطاءها التوضيحات الكاملة حول حدود المنطقتين الفرنسية والإسبانية قبل الشروع في تنفيذ مشروع التقدم نحو المرتفعات الشمالية.

ب ـ عبرت عن استعدادها للانسحاب من المناطق التي قد تكون تابعة لمنطقة

النفوذ الفرنسية، لكن شريطة أن تمنحها السلطات الفرنسية الوقت الكافي لإقناع القبائل بضرورة احترام قراراتها وتتم بدون عراقيل أو مشاكل قد تعود بالضرر على شعبية محمد بن عبد الكريم الخطابي بالمنطقة.

إلا أن السلطات الفرنسية التي كانت مصرة على تطبيق مشروعها في أقرب الآجال، لم تكن تنتظر إلا الوقت المناسب ليتم ذلك بدون مواجهة مباشرة مع المجاهدين الريفيين، فاغتنمت فرصة احتدام المعارك الإسبانية الريفية بالجبهة الشرقية وبالضبط بمنطقة تفرسيت التي أدت إلى التحاق قسم وافر من المجاهدين بقبائلهم، لتنفذ عملية تقدم قواتها نحو النقط الاستراتيجية، لذلك عند عودة المبعوث الريفي إلى فاس لابلاغ السلطات الاستعمارية الرد الرسمي للمقاومة، كانت المقاومة الفرنسية قد أنهت مراحل تقدمها.

إذن يتضح من خلال ما سبق ذكره، أن المبادرة الفرنسية للدخول في اتصالات مباشرة مع محمد بن عبد الكريم، لم يكن الغرض منها التوصل إلى اتفاق يرضي الطرفين بقدر ما كانت عملية تكتيكية محضة لتحويل الأنظار عن الأهداف الاستعمارية الحقيقية، وإلا، كيف يمكن تفسير إقدامها على تطبيق مشروع كانت المفاوضات قد فتحت بشأنه مع قيادة المقاومة؟

- قبيلة بني زروال السبب المباشر لاندلاع المواجهة الفرنسية الريفية

بعد أن أقدمت السلطات الاستعمارية على تطبيق جزء من مخططها التوسعي، تدهورت الأوضاع اكثر وأصبحت سبل التواصل وبالأحرى التفاهم بين الطرفين من قبيل الأوهام. لذلك شهدت المنطقة انطلاقا من شهر يونيه وفي غضون شهر يوليوز وغشت 1924 مواجهات حادة بين القبائل المحاذية للمراكز الفرنسية مدعومة بقوات ريفية، أرسلت إلى عين المكان. لكن الطرفان كانا يحرصان على أن تظل محدودة في الزمان والمكان لسببين رئيسيين

أولا لم يكن ليوطي قد توصل بالتعزيزات العسكرية الضرورية للدخول في مواجهة مباشرة مع حركة المقاومة الريفية.

ثانيا كان القائد الريفي مقتنعا بحتمية المواجهة، لذلك كان يسعى مسبقا إلى حسم الصراع العسكري ضد الإسبان للحصول على أكبر قدر ممكن من الأسلحة والذخائر قبل الدخول في مواجهة مباشرة ضد قوة استعمارية أكثر تقدما وقوة من إسبانيا.

إلا أن المشكل الحدودي بين منطقتي النفوذ الفرنسية والإسبانية، وبالضبط ما يسمى بمشكلة بني زروال كان السبب المباشر لاندلاع الحرب الريفي الفرنسية في ابريل 1925

كان الفرنسيون يتوفرون فيها على حليف هام في شخص الشريف عبد الرحمان الدرقاوي، الذي ساهم بشكل فعال مع السلطات الفرنسية في مختلف مراحل السيطرة العسكرية بمنطقة ورغة، واعتمدت عليه في صد كل المحاولات التي قام بها قائد المقاومة الريفية وخاصة إلى حدود نهاية 1923، لأنه ابتداء من هذا التاريخ أخذت تيارات مساندة للمقاومة تظهر على أرض الواقع. إلا أن التطورات التي أعقبت احتلال النقط الاستراتيجية (27 ماي 1924)، أظهرت بالملموس أن الفرنسيين مصرون على الاستمرار في توسيع رقعة احتلالهم بضمهم لقسم من بني زروال (أولاد قاسم) في شتنبر 1924، وبالتالي فإن التيار المعارض للتواجد الفرنسي أصبح منظما وأكثر فعالية في تحركاته ورفضه للمواقف المتخاذلة للشريف الدرقاوي الذي لما أحس بالخطر الداهم التجأ إلى زاويته بأمجوط.

فما هي الأهمية التي تمثلها قبيلة بني زروال بالنسبة للمصالح الفرنسية؟

* إن سيطرتهم على القبيلة تمكنهم من منع أي اتصال للمقاومة في الجهة الغربية (بني مسارة وغزاوة) والجهة الشرقية (مرنيسة وكزناية).

* مساعدة وحماية حليف قديم كان ولايزال وفيا للإدارة الفرنسية هو الشريف الدرقاوي.

* إن السلطات الفرنسية وعلى رأسها ليوطي، كانت على وعي بالآثار الإيجابية للانسحاب الإسباني من مناطق متعددة على معنوية رجال المقاومة الريفية وعلى شعبية ابن عبد الكريم في مختلف القبائل(5).

* إن اتفاقية 27 أبريل 1912 تركت مشكلة المروربين منطقتي النفوذ الفرنسية والإسبانية عالقة، وقبيلة بني زروال تدخل ضمن المناطق المتنازع عليها بين القوتين الاستعماريتين، ففرنسا كانت ترى أن القبيلة في مجملها تدخل ضمن منطقة نفوذها. أما الإسبان فكانوا بدورهم يطالبون بحقهم على جل أجزاء القبيلة.

هذا الواقع نزل بكل ثقله على العلاقات الفرنسية الريفية، وفي دجنبر 1924، قام ليوطي بإرسال تقرير مفصل إلى الحكومة حول تطور الأوضاع خاصة بعد الانسحاب الإسباني، وأشار في غضون حديثه على قبيلة بني زروال أنها أصبحت

في مجملها تعلن تأييدها للمقاومة الريفية، كما نبه الحكومة أن ابن عبد الكريم أصبح مصرا أكثر من أي وقت على الاعتراض على أي تقدم للقوات الفرنسية في اتجاه الشمال وإقدامه على إنشاء مراكز دفاعية شمال فاس وتازة وإرساله لأحسن قواته مجهزة بالرشاشات إلى المنطقة خير دليل على ذلك.

لكن السلطات الفرنسية كانت، مع ذلك، ترى أن احتلال هاته القبيلة يعتبر أمرا حيويا لأنها تشكل قاعدة ضرورية لضمان نجاح الأنشطة السياسية مع الأعيان في القبائل قصد تفكيك الأعمدة الأساسية لقوة ابن عبد الكريم(6).

وفي سنة 1925، ستتم إعادة نفس سيناريو السنة الماضية (1924) حيث ستعمل السلطات الفرنسية على إرسال مبعوث إلى أجدير في 18 مارس 1925 في شخص عبد العزيز لحلو، للتأكد على تبعية قبيلة بني زروال للنفوذ الفرنسي.

وبادرت بعد ذلك قيادة المقاومة بإرسال القائد حدو بن حمو إلى تاوريرت لابلاغ المراقب المدني كابريلي (Gabrielli) باقتراحهم القاضي بتشكيل لجنة مشتركة فرنسية - ريفية، لحل مشكل الحدود بين المنطقتين الفرنسية والإسبانية. إلا أن السلطات الفرنسية رفضت البث في هاته المشكلة في غياب إسبانيا.

إلا أن القيادة الريفية وعلى رأسها ابن عبد الكريم، كانت قد استوعبت جيدا درس السنة الماضية، أي لما وضعتها الإدارة الفرنسية أمام الأمر الواقع باحتلال المناطق الاستراتيجية، لم تكن مستعدة هاته المرة للتخلي عن قبيلة بني زروال نظرا لأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية.

وفي خضم هاته التطورات أعطت الأوامر لثلاث حركات ريفية وجبلية للاستعداد للمواجهة على حدود قبائل ورغة التي أنذرت باندلاع الحرب الفرنسية الريفية التي تمت يوم 13 أبريل 1925.

الهوامش

1 ـ أعني بالوثائق الفرنسية، الموجودة بوزارة الخارجية (الوثائق الدبلوماسية) والعسكرية بوزارة الدفاع (Vincennes) بباريس. أما المغربية فالمقصود بها الوثائق التي استحوذ عليها الفرنسيون بعد نهاية حرب الريف والمصنفة بوزارة الخارجية الفرنسية (Quai d'Orsay) تحت اسم أوراق عبد الكريم Papiers d'Ab-delkrim.

2 ـ قبيلة مرنيسة كانت إلى حدما، مقسمة من ناحية النفوذ إلى منطقتين : قسيوة في الشمال وكانت تحت سيطرة اعمر ولد احميدو، في حين كانت بني يحيى في الجنوب خاضعة لاولاد يدري.

3 ـ هاته الرسالة الاحتجاجية أرسلها القائد حدو بن حمو إلى الماريشال ليوطي في 27 يناير 1924 وموجودة في ربائد وزارة الخارجية الفرنسية (Quai d'Orsay).

4 ـ Sa propagande nationaliste et xénophobe...

هاته الرسالة أرسلت من طرف ليوطي يوم 28 يناير 1924.

5 ـ Le prestige d'Abdelkrim a grandi dans des proportions formidables, il est devenu le centre d'attraction nationaliste...

يجب الاشارة إلى أن ليوطي بعث بالكثير من التقارير يؤكد فيها هاته الظاهرة التي كانت قد تدعمت كثيرا عند نهاية سنة 1924.

16 ـ أعني القبائل الجبلية المجاورة لشفشاون والقبائل الريفية المجاورة لأجدير نظرا لاهميتها الاستراتيجية.

صفحة من المقاومة المغربية
إثر حرب الريف

محمد زنيبر
كليـة الآداب والعلوم الإنسانيـة
ـ الربـــاط ـ

حيتما نثير ذكرى المقاومة المغربية للتوغل الاستعماري الفرنسي ينصرف فكرنا في الحين إلى بعض الوقائع الكبرى مثل أنوال أو الهري أو إلى بعض الشخصيات اللامعة، مثل ابن عبد الكريم أو موحا أو حمو، وننسى أنها كانت مقاومة متواصلة ومنتشرة في كل أنحاء المغرب ومبرزة لعمل شعبي شاركت فيه الجماعات باستماتتها وتضحيتها وإيمانها وانضباطها. فكان لها الفضل في تحريك العزائم وفي ايجاد القادة الشجعان المناسبين لها. ومن باب الانصاف والموضوعية العلمية أن نُقوِّمَ الدور الكبير الذي قام به الالف الجنود المجهولين، الذين عملوا في صفوف المقاومة الشعبية، والذين نسي التاريخ اسمهم ولايذكر إلا اسم بعض قادتهم.

ومن الوفاء للحقيقة أن نقول أن المغاربة لم يحاولوا أن يكتبوا أي شيء ذي بال عن تلك المقاومة، لامن قبيل اليوميات، ولا من قبيل المذكرات ولامن جمع المعلومات وتوثيقها، وإنما حضروا للاحداث كمتفرجين أو كمجاهدين، واعتمدوا على ذاكرتهم في حفظها. فكان من الطبيعي أن ينيخ عليها النسيان بظلاله، وأن يموت الكثير من شهود العيان، وأن يهرم الاخرون، فتذهب الشيخوخة بقوة ذاكرتهم وصفاء عقولهم، بحيث إننا لو اعتمدنا عليهم في كتابة تلك الصفحة المليئة بالنضال والجهاد والاستشهاد لما ظفرنا إلا بمادة ضئيلة وناقصة.

لكن، كان هناك شهود عيان آخرون، تتبعوا مراحل المقاومة المغربية وسجلوا أحداثها بتفاصيلها، لانهم كانوا يمثلون الطرف الاخر في الحرب الاستعمارية الطويلة الامد. وأعني بهم الفرنسيين ما بين ضباط حضروا الوقائع وصحافيين التقطوا أخبارها ومؤرخين اهتموا بموضعنا في سياقها. وما أكثر ما سجلوا وألفوا.

ويبقى السؤال الوحيد الذي يطرح على المؤرخ المغربي عندما يحاول إعادة كتابة تاريخ المقاومة المغربية هو إلى أي حد يمكنه أن يثق بتلك الكتابات الاستعمارية ويتخذها مرجعا يعتمد عليه؟

وأبادر فأقول إننا أولا، لانستغني عنها كمصادر أولية في أي مشروع من هذا النوع. ثم إنها، في غالب الاحيان، جديرة بالاعتبار لاننا نشعر من خلال النص، بأن أصحابها يتحرون في جمع أخبارهم ويلجأون إلى وثائق من مذكرات وتقارير صادرة عن مسؤولين يحرصون على تقديم الوقائع كما هي لرؤسائهم. ثم إنهم يعترفون بأخطائهم، ولايترددون في أحكامهم بإنصاف المغاربة، فيشهدون لهم بالانتصار والتفوق، إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وينوهون بشجاعتهم. فهي كتابات بعيدة عن التعصب البدائي والتحامل المجاني. هذا لايعني أن الفرنسيين لا يدافعون عن سيادتهم ولا يحاولون تبرير موقفهم. لكن، من السهل على المؤرخ أن يميز المادة الصحيحة من المادة المغشوشة، إذا كانت لديه ممارسة بالبحث،وكان قادرا على استعمال الجهاز النقدي في قراءة تلك الادبيات التاريخية.

لكل ذلك، فقد رأيت من المفيد أن أقدم فصلا من كتاب بالفرنسية عنوانه "العمليات العسكرية بالمغرب" وقد ألفه جماعة من الضباط الفرنسيين تحت مراقبة هيئة أركان الحرب في الجيش الفرنسي وهو يقدم خلاصة عن التقارير العديدة التي كانت ترفع إلى القيادة العليا في الجيش الفرنسي عن سير عمليات "التهدئة" "La pacification" التي تعني في الحقيقة عمليات الاحتلال وتوغل الجيش الفرنسي في التراب المغربي. والكتاب يتميز بدقة الوصف وضبط التواريخ وتقديم الارقام الاحصائية، عند الضرورة. كما يقتصر على تقديم الوقائع وتحليل ظروفها وتقويم نتائجها، مع اجتناب الحشو

والنص الذي نقدم يضعنا على التو في مرحلة دقيقة من مسار المقاومة فقد مثلت ثورة الريف بقيادة محمد بن عبد الكريم قمتها وضربت الرقم القياسي حسن استغلال الموقع الجغرافي والاستفادة من كل المعطيات البشرية والسياسة وفي التوفيق إلى تنظيم حرب العصبات. لكن الثورة الريفية اضطرت إلى التوقف أمام قوات العدو الساحقة وانتهت باستسلام ابن عبد الكريم. فكان من المنتظر أن يكون للكارثة أثرها السلبي على جماعات المقاومين المبثوثة في كل أنحاء المغرب آنذاك، وأن تنتقل إليها عدوى اليأس والتشاؤم. وإذا لم يستطع ابن عبد الكريم بتنظيمه وجيشه وحكومته وأسلحته أن يواصل المقاومة أمام العدو، فكيف ينتظر من جماعات معزولة، محدودة في تسلحها ووسائلها أن تقف في الواجهة وتعرقل تقدم

الجيش الفرنسي؟

ومهما أخذ منا العجب، فقد حدث ذلك، بالفعل فظل المغاربة في الشمال وفي الجنوب يقفون في وجه الاحتلال الاجنبي، ولا عليهم إن كان استسلم ابن عبد الكريم أو لم يستسلم، معتبرين أنهم يقومون بواجب مقدس لايصح التراجع عنه، مهما كانت الظروف تبعث على اليأس. وهنا نجد شهادة الفرنسيين تؤكد تلك الارادة في الاستماتة الجماعية، ورفض الاستسلام دون استنفاذ كل الامكانات والوسائل للدفاع عن الشرف، بحيث يصح لنا أن ننوه ببطولة الشعب قبل بطولة الافراد، وأضعف الايمان بعد مرور عشرات من السنين على تلك الاحداث هو إقامة أنصاب تذكارية في كل الاماكن التي احتضنت تلك المفاخر و التي سيكون فيها درس واعتزاز للاجيال الصاعدة، وتذكير بتاريخ جدير بالبحث والاهتمام.

وكما يتضح من تصفح النص، لم يكتف المستعمر باستعمال الحديد والنار، بل استعمل كل ما لديه من حيلة ودهاء للحصول على مبتغاه فاستند إلى الحلف مع اسبانيا في القضاء على ما بقي من مقاومة في الشمال. واعتمد على جهاز قوي من ضباط الاستعلامات لمخادعة السكان في كثير من الجهات وتعنيه بالمشروعية التي يخولها إياه عقد الحماية وعمله يدا في يد مع السلطان والمخزن الشريف. وتلك وسائل وحجج كان لها تأثيرها على فئات من السكان من الذين لم يكن يهمهم إلا الوفاء للمشروعية.

والنص يوضح، أيضا، الخطة العسكرية التي صمم عليها المستعمر فقد أراد إخضاع الشمال قبل الجنوب والاستيلاء على كل المناطق الساحلية قبل المناطق الداخلية، أي إخضاع ما كان يدعوه ليوطي "المغرب النافع مغرب السهول الخصبة، والامطار الغزيرة، والانهار المتدفقة والموانيء النشيطة تبقى له بعد ذلك المناطق الجبلية الوعرة في الاطلس الصغير والكبير والمتوسط والواحات الجنوبية هي التي سيمضي فيها ما لا يقل عن تسع سنوات بعد نهاية حرب الريف من 1925 إلى 1934 ليتمم إخضاعها.

وهاته المدة الطويلة، باعتبار مقاييس الحروب، تبين أننا إذا أردنا إجراء تقويم صحيح للمقاومة المغربية، فلايصح لنا أن نقف عند حدود الحرب الريفية التي أبرزتها وسائل الاعلام المعاصرة بصورة خاصة. بل هناك ما أتى بعدها وأحيط بمؤامرة الكتمان. لكننا نشعر اليوم مع ذلك، بنوع من العرفان تجاه أولئك الفرنسيين، الذين، وإن كانوا يعملون في ركاب الاستعمار، فقد سجلوا لنا صفحات رائعة من المقاومة المغربية.

الوضعية العسكرية في أكتوبر 1926

كانت معظم النجدات التي ساعدت القيادة العليا على تقويم الوضع في الواجهة الشمالية على أحسن صورة، فقد الحقت بحامياتها في فرنسا ورينانيا والجزائر وتونس في أكتوبر 1926 وأخذ فصل الامطار يقترب. ومع هذا الشهر تنتهي حملة 1926 وكذلك العمليات العسكرية الكبرى.

ويمكن وصف الحالة العامة في ذلك التاريخ كما يلي

في الواجهة الشمالية، كان خط المراكز العسكرية يحد جيدا الحدود السياسية من ملوية إلى كلواش ومن ريحانة إلى المحيط الأطلسي ولكن في الشمال الشرقي وفي شرق وزان، من كلواش إلى ريحانة، لم يكن بد من إيقاف السير إلى الأمام، قبل بلوغ الاهداف. وهذا التوقف كان مقلقا، لأن الافخاذ التي كانت أمام الخطوط الفرنسية مزعجة وعدوانية والأرض وعرة ومعكوسة بالغابات مما يجعلها قابلة للتسربات، ثم إن المنطقة الاسبانية في جوار المراكز مازالت خارجة عن الطاعة.

فالاتصال باسبانيا ينتهي عند بني بربر على بعد 65 كيلومترا شرقي كلواش ولايستعاد إلا في لكوس غربي ريحانة، بحيث ان الجهد المطلوب في شمال شرق وزان، لإتمام العمل العسكري يتراءى صعبا.

وفي داخل التراب المغربي ذاته، مازالت هنالك بقع خارجة عن الطاعة أو متمردة، وأهمها بقعة تازة التي تأوي زمرة من الثوار الذين لاينتظر خضوعهم والذين مازالوا يحومون في ربوعها.

وكانت هنالك جماعتان غير خاضعتين هما اللتان تهددان باستمرار المواصلات بين أكادير والصويرة وبين أكادير ومراكش.

والاولى تنطبق على منطقة سكن كتلة إداوتنان وهي مجموعة قبائل تفتخر بكونها لم تخضع مطلقا للمخزن في يوم من الأيام. وأما الاخرى فتضم خليطا من القبائل هي من الوجهة النظرية داخلة في منطقة نفوذ القائد المتوگي.

وأخيرا من بوعنان إلى المحيط الأطلسي، تكون سلطات الحماية في اتصال مع الجهة التي مازالت خارجة عن الطاعة.

كانت جنود بودنيب تقوم بالحراسة في تخوم الحمادة المقفرة، في حين تراقب أرفود تافيلالت. ثم إن حاشية بلاد السيبة تفتح نحو الشمال جيبا عميقا داخل بلاد المخزن. وتحاذي المراكز العسكرية وادي زيز الذي يسايره مسلك رديء، وهاته

الجبهة هادئة ولكن من ورائها تشويش مصدره الغارات الجريئة التي تقوم بها العصابات.

وفي شمالها يخترق خط المراكز العسكرية حاجز الاطلس الكبير ليصل إلى عتبة أغبالة التي وقع احتلالها منذ 1926.

وهاته العتبة تقع في منطلق شرخ كبير تغطى فيه السيبة ويوحد طرفه الآخر في واويزغت. إنه جدار وادي العبيد"، حيث توجد الواجهة الاكثر تحركا التي تظهر فيها جماعات العصاة أكثر عدوانية. وأما سهل تادلة، فإنه محروس حراسة ضعيفة بخط متقدم ومتمسك بالمنحدرات الأولى للاطلس المتوسط التي تطل بشراسة على السهل. والوضعية هنالك قلقة، سيما وأن مستعمرات غير رسمية وسابقة لاوانها استقرت بجوار تلك المراكز وأصبحت تطالب بحرارة بضمان الامن لصالحها، ذلك الامن الذي لم يكن في وسع الحماية أن تتكفل به.

وفي جنوب واويزغت، كانت المراكز العسكرية تحرس السفح الشمالي للاطلس الكبير، وابتداء من تمدة، آخر المراكز إلى المحيط الاطلسي، لم يكن الامن في الحاشية يعتمد مبدئيا على أي قوة ماعدا سلطة الرؤساء الاهالي معززة بضباط الاستعلامات.

وأهم أولئك القواد هو الكلاوي، الذي كانت تمتد منطقة نفوذه، نظريا من تدغة إلى إداوبلال وتمتد شوكتها إلى منعطف وادي درعة. ولكن هيبة الكلاوي أخذت تتداعى بصورة محسوسة في الوقت الذي كانت فيه فرنسا تجتهد بالتدريج وبكل احتياط في إقامة مراقبتها. فأنشيء منذ سنة 1925 مكتب للاستعلامات في تلوت، في السفح الجنوبي للاطلس. وهو من وراء السلسلة الكبيرة المحرس الفرنسي الوحيد المقابل لواجهة تمتد على 300 كيلومتر.

وهناك، أخيرا، جبهة الاطلس الصغير الذي بدون الوصول إلى قمته العليا، يمتد من تخوم الجنوب الغربي لبلاد كلاوة إلى المحيط الاطلسي.

وفي هاته الجبهة الهادئة، يرتكز الأمن، كما في بلاد كلاوة، على انعدام العداء لدى القبائل لفرنسا وعلى النزاعات الناشبة فيما بينها أكثر مما يرتكز على ضعف استعدادها العسكري.

وبالجملة يمكن وصف الوضع العسكري في سنة 1926 كما يلي

في الشمال، تظل واجهة مفتوحة للعصيان، على طول 40 كيلومترا في الداخل،

تستمر بقع من العصيان. في الجنوب، هنالك واجهتان نشيطتان وهما خط زيز المحروس بمراكز عسكرية، وواجهة الاطلس المتوسط التي لم تكد تصل بعد إلى منحدراته الأولى، باستثناء حصني أغبالة وواويزغت وجبهة هادئة من أزيلال إلى المحيط الأطلسي التي باستثناء تلوات، مازالت القرون الممتدة في اتجاهها لم تصل بعد إلى الحواجز الجبلية في الاطلس الكبير والاطلس الصغير.

التقدم الحاصل من أكتوبر 1926 إلى مارس 1930.

كل المشاكل التي كان يفرضها ذلك الوضع لم يجر حلها في تلك الفترة، فإذا كان أكتوبر 1926 يشير إلى بداية مرحلة جديدة، فلايمكن التنبؤ بالتاريخ الذي ستتم فيه التهدئة.

ومع ذلك، فقد تحققت خطوات كبرى إلى الامام.

وهكذا حرر المغرب "النافع من كل خطر محقق، وأمكن الاقتصاد في وسائل العمل. وبذلك تأكدت من جديد فعالية المنهاج المتبصر القائم على المهارة في المزج بين العمل السياسي والعمل العسكري. فإذا كان يجب الالحاح على العمل العسكري في واجهة وزان، لتلافي حالة مخيفة من انعدام الامن، ففي واجهة مراكش يفضل الالحاح على العمل السياسي المعزز ببعض الفيالق للقضاء على بعض البقع من العصيان والتقدم نحو الجنوب.

إن الامتداد الفرنسي في البلاد الذي وقع ايقافه بشراسة، طوال سنتين بسبب مغامرة ابن عبد الكريم، سيستأنف، ابتداء من أكتوبر، نشاطه المخطط. والان وقد استرجعت الحماية حريتها في العمل، أصبح من الميسور لها أن تسير في حل كل المشاكل بالتتابع حسب ما تدعو إليه درجتها من الاستعجال ففي الشمال، من الواجب مواصلة التقدم إلى الحدود وانهاء الاستيلاء على تلك الناحية. وبالنسبة للداخل، القضاء على بقع العصيان، وفي الجنوب، ردع العصاة والدفع بهم إلى الوراء بأسلوب يرتكز على المواظبة والصبر.

الجبهة الشمالية

كانت الوضعية مقلقة منذ أواخر 1926، وتفاقمت في بداية 1927 ذلك أن المراكز العسكرية نظرا لتباعدها عن بعضها في أرض وعرة للغاية، لم يكن في مقدورها أن تمنع العصيان من الانتشار مما أدى إلى تعدد الحوادث وإلى قيام العصاة بأفاعيلهم تحت أسوار وزان. وفي الواجهة، كانت بعض العصابات المنظمة تتحرش بالمفارز وترعب السكان الخاضعين وتنال من معنوياتهم.

واتفقت القيادتان العليتان الفرنسية والاسبانية على الخطوط الكبرى لهجوم شامل. وكان الجهد المنتظر من اسبانيا ضخما، إذ كانت المنطقة الخارجة عن طاعتها تمتد من الشرق إلى الغرب على مدى 120 كلم. وقد تقدم تجهيز الجبهة الفرنسية بصورة ملحوظة، يمكن للعمليات أن تنطلق عند آخر فصل الشتاء.

وفي الانتظار لابد من المحافظة على الإتصال بموجة العصيان وحصرها وقد وقع تطهير ناحية مولاي عمران فيما بين 13 مارس و 4 أبريل والعصاة يقاومون بشدة ويكبدون الجيش خسائر محسوسة، بعد ذلك، وقبيل العمليات النهائية، لابد من القيام بطردهم من الشعاب التي التصقوا بها خلف قواعد الاطلاق. ومن جهة أخرى أصبح الريف مسرحا لحوادث خطيرة، فقد حوصرت مراكز عسكرية ووقع تقتيل جملة من المفارز والثورة وصلت إلى حذاء "تاركيست"

وأخيرا، انطلق الاسبانيون في هجومهم يوم 18 أبريل، وبرغم صعوبة الارض، تقدموا حسب البرنامج المقرر. وقام الجيش الفرنسي بتموين فيالق الاصدقاء المارة جنب الحدود الشمالية، وساعدهم الطيران وفي آخر مايو، اقتربت الفيالق الاسبانية من "قلعة بوقرة" حيث تجمعت الكتائب الفرنسية فتزايد العمل السياسي لدى كل الافخاذ التي سيقع احتلال أرضها ولاحت علامات الخضوع في أمس اليوم المحدد للهجوم الفرنسي. وفي يوم 28 مايو، تقدمت الفيالق دون أن تصادف مقاومة تذكر. وفي يوم 8 يونيو، تم التوصل إلى آخر الاهداف، دون اللجوء إلى السلاح وبعد ذلك بشهر، كان الاسبانيون، بمساعدة مدفعية المراكز العسكرية الجديدة، يتمون احتلال منطقتهم.

هكذا، تمت تهدئة الجبهة الشمالية. فمن الملوية إلى المحيط الاطلسي كانت المراكز العسكرية الفرنسية تحاذي الحدود وتتصل مباشرة بالمراكز الاسبانية. ومنذ ذلك لم يقع أي حادث من شأنه أن يكدر صفو تلك الناحية.

البقع العاصية أو التي لم يصلها الاحتلال بقعة تازة

ما أن غادرت الفيالق الفرنسية المكان، في يوليوز 1926، حتى جاءت طائفة من المعاندين لتقوم حوالي سلسلة جبل بويبلان الكبرى، بعملياتها فتنهب وتقتل السكان المنعزلين، وتسفك بالذين دخلوا تحت الطاعة. وكان على رأسهم معتد معروف، محند أو حمو. فكان لابد من تطهير البلاد بسرعة واعتمد في ذلك على قوات غير نظامية، تحت قيادة ضباط أشداء.

وشرع في التطهير في دجنبر 1926 وأنهي يوم 28 فبراير.

البقع التي لم يتم احتلالها في ناحية مراكش

أهم البقع التي لم تدخل تحت الطاعة كانت هي موطن إداوتنان التي تكاد تبلغ مساحتها بقعة تازة. فهنالك يعيش 30.000 من الجبليين الجفاة للغابة، الذين تحولوا شيئا فشيئا إلى حالة من العصيان السلبي وأي عمل عسكري في سبيل إخضاعهم ربما كان مكلفا فالبلاد صعبة، وسكانها محاربون، على أن افتتاح ميناء أكادير كان يرفض تخليص الطرق المتجهة إليه من هذا الخطر القريب. ولقد بذل نشاط سياسي مكثف في آخر غشت 1927 وكانت البدايات غير مشجعة، لكن بعد أربعة شهور من الجهود المتواصلة، خضعت إداوتنان، دون أن تطلق أي قذيفة من النار.

وفي شرق ذلك، جنوبي شيشاوة، تحرى العمل السياسي ابتداء من أواخر 1926 أن يقسم كتلة مازالت متمردة (سكساوة، دمسيران) كان معظمها يدخل مبدئيا في منطقة نفوذ القائد المتوكي. والواقع أن هاته القبائل الجبلية كانت مستقلة تماما. وفي مايو 1927 بدأت حركة الخضوع. وبفضل صلابة أولئك المنضمين أمكن القضاء، في شهر يونيو، على رد فعل العناصر التي مازلت معاندة. وفي يناير 1928، محيت البقعة المتمردة بالكلية.

جبهة الجنوب التخوم المغربية الجزائرية وجبهة زيز

لقد ظلت الجبهة الجزائرية الجنوبية من الحدود الجزائرية إلى الاطلس الكبير في حالة ركود تام منذ 1921. وكان الامر الموصى به هو "تخدير" السكان. وكانت القبائل المحاربة الكبرى التي تنتجع في غرب وادي زيز، مشتتة الكلمة من جراء نزاعاتها الداخلية، مما كان فيه ضمان جيد للهدوء. ولكن، إذا كان السواد الاعظم من الرجل، لايظهر أي عداوة فعالة، فإن أعمال النهب التي كانت تقوم بها فخذة صغيرة كان من شأنها أن تفرض على الجيش الفرنسي مجهودا جبارا لحماية القوافل والسكان الخاضعين.

وتتميز سنة 1927 بتكاثر نشاط قطاع الطريق، مما يدعو إلى اتخاذ تدابير احتياطية. وإن مراقبة صارمة لتحرك الناس من شأنها أن لاتترك إلا القليل من الفرص للمتختلين. وفي الوقت تقوم مفارز الامن بكفاح شديد للعصابات.

ويقوم الجنرال فيدالون بتجهيز المؤخرات. وهو عمل ضروري، بغض النظر عن فكرة أي هجوم عسكري. ولابد في هاته المناطق المجاورة للصحراء، حيث يتعثر العمل بسبب المسافات، من توسيع طرق المواصلات باسرع ما يمكن، حتى يمكن عند الاقتضاء، تسهيل التدخل السريع لنجدات مهمة. وسيستهل بفضلها العمل

السياسي، هو أيضا .

وقد فتح الجنرال فريدا نبرك، حاكم ناحية مكناس، ورش طريق زيز، في خط مواز للجبهة يربط بين مراكزها العسكرية المتقدمة، وهي في نفس الوقت طريق تذهب من ميدلت لتصل إلى حواشي تافيلالت. ومدت السكة الحديدة من ملوية إلى أبا سيدي. والطريق التي هي إنجاز كبير يرجع الفضل في بناء معظمه إلى اللفيف الاجنبي، وقد فتح للمرور ابتداء من 1928 ووصلت السكة إلى أبا سيدي في 1929 .

وفي الخط الامامي، لم يتوقف العمل السياسي، وفي جهات متعددة، دعا سكان القصور المجاورة لواد زيز، الذي أصبح هو الطريق الاساسي للتموين، مفارز قامت بتقدمات صغيرة نحو الامام بعد تهييء متقن.

فوقع احتلال مزيزل يوم 28 أبريل 1928 تردا يوم 26 يناير 1926، وكفيفات يوم 8 أبريل. وهكذا أصبح خط زيز معززا من جهة الغرب وتحسن منزل الجيش تجاه تافيلالت. وفي يوم 29 أبريل جرى احتلال البرج وآيت يعقوب بدون استعمال السلاح، وذلك إثر طلب متكرر من فخذة من أيت حديدو. وهذا التقدم خلص جملة من السكان من الابتزاز الذي كان يقوم به منذ شهور أصحاب الفتان محمد بن الطيبي. ووقع رد الفعل يوم 10 مايو في البرج حيث رد العصاة على أعقابهم، ولكن التجمعات وقعت من بعد على التو. ،في يوم 8 يونيو تحرك مفرز صغير من آيت يعقوب فوقعت مجابهته قرب تحيانت وطوق وعانى معاناة شديدة. وأذكى هذا الانتصار جراءة العدو فلم يمر وقت طويل حتى كانت حركة مركبة من 2500 بندقية (من آيت حديدو الجبليين وآيت يحيى) . وقامت الحامية الصغيرة بشجاعة كل الهجمات. وبفضل التقدم الحاصل في تجهيز الطرق والسكك الحديدية، أمكن استقدام النجدات الضرورية. وقام الطيران بغازات عديدية، ومكن المركز من التموين، وحافظ الجنود على معنوياتهم. إلى الوراء وكبدها خسائر فادحة.

وبعد هاته الواقعة، تواصل تطويق المنطقة المتمردة. وسطرت مسالك داخل الحمادة. وتوجهت استطلاعات عسكرية إلى أبعد من 100 كم جنوب شرقي تافيلالت، وأخذ الدفاع يتحسن كل يوم بتوسيع طرق المواصلات ووسائل الاتصال واستعمال الآلات المصفحة.

جبهة الأطلس المتوسط

في هاته الجبهة صارت الحالة مزعجة في 1927 . فالسكان الخارجون عن الطاعة يرفضون كل تفاهم ويرسمون الغارات العديدة من وراء خط المراكز العسكرية

بعمق كبير. وجاءت بعض الاحداث المؤسفة والتي كان لها صيت لتذكي حمية العصابات وتثير القلق لدى السكان الخاضعين، بحيث وقع التخوف لحظة من ذهاب بعضهم إلى جهة التمرد.

فكانت عملية وادي العبيد التي أصبحت ذات ضرورة ملحة والتي وقعت دراستها منذ زمان بعيد. وكان الجنرال القائد الأعلى قد عرض خطوطها الكبرى في سنة 1927 على المقيم العام والتي تتلخص في عمليات صغرى تمهيدية ذات هدف محدود والقصد منها هو تحسين التغطية الجبهية أو تخويل القواعد الضرورية للانطلاق. ثم تليها حركات التقاء من الجناحين انطلاقا من حصني أغبالا وواويزغت.

وما أن جاء صيف 1928 حتى وقع الانطلاق في تحقيق البرنامج التمهيدي ابتداء من نقطتين تكثف فيهما العمل السياسي حتى يفسح المجال لتقدم الجنود. واحتل هؤلاء أدربو في 11 يونيو. ثم بويملال وتيفرت يوم 17 منه. ومكنهم من مرقب جيد يطل على الطريق اللاحب المؤدي إلى مداخل درانت. كما أن احتلال تيفرت كان مؤذنا بتقليص الشرخ الذي كان ينظر إلى أسردون.

وفي بداية 1929 أمكن، بفضل نفس الطريقة المتعلقة، احتلال جبل يبهو وتركاست تيرانمين، ثم في مارس كهف النسور. وكل هاته العمليات الصغرى عززت بصورة ملموسة خط الدفاع في حواشي تادلا

ومن جهة أخرى، فإن الاعتماد على تقوية خطة الدفاع الهجومية خيب آمال العصابات. وأصبحت مفارز البوليس لاتقتصر على محاصرتهم داخل خطوط الدفاع، بل تقوم بمطاردتهم في عقر دارهم. ومن فاتح أبريل 1929 إلى فاتح أبريل 1903 تناقصت الخسائر في جبهة تادلا (جنود نظاميون ومساعدون وأهالي) بنسبة 45% بالقياس إلى السنة الفارطة وفي نفس المدة تضاعفت خسائر العصاة.

وبرغم أحداث آيت يعقوب، فقد انضاف إلى التقدم الذي تم في 1928 دون إراقة دم. اختلال خط من المرتفعات في غرب اغبالا، يوم 18 يونيو ،تلاه القضاء على المدخل الذي كانت تحده الخطوط فيما بين أغبالا وتيفرت، وذلك من 14 إلى 23 غشت.

وفي فبراير 1930 تم خضوع آيت أويشو الذين كانوا قاوموا بشدة استقرار الجنود الفرنسيين على هضبة سكات في 1923، وبذلك قام الدليل على تحسن الوضعية السياسية.

بلاد كلاوة

سمح التعاون مع القواد الكبار طوال عدة سنوات بتوجيه كل الجهود الحربية في ميادين أخرى وبالاقتصار على أقل مايمكن من الوسائل العسكرية في قطاع الجنوب الغربي.

وفي 1927 تواصل بحزم برنامج بناء الطرق في بلاد كلاوة حيث كان لابد منه كما في زيز. وكان الهدف الاول هو تاوريرت ورززات الواقع في جنوب شرق تلوات على بعد 60 كم في ملتقى الطريق الموازية لخط الحرب، وهي طريق أكادير - تارودانت - تلوات - وادي درعة الوسطى مع خط التوغل مراكش - تلوات - وادي درعة الوسطى. وقد وصلت الطريق إلى تلوات في شتنبر 1927.

وألزمتنا حوادث سنة 1927 وبداية 1928 بالاسراع في هذا التقدم الحذر. ذلك أن هيبة الكلاوي أخذت في التراجع. ولم يكن أصحابه يستقرون في تدغة وترناتة إلا بشق الانفس. وبدأ الخوف من اختلال الامن يتزايد وليس من المستبعد التخوف من امتداد موجة الفوضى إلى سفح الاطلس الكبير. والمستعجل أن نقوم بتدعيم واجهة كلاوة لفائدة الحماية.

وقد قامت في آخر السنة دورية استطلاع بالسير في طريق تلوات - ورززات - قلعة مكونة. وقوبلت في كل مكان بأحسن استقبال. وتم احتلال ورززات يوم 9 أبريل. وهكذا نحي الخطر وعادت الثقة إلى النفوس.

وبعد ذلك بسنة، أنشىء مركز عسكري بقلعة مكونة (على بعد 80 كلم شمالي شرق ورززات) وفي يوليو 1929، سمحت المكاسب السياسية بإنشاء مركز إداري بورززات. وفي يناير 1930، تقدمت استطلاعاتنا إلى دائرة مزكيطة (50 كم جنوبي شرق ورززات) وتلقت ترحيب كل الاعيان الذين هبوا لمقابلتها.

وقد سارت أشغال التجهيز موازية للتقدم الحاصل، كما حصل في كل الجهات. فتم انجاز الطريق إلى ورززات في دجنبر 1928. كما أن الطريق المحاذية للجبهة والسائرة من قلعة مكونة والمارة بورززات فتارودانت والمنتهية عند أكادير والتي يبلغ طولها 500 كم من الطرف الآخر، أصبحت معبدة بالنسبة للسيارات.

وتتجه الجهود نحو دائرة مزكيطة، ومن هنالك يستطيع نفوذ الحماية أن يشع على منعطف درعة.

جبهة أكادير (الأطلس الصغير الغربي)

في سوس جرى التقليص إلى أقصى حد من الجهاز العسكري أيضا وظلت المراكز أو بالاحرى، المكاتب بتزنيت وتارودانت تراقب القبائل الخارجة عن الطاعة في الاطلس الصغير ولم يكن نفوذها في أكتوبر 1926 قد تجاوز الجبل الرئيسي. وما إن حل أكتوبر 1927 حى تم احتلال إغرم في السفح الجنوبي.

وحقق العمل السياسي مكسبا آخر في ربيع 1928. ذلك أن آيت وادريم تضايقوا من تعسفات قائدهم، فأعلنوا خضوعهم. واقتدى بهم آيت موسى أوبكو. وجاءت حركة من السائبين في مايو لتهاجم أرض تلك القبائل، ولكن وقع تشتيتها بهجوم مضاد سريع.

وفي يوليو 1929، تقدمت 3.000 اسرة من آيت أومريبط للاحتماء بسلطة فرنسا، وذلك بفضل العمل الدؤوب إغرم. فامتدت المنطقة الخاضعة إثر ذلك إلى وادي درعة، وتجاوزت تكثير في اتجاه الجنوب الغربي القبائل السائبة بالاطلس الصغير.

وفي شتنبر، حاولت تلك القبائل بقيادة رئيس ديني، هو مربي ربو، إجراء تهديد على الخاضعين الجدد. وقاوم هؤلاء بشدة وساعدهم الطيران. مما جعل الحركة تتشتت.

ولم يجر بعد ذلك أي حادث من شأنه أن يمس بالهدوء السائد في ذلك القطاع، حيث صادفت سياسة التقارب مع السكان ميدانا صالحا للغاية.

لقد أنهيت منذ أكتوبر 1926 كل المهام المستعجلة، وأصبح من الميسور الآن أن ترتكز الجهود في الواجهة الجنوبية.

وتحقيق التقدم أصبح أكثر من أي وقت مضى وثيق الارتباط بالعمل السياسي. فالاحتلال العسكري لم يعد إلا تتويجا للاحتلال المعنوي الذي هو نتاج للعمل التمهيدي لدبلوماسية ضباط الاستعلامات.

وقد كان من الممكن، قبل ذلك بسنوات، أن يعتبر مثل هذا المنهاج المتعلق عديم الجدوى بالكلية في بعض الواجهات. ومنذ الفترة الواقعة بين 1926 و 1930، لم يبق محل للخروج باستنتاجات متشائمة، إذا اعتبرت المكاسب المحصلة، وبالاخص في جبهة تادلة. فالكتلة السائبة في الاطلس المتوسط أصبحت تتفكك رويدا رويدا، بفضل ضغط متواصل ومنظم.

مقتطف من كتاب

Les opérations militaires au Maroc, Paris, 1931; PP. 189 - 199.

سياسة فرنسا البربرية بالمغرب

(1913 ـ 1930)

عبد الحميد احساين
كلية الآداب والعلوم الإنسانية (2)
ـ الدار البيضاء ـ

كانت للسياسة البربرية أهمية كبرى في الاستراتيجية الاستعمارية الفرنسية فقد اعتبرها رجال الإقامة العامة الوسيلة الأنجع لتوطيد دعائم السيطرة الفرنسية بالمغرب. ولفهم هذه السياسة يجب البحث في أصولها وأسبابها، ورصد الدور الذي لعبه ليوطي المقيم العام، في ترسيخ جذورها. كما أن الحديث عن نتائجها يستدعي الاهتمام بموقف المغاربة وردود فعلهم، خصوصا قبل صدور الظهير البربري سنة 1930.

1 ـ أصول "السياسة البربرية"

أشار الاوربيون القلائل الذين اهتموا بالكتابة عن بلدان إفريقيا الشمالية قبل سنة1930 (1) إلى كثرة عدد البربر واختلافهم عن العرب نتيجة لتشبتهم باستقلالهم وعاداتهم وأعرافهم ولهجاتهم... ومع ذلك فقد ساد الاعتقاد بأن المنطقة جزء من الشرق العربي الاسلامي. وما زاد هذا الاعتقاد رسوخا تقليل بعض المؤلفين من أهمية الفوارق والاختلافات التي قيل بوجودها بين العرب والبربر. فقد تحدث لومبريير Lemprière(2) مثلا، عن التشابه بين الأعراف والعادات البربرية والعربية، في حين ألح الراهب رينال Raynal على الانسجام الحاصل بين العنصرين بفضل الاسلام الذي عمل في نظره على تقليص الفوارق ودفع السكان الاصليين إلى تقبل وتبني المؤسسات الاسلامية(3).

2 ـ معطى التجربة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر

زادت معرفة الفرنسيين بمجمعات إفريقيا الشمالية من خلال إتصالهم بسكان

الجزائر، بعد شروعهم في احتلال هذا البلد سنة 1830.

واكتملت نتيجة ذلك، الصورة التي كونوها عن البربر، خصوصا بعد المقاومة الشديدة التي واجهتهم بها القبائل الامازيغية بمنطقة «جرجرة» أو "القبائل الكبرى . فقد اصبحت هذه الصورة تتكون من ثلاثة عناصر أساسية تتمثل في

أ ـ وجود تناقض تام بين العرب والبربر. فالفرنسيون الذين انطلقوا من فكرة قبلية، هي فكرة صراع الاجناس، لم يكتفوا بالحديث عن الاختلاف بين العنصرين إذ قدموهما كطرفين متضادين ومتصارعين.

ب ـ أن البربري أفضل من العربي. فإذا كان الثاني قد وصف بكل الصفات القبيحة (الكسل والنفاق وضعف العزيمة...) فإن البربري المتوحش الطيب وصف بالبدائية والفظاظة والاندفاع وراء الغرائز من جهة، وبصدقه واخلاصه وشجاعته ولائكيته وميله الفطري للديمقراطية والحرية وحبه للعمل...).

جـ ـ أن البربري أكثر قابلية واستعدادا من العربي للتطور والتقدم، بل وللانصهار في المجتمع الفرنسي واعتناق المسيحية.

إن هذا التصور، الذي اصطلح على تسميته بـ "الاسطورة البربرية"(4) قد انبنى في نظري على فكرة أساسية تتمثل في الايمان بإن البربري غير مسلم أو مسلم سطحيا فقط. فالاسلام، وفق ما ذهبوا إليه، يحث الناس على محاربة ومقاتلة النصارى، ويدعو إلى الثورة والتمرد على المستعمر من جهة، ويمنع المسلمين من الانفتاح على الحضارة العصرية. وكم كانت فرحتهم شديدة عندما اكتشفوا ان البربري ضعيف التأثر بالاسلام، فقد ساعدهم ذلك على الاقتناع بضرورة عزله عن العرب ووضع المشاريع، خصوصا بالنسبة لمنطقة القبائل الكبرى، من أجل تمدينه وتطويره خارج إطار الاسلام.

2 ـ السيبة البربرية ميز الفرنسيون بالمغرب طبعا، بين العرب والبربر، فقد ذكر دي شيني De chenier مثلا منذ سنة 1787 أن القبائل الأمازيغية تتميز أولا بالقوة والحزم، وباستعداد كبير للقيام بأي عمل يعجز عنه سكان السهول. وثانيا، بتشبتها بالحرية والإستقلال. فهي على حد قوله لاتخضع للسلطان إلا من منطلق ديني. وخضوعها هذا، لايمنعها من التمرد عليه متى شاءت. أما سكان السهول، العرب والمور، فقد أكد أنهم يخضعون للسلطان بنوع من الإستسلام إلى درجة أنهم فقدوا حتى الشعور بالفخر والإعتزاز بالنفس(5).

وتجدر الإشارة مع ذلك إلى أن الفكرة المحورية والأساسية في التأليف الفرنسي

الصادر في القرن التاسع عشر، لم تكن تتعلق بمسألة الاختلاف والتناقض بين البربر والعرب، وإنما كانت تدور حول فكرة التعارض بين المخزن والسيبة. والسيبة هنا لاتقدم لنا كظاهرة عرقية تهم البربر وحدهم وإنما كظاهرة سياسية يرتبط وجودها بطبيعة المخزن وضعف سلطته من جهة، وميل القبائل للحرية والاستقلال من جهة ثانية. لكن ذلك لم يمنع بعض الفرنسيين من إحداث تطابق بين بلاد السيبة والمناطق التي تقطنها القبائل الامازيغية. وذلك رغم ضعف معرفتهم بها، فقد ذكر لودفيك دي كامبو Ludivic de Campou أن المجتمع المغربي ينقسم إلى قسمين يتكونان من القبائل البربرية العاصبة التي تعيش بالجبال، وتحكم نفسها بنفسها، ولاتدفع الضرائب، ولاتعترف بسلطة السلطان، والقبائل العربيةالخاضعة بالسهول، المضطهدة والمذلة، والتي قتل الرعب فيها حتى فكرة المقاومة نفسها(6). لكن أطروحة السيبة البربرية لم تفرض نفسها إلا بعد سنة 1904 بعد أن جند بعض الباحثين أنفسهم (خصوصا بين سنتي 1909 و 1912) للدفاع عنها وإشاعتها مؤكدين أن المغرب بلد بربري حافظ أهله عبر التاريخ، على حيويتهم وأصالتهم واستمراريتهم(7).

كل هذا دفع بعض الفرنسيين إلى المناداة بتطبيق السياسة البربرية واستغلال الفوارق والاختلافات التي قيل بوجودها بين البربر المحصنين بالجبال والعرب الخاضعين بالسهولة لسلطة المخزن، ممثل الحضارة العربية الإسلامية. ورغم ذلك فهذا التصور لم يفرض نفسه على الخبراء العسكريين والمسؤولين السياسيين الفرنسيين بالمغرب قبل سنة 1912. والجنرال ليوطي نفسه (الذي كان أكبر مسؤول عسكري بالجنوب الشرقي المغربي منذ نهاية 1903).

لم يعمل على تطبيقه رغم اقتناعه بصحته، وذلك لشعوره بالحاجة إلى السلطان للسيطرة على المغرب(8).

إن هذا التصور الذي فرض نفسه بين الفرنسيين آنذاك، يتمثل في "سياسة القبائل" وليس "السياسة البربرية" وسياسة القبائل تقوم، كما هو معلوم، على أساس عدم إدخال سلطة المخزن إلى القبائل السائبة. والسيبة هنا لم تؤخذ.كظاهرة عرقية تهم البربر وحدهم، بل كظاهرة سياسة تهم القبائل العربية أيضا. ولم يكن تطبيق هذه السياسة يعني، في نظر العديد من الخبراء الباحثين إقصاء المخزن وإنما خلق توازن بينه وبين القبيلة، على اعتبار أن كل أجزاء المغرب تخضع بشكل من الأشكال لعمل المخزن(9).

وتنبغي الاشارة إلى أن "الاسطورة البربرية" كانت قد فقدت إشعاعها في الجزائر

وفرنسا منذ سنة 1830، ولهذا السبب فإنها لم تفرض نفسها على المسؤولين السياسيين الفرنسيين حين عزموا على إحكام قبضتهم على المغرب وتضييق الخناق عليه منذ مطلع القرن العشرين. فالانتقادات وهما أومرضا من أمراض الفكر الاستعماري الفرنسي(10). هكذا أصبحت مسألة الاختلاف بين العرب والبربر نفسها عرضة للانتقاد، إذ قام بعض الباحثين بالتقليل من أهميتها. فالباحث إيدمون دوتي E. Douté مثلا، ذكر منذ سنة 1901، أن هذا التمييز باطل ولايستند على أسس علمية صحيحة وانه لايمكن إطلاق إسم عرق على مجموع البربر للاختلافات الكثيرة الموجودة بينهم. وبين أن التاريخ والواقع يشهدان على أن القبائل أمازيغية تعربت وأخرى عربية تبربرت(11).

3 ـ انتعاش "الاسطورة البربرية" بعد اصطدام الجيش الفرنسي بقبائل الاطلس المتوسط الامازيغية روج الكونت بي سوكنزاك Le conte de Segonzac عن البربر سنة 1903 صورة سلبية. بل إنه عبر في بعض الأحيان عن أفكار معادية لهم. فقد وصف أفراد قبائل الأطلس المتوسط بالفظاظة وقبح المنظر... وانتقد بعنف ثقافتهم وتنظيمهم الاجتماعي. فهو لم ينظر لهم نظرة استحسان وتفضيل، فبربر الأطلس المتوسط، في نظره، أقوام متوحشة منغلقة على نفسها بعيدا عن المؤثرات المخزنية والاسلامية(12).

وقد تأثر الضباط الفرنسيون الذين اصطدموا بالقبائل الامازيغية القاطنة بالاطلس المتوسط، منذ سنة 1911، بهذه الصورة السلبية. وعبروا، بدورهم عن أفكار معادية للبربر(13). ويرجع ذلك لعنف المقاومة التي صادفوها وضراوة المعارك التي خاضوها، وعجزهم عن تضييق الخناق على هذه المنطقة الجبلية التي تحصنت بها قبائل تتعاطى للانتجاع، ولايعرف عنها الفرنسيون الشيء الكثير. لكن الظروف العصبية التي عاشها هؤلاء بالمغرب بين سنتي 1912 و 1913 دفعتهم إلى تغيير نظرتهم للبربر

كانت فرنسا قد تمكنت من فرض نظام الحماية في مارس 1912، إلا أنها بعد اندلاع انتفاضة فاس الوطنية والتفاف قبائل الجنوب حول أحمد الهيبة، شعرت بخطورة الوضع وبالخوف من انهيار صرح هذا النظام الاستعماري الجديد في بداية عهده. لهذا استدعت الجنرال ليوطي ليصبح مقيما عاما، نظرا لما يتوفر عليه من خبرة وكفاءة. وقد شعر ليوطي نفسه بحرج موقفه، وبعزم المغاربة على رفض الحماية وطرد المستعمر. لهذا قرر تنويع الصيغ والاساليب الاستعمارية من أجل تهدئة الوضع وتوطيد دعائم السيطرة الفرنسية بالمغرب. وقد كانت "السياسة

البربرية"طبعا وسيلة من الوسائل التي اختارها لتحقيق هذه الأهداف. وهو لم يفعل ذلك إلا بعد الصعوبات التي وجدها الجيش الفرنسي في القضاء على انتفاضة كروان وبني مكليد وبني مطير في ربيع 1913.

تبنى ليوطي هذه السياسة واتخذ قرارات تذكر بتلك التي طبقها الفرنسيون قبلا بمنطقة القبائل الكبرى بالجزائر، خصوصا بين 1857 و 1890. ونتيجة لذلك انتعشت الاسطورة البربرية من جديد، بل أصبحت اعتقادا راسخا فرض نفسه على مختلف الاوساط السياسية والفكرية والدينية. فقد عاد الفرنسيون إلى تمجيد البربري، وإلى الحديث عنه بنوع من الافتتان والاعجاب، فالعالم البربري، وفق ما ذكره موريس لوكلي Maurice Le Glay "كيان هائل ومادة جديدة بأن ينجذب إليها المقولبون الفرنسيون.

2 ـ السياسة البربرية القرارات والأهداف

أعلن ليوطي، مرارا، عن تشبثه بنظام الحماية واحترامه لسيادة السلطان على المغرب. لكن ذلك لم يمنعه من تطبيق مبادىء السياسة البربرية، خصوصا بمنطقة الأطلس المتوسط. ويذكرنا ما فعله ليوطي في هذا المجال، بما ذكره ألفريد لوشاتولي A. Le Chatelier قبل سنة 1912، من ضرورة إحداث توازن في "السياسة المغربية" بين المخزن والقبيلة للسيطرة على المغرب.

لقد عمل ليوطي على ترسيخ جذور السياسة البربرية بالمغرب، وتجريد السلطان من سلطته على أكبر جزء من البلاد عن طريق رفع "الإيزرف" إلى مستوى الشرع، وإنشاء الجماعات القضائية البربرية ومحاربة كل المؤثرات العربية الإسلامية(15). وكان ظهير 11 شتنبر 1914 الأساس الذي ارتكز عليه والقاعدة التي استند عليها لتحقيق ذلك. وينص هذا الظهير على ما يلي

"الفصل الأول إن القبائل البربرية الموجودة بإيالتنا الشريفة تبقى شؤونها جارية على مقتضى قوانينها وعوائدها الخصوصية تحت مراقبة الحكومة"

"الفصل الثاني تصدر قرارات من الصدر الأعظم بعد الموافقة مع الكاتب العام لدى الدولة في تعيين القبائل المتبعة للعوايد البربرية، كما يقع تعيين ما ينطبق على تلك القبائل والقوانين والضوابط...(16)

وقد عملت الإقامة العامة على إصدار ظهائر بربرية أخرى، أهمها ظهير 15 يونيو 1922 الذي خول للجماعة" في القبائل ذات العوايد البربرية، التي ليس فيها محكمة لإجراء العمل بالشرع المطاع" حق مباشرة وضبط العمليات المتعلقة بتفويت

العقارات(17). كما أنها أصدرت العديد من القرارات الوزارية التي تحدد أسماء القبائل "ذات العوايد البربرية" وطبعا فقد توالت القرارات، وتزايد عدد هذه القبائل بتزايد العمليات العسكرية واتساع المجال الخاضع لسلطات الحماية.

* إن الاجراءات التي اتخذها ليوطي في مجال السياسة البربرية كانت الأساس الذي ارتكز عليه المقيمان العامان اللذان أتيا بعده (تيدور ستيغ T. Steeg ولوسيان سان (L. Saint) للدفع بهذه السياسة إلى الامام. ومع ذلك فإن حرب الريف عملت

أولا على إظهار تشبته بنظام الحماية، وتمسكه بـ"سياسة المخزن" وميله للمخزن على حساب القبيلة، عكس ما فعله في الأطلس المتوسط.

ثانيا على تحطيمه ودفعه دفعا إلى تقديم استقالته. كما أنها أعطت الفرصة لأنصار السياسة البربرية لانتقاده بدعوى أنه أهمل البربر ووحد البلاد تحت راية السلطان. ومن هنا كانت استقالته في نهاية سنة 1925، نجاحا بالنسبة لانصار هذه السياسة وسياسة البربرية في الوقت الذي لم تخف فيه الكنيسة رغبتها في تنصير البربر. لهذا لم يتسلح المسؤولون الفرنسيون بعده بالصبر والحذر والكتمان. فكانت الاجراءات التي اتخذوها، خصوصا بعد وفاة مولاي يوسف، كفيلة بإثارة انتباه وإستياء المغاربة الذين اتهموهم بالرغبة في فرنسة وتنصير البربر. وكان صدور ظهير 16 ماي 1930، (18) نتيجة لذلك، خطأ سياسيا فادحا ارتكبته الاقامة العامة، وضربة موجهة للسياسة البربرية. لأنه أدى نتيجة التفاف المغاربة حول بعضهم، إلى عكس النتائج المتوخاة.

* هكذا فشلت فرنسا في تحقيق أهدافها بعد أن تنبه المغاربة لخطورة السياسة البربرية. ويمكن القول، دون تردد، إن هذه الأهداف لم تكن في صالح البربر. فإذا كان بعض الفرنسيين والقبائليين المتفرنسين، قد دافعوا بصدق عن فكرة عزل البربري عن العربي، وتحمسوا لمسألة تطويره في اتجاه الحضارة الفرنسية، وصهره في المجتمع الفرنسي. أو تأسيس "بربرستان مندمج في فرنسا، فإن خبراء الشوون الأهلية وكبار موظفي الحماية انحصر همهم في عزل البربري والمحافظة عليه كما هو(19). والأهداف الحقيقة المتوخاة من ذلك تتمثل في

1) إقصاء السلطان من المناطق التي اعتبرت قبائلها ذات "عوايد بربرية" وتجريده من سلطته عليها.

2) تدجين العنصر البربري وتطوعه وتهييئه ليشكل "قوة معارضة، أو موازية لعرب السهول، تستغلها فرنسا في دعم سيطرتها على المغرب(20).

3) استغلال الموارد الاقتصادية الموجودة بهذه المناطق بحرية وبعيدا عن مراقبة المخزن. فالإقامة، مثلا، حافظت على الأعراف البربرية ولم تلغ حتى الاعراف التي وصفها البعض بالهمجية، لكنها عدلت وغيرت الأعراف التي تمكنها من فتح الابواب على مصراعيها أمام المعمرين والاستلاء على أجود الأراضي التي كانت بحوزة القبائل الأمازيغية(21).

3 - ردود فعل المغاربة

كان الفرنسيون يعتقدون أن سياستهم البربرية ستصادف النجاح المطلوب، لكن الواقع أثبت سوء تدبيرهم وفشلهم في تحقيق أهدافهم وفي إنجاح مخططهم. ويرى البعض بأن لهذا الفشل أسبابا نذكر منها (22).

أولا المبالغة والمغالاة في الحديث عن الظاهرة البربرية. فهم لم يكتفوا بالحديث عن الاختلافات الموجودة بين العرب والبربر، بل آمنو بوجود تناقض وتنافر بين العنصرين، وبنوا سياستهم على وهم يتمثل في الاعتقاد بأن البربر غير مسلمين أو ضعيفوا التأثير بالاسلام.

ثانيا معاكسة سياستهم العامة بالمغرب لأهداف السياسة البربرية

أ - إن اعتماد سياسة المخزن ورفع راية السلطان أثناء عمليات "التهدئة"، دعما مركز السلطان كرمز للسيادة المغربية. ورغم أن السلطة الفعلية كانت في يد الفرنسيين، فإن هؤلاء كانوا في حاجة إلى السلطان. وهذا شيء لعب لصالحه.

ب - إنجاز المشاريع الاقتصادية وغيرها (مثل بناء المعامل، وتطوير شبكة المواصلات...) فهذه المنجزات، رغم العوائق والعراقيل التي خلقتها الاقامة العامة بالمناطق العرفية، عملت على إحكام الصلة بين المغاربة وتمتين الاتصال والتواصل بينهم، وهذا ساعد على انتشار التعريب في الأوساط الأمازيغية بايقاع سريع لم تكن تتوقعه سلطات الحماية(23).

لكن ما يثير الانتباه هو عدم إهتمام المؤلفين والدارسين برصد موقف المغاربة من السياسة البربرية قبل سنة 1930 وقد تجد لذلك مبررا في قلة المعلومات الواردة في الموضوع. أما المصارد والمراجع الفرنسية، فإنها تنطلق من فكرة أساسية، تتمثل في تشبث البربر، بأعرافهم ورفضهم للتقاليد والمؤسسات المخزنية. ولدعم هذا الرأي تشير هذه المصارد إلى أن ليوطي بعد أن اتخذ قرار اقتحام الأطلس المتوسط في ربيع 1913، ذهب إلى دار القايد يطو يوم 8 يوليوز 1913 والتقى ببعض زعماء إحدى الاتحاديات الذين رهنوا استسلامهم بالتزام الإقامة العامة باحترام الاعراف البريرية.

وتضيف هذه المصادر بأن ليوطي قبل الشرط ووعد بإقناع السلطان بالموافقة عليه.
(24)

ونجد في بعض الكتابات المغربية ما يفيد بأن الفرنسيين استعانوا ببعض القواد البربر مثل إدريس أورحو المصيري وسعيد بن حدو عقة، وهو من أزرو، "لتنفيذ مخططهم البربري حيث جمعوا الناس "قرب أزرو وحفروا قبرا، وبعد أن انهوا عملية بناء القبر، قالوا هذه الشريعة الإسلامية قد دفنتها هنا وليس حكم اليوم إلا شريعة العرف (أزرف).[25]

ويرى بعض الوطنيين المغاربة رأيا آخر فقد ذكر علال الفاسي مثلا أن رواية الانتفاضة الوطنية، ضد السياسة البربرية، في الوسط الأمازيغي تعود إلى سنة 1916 حين ثارت أو تظاهرت مجموعة من نساء قبيلة زمور فأطلق عليهن الجيش الفرنسي النار[26]. أما السيد الطيب بن أحمد العلمي فقد ذكر أنه، حين علم سنة 1927 أن الفرنسيين يحاولون استصدار ظهير يفصل العائلة البربرية من العائلة الإسلامية" أخذ يجوب القبائل في الأطلس المتوسط ويلقنها مقاصد الفرنسيين" لهذا فإنها حين اجتمعت، بطلب من المراقبين الفرنسيين من أجل اختيار الشهود الذين يجلسون من القواد أثناء إصدار الأحكام، قالوا بصوت واحد إن لنا شرعا وقضاة فلا نحتاج إليهم (أي للشهود). فوجم المراقبون وصرفوا الناس..."[27].

نلاحظ إذن أن ما نتوفر عليه من معلومات حول الموضوع، قليل وغير كاف، فهو ما يزال في حاجة إلى البحث والاستقصاء، ولو أننا نعتقد أن المغاربة بصفة عامة باستثناء المخزن لم ينتبهوا قبل سنة 1927، إلى خطورة هذه السياسة، بل ليس لدينا ما يؤكد أنهم كانوا على علم بها خصوصا وأن مطبقها الأول، ليوطي، أحاطها بالسرية والكتمان[28] لكن المخزن طبعا كان على علم بها. فالسلطان مولاي يوسف انتبه منذ وقت مبكر بخطورتها فعارضها[29] وعرقل، إلى حد ما، تطورها[30]. وكان ذلك سببا من أسباب توتر العلاقة بينه وبين المقيم العام تيودور ستيغ. لقد أدرك مولاي يوسف منذ البداية، أن هذه السياسة تشكل مسا صريحا بسلطته كأمير للمؤمنين تمارس على القبيلة بواسطة القايد والقاضي معا، وان مشروع التنظيم القانوني للجماعات القضائية القاضي بإلغاء الشرع من المنطقة البربرية يعني الاعتراف الرسمي بالسيبة. والسيبة هنا لا تعني رفض سلطة المخزن فقط وإنما العودة إلى تقاليد الجاهلية أيضا.[30]

وبعد وفاة السلطان سنة 1927 بدأ الشعب المغربي ينتبه تدريجيا إلى مقاصد الفرنسيين من وراء تطبيق السياسة البربرية. وذلك لم يحدث إلا بعد انتهاء حرب

الريف التي كان لها وقع شديد في نفوس المغاربة، وكذلك بعد شروع الشباب الحضري المتسيس، خصوصا بمدينتي فاس والرباط، في تنظيم نفسه من أجل مواجهة المخططات الاستعمارية. وقد تتبع هؤلاء الشبان باهتمام وانفعال شديدين أعمال الإقامة العامة وجهود الكنيسة من أجل تنصير البربر.

ولما انعقد المؤتمر الصليبي الدولي بتونس وقرطاج في 7 و11 ماي 1930 شعروا بأن مؤامرة تدبر ضد الإسلام. ولهذا السبب نظروا إلى الظهير البربري الذي صدر في 16 ماي، على أنه يستهدف عزل البربر من أجل تنصيرهم، خصوصا وأن هذه الفترة شهدت نشاطا ملحوظا للبعثات المسيحية. لهذا أثار الظهير ردود فعل عنيفة وتسبب في انطلاق المظاهرات والحركات الاحتجاجية، التي انطلقت من المدن في يونيو 1930 وواجهتها سلطات الحماية بقوة وعنف الشيء الذي تسبب في وقوع حوادث مؤلمة واعتقالات كثيرة.

خاتمة

يتبين لنا من خلال ما سبق أن السياسة البربرية أدت، عكس ما كان متوقعا، إلى توحيد الصفوف ودعم العمل الوطني. وقد شعر الوطنيون، الذين بنوا عملهم على أساس المزج بين مبادئ الوطنية والسلفية، بأبعاد نجاحهم وبضرورة تنظيم صفوفهم وتهييء وتوضيح برنامجهم. كما أحسوا بأن النضال السياسي يتطلب تنسيق الجهود مع السلطان محمد بن يوسف. لذلك ارتبط لديهم العمل بالتفكير والنضال بضرورة التنظيم، فكان ذلك سببا أساسيا في تقوية الحركة الوطنية وتمكينها من تحقيق أهدافها بعد التحامها بالعرش.

أما الفرنسيون فقد شعروا بأن إصدار الظهير البربري كان خطأ سياسيا فادحا، لذا فإنهم:

أ- تراجعوا عن قرار تأسيس إدارة العدلية البربرية.

ب - وأقالوا بعض المسؤولين عن هذه السياسة، مثل بول مارتي Paul Marty من مناصبهم.

ح - وحاولوا إلصاق مسؤولية ما حدث بالكنيسة.

د- كما أنهم قرروا تعديل بعض بنود الظهير، فتراجعوا عن مبدأ إلحاق المناطق العرفية بالمحاكم الفرنسية، فيما يتعلق بالأمور الجنائية. إذ نص ظهير 8 أبريل على أن القضايا الجنائية تعد من اختصاص المحكمة العليا الشريفة.

إلا أنهم يتخلوا كلية عن الإجراءات التي اتخذوها في مجال السياسة البربرية، فهم، مثلا، حافظوا على وجود المحاكم العرفية الابتدائية والاستئنافية. والأدهى من ذلك أنهم لم يتخلوا عن فكرة استعمال العنصر البربري للضغط على السلطان والحركة الوطنية. وهذا ما أظهرته بشكل جلي، أحداث سنة 1953 التي انتهت بخلع محمد بن يوسف ونفيه.

الهوامش

1- نذكر منهم (3 De Chenier, "*Recherches sur les maures et histoire de l'empire... du Maroc*" vol.); Paris, Imp Polytype, 1787.

G. Lemprière, "*Voyage dans l'empire du Maroc et dans le royaume du Fès*" *Fait dans les années 1790 et 1791*, Paris, Tavernier 1801.

Abbé Raynal, "*Histoire philosophique et politique des établisements du commerce des européens dans l'Afrique septentrionale*" (2T.) Paris, Amable costes, 1826.

2- م.س.ص. 141

3- م.س.ج 1. ص 30.

Ch - R. Ageron: "*Les Algériens musulmans et la France*". (Paris, PUF 1968), T.I PP. 269-276

4- راجع:

5- م.س،ج III، ص 100, 191

6- Ludovic de Compou; "*Un empire qui croule... "Le Maroc comtemporain* (Paris, plon-Nourrit 1886), P 25.

7- راجع مثلا: - A. Le Chatelier, "*Le Maroc berbère et les mines européennes* " R.M.M, Fev 1910, PP, 145-200.

- E. Michaux - Bellaire, "L'organisme marocain". *Rev. du Monde Musulman*, Sept 1909, PP1-43.

8- انظر: عبد الحميد احساين: «أصول سياسة فرنسا البربرية بالمغرب إلى غاية 1930 (بحث غير منشور. د.د.ع. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، يوليوز 1987، ص 69.

9- م.س.ص 101 - 102.

10- انظر: - Ch. R. Ageron, *Les Algeriens...* PP145-149

Edmond Douté, "*Une mission d'étude au Maroc (Renseignements coloniaux)* "*1901* PP. 161- -11
178) PP. 166-167, 17

Marquis de Segonzac, "Voyages au Maroc 1899-1901" (Paris, A. colin, 1903) PP. 103, 209, -12
148.

D. Rivet, "Ethnologie et conquête du Moyen Atlas" 1912-1931, in - *Sciences de l'homme et* -13
conquête coloniale Paris, Presses de l'école normale supérieure, 198p. 161.

15- ذكر ليوطي في منشور أرسل إلى الحكام العسكريين بالمناطق «العرفية» مايلي: «ليس من واجبنا أن نعلم العربية لأناس دأبوا على الاستغناء عنها. إن اللغة العربية تؤدي إلى الاسلام... في حين أن مصلحتنا تحتم علينا أن نطورهم خارج إطار الإسلام. يجب أن نعمل من الناحية اللغوية على الانتقال مباشرة إلى الفرنسية»، - (انظر: عبد الحميد احساين، المرجع السابق صص 142 - 143).

16- الجريدة الرسمية، سنة 1914، ص 407.

17- الجريدة الرسمية، سنة 1922، ص 758.

18- أقفل هذا الظهير الباب في وجه القاضي والشرع الإسلامي بالمناطق العرفية، في حين فتحها على مصراعيها أمام القاضي والقانون الفرنسيين. كما أنه دعم دور واختصاصات الجماعات القضائية التي أصبحت تسمى بالمحاكم العرفية. بل إنه تحدث عن تأسيس محاكم عرفية استينافية.

19- كتب ليوطي إلى رؤساء الأقاليم يأمرهم بـ«المحافظة على الاختلافات اللسنية والاجتماعية التي توجد بين بلاد المخزن العربية والإسلامية، والجبل البربري الوثني والجاهل للغة العربية: - CH. A. Julien; *Le Maroc face aux impèrialismes 1415-1956*. Paris.

20- أسست الإقامة العامة بعض المدارس بالأطلس المتوسط (وقد كانت تسمى: المدارس الفرنسية - البربرية). وكان الهدف الأساس من تأسيسها نشر استعمال وتكوين الأطفال ليصبحوا مستخدمين أو موظفين صغار، وكذلك تدجين البربر. ففي منشور أصدره مدير المعارف على عهد ليوطي نجد ما يلي: إن هدفنا الأول هو التدجين. فلو عرف المعلم كيف يفرض نفسه على التلاميذ والآباء بشخصيته وطريقته التربوية لربحت القضية ولكانت تفاصيل البرامج قليلة الأهمية (انظر: عبد الحميد احساين، م.س.ص. 145).

21- انظر مثلا ما كتبه شارل اندري جوليان في هذا الشأن، م.س.ص 107.

Ladislav Cerych, "*Européens et marocaine,*" *Sociologie d'une décolonisation* (Burges, de -22
temple, 1964)...

E- Laoust "Le taleb et la Mosquée en pays berbère" *Bull. de l'enseignement public au* : انظر -23
Maroc, Oct. 1924 (PP. 3-18) P. 3

- G. S, "*Du Protectorat à l'Indépendance 1912-1955*" (Paris, Plon, 1967) P. 54- : انظر مثلا -24
55.

25- الطيب بن أحمد «مذكرات...» مجلة الموقف، ربيع الثاني 1408 هـ / دجنبر 1987 العدد 4 (ص 47-41) ص 50.

26- علال الفاسي «الحركات الاستقلالية...:. ص 146.

27- المرجع السابق، ص 50.

28- ذكر الطيب العلمي أنه «علم من الأوساط المقربة من الإقامة العامة» أن هذه الأخيرة كانت تحاول استصدار ظهير يفصل العائلة البربرية من العائلة الإسلامية إلا أنه لم يذكر شيئا عن سياسة ليوطي البربرية (م ن.ن ص).

29- فهو لم يوقع على ظهير 1914 إلا مرغما، وبعد مناقشات طويلة وحادة.

انظر : Ch. R. *Ageron, "Politiques coloniales au Maghreb"*. Paris. P.U.F. 1972. p. 122.

29- المرجع نفسه صص 122 و 130.

30- انظر : عبد الحميد احساين، صص 144 و172.

السياسة الاستعمارية
للجمهورية الاسبانية بشمال المغرب

الأستاذ بوهادي بوبكر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
-الجديدة-

شكل المغرب إحدى أهم الأزمات التي واجهت مختلف الأنظمة السياسية المتعاقبة على الحكم داخل إسبانيا منذ أن أصبحت هذه الأخيرة تتقاسم حمايته واستعماره إلى جانب فرنسا، فصعوبة الوضع داخل المغرب والانهزامات المتكررة التي منيت بها الجيوش الإسبانية وكما استوجب ذلك من نزيف مادي وبشري، كل ذلك كان له انعكاسات وخيمة على الأوضاع الإسبانية المضطربة، وزاد من تعميق الصراعات السياسية داخلها.

وبعد ما كان المغرب والمشاكل والصعوبات المرتبطة به عاملا ساعد على قيام النظام الجمهوري بإسبانيا كما كان من أسباب قيام دكتاتورية بريمو دي ريفيرا Primo De Rievera قبل ذلك مادامت الأحزاب اليسارية والجمهورية تندد دائما بسياسات الحكومات الإسبانية بالمغرب، فإن هذا الأخير كان أيضا عاملا حاسما في القضاء على ذلك النظام الجمهوري الذي لم يكن يعلم عندما أعلن عن غيابه يوم 14 أبريل 1931 أن نهايته ستكون انطلاقا من المغربي عندما اندلعت منه شرارة التمرد العسكري الفرنكاوي الذي أطاح بتلك التجربة الديموقراطية الإسبانية.

غير أن الجمهورية الإسبانية كانت واعية عندما استلمت زمام السلطة داخل إسبانيا بضرورة نهج سياسة استعمارية جديدة تهدف إلى الحد من ذلك النزيف

المادي والبشري الذي كلفته المحافظة على منطقة حمايتها بالمغرب، والحيلولة دون أن يصبح هذا الأخير من جديد مصدر قلق واضطراب بالنسبة للأوضاع الداخلية الإسبانية.

وقبل التطرق إلى مرتكزات تلك السياسة ومنطلقها والأهداف المتوخاة منها تجدر الإشارة إلى أنها لم تكن فقط محط انتقادات الكتابات المغربية، بل وأيضا الأسطوغرافية الإسبانية على اختلاف مشاربها والتي اعتبرها عندما تعلق الأمر بالأسطوغرافية الفرنكاوية، تمثل قطيعة مع السياسة التقليدية الإسبانية في جميع المجالات والتنكر لما حققته هذه الأخيرة من مكتسبات، وتفتقد عندما يتعلق الأمر باليسار إلى عنصر التجديد والابتكار وهو ما أدى إلى فشل تكل السياسة وما ترتب عنها من انعكاسات وخيمة على مصير الجمهورية نفسها.[1]

1- تشبث الجمهورية الإسبانية بالعمل الاستعماري بالمغرب:

منذ شهر أبريل 1931، تاريخ بداية الحكم الجمهوري بإسبانيا، أصبح التساؤل مطروحا حول السياسة الاستعمارية التي سينهجها المسؤولون الجدد، ومستقبل العمل الاستعماري بالمغرب، وهو تساؤل تبرره معطيات مرتبطة بمواقف الأحزاب اليسارية والجمهورية الإسبانية التي كانت تندد بالسياسة الاستعمارية والتي اتبعتها الأنظمة الإسبانية السابقة بالمغرب، ولم تتردد في المطالبة أحيانا بالتخلي عن استعمار المغرب، ومما زاد من أهمية الاستعمارية التقليد، مثل التحقيق الذي تم بشأن تحديد مسؤوليات أحداث أنوال "Expedientepicasse" وتعيين لجنة للوقوف على ما تم من الأشغال العامة بالمغرب ومحاسبة المسؤولين عن ذلك، ثم ما تضمنه خطاب وزير المالية بريطو "I.Prieto" بمدينة بلبا و"Bilbao" من عبارات تشير إلى استعداد إسبانيا للتنازل عن حقها الاستعماري بالمغرب لصالح عصبة الأمم أو إحدى القوى الأوربية.

لكن كل هذه المؤشرات وما ارتبط وتمخض عنها من مخاوف وردود فعل، سواء داخل إسبانيا أو خارجها، كانت نتيجة الوضع السياسي الإسباني الجديد، فالجمهورية مازالت في بدايتها وكان عليها أن تواجه مشاكل عويصة، منها قضية المغرب التي طالما أثارت غضب الرأي العام الإسباني واتسمت بحساسية شديدة

يصعب معها الحسم بصفة قطعية في تلك اللحظات الأولى، وهذا ما أدى إلى تلك التصريحات وطبيعتها التنديدية وإلى تلك الإجراءات التي تنم عن الحذر والترقب.

ولوضع حد لهذه الوضعية وما أثارته من شكوك وأمام الضغوطات الكبيرة التي مارستها كل من فرنسا وانجلترا على النظام الجديد الذي أثار مخاوف الدولتين لما كانتا تعلمانه من مواقف الأحزاب التي تسلمت الحكم بإسبانيا من قضية المغرب ودعوتها في عدة مناسبات التخلي عن استعماره، ستحرص الجمهورية الإسبانية على إعلان تشبثها باحترام التزاماتها الدولية المرتبطة بالمحافظة على الوضع الاستعماري بالمغرب، وتؤكد على أن تغيير النظام السياسي داخل إسبانيا لا يمس في شيء حمايتها واستعمارها للمغرب. وهذا الموقف أكده علانية، وفي مختلف المناسبات وأمام الهيئات الدولية، الوزراء الاشتراكيون والراديكاليون لرفع كل لبس، وتأكيد تشبث إسبانيا بمصداقية حمايتها.

هكذا كان على المسؤولين الجمهوريين الإسبان أولا التعرف على الأوضاع الحقيقية بالمنطقة وما تمثله من إمكانيات العمل الاستعماري، ثم تعريف الرأي العام الإسباني المعارض للسياسة الاستعمارية بأهمية المغرب وما يمثله من مصلحة بالنسبة لإسبانيا. على هذا الأساس سوف تتعدد زيارات أولئك المسؤولين من وزراء ونواب بالإضافة إلى أعضاء الجمعيات العلمية والثقافية، للاطلاع على مجريات الأمور مباشرة بالمنطقة وتقييم الأوضاع بها.

وقد عكست تصريحات جل هؤلاء مدى جهلهم بما كان يجري بها. فمما جاء في تصريح أحد النواب الاشتراكين بعدما تحدث عما أسماه بالنظرة الخاطئة لليسار الإسباني وعدم معرفته بالمغرب:

«كان اليسار الإسباني يستعمل المغرب كأداة للضغط على الملكية فتدفع للثورة على النظام دون أن نعرف ما تمثله المنطقة بالنسبة لنا وما تم تحقيقه فيها من عمل».

وفي شهر يناير سنة 1932 تم إنشاء لجنة برلمانية للقيام بزيارة المنطقة والتعرف على أوضاعها، وقد أكد رئيسها للصحفيين أنه قبل حلوله بالمغرب كان يجهل تماما ماكان يجري به. ونفس الموقف عبر عنه وزير الخارجية عندما زار المنطقة فصرح أنه

لا يعرف عن المغرب أي شيء.[3]

وتوجت هذه الزيارات المختلفة التي قام بها المسؤولون الجمهوريون للمنطقة بزيارة رئيس الجمهورية الكلاسامورا ALCALA ZAMORA في شهر نونبر 1933، كي يعطي الدليل بذلك على اهتمام إسبانيا الجمهورية بمنطقة حمايتها ورغبتها في مواصلة العمل الاستعماري بها، وهو ما تجلى واضحا عندما قامت باحتلال منطقة إفني يوم 6 أبريل 1934، واحتلال مدينة السمارة يوم 15 يوليوز من نفس السنة، كما أبدت الجمهورية استعدادا كبيرا من أجل التنسيق مع فرنسا من خلال تبادل الزيارات وتعدد اللقاءات بين المسؤولين عن الإدارة الاستعمارية بالمغرب. فكل هذه المعطيات كانت تدل على أن الجمهورية الإسبانية، بالرغم من مشاركة الأحزاب اليسارية فيها، لم تكن تقل رغبة في استعمار المغرب عن الأنظمة السياسية السابقة عنها، كل ما هنالك أنها حاولت أن يكون ذلك الاستعمار قائما على معرفة صحيحة بأوضاعه، وغير مرهق ولا مكلف لخزينة الدولة.

2- سياسة الإصلاحات الجمهورية بالمغرب:

من أجل أحكام قبضتها على منطقة حمايتها بالمغرب وقبل الشروع في تنفيذ ما تراه ضروريا من إصلاحات وإجراءات تتماشى مع طبيعة حلمها الاستعماري، قامت الجمهورية باتخاذ إجراءات صارمة تجاه القبائل الريفية تجنبا لتلك التجارب المريرة والأخطار الكبيرة التي تعرض لها الوجود الإسباني من طرف تلك القبائل ومقاومتها العنيفة. بالإضافة إلى مصادرة ما تبقى لديها من السلاح، ومراقبة تهريبه. كما أنها لم تتردد في أخذ بعض الرهائن من قبائل بني ورياغل وبطيوة. وهذه الإجراءات أملتها ظروف الخوف والحذر التي أعقبت تغيير الحكم بإسبانيا وقيام النظام الجمهوري وما أعقبه من اضطرابات ببعض مدن المنطقة.

وقد كان جوهر الإصلاحات التي قامت بها الجمهورية بالمغرب ومحورها الأساسي هو التخفيف من الأعباء المالية الباهضة التي كان يكلفها وجود إسبانيا بالمغرب، والتقليص من الاعتمادات التي تتطلبها مختلف المرافق الاستعمارية دون

أي مساس بجوهر العمل الاستعماري الذي تبنته وأعلنت عنه الجمهورية بشكل قاطع.

إذ أن الهدف الأساسي من وراء ذلك والشيء الذي لم تكن لتختلف حوله الأحزاب المشاركة في الحكم هو أن القضية المغربية لا يجب بشكل من الأشكال أن تبقى عبئا على خزينة الدولة المرهقة وعاملا في تعميق مشاكل المتربول وصراعاته السياسية.

فتمشيا مع هذا الهدف والتصور حرصت الجمهورية على إعطاء الحماية الإسبانية بالمغرب صيغة مدنية والتخفيف من طبيعتها العسكرية الباهضة التكاليف وذلك بواسطة تعيين مسؤول مدني على رأس الإدارة الإسبانية الاستعمارية وهو لوبيس فرير "Lopez Ferrer" في شهر يونيو سنة 1931 بدل الجنرال سان خورجو(4)، وعزل العديد من الموظفين الذين اعتبرت عملهم غير ضروري بالمنطقة. كما قامت بتقليص مصاريف عدة إدارات وتقليل المساعدات التي كانت تتمتع بها بعض الجمعيات والصحف.(5)

على أن أهم عقبة كانت تواجه هذه الإصلاحات هو رفض العسكريين التنازل عن تسيير المصالح التي كانوا يشرفون عليها لا سيما إدارة المراقبات "INTERVENCIONES" بحيث اعتبروا ذلك إهانة لهم واستخفافا بما بذلوه من مجهودات وتنكرا لما قدموه من تضحيات بالمنطقة، بل أن قائد القوات المغربية الجنرال كبنياس "Cabanelles" عارض تلك الإجراءات صراحة وهدد بخلق الإضرابات بالمنقطة وسط القبائل، ونفس الموقف عبر عنه الجنرال كباص الذي كان يشرف على نيابة الأمور الأهلية، وهو الذي أدى بالجمهورية إلى عزله عن ذلك المنصب.(6)

ومما زاد من استياء العسكريين بالمنطقة الإجراءات التي وضعها وزير الحرب مانويل أزانيا "M. Azana" والتي تقضي بتخفيض الميزانية العسكرية من 170 مليون إلى 130 مليون بسيطة، وتقسيم منطقة الحماية إلى منطقتين عسكريتين بدل من أربع مناطق كما كان سائدا من قبل. وهذا معناه الاستغناء عن خدمات عدد كبير من

الضباط الذين تم نقلهم إلى وحدات عسكرية داخل إسبانيا أو إحالتهم على التقاعد الاحتياطي(7)، كما تم ترحيل عدد من الفرق العسكرية بحيث انخفض عدد الجنود بالمغرب من بين سنتي 1930 و1936 من 57.285 إلى 34.234 جندي. مثل هذه الإجراءات لم يكن الغرض منها فقط إستفادة خزينة الدولة الإسبانية من النفقات التي تم توفرها، بل تلك الإجراءات كانت تدخل في إطار سياسة عامة نهجتها الجمهورية من أجل تقليص دور الجيش ونفوذه في الحياة السياسية العامة للبلاد وجعله مجرد أداة في يد السلطة التنفيذية.

مثل هذه الإصلاحات التي كانت تمثل ضربة وجهتها الجمهورية الإسبانية للجيش الاستعماري أو ما كان يسمى بالجيش الإفريقي، أثارت تدمر هذا الأخير الذي قدم الكثير من التضحيات من أجل المحافظة على الحماية واعتبر كل ذلك مسا بسمعته ونفوذه وهيمنته. ولذلك جاءت ردود فعله عنيفة ظهرت أول الأمر في المحاولة الانقلابية التي قام بها الجنرال سان خورجو Sanjurjo في شهر غشت 1932 بإشبيلية، ثم المحاولة الانقلابية التي تم الإعداد لها بالمنطقة باب تازة خلال شهر دجنبر 1932، وقبل أن تتبلور في التمرد العسكري الذي قام به الجنرال فرانكو خلال شهر يونيه سنة 1936 انطلاقا من المغرب للاطاحة بالجمهورية الإسبانية.

ومن أهم المطالب التي وضعها الوطنيون بعد إعلان ابتهاجهم بالنظام السياسي الإسباني الجديد والتشبث بسلطان المغرب وخليفته:

- ضرورة تكوين مجالس بلدية بمدن المنطقة.
- إنشاء مجلس عام ينتخبه السكان للنظر في شؤون المنطقة.
- حرية الصحافة والنشر والجمعيات.
- تطوير التعليم.
- العناية بوضعية الفلاح المغربي.

إن أهم ما تمخض عن هذا النشاط الوطني خلال المرحلة الأولى من عهد الجمهورية، هو إجراء الانتخابات البلدية في شهر شتنبر 1913 التي فاز الوطنيون فيها بأغلبية واضحة، وصدور الظهير الخليفي المنظم للشغل وأوقات العمل، وآخر

متعلق بحرية الاجتماع وتأسيس الجمعيات. غير أن هذه الإجراءات بقيت دون ما كان يطمح إليه الوطنيون، فعادوا الكرة لتذكير المسؤولين الجمهوريين بالمطالب السابقة، وأجروا اتصالات مع المفوض السامي للنظر في ما يمكن تحقيقه من المطالب[11]. لكنهم سرعان ما وقفوا على حقيقة سياسة الجمهورية عندما قام ممثلها بالمغرب بحل المجالس البلدية المنتخبة وعرقلة النشاط الوطني الذي رأى فيه تهديدا لمصالحها بالمغرب ولم يثنهم ذلك ومن أجل ذلك التخفيف من الضغط الذي أصبحوا يتعرضون له وتنكر الجمهورية لوعودها لهم عن القيام بالاتصالات ببعض الشخصيات السياسية والأحزاب اليسارية داخل إسبانيا بتنسيق ومساعدة من طرف الأمير شكيب أرسلان. لكن كل ذلك بقي دون جدوى، بل أن ذلك النشاط انقلب عليهم سلبا عندما عينت.

وإذا كانت هذه الإجراءات والإصلاحات التي قامت بها الجمهورية الإسبانية من أجل التخفيف من نفقات المحافظة على الوضع الاستعماري بالمغرب وأضعاف قوة وخطر الجيش الإفريقي، فإنها انعكست بصفة سلبية على الأوضاع بمنطقة الحماية الإسبانية وخلقت أزمة اقتصادية عانت منها المنطقة طوال الفترة التي استغرقتها التجربة الجمهورية.

بالإضافة إلى ضعف المنطقة وقلة مواردها الاقتصادية والركود الذي ميزها نتيجة ظروف الحرب والمقاومة التي عاشتها طوال الفترة السابقة، ستعمل الجمهورية على التقليص من الميزانيات المخصصة من طرف الخزينة الإسبانية وتجميد الفروض بالرغم من إلحاح جميع المفوضين الساميين الذين عينوا من طرف الجمهورية على ضرورة الزيادة في الاعتمادات لمواجهة الظروف الصعبة التي كانت تعيشها المنطقة، وإيجاد حلول سريعة ومستعجلة لاسيما بالقطاع الفلاحي الذي انعكست عليه بشكل قوي تأثيرات الأزمة الاقتصادية العالمية.

والتقلبات المناخية وهو ما أدى إلى أزمة غذائية بالبوادي وشلل اقتصادي بالمدن. وبشهادة أولئك المفوضين، فإن الحكومة الإسبانية لم تحمل شيئا لمعالجة تلك الوضعية الصعبة، والنهوض بالمنطقة والقيام بإصلاح زراعي عاجل، حيث لم تحظ

باهتمامها فبالأحرى تخصيص اعتمادات وقروض مالية لها.

ورغم الانفراج النسبي الذي عرفته سياسة الجمهورية تجاه الوطنيين على عهد ريكو أفيو "Rico Avello" الذي عين سنة 1934 خلفا لسابقه موليس، حيث تم السماح بصدور جريدة الحياة، وتعين الطريس على رأس مديرية الأحباس، فإن سياسة الجمهورية سرعان ما عادت إلى طبيعتها الاستعمارية الرافضة لأية تنازلات. بل إن الجبهة الشعبية عندما صعدت إلى الحكم في شهر فبراير 1936، والتي انتظر منها الوطنيون التفاتة إلى مطالبهم نظرا لسيطرة الأحزاب اليسارية سرعان ما أعادت إلى المنطقة خوان موليس المعروف بعدائه للنشاط الوطني، فكان ذلك خيبة أمل كبيرة في نظام تطلع إليه سكان المنطقة منذ قيامه وأعلنوا قبولهم لحمايته.

وقد أدت الجمهورية ثمن سياستها بالمغرب غالبا حيث ساعدت بواسطة الإجراءات والإصلاحات التي اتخذتها وبواسطة تهميش ومعارضة النشاط الوطني، إلى جعل المغرب يعود مجددا ليحدث أعنف هزة داخلية بإسبانيا وذلك عندما انطلقت منه شرارة التمرد العسكري الفرنكاوي الذي أطاح بالجمهورية الإسبانية، وهي التي حاولت جاهدة أن لا يصبح المغرب مجددا مصدر قلق واضطراب بالنسبة للأوضاع داخل إسبانيا.

إن العنصر الجديد الذي كان على الجمهورية الإسبانية مواجهته بمنطقة حمايتها بالمغرب هو بروز حركة وطنية أصبحت تتطلع نحو تنظيم نشاطها السياسي ومحاورة الإدارة الاستعمارية لاسيما وأنها كانت تعلق الكثير من الآمال على صعود الأحزاب اليسارية والجمهورية إلى الحكم بإسبانيا، فإعلان النظام الجمهوري كان له أثر واضح على تطور النشاط الوطني بمنطقة الشمال، وفتح آمالا أمام سكانها لتحسين أوضاعهم وتخفيف وطأة الضغط الاستعماري عليهم، وتحقيق بعض المكاسب والإصلاحات التي كانوا يتطلعون إليها خاصة وإن حكام النظام الجديد من المدافعين عن مبادئ العدالة والديموقراطية ونبذ الاستغلال الاستعماري، وهذا ما دفع الوطنيين بالشمال إلى مباشرة الاتصال بالجمهورية من أجل أن تحقق الإصلاحات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت المنطقة في أمس الحاجة إليها[8].

وهذا الاتصال تم بمباركة واتفاق مع الوطنيين بالمنطقة السلطانية الذين ألحوا على زملائهم بالشمال بضرورة استغلال التحول السياسي الذي حصل بإسبانيا لصالح البلاد[9]، كما عمل الأمير شكيب أرسلان بدوره على تشجيع الوطنيين للاستفادة من الظرفية السياسية الملائمة التي أتاحها قيام الجمهورية بإسبانيا.

الهوامش

1- الرجوع في هذا الصدد وعلى سبيل المثال والنموذج إلى كتابات كل من فيكراس ومرتين T. Figueras M. Martín

2- Miscelánea. T XXXIV. La República y Marruecos. *BN* Madrid P4

3- *Gaceta de Africa:* 9-1-1932

4- Figueras T.G, *Marruecos, la accions...*, Tetuán 1955, p 267

5- Miscelanea op, cit. P 92

6- Ibid. p. 59

7- Archivo general del nolectoindo. N° 3736 Asunto

8- عبد الكريم غلاب: تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب ج 1 ص 170.

9- انظر رسالة علال الفاسي إلى عبد السلام بنونة في الموضوع في كتاب نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان وعبد السلام بنونة لمؤلف الطيب بنونة. ص. 206.

10- ابن عزوز حكيم: وثائق تشهد ص 68.

11- Benjeloun A., *Contribution à l'étude de mouvement national dans l'ancienne zone nord du Maroc*. Thèse doctorale. P 74.

المحور الرابع

النضال السياسي للحركة الوطنية المغربية

دفاع أهل الجنوب المغربي
عن الوحدة الترابية 1904-1955

الشيخ الأغضف لاراباس ماء العينين
رئيس المجلس العلمي
– العيون –

إن الحديث عن مقاومة الشعب المغربي الأبي للغزو الاستعماري يروق لما في تناوله وذكر المراحل التي مر بها نضال أبناء المملكة المغربية من وراء العرش العلوي المجيد من فخر واعتزاز يرافقان مسيرة تاريخ هذا الوطن العظيم.

إن ثروة أبناء هذا الوطن العزيز على معاقل الغزو والظلم والطغيان ليست وليدة يومها وقد كتب عنها ولا أقول بما فيه الكفاية مع العلم أن الكثير من نضال أبناء الشعب المغربي مازال مجهولا ولم يكتب عنه حتى تفقهه أجيالنا الصاعدة مما يحتم على المثقف والعالم والمختص في هذا الميدان التاريخي والمهتم به أن يكتب ماهو ضائع من أعمال أبناء هذا الوطن الجهادية والمشرفة. مع أنه لا يغرب عن بال أحد منا بأن جمع تاريخ نضالنا لا يمكن بين عشية وضحاها وهو من قبيل المستحيل.

ولكن التجنيد لكتابته والتنقيب عن أخذه من مصادره الحية سواء أكانت رواية مأخوذة من رواة أصحاب صدق وروية وذاكرة قوية، أو من كتب يوثق بكتابها أبرزهم أصحاب الاختصاص الذين عرفوا بأن أقلامهم نقية لا تحوم حولها شائبة وقد أعطت التجربة أنهم لا يبحثون إلا عن الحقيقة ولا يريدون سواها ولم يتأثروا إلا بالواقع.

فكتابة التاريخ يحتاج كاتبها لعدة صفات قل من يتوفر عليها، فالقلم المجرد النزيه الذي يضع القارئ في الصورة الصادقة عن أي واقعة تاريخية قليل.

ونحن أيها السادة عشنا البعض من ذلك مما جعلنا نحتاط كامل الاحتياط ونقدم رجلا ونؤخر أخرى في الحديث عن هذا الموضوع، إذ الأمانة العلمية لا تسمح لنا بأن نكتب إلا ما جزمنا بصحته من خلال المصادر الموثوق بها.

ومن أجل ما الحت إليه فإنني سأحاول في هذه العجالة التي أرغمني العامل الزمني على اختصارها وعدم تفصيل جزئيات يفيد الإطلاع عليها حيث تبين ما لهذا الشعب من استماتة ونضال لا مثيل لهما دفاعا عن مقدساتنا الوطنية.

ونظرا لاستمرار مجاهدينا على هذا النهج السوي فعلينا أن نقرأ صفحات من معارك خاضها أولئك الأبطال الأشداء لتبقى هذه الدولة العريقة في المجد والحضارة والتي لا تركع إلا لله حرة مستقلة لا يلوث الدخيل مالها من قيم حضارية ومكانة سامية.

فمن عهد مولاي إدريس الأول إلى تاريخ الدولة العلوية الشريفة والمغرب المسلم يدافع عن وطنه ويحمي ثغور بلده الأمين.

ومن حزم دولتنا وسهرها على الأمن ودفاعها عن هذا البلد وحرص ملوكنا العلويين على الدب عن شرف الوطن والمواطن: نرى ملوكنا العلويين لم تأخذهم في الله لومة لائمة عن الدب عن حمى الوطن والدين.

فقد دافعت هذه الأسرة المالكة ومن ورائها الشعب المغربي عن حدود المغرب الطبيعية جنوبا وشمالا، شرقا وغربا.

فهذا مولاي إسماعيل الذي حمى حدود المغرب الطبيعية طمح مثل المنصور السعدي إلى استرجاع السودان كما أكد ذلك الأفراني في نزهة الحادي، حيث ورد أن المولى إسماعيل ملك الأراضي الخصبة في السودان وتوغل أبعد مما وصل إليه المنصور، ومن المعلوم أن الدولة العلوية الشريفة دافعت عن حدود هذا الوطن وبقي نفوذها منبسطا على الصحراء قبل الوجود الاستعماري، حيث أن السلطان هو الذي يعين بظهائره الشريفة المسؤولين الذين يسيرون شؤون الناس ويحافظون على أمنهم

ويرعون مصالحهم ؛ والوثائق التي تزخر بها الخزانات المغربية وغيرها خير شاهد على ما نقول، ولسنا في حاجة إلى أن نقول بأن دولاشابيل هيريس أكد في الجزء الحادي عشر صفحة 80 عام 1930 أن العلويين حافظوا على حدود هذا الوطن وذكر الأماكن التاريخية التي كانت تابعة لحدود المغرب الطبيعية جنوبا.

وإن كانت أطماع المستعمر التي رافقت تاريخ هذا البلد حاولت أن تمزق وحدته فإن أبناء وطننا كانوا بالمرصاد لكل من خولت له نفسه المس بوحدة هذا الكيان المغربي الذي مازال يعاني من تلك الأطماع لحد الساعة وإن المتحدث عن نضال جهة من جهات المملكة المغربية دفاعا عن الوحدة لا يمكنه بحال من الأحوال أن يجد معركة في شمال المملكة المغربية أو في جنوبها أو أي جهة من جهات هذا الوطن إلا ويجد أن كل أبناء مناطق هذا الوطن مشتركة تلقائيا في الدب عن وحدته.

فإذا تحدثنا عن المعارك التي خاضها أبناء سوس الأشداء جهادا في سبيل الله وتفانيا في القيام بالواجب نجد بجانب السوسي المراكشي والريفي والزياني والصحراوي من الساقية الحمراء ووادي الذهب أو الصحراوي من الجهة المغربية الشرقية وهكذا بالنسبة لباقي المعارك التي خاضها أبناء المملكة على رقعة هذا الوطن فإن فضل الجهاد والتضحية يرجع للكل.

فالهجومات البطولية التي قام بها مجاهد والساقية الحمراء ووادي الذهب تنفيذا لتوجيهات العرش العلوي والجالس عليه دفاعا عن الوحدة في كل من احميم وانيملان وأم أغواب، وازويزل وأم التونسي ولكليب والسمارة وفم الواد وايزيك والحفر ولمعلك وأم اطريقيات والوس يعرك إلى غير ذلك من الهجومات ما بين سنة 1905 حتى سنة 1954 كل هذه المعارك التي شرفت وجه المغرب شارك فيها زيادة على ولد الساقية الحمراء ووادي الذهب باقي أبناء سوس ومراكش والريف وزيان إلى غير ذلك من أبناء مدننا وقرانا ومداشرنا وأريافنا بصفة شمولية.

فنضال أبناء المملكة المغربية ضد العدو الغازي موحد بقيادة العرش العلوي المجيد والجالس عليه تفانيا من أبناء هذا الوطن في الدفاع عن مقدساته السامية.

إنني لا أريد أن أقدم دراسة شافية مانعة في هذه العجالة عن مقاومة أبناء الجنوب

كغيرهم من أبناء هذا الوطن عن الدفاع عن وحدة المغرب العزيز لأن ذلك يحتاج إلى وقت، ومن المعلوم أن أبناء الساقية الحمراء ووادي الذهب ضربوا الرقم القياسي في الدفاع المستميت عن إبقاء هذا الوطن حرا مستقلا تحت القيادة والرشيدة للعرش العلوي وللجالس عليه، وإن كان وطننا واجه الكثير من المؤامرات في شتى الواجهات وعلى مختلف الأصعدة فإن أبناء هذا الوطن العزيز من وجدة إلى لكويرة كانوا في المستوى الرفيع لمواجهة تلك الخدائع والمؤامرات التي دبرت لتمزيق هذا البلد العزيز الذي عرف بدفاعه عن القيم ونشره للروح الإسلامية ومحافظته على أصالته العريقة. ومن مكر العدو الذي لا يحصى ضد وحدتنا أنه إذا كرس أبناء الشمال كعادتهم الجهد للقيام بالواجب دفاعا عن الشرف والكرامة يستخدم العدو جميع وسائل مكره لقطع الصلة بينهم وبين أبناء الجنوب كي لا تتضافر الجهود وتتراص الصفوف لمناهضة الغازي.

ولقد وصل بالعدو الغاشم أن صار في عهد مولاي عبد العزيز إبان قتل الطبيب موشان في مراكش بتاريخ 19 مارس 1907 ذلك الطبيب الذي كان يخفي مهمته الحقيقية وهي التجسس لدولته الفرنسية على حساب هذا الوطن، وصل بالغازي أن صار يشترط على ملك البلاد أن يقطع الإمدادات التي كان يمد بها المجاهدين في جنوب الصحراء.

كما اشترط قطع الصلة بين مجاهدي الجنوب والشمال من أبناء هذا الوطن بكل وقاحة وبدون حياء كأن المستعمر جاعل نصب عينه قول الشاعر:

إن السهام إذا ما فرقت كسرت   وإن تجمعن تبقى ليس تنكسر

فالعدو يخشى تجمع سهام أبناء الوطن ضده. ولكن ما يخافه وقع، ومطالبه ذهبت أدراج الرياح فازداد تلاحم صفوف المجاهدين شمالا وجنوبا وباءت محاولة المعتدي بالفشل.

وظلت تلك المقاومة الباسلة لصد العدو من سنة 1903 حتى سنة 1934 صامدة مما جعل المستعمر يتكبد خسائر فادحة في محاولته لاستعمار هذا الوطن الأبي العظيم ولم يتمكن من دخول السمارة والعيون وطنطان حتى 1934، فتكون مدة

وجود المستعمر الإسباني بطنطان الذي خرج منه الاستعمار تحت فوهات مدافع جيش التحرير المغربي سنة 1958 تكون المدة لا تتعدى أربعة وعشرين سنة.

إن عدم استقرار المستعمر راجع إلى ثورة الشعب والعرش العلوي المجدي ضد وجوده حيث أنه نسف مخططاته الماكرة.

هذا وإن ثورة العرش والشعب لم تخمد جذوتها لسحق المستعمر وثورة المقاوم الأول والمجاهد الأكبر جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه على الاستعمار سنة 1953 أشعلت النار على معاقل الظلم حتى نسفت وكر المسترق بالرغم منه.

فالتحم أبناء الشعب المغربي من لكويرة إلى وجدة ضد الذل والمهانة والاسترقاق.

وتبين للدولتين المتسلطتين المستعمرتين فرنسا وإسبانيا أن استقرارهما مستحيل أمام الضربات العنيفة التي توجهها المقاومة وأعضاء جيش التحرير المغربي.

ولا أريد أن أذكر المعارك التي خيضت في الساقية الحمراء ووادي الذهب ولا كذلك التي برزت في سوس وإيفني وأيت باعمران ولا غيرها من نضال هذا الشعب الأبي دفاعا عن وحدته ودبا عن كرامته من وراء العرش.

فما زالت ولله الحمد الأوجه التي نضرها هذا العمل المشرف موجودة بيننا أطال الله بقاء المجاهدين الأحرار الذين لا يساومون بدروس الكرامة فلهم الفضل على كل مواطن غيور على وطنه يحب الأوفياء لهذا البلد الأمين. إن هذه المجموعة من العلماء والدكاترة والأساتذة المختصين أضفوا على هذه الندوة العلمية حلة زاهية أضفت على المستعمين رداء جهاد أبناء هذا الوطن الذي تفخر به أجيالنا الصاعدة.

فللعرش العلوي المجيد الذي قاد هذا الجهاد ولأسلافنا ومجاهدينا أحياء وأمواتا كامل شكر هذا الشعب الذي يقدر دورهم ويحفظ لهم كامل التقدير والاحترام.

وأشكر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير وجامعة ابن زهر وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير على تهييء هذه الندوة العلمية حول المقاومة المغربية ضد الاستعمار من 1904 إلى يومنا هذا.

الانتقال من المقاومة المسلحة بالجبال إلى المقاومة السياسية بالمدن 1927-1937

بوعسرية بوشتى
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- مكناس -

إن مفهوم المقاومة مرتبط بالتهديدات الاستعمارية التي كانت تمهيدا لاحتلال المغرب، ودون الدخول في إعطاء تعريفات ومفاهيم المقاومة بمفهومها الشامل،[1] فإن ما يهمنا في موضوعنا هو الانتقال من المقاومة المسلحة بالجبال إلى المقاومة السياسية بالمدن في نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات من هذا القرن، ولهذا الاختيار ما يبرره، ذلك أن سنة 1927 تعتبر البداية الحقيقية للعمل السياسي، بعد قضاء المستعمر على أكبر مقاومة مغربية واجهته، والمقصود ثورة الريف، لكن هذا لا يعني القضاء على جيوب المقاومة الجبلية نهائيا، ذلك أن الأهالي ظلوا حاملين السلاح يواجهون الغزو الفرنسي إلى سنة 1934، وهذا يعني تزامن المقاومتين المسلحة والسياسية في الفترة التي نحن بصدد دراستها والتي انتهت بغلبة النضال السياسي على الكفاح المسلح، بعدما دخل هذا الأخير في العد العكسي واحتجابه عن الساحة الوطنية في الوقت الذي كان نجم العمل الوطني السياسي يتألق دون أن يتمكن من تحقيق الهدف الذي عجز عنه المقاومون في الجبال أي طرد المستعمر والحصول على الاستقلال.

ترجع البدايات الأولى لنشوء الوطنية عند المغاربة إلى مطلع القرن العشرين،

وبعد احتلال المغرب بموجب عقد الحماية سنة 1912 المبرم ما بين الدولتين الاستعماريتين الفرنسية والإسبانية، برزت بعض الشخصيات الوطنية، وتعد على رؤوس الأصابع في الوقت الذي اشتدت فيه المقاومة بالجبال وما كان لها من صدى طيب وسط أهالي المدن بالرغم من استسلامهم بسهولة ودون مقاومة، لقد تأثر بعض الشباب الحضري بالانتصارات، التي حققها المقاومون بالبادية المغربية كما تأثروا أيضا بالهزائم التي أصابت هؤلاء المقاومين واستعمل هذا الشباب في مقاومته للمحتلين وسائل مخالفة لما اعتاده العدو السياسة، التعليم، الاحتجاج، العرائض، تقديم المطالب، دون مطالبته بالرحيل، والاكتفاء بالمطالبة بالإصلاحات.

الارهاصات الأولى للحركة الوطنية المغربية:

إذا سلمنا بأن الحركة الوطنية المغربية مرتبطة بالاحتلال الفرنسي والإسباني للبلاد سنة 1912، فإن نشوءها الفعلي كان في اعتقادنا بعد هذا التاريخ مباشرة، لكن هذه الحركة لم تكن منظمة، بقدر ما كانت من عمل بعض الأفراد، أي مبادرات شخصية، حاول أصحابها على قلتهم أن يوضحوا من خلالها للرأي العام الخارجي بالدرجة الأولى، الممارسات الاستعمارية في المغرب وما آل إليه الوضع المتدهور في بلدهم من جراء الاحتلال، ومن بين هؤلاء الوطنيين الأوائل الشيخ محمد العتابي الذي غادر البلاد سنة 1913؛ متوجها إلى الحجاز تمهيدا للذهاب إلى تركيا التي وصلها عام 1915[2]، فاتصل بالمسؤولين بهاته المناطق وشرح لهم وضعية المغاربة الذين أجبروا على دخول الحرب بجانب فرنسا لمحاربة العثمانيين، كما انتقل العتابي إلى ألمانيا لشرح المسألة المغربية للمسؤولين هناك، الذين وضعوا شروطا مجحفة لمساعدة المغرب، فعاد هذا الوطني إلى تركيا حيث غادرها من جديد ضمن وفد[3] من المؤتمر الإسلامي للتوجه إلى الدول المحايدة - بعدما لم تسفر اتصالاته عن نتائج إيجابية لصالح القضية المغربية مع دول المحور - مثل: السويد، الدانمارك، النرويج لشرح وجهة نظر أعضاء المؤتمر من القضايا الدولية آنذاك ومن ضمنها معاناة شعوب بعض الدول الإسلامية من الاستعمار المسلط عليها كالمغرب، وقام العتابي بدور بارز ضمن هذه الجولة، بما كان يلقيه من محاضرات وخطب خلال مختلف

اللقاءات مع المسؤولين هناك أو مع بعض المنظمات السياسية، شارحا لهم الظروف الصعبة التي كانت تمر منها الأمة المغربية في ظل الاحتلال الفرنسي والإسباني، وكانت الصحف الأجنبية تنشر ملخصات ومحاضرات وخطب العتابي وبلغات متعددة، مما أثار حفيظة المسؤولين الفرنسيين بالمغرب الذين حكموا عليه غيابيا بالسجن ومنعوه من الدخول إلى بلده.

كما كان لمحمد العتابي دور مهم سنة 1917 أثناء انعقاد مؤتمر الوفد الإسلامي بستوكهولم، إذ خرج المجتمعون بعدة قرارات بالغة الأهمية في مقدمتها العمل على استقلال المغرب واسترجاعه لإقليم شنقيط، ومطالبة الدول المحايدة لمساعدته للعمل على تحقيق استقلاله، وبعد انتهاء الحرب العظمى التجأ العتابي إلى مصر. وقد كان للحرب العظمى أثر فعال في إيقاظ الشعور الوطني عند بعض المغاربة واستفاقتهم من سباتهم وتعرفهم على المخططات الاستعمارية «أيقظت حرب (1914 - 1918) بعضنا...»[4].

وتجلت هذه اليقظة في يونيو 1920 في إقدام مجموعة من المغاربة على تقديم بعض المطالب إلى ليوطي، وقد رفع المقيم العام بالمغرب إلى وزارة الخارجية الفرنسية تقريرا سريا بتاريخ 3 دجنبر 1920 يشرح فيه الوضعية التي دفعت بأولئك الوطنيين لتقديم مطالبهم وما خلفته الحرب العالمية الكبرى من آثار عليهم، ومما جاء في هذا التقرير «... على أن الحرب الطارئة (الحرب الكبرى) ضاعفت أسباب الاتصال ونقط الاحتكاك، فإن عدة آلاف من المغاربة ذهبوا إلى فرنسا وأوروبا، ولم يقاتلوا جنبا لجنب مع جيوشنا فحسب، بل إنهم اشتغلوا هناك داخل المعامل وأقاموا في المدن وتعلموا الفرنسية وقرأوا وسمعوا وعادوا إلى المغرب متشبعين بأفكار جديدة...»[5].

إن تجنيد الفرنسيين لبعض المغربة خلال الحرب الكونية الكبرى للدفاع عن أراضيهم أمام الهجمات الألمانية، ثم استخدام البعض الآخر في المعامل حفاظا على الطاقة الإنتاجية لفرنسا بعد التحاق العمال الأصليين بجبهات القتال أو قتلوا أثناء الغارات العسكرية على المدن، كان لهذين العاملين ـ التجييش والاستخدام ـ عواقب

سيئة ووخيمة على فرنسا، ذلك أنه بعد انتهاء الحرب وعودة بعض المغاربة الناجين من الموت خلال المعارك أو أولئك الذين كانوا يعملون بالمصانع إلى وطنهم، اتضح لهم بالملموس أن دفاعهم عن بلدهم أولى وأجدر من الدفاع عن بلد الغير، وأن ما حلله هذا الأخير على نفسه حرمه على غيره.

ولم يقتصر تأثر المغاربة بالأفكار الجديدة في فرنسا وأوروبا ولكن هذا التأثير أتى من الشرق العربي أيضا: «وأيضا فإن الحواجز قلت من ناحية الشرق...»[6] وهكذا أصبح أثر هذه المؤثرات قويا في رفع مستوى ثلة من الأهالي تمهيدا لتنظيم صفوفهم بغية التصدي للمخططات الرامية إلى المزيد من استغلالهم واستغلال خيرات بلادهم، واتخذ هذا التصدي شكلين رئيسيين: حمل السلاح كما كان عليه الأمر في الجبال حيث انطلق السكان بكل تلقائية وغريزية للدفاع عن أراضيهم، ثم العمل السياسي حيث تكونت شبيبة مغربية بالمدن تواقة للعلم والمعرفة كخطوة أولى لمناهضة المشاريع الاستعمارية، فلم تعرها السلطات الفرنسية أي اهتمام، فراحت تتصل بهيئات أوروبية وإسلامية بحثا عمن يأخذ بيدها وينير لها طريقها ويتعاون معها، قبل أن تتجرأ في شهر يونيه 1920 لتقديم بعض المطالب للمسؤولين الفرنسيين كإنشاء صحافة مغربية حرة، وإصلاح التعليم وجعله معمما بين صفوف الأهالي: «ويمكن التيقن التام أنه فيما حولنا وعلى غير علم منا ـ تتكون حركة فكرية على وشك الظهور، وأنه توجد اجتماعات سرية عدائية وتعليقات على الحوادث العلمية. وعلى حالة الإسلام بالخصوص. وأن كل هذا سيبرز ويتفجر في يوم من هذه الأيام إذا لم نهتم به ولم تقبض ـ دون تأخر ـ على زمام هذه الحركة...»[7]، لقد تنبأ المقيم العام بالمغرب ليوطي Lyautey في تقريره هذا بنشأة صحوة وطنية مغربية تكون خطيرة على الوجود الفرنسي بالمغرب، اعتمادا على ما لاحظه من غليان وسط الشباب الحضري.

ومن بين المظاهر الوطنية الأخرى لهذه الصحوة، تقديم مطالب جديدة على شكل احتجاج وبأسلوب أقوى من السابق، إلى المقيم العام الذي تولى مقاليد الحكم بالمغرب بعد ليوطي، والمقصود: تيودور ستيك Théodore Steeg (أكتوبر 1925 ـ يناير

1929) ، وكان تاريخ تقديم هذه المطالب هو 5 نونبر 1929 أي لم يمض على تولية المقيم العام الجديد غير شهر واحد، ومن جملة ما سعى الوطنيون الشباب إلى تحقيقه، بعد الاحتجاج على المعاملة القاسية للسلطة الفرنسية للمغاربة وانتهاكها لحرماتهم من خلال هذه المطالب الثانية (المطالب الأولى كانت في شهر يونيه 1920) ما يلي:

- إصلاح التعليم، وذلك بإنشاء مدارس كافية من حيث العدد لأبناء المغاربة، أو التخصص كبناء مدارس فلاحية وصناعية.

أن تكون أحكام القواد بالبادية غير نهائية.

أن يمنع تقسيم أراضي الجماعات القبلية، وإيقاف حركة الاستيطان.

أن تخفض الضرائب على الحرفيين بالمدن.

أن تحدث ملاجئ لأبناء المسلمين الضعفاء من مداخيل الأحباس الإسلامية[8].

والملاحظ أن تقديم هذه المطالب تزامن مع أوج حرب الريف وكما يبدو من خلال ما أوردناه منها، أنها تركز على التعليم بحكم أنه أداة من الأدوات الناجعة لتأطير الأهالي وتعبئتهم للدفاع عن مصالحهم، خاصة وأن أغلب العناصر الوطنية في ذلك الوقت والتي أصبحت على رأس الحركة الوطنية كانت لا تؤمن بأي عمل سياسي دون رفع المستوى الفكري لمواجهة المعارك النضالية التي تنتظرهم، ففي غياب هذا الشرط يصبح النضال السياسي والعسكري أيضا أجوف فارغا من كل محتوى، كما يتصدر هذه المطالب أيضا الحفاظ على أدوات العمل والكسب للسكان: الأرض بالبادية التي صارت عرضة لنهب المعمرين، والحرف بالمدن التي تعرض أصحابها لشتى المضايقات التي أفقدتهم كلا أو جزءا من الربح لمسايرة الوضع الاقتصادي والاجتماعي وقتئذ.

روافد الحركة الوطنية المنظمة:

تعددت العوامل التي كانت وراء نشأة الحركة الوطنية بشكل منظم وهادف، وببرنامج واضح، نظرا لوعي قيادتها بالمسؤولية الملقاة على عاتقها وفي مقدمتها، إصلاح أحوال العباد والبلاد في ظل بنود عقد الحماية التي لم تلتزم بها الحكومة الفرنسية، ومن بين روافد الحركة الوطنية المغربية، كما هو شأن باقي الحركات في

الشرق العربي السلفية «ترجع لأصول الحركة الوطنية المغربية كمثيلاتها في الشرق الأوسط إلى النهضة الدينية السلفية...»[9]. وكان أول شخص في المغرب عمل على نشر السلفية بين صفوف العلماء وعامة الناس في نهاية القرن XIX هو الشيخ عبد الله السنوسي[10] أحد علماء القرويين، فقد سافر هذا الشيخ إلى المشرق فتشبع بالأفكار السلفية، ورجع إلى المغرب وإلى القرويين بالذات، فلقي معارضة من قبل زملائه الفقهاء الذين اتهموه بالابتداع والخروج عن المألوف، ومع ذلك كانت الحلقات الدراسية لهذا الشيخ تعج بالطلبة الذين تأثروا بأفكاره، ومن بينهم محمد بن العربي العلوي وغيره، وكانت مجلة «العروة الوثقى» وكتب جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، تصل إلى المغرب مما سهل مهمة السلفيين الأوائل خاصة وسط الشباب في عهد المولى عبد الحفيظ[11] الذي تصدى بدوره للطرقيين ولأصحاب الزوايا، فألف رسائل في الرد على أصحابها كما كان شأنه مع الزاوية التيجانية وساءت علاقة هذا السلطان مع محمد بن عبد الكبير الكتاني وانتهت بإعدام هذا الأخير، فكانت نكسة للمد السلفي وسط الصراعات السياسية: «وهكذا ضاعت هذه الحركة الأولى في جو التطاحن السياسي كما أراده الفرنسيون وأذنابهم[12]. وهكذا تحولت مهمة نشر السلفية من يد المخزن إلى يد نخبة من العلماء والفئة الواعية من الشباب المغربي آنذاك كمخرج وحيد في نظرهم من البلاء الذي أصابهم بمجيء الاستعمار، وكان من بين رواد هذه الحركة في عهد الاستعمار أبو شعيب الدكالي ومحمد بن العربي العلوي، وسرعان ماوسعوا دائرة الأنصار وسط الشباب المغربي الذين آمنوا بالسلفية، وحاولوا إخراجها من ميدان التنظير إلى ميدان التطبيق بالرغم من الصعوبات التي اعترضت سبيلهم وسط أمة أمية غلب على عقيدتها ما زرع فيها الطرقيون من ممارسات رديئة بعيدة عن الدين الإسلامي ولا تمت له بصلة.»

كان دور السلفية في نشأة الحركة الوطنية دورا فعالا ومؤثرا، ذلك أن أغلب الأطر الشابة لهذه الحركة في المرحلة الأولى كانت من تلامذة رواد السلفية المغربية: "يعتبر مولي ـ كذا ـ العربي العلوي أحد مريدي بوشعيب الدكالي، والشيخ علال

الفاسي حلقة الاتصال ما بين الحركة السلفية وأول جماعة وطنية والتي تعززت فيما بعد بالحسن الوزاني وإبراهيم الكتاني .[13] على الرغم من أهمية هذا القول إلا أنه يحمل بعض النقائص التي تتجلى في كون الجماعات الوطنية تأسست قبل هذا الوقت داخل المدارس الحرة بفاس قبل ظهور الزعماء الذين تحدث عنهم صاحب هذا النص، فهم من الرعيل الأول وزعماء الثلاثينات من هذا القرن، ولكنهم يدينون في شحذ هممهم وتقوية عزيمتهم إلى وطنيين آخرين سبقوهم، وفي مقدمتهم الفقيه غازي[14]، كذلك فإن الحركة الوطنية المغربية لم تعتمد في انطلاقتها على الدين والسلفية فقط ولكن أيضا وموازاة مع ذلك على الوعي والحس الوطني والذي لا يمكن له أن يكون في المستوى المطلوب إلا بالتعليم الذي يعتبر إحدى الركائز الأساسية في سير الحركة الوطنية.

لقد انتقد الشباب الوطني السياسة الفرنسية في المغرب علانية خلال الحفل الذي أقيم بمناسبة تأبين الشيخ شعيب الدكالي: "إن تأبين بوشعيب الدكالي سنة 1926، كان أول فرصة وجهت فيها انتقادات علنية لنظام الحماية، وظهر بهذه المناسبة الارتباط الشديد بين الإصلاح الديني للأمة الإسلامية والدعوة إلى طرد الغزاة الأجانب، واتضحت رؤية الحركة الوطنية بقيادة مجموعة من الشباب البرجوازي حيث كان يمتزج القلق الديني والحقد الوطني، وهذا الارتباط أصبح قضية مشتركة..."[15] وكما حاولنا إثبات ذلك في هذا الشأن فإن العلاقة وطيدة ما بين السلفية والحركة الوطنية، لأن الدعوة الدينية تكون لخدمة الأمة وليس لتضليلها عن طريق تكريس الأمر الواقع وتعجيز السكان وترهيبهم أمام المستعمر كما فعلت الزوايا وأصحاب الطرق الذين صاروا أدوات لخدمة الاستعمار، أما ما جاء في النص أعلاه من حقد وطني على الفرنسيين، فإن هذا الحقد في واقعه هو حب للوطن، وهذا الحكم يعبر عن عدم قدرة البعض ممن كتبوا تاريخ المغرب على فهم خصوصيات الأمة المغربية، إن مغرب العشرينات والثلاثينات كانت تتجاذبه عدة قوى تريد السيطرة عليه، فمن جهة الفرنسيون وأذنابهم الذين ساروا في فلكهم، ومن جهة ثانية الوطنيون وزعماء السلفية الذين واجهوا المستعمر ومن سار في

ركبه : "إن التطور الذي عرفته الحركة الدينية في اتجاه الحركة الوطنية، كان نتيجة من نتائج التحالف الضمني ما بين سلطات الحماية والزوايا على غرار التحالف الذي تم ما بين الأولى وكبار القواد في الجنوب... وفي هذا المجال فإن دور عبد الحميد كذا (الصحيح عبد الحي) الكتاني أحد كبار رجال الزوايا كان يوازي دور التهامي باشا مدينة مراكش..."[16]

يصعب أحيانا فصل السلفية عن الوطنية، فهما متكاملان عند أغلب رجال الحركة الوطنية، من حيث الهدف والغاية، خاصة إذا علمنا أن السلفية تلازم كل عمل سياسي بل تمهد له في الغالب: وإذا بنا في حركة سلفية ووطنية في وقت واحد، هي سلفية لأنها تريد إقرار الشرع الإسلامي، وتثبيت دعائمه في البلاد، وهي وطنية لأنها تقاوم السيطرة الأجنبية وبرامجها للامتلاك الأبدي لبلادنا..."[17] فإذا اعتبرنا السلفية الإطار المذهبي (الايديولوجي)، فإن الوطنية الإطار العملي الذي عملت ضمنه في مرحلة أولى على إصلاح أحوال المغاربة المادية والمعنوية بغية تحقيق الاستقلال، ولما تعذر ذلك الإصلاح في ظل نظام الحماية، جاهر الوطنيون بطلب تحقيق الاستقلال بهدف الوصول إلى تحقيق الإصلاح في مرحلة لاحقة.

لم تكن السلفية هي الرافد الوحيد للحركة الوطنية، على مالها من أهمية قصوى في ذلك، ولكن هناك روافد أخرى لهذه الحركة مثل المقاومة المسلحة التي اندلعت في الجبال المغربية وبالصحراء وخاصة بالريف. لقد اصطدم سكان المدن بالهجمة الاستعمارية واستسلموا مكرهين معتقدين أن المحافظة على مصالحهم مع المحتل، واكتفوا بتتبع أخبار المقاومين في البادية وما يجري وقتئذ في ساحات القتال:

إن المدينة ظلت هادئة أزيد من عشرين سنة في الوقت الذي كانت البادية تقاوم المستعمر..."[18]

على الرغم من تعميم هذا الحكم وهو تعميم قاس في حق أهالي المدن، لأن هناك بعض الاستثناءات، والمقصود، أن بعض سكان المدن منذ الوهلة الأولى لاحتلال البلاد التحقوا بالمقاومين في الجبال مثل قاسم الدامي بن محمد المنصوري المكناسي[19] نشأة ودارا وإقبارا، الفلكي الذي صار مستشار موحى أوحمو الزياني بالأطلس

المتوسط. كما أن بعضهم قاطع الفرنسيين ومنهم من حزن ولم يحلق لحيته أو يغير ثيابه، قد تبدو مثل هذا الأعمال لا جدوى منها، ولكنها على كل حال عبرت عن الاستياء وعدم الرضا عن الاحتلال، لكن هذه الأمثلة لا تمنعنا من التأكيد على أن الغالبية العظمى من سكان المدن استقبلت المستعمرين بكل ترحاب، وتعاون الأعيان معهم كما أشار إلى ذلك الأستاذ الراحل جرمان عياش: ومن الملاحظ أن المدن ظلت مطيعة منقادة للاستعمار في أول عهده... أذعن غالبا الحضريون للاحتلال الاستعماري في أول الأمر... أملا منهم أن يتعايشوا مع المستعمر بل يتألفوا معه إن لم نقل يتشاركوا، لكن أملهم هذا خاب شيئا فشيئا بمرور السنين..."[20].

إن الترحيب بالمستعمر والتعامل معه من قبل ذوي المصالح بالمدن لم يدم طويلا، بعد أن مسوا في أرزاقهم، فلم يعد هناك تساكن ولا تعايش، لكن هذا الانقلاب في مواقف هؤلاء تطلب بعض الوقت لتناقض مصالح الطرفين، وانتظار نشوء جيل جديد متشبع بروح المقاومة السلمية بعد إزالة دهشة الاستعمار وصدمته [21]. كانت الحرب التحريرية التي أثرت بشكل قوي ومباشر في الشباب الوطني بالمدن هي الثورة الريفية: ثم أيقظت حرب الريف سائرنا، ولكن غالبنا لم يهتد إلى وسائل الخلاص إلا الوطنية الناشئة..."[22].

وقد زاد إيمان أهالي المدن بالمعمل الوطني ما رأوه من تعاون مكشوف مابين الطرقيين والاستعماريين، على تشويه حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي، ومنع أهالي القبائل والمدن على السواء من الالتحاق بصفوفها ونعت هذا الزعيم بأبشع النعوت مما هو براء منه حتى تبقى هذه الحركة منحصرة في منطقتها الريفية واتهام القائمين عليها بالقبلية والإقليمية الضيقة، وهو عكس ماكان محمد بن عبد الكريم الخطابي يهدف إليه، هكذا اتضح جليا للسواد الأعظم من السكان أن الزويا والطرقيين كانوا بمثابة دمى تتحرك لخدمة أغراض استعمارية وتشوه التعاليم الإسلامية: حتى قرعت الحرب الريفية أذانهم فنبهت أبصارهم وبصائرهم لرؤية حقائق طالما تجاهلوها، فالتفتوا وإذا بأشهر المشايخ الذين يستغلون الدين والتصوف

لأغراضهم الشخصية قد انضموا لصفوف الفرنسيين والإسبان وأخذوا يوجهون الرسائل المختلفة ينادون بها القبائل المكافحة في سبيل الله والوطن إلى العدول عن الجهاد والاستسلام للأعداء..."[23] هكذا إذن كانت السلفية والحرب الريفية سبب عزوف الكثير من سكان المدن والقبائل عن أصحاب الزوايا والطرق، وتمكن رواد السلفية من التوغل في صفوف الأهالي، دون أن يتم القضاء على الانتماء إلى هذه الزوايا والطرق التي استغلت سذاجة العامة من الأهالي بالبوادي والمدن على السواء، كما كان شأن الزاوية العيساوية بمكناس. لم يقتصر دور الحرب التحريرية في الريف على إيقاظ الشباب الوطني وباقي السكان والسلفية وروادها، لأننا نجهل الشيء الكثير عن ظروف وأبعاد تلك الحرب التي لم يقض على مبادئها ومراميها بإلقاء القبض على زعيمها وتشريد أنصارها والمشاركين فيها، لأن ما تركه محمد بن عبد الكريم للإنجاز أكثر مما حققه، شأنه في ذلك شأن باقي العظماء على حد قول جاك بيرك Jacques Berque[24]، وهكذا فإن ما قدمته الثورة الريفية للسلفية وللوطنية هو أكبر بكثير مما كشف عنه الباحثون لحد الآن.

وخلال سنوات اندلاع هذه الثورة وما حققته من انتصارات على الإسبانيين، استغل الشباب الوطني هذه الفرصة، لنشر دعاية يقظة وسط السكان لأبعادهم عن المشعوذين المتلاعبين بعواطفهم ومعتقداتهم الدينية من جهة، ولإلهاب حماسهم للتعاطف مع الحرب التحريرية في مرحلة أولى تمهيدا لإلتحاق الأهالي بها، والمشاركة فيها، وكان هذا شأن بعض سكان منطقة زرهون، وكان هذه «المعركة» التنويرية مكملة وموازية أيضا للمعركة القتالية بالريف، ولا تقل عنها أهمية، وكانت المقالات الوطنية المنشورة على أعمدة الصحافة في تونس والجزائر مثل الوطنية المنشورة على أعمدة الصحافة في تونس والجزائر مثل «الشهاب» التي كان يديرها عبد المجيد بن باديس تفضح الممارسات الخيانية التي كان يقوم بها الطرقيون وأصحاب الزوايا: وبذلك أصبحت هذه الحركة بمثابة عمل مواز للكفاح الذي قام به المجاهدون في الجبال في سبيل تحريرهم من سيطرة الاستعمار، وساعد على نجاح هذه الدعوة مقاومة الفرنسيين لها واعتقالهم الكثير من رجالها وتهديدهم

للآخرين."[25]

لقد بدأ التحالف واضحا ما بين أهالي المدن ومحمد بن عبد الكريم الخطابي، لدرجة أن بعضهم في أهم الحواضر المغربية كانوا يتوقون ويتمنون وصول الجيوش الريفية إليها لتحررهم من السيطرة الفرنسية، كما كانوا يزودون قائد ثورة الريف بمعلومات دقيقة عن تحركات وتصرفات الحكام الفرنسيين ومن يسير في ركبهم بالمدن: "ذكر ألبرج حاكم طنجة العام بأن الفرنسيين سيهجمون بغتة بقوة هائلة في جميع المراكز على الريفيين، وأنهم والإسبانيين سيحطون بالريف في جميع النواحي حتى يبقى مطوقا مقطوعا ثم تقتحم قوة عنيفة قلبه... إن الفاسيين ينتظرون وخصوصا شبيبتهم بفارغ الصبر إحاطة الجيش الإسلامي بهم وبذلك يتحقق أيضا ثوران جميع القبائل قريبة كانت أو بعيدة... أنهم جميعا يعتبرون فاس المغرب كله..."[26].

يظهر من خلال هذه الرسالة أ ن محمد بن عبد الكريم كان يتوفر على مراسلين وأنصار في بعض المدن المغربية، ولم يقتصر الأمر على إمداد الزعيم المغربي بالريف بالمعلومات عن الأوضاع السائدة في هذه المدن، وإنما إلى نشر الدعاية وسط الأهالي تعريفا بهذه الثورة وكسبا للأنصار والمتطوعين للالتحاق بصفوفها، وبالفعل حصل هذا كما رأينا سابقا بالنسبة لمنطقة زرهون وغيرها من المناطق بالأطلس الكبير تبادل الرسائل ما بين ابن عبد الكريم وبعض رؤساء القبائل كما عمل بعض السكان بالمدن على تهريب الأسلحة إلى البوادي، إضافة إلى ما كان يوزع من مناشير وملصقات بالمدن يبعث بها ابن عبد الكريم يدعو السكان من خلالها إلى تأييد حركته التحريرية.

وهكذا في سنة 1924 اكتشفت السلطات الفرنسية بالدار البيضاء مركزا للدعاية لمحمد بن عبد الكريم الخطابي، وتم إلقاء القبض على جل الأشخاص الذين كانوا يسيرون هذا المركز، وصادر البوليس الفرنسي كميات من المناشير تحرض الوطنيين على الثورة[27]. ولم يقتصر الأمر على الدعاية وسط الأهالي ولكن بعضهم التحق بصفوف المجاهدين وبالضبط بأجدير عاصمة الريف، وفي مقدمة هؤلاء

الشـاب إدريس بن سعيد ابن الوطني عبد الله بن سعيد بسلا وهو رفيق الدراسة لقائد ثورة الريف عندما كان هذا الأخير يدرس بالقرويين بفاس (1905 - 1909) وقد اغتال الإسبان هذا الشاب سنة 1921 وهو يقوم بدور الوساطة ما بين الطرفين الريفي والإسباني.

كما كان شأن عبد القادر التازي من فاس، صحبة مجموعة من الشباب أمثال: محبوب الذي عمل طبيبا خلال المعارك[28] التي دارت رحاها ما بين الإسبانيين والمقاوميين بالريف. ولم يقتصر تأييد الشباب المغربي بالمدن للثورة الريفية والالتحاق بها، بل أن العمال المغاربة بفرنسا تضامنوا مع زعيم الريف وعقدوا مؤتمرا بـ: جون فيليه في شهر يونيه 1925، عبروا فيه من خلال بيانهم الصادر في نهاية المؤتمر عن تأييدهم لهذا الزعيم الذي كانوا يرون فيه محررا للمغرب في غياب أي مبادرة من هذا المستوى، وكان من بين المغاربة النشيطين بفرنسا لخدمة الثورة الريفية وسط عمال شمال إفريقيا، عبد الرحمان بلعربي من أصل فيلالي ومحمد بن محمد من تزنيت[29].

يظهر جليا من هذا التأثير والتأثر ما بين الأهالي المغاربة بالداخل في المدن والقرى، وبالخارج خاصة فرنسا، مدى مغربية ثورة الريف وليس إقليميتها، أي هدف مسيرتها التحرري كان أبعد ولا يقتصر على الريف الذي يعتبر جزءا لا يتجزء من التراب المغربي ككل، كما جاء في رسالة بعث محمد بن عبد الكريم إلى المقيم العام بالمغرب المارشال ليوطي: "الشعب الذي نحن جزء منه ولا نود الانفصال عنه.. تحت ظل جلالة مولانا السلطان..."[30].

هكذا يظهر أن النضالين المسلح بالجبال والسياسي بالمدن تزامنا مع بعضهما في الفترة التي حددناها لهذا العرض، وكانا لا ينفصلان على حد قول كينت بروان Kenneth Brown [31]، لقد واجه المغاربة الاستعمار الفرنسي منذ أن وطئت قدماه أرضهم، فما كادت الحرب التحريرية تخمد وتتراجع حتى بدأت طلائع المقاومة السياسة تبزغ في الأفق، لدرجة أنه يصعب تحديد الفوارق الكرونولوجية بين المقاومتين[32].

ويرى الدكتور عبد الله العروي أن العلاقة الجدلية ما بين الحركة الوطنية والثورة الريفية لم تكن قوية بالشكل الذي يتصوره جل الباحثين، كما أن التجربة الريفية لم تغن الوطنية[33] بالقدر الذي يتصوره البعض. L'expérience rifaine n'enrichit pas le Nationalisme، وهذا الرأي فريد في حكمه ولا يقاسم صاحبه جل الذين بحثوا في هذا الموضوع، على ما يكنونه له من احترام.

كانت نقط الاتصال ما بين ابن عبد الكريم والوطنيين عديدة في مقدمتها مناهضة الاستعمار: كل بوسائله التي سخرها لتحقيق هذا الهدف، فإذا كان ابن عبد الكريم قد أعلن الحرب التحريرية لطرد الغزاة، فإن الوطنيين طالبوا هؤلاء الغزاة برفع الظلم وإيقاف الاستحواذ على مقدرات وخيرات البلاد تمهيدا لمطالبتهم بالرحيل، كما كان الطرفان الريفي والوطني يقفان صفا واحدا في مقاومة الطرقيين وأصحاب الزوايا معتمدين في ذلك على سلاح الرجوع إلى السلف الصالح والتمسك بالقرآن والسنة النبوية، زاد من هذا التقارب انتماء جلهم إلى القرويين وتشبعهم بنفس الأفكار السلفية، وهذا لا يعني ضعف تأثير مبادئ الثورة الريفية على الحركة الوطنية، بل يمكن الجزم بالعكس من ذلك.

من بين العوامل التي أسرعت بتغيير موقف أهالي المدن من المسالمين للمستعمرين إلى الناقمين عليهم وانخراطهم بالجملة في صفوف الحركة الوطنية، فقدان مصالحهم الاقتصادية معهم، فقد استولى الأجانب على الأراضي الخصبة سواء تلك المجاورة للمدينة والتي كان جلها في حوزة بعض السكان الذين يقطنون المدن، أو أراضي الجماعات بالقبائل وغيرها وأراضي الكيش، البواخر، الأحباس، مما اضطر معه أصحابها إلى اللجوء إلى المدن للزيادة في بؤسها مكونين حولها أحزمة للفقر ومكدسين في أحياء هاشمية قصديرية في الغالب. كما زوحم التاجر في تجارته والحرفي في إنتاجه والطلبة والعلماء في مناصبهم: "أما أكثر الحضريين تضررا من وجود المحتلين فهم المثقفون من الطلبة والعلماء الذين لم يعودوا يصلحون لشيء في وطنهم إذ جميع المناصب من قيمة الهرم إلى أساسه الإدارية منها والتعليمة والقضائية والعسكرية أصبحت محظورة عليهم لأن الموظفين كلهم فرنسيون..."[34].

هكذا تحول جل السكان إلى عاطلين كما حصل في مدينة مكناس[35] وباقي المدن الأخرى.

كتلة العمل الوطني كأول «تنظيم سياسي» بالمغرب :

أجمع الباحثون في تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب على أن انطلاقتها بشكل منظم كان أواسط العقد الثالث من هذا القرن : «إن الحركة الوطنية بدأت بالمدن في سنة 1925 أو 1930، اعتبارا لاختلاف الآراء... وحينئذ حاولت المدينة أن تقدم البديل الذي كان يتلخص في عمل سياسي سلمي في دائرة المشروعية الاستعمارية..."[36] فبعد أن اطمأن جل سكان المدن في بداية الاحتلال لنظام الحماية ولم يحركوا ساكنا لمقاومته، برزت نخبة شابة حاولت انتشال الأهالي من مخالب الاستعمار وتأطيرهم في مؤسسات دينية وسياسية بغية تأسيس جبهة موحدة للتعبير عن عدم الرضا على السياسة الاستعمارية تمهيدا لرفضها شكلا وموضمونا، لأن هؤلاء الشباب كانوا يعتبرون أنفسهم ورثة واستمرارا للحركة المسلحة بالجبال لكن بطرق ووسائل أخرى لا قبل للمستعمر بها. بدأت الحركة الوطنية الفتية الناشئة تعترض على مشاريع حكومة الحماية التي لم تكن تخدم سوى مصالح النازحين الأوربيين على البلاد سواء كمستوطنين بالأراضي الفلاحية أو كمسيطرين على مختلف مرافق الحياة الاقتصادية والإدارية، في الوقت الذي همشت فيه الطاقات الشابة المغربية التي تمكنت شيئا فشيئا من التعلم واستقطاب الشرائح الاجتماعية إلى صفها كالحرفيين والمشتغلين بحرف متواضعة وغير قارة وأغلبهم قدم من البادية بعدما فقدوا فرص الشغل هناك متكدسين في أحياء قصديرية هامشية كونت حزاما للبؤس والفقر والمرض كما سبقت الإشارة.

ونفس الرأي الخاص بانطلاقة الحركة الوطنية، يذهب إليه عبد الكريم غلاب، أي منتصف العشرينات، البداية الأولى للعمل الوطني المنظم، ويقول في هذا الصدد: ... ولكن الوطنية المغربية التي نشأت في منتصف العشرينات كفكرة وتبلورت كحركة في بداية الثلاثينات..."[37]. بدأت الحركة السياسية المغربية بقيادة الفئات المثقفة بمساندة بعض الميسورين الذين تحولوا إلى الصف الوطني

مرغمين بشكل من الأشكال بعدما رأوا أن مصالحهم ليست مع الفرنسيين ولا الإسبانيين، وكون الطلبة البذور الأولى لكتلة العمل الوطني في بداية الثلاثينات، وهي أول جهاز سياسي منظم فرض نفسه على الساحة السياسية المغربية بالرغم من عدم رضا سلطات الحماية عليه وقد أخذ أعضاء وقيادة الكتلة على عاتقهم الكفاح السياسي، وهكذا لم ينته الفرنسيون من القضاء على المقاومة المسلحة حتى انشغلوا بالمقاومة السياسية: وبمجرد ما انتهت مرحلة التهدئة حتى وجدت السلطة الاستعمارية نفسها تواجه قوة جديدة... هذه القوة كانت تتمثل في الحركة الوطنية التي انبثقت في البداية من النهضة السلفية الدينية تحت قيادة برجوازية متنورة، وعلى الخصوص البرجوازية الفاسية..."[38]

إن عملية توالد التناقض داخل المجتمعات لا تكون إلا اعتمادا على اختلاف المصالح، بين من يملكون السلطة ومقدرات وخيرات البلاد، وبين من لا يملكون سوى قوة سواعدهم، وهكذا إذا كانت الحركة الوطنية المغربية استمرارا وخلفا للمقاومة المسلحة مع اختلاف أدوات العمل، بالرغم من اعتبارها الحركة الوطنية ولدت من أضلاع هذه المقاومة، في الوقت ذاته ولدت من رحم الجهاز الاستعماري الذي حمل تناقضا داخله في الوقت الذي استأثر بكل المرافق ... إن إعادة التهدئة وإقامة جهاز إداري أديا إلى نشوء نقيضهما الجدلي المعارض: الحركة الوطنية..."[39].

اعتقد الفرنسيون خطأ أن بقضائهم وبتحالفهم مع إسبانيا على الثورة الريفية أنهم أخمدوا أصوات المغاربة في كل مكان، وبإمكانهم مسخ الهوية الوطنية والاعتقاد الديني لهم، وخاصة الشريعة الإسلامية فصاروا يصدرون قرارات باسمهم أو بدفع السلطات لإصدار ظهائر تهدف إلى النيل من الوحدة البشرية أو الدينية للأمة المغربية، وتوجوا عملهم بإصدار الظهير البربري "الثاني بتاريخ 16 ماي 1930 (الظهير الأول كان يوم 11 شتنبر 1914) ساندهم في فعلهم الذميم هذا زعماء الطرقية وبعض قواد القبائل، وفي هذا الصدد يورد علال الفاسي واقعة حدثت له مع الرائد ادينو حينما استدعاه صحبة محمد غازي والعابد الفاسي لإدارة الشؤون الأهلية مخاطبا إياه بـ: "إننا نعلم أنكم لا تقاومون عبد الحي الكتاني وعبد الرحمان

الدرقاوي وأمثالهما من المشايخ إلا أنهم أحبابنا، وقد علمتم أنهم تحالفوا معنا في أحرج المواقف ضد عبد الكريم وأضرابه من الثوار، فلا يمكننا إلا أن ندافع عنهم ونكون في صفوفهم ضدكم الآن...»[40]، فمقاومة الحركة الوطنية للطرقيين كانت لا تقل أهمية عن مقاومتهم للفرنسيين لأنهم كانوا يشكلون أعمدة وركائز الاحتلال.

إن تعدد واجهات الصراع كانت تنتظر أعضاء وقادة كتلة العمل الوطني، فبالإضافة إلى حكومة الحماية هناك شيوخ الزوايا... ولقد حاول الفرنسيون تشويه نشاط الوطنيين لدى سلطان البلاد سيدي محمد ابن يوسف، لكن الشباب الوطني تمكن من البرهنة للسلطان الشاب على عكس ما شرح له المسؤولون فتحالف معهم خدمة للوطن، فكانت ثقة الشباب المتبادلة فيما بينهم، هكذا كان وقوف السلطان بجانب المواطنين بمثابة تدعيم وتشجيع لهم للسير في نفس الطريق، مقاومة الزوايا والاستعمار على حد سواء.

لقد تطورت الحركة الوطنية من الاحتجاج السياسي إلى طور المطالبة بالإصلاحات الضرورية التي واعدت بها فرنسا في بنود عقد الحماية، ففي سنة 1934 قدم الوطنيون دفتر مطالب الشعب المغربي[41] إلى الجهات المسؤولة في البلاد متجاوزين العقم الذي وصفهم به الفرنسيون من كونهم لا يملكون برنامج عمل سياسي واضح، فوضعوا بتقديم هذه المطالب حكومة الحماية والهيآت السياسية الفرنسية أمام الأمر الواقع، لذلك كان تقديم المطالب السالفة الذكر حدثا بارزا ومحطة هامة ومنعطفا له دلالته السياسية في التمرد على الفرنسيين، وقد ازعجت هذه الخطوة النضالية المحتلين بمختلف مشاربهم ووظائفهم وجعلتهم يتكتلون فيما بينهم مهما تباعدت أفكارهم التي وحدتها تخوفاتهم على فقدان مصالحهم بالمغرب.

كانت الحركة الوطنية المغربية في الفترة المتراوحة ما بين 1927 - 1934 استمرارا للمقاومة المسلحة ولم تكن بديلا لها، سواء تلك التي تم القضاء عليها أو التي مازالت في أعالي الجبال، وبذلك تمكنت هذه الحركة من زرع بريق الأمل في المغاربة

فتبدل خوفهم ويأسهم عزيمة وقوة لمقاومة الاستعمار بنفس السلاح الذي دخل به البلاد، فراحت تطالبه بالإصلاحات التي زعم أنه جاء لتطبيقها للرفع من مستوى الأمة المغربية التي لم تكن في نظره قد وصلت إلى سن الرشد لتتحمل مسؤوليتها.

إن الخلاصات التي يمكن استنتاجها من هذا العرض المتواضع يمكن أن تسرد على الشكل التالي

- إن العمل الوطني بمفهومه السياسي السلمي مرتبط أساسا بقدوم الاستعمار إلى المغرب، ومنذ 1912 ولغاية 1925 كانت هناك ارهاصات وطنية لاغير، وإن كان الأستاذ محمد المنوني يرجع نشوء الوطنية المغربية إلى العقد الأول من هذا القرن، وله مبرراته المنطقية، خاصة إذا علمنا أن التحرشات الفرنسية بدأت في هذا العقد بل تم احتلال جزء من أطراف البلاد - توات، وجدة، الدار البيضاء - المهم أن نشأة الحركة الوطنية مرتبطة بالاستعمار، وأن الحقبة التي نشأت فيها كانت تمهيدا لما أتى من تنظيم دقيق، وهذا يعني أن ما حققته من إنجازات سياسية لم يأت من فراغ.

- إن الارتباط ما بين العمل المسلح بالجبال والعمل السياسي بالمدن كان قويا وأن العملين كانا متزامنين في بعض الفترات.

- إن روافد الحركة الوطنية متعددة في مقدمتها السلفية والحروب التحريرية التي خاضها المقاومون المغاربة بالجبال وفتح المدارس وتضرر السكان في مصالحهم، كلها عوامل عجلت بشكل واضح بظهور العمل الوطني ما بين 1925، 1930 وبشكل منظم ما بين 1930- 1934.

- إن الحركة الوطنية لم تكن بديلا للمقاومة المسلحة بل استمرارا لها في الفترة المتراوحة ما بين 1927 - 1934.

- إن الحركة الوطنية انتقلت من الاحتجاج إلى تقديم مطالب واضحة سنة 1934 بهدف إصلاح البلاد، في حين كانت الحركات التحريرية تسعى إلى القضاء على القوات الاستعمارية وإخراجها من البلاد.

الهوامش

1- يمكن الرجوع إلى أعمال ندوة المقاومة المسلحة المغربية 1900-1934 المنظمة بمراكش ما بين 28 و30 نونبر 1990 بتعاون كلية الآداب مع المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير.

2- الفاسي (علال) : الحركات الاستقلالية في المغرب العربي د.ن.ص 129.

3- من بين أعضاء الوفد، الأمير شكيب أرسلان، محمد فريد، عبد العزيز جاويش، علي باشا حمية، وغيرهم من رجال الحركة الإسلامية.

4- مذكرات مولاي الطيب العلوي، نشرت ب، الموقف (مجلة ثقافية فصلية) العدد 4، دجنبر 1987 ص 54.

5- تقرير سري من المارشال ليوطي إلى وزارة الخارجية الفرنسية في 3 ديسمبر سنة 1920، قام بتعريبه محمد المكي الناصري عضو كتلة العمل الوطني ومدير حركة الوحدة المغربية سنة 1357. نشر ضمن منشورات وثائق الوحدة المغربية: سياسة الحماية الفرنسية في المغرب الأقصى ص 13

6- المصدر نفسه.

7- المصدر نفسه ص 20.

8- للمزيد من التفاصيل عن هذه المطالب أنظر: الوزاني (محمد حسن) : مذكرات حياة وجهاد(1) طور المخاض والنشوء ص 239.

9- واتربوري (جون) : الملكية والنخبة السياسية في المغرب. ترجمة ماجد نعمة وعبود عطية، دار الوحدة بيروت 1982 ص 47.

10- الفاسي (علال) : حديث المغرب في المشرق: المطبعة العالمية ط 1 القاهرة 1956 ص 8.

11- نقلا عن علال الفاسي المرجع السابق: يقول أن المولى عبد الحفيظ جمع حوله مجموعة من العلماء السلفيين أمثال، الخضر الشنقيطي، أبي شعيب الدكالي...

12- المرجع السابق.

13- واتربوري (جون) : المرجع السابق ص 48.

14- أنظر ترجمته في مقال، بوعسرية (بوشتى) : وطنيو مكناس الموقعون على وثيقتي الاستقلال سنة 1944. منشور ب: دورية جمعية أساتذة التاريخ والجغرافيا بمكناس. عدد 5،4 نونبر 1990 ص 71 وما بعدها.

15- واتربوري: المرجع السابق ص 48.

16- المرجع السابق.

17- علال الفاسي: حديث المغرب في المشرق: المرجع السابق ص 12.

18- زنيبر (محمد)، صفحات من الوطنية المغربية من الثورة الريفية إلى الحركة الوطنية، دار النشر المغربية الدار البيضاء 1990 ص 159.

19- ابن زيدان (عبد الرحمان): أتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس. ج 5 المطبعة الوطنية - الرباط 1933 ص 530.

20- عياش (جرمان): تقرير عن رسالة: بوعسرية بوشتى، دار النيابة، عدد 1986 ص 127.

21- الفاسي (علال) الحركات الإستقلالية في المغرب العربي، المرجع السابق ص 127.

22- مولاي الطيب العلوي: المذكرات السابقة المرجع السابق ص 54.

23- الفاسي (علال): حديث المغرب في المشرق، المرجع السابق ص 10.

24- *Abdelkrim et la République du Rif.* Actes du colloque international d'études historiques et sociologiques 18-20 janvier 1973. François Maspéro Paris; 1976 "un héros historique - ne vaut pas par ce qu'il a fait, mais par ce qu'il laisse à faire" Jacques Berques. *Poussée Nationale et démocratie à la base dans la nation arabe* 1915-1925 p 46.

25- الفاسي (علال) المرجع السابق.

26- رسالة موجهة من أحد الفاسيين إلى ابن عبد الكريم أمضاها هكذا: الغيور الفاسي دون تاريخ.

Quai d'Orsay. Paris; volume 517 document n° 111

27- الفاسي (علال): التحركات الاستقلالية في المغرب العربي.. المرجع السابق ص 127.

28- عبد الكريم غلاب: تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب ج 1 مطبعة الرسالة - الرباط 1987 ص 28 هامش 4.

29- الفاسي (علال): المرجع السابق ص 128.

30- الوثيقة مؤرخة ب 18 جوان 1923 بأجدير.

Quai d'Orsay, volume N° 519

31- *Abdelkrim et la République du Rif.* Ibid. sujet de: Kenneth Brown: *Résistance et Nationalisme,* page 472 et suivantes.

32- توينبي Toynbée نقلا عن كينيت بروان في مقالها السابق الذكر.

33- Abdelkrim... Ibid Laroui (A): *Abdelkrim et le nationalisme marocain jusqu'en 1947* page 482.

34- عياش (جرمان) مرجع سابق.

35- بوعسرية (بوشتى) أثر الصدمة الاستعمارية على الإنتاج الحرفي بمدينة مكناس. دار النيابة عدد

144 السنة 4 ربيع 1987 ص 29 وما بعدها.

36- زنيبر (محمد) المرجع السابق ص 158.

37- غلاب (عبد الكريم): المرجع السابق.

38- واتربوري (جون): المرجع السابق ص 40.

39- المرجع السابق

40- الفاسي (علال): حديث المغرب المرجع السابق ص 12-13.

41- للمزيد من التفاصيل عن هذه المطالب انظر:

مطالب الشعب المغربي التي حضرتها الكتلة العاملة المغربية (كتلة العمل الوطني) وقدمتها للمسؤولين مطبعة الإخوان المسلمين بالقاهرة سنة 1934 وأعيد طبعها بالمطبعة الملكية بالرباط سنة 1979.

وتتضمن هذه المطالب:

1- الإصلاحات السياسية من ص 1 إلى 12.

2- الحريات الشخصية والعامة من ص 12 إلى 16.

3- الجنسية المغربية والحالة المدنية من 16 إلى 18.

4- الإصلاحات العدلية من 18 إلى 39.

5- الإصلاحات الاجتماعية من ص 39 إلى 50.

6- الأحباس الإسلامية من ص 50 إلى 52.

7- الصحة العامة والإسعاف الاجتماعي من ص 52 إلى 56.

8- العمل من ص 56 إلى 60.

9- الإصلاحات الاقتصادية والمالية من ص 61 إلى 62.

10- الاستعمار الفلاحي من ص 63 إلى 67.

11- النظام العقاري من ص 67 إلى 70.

12- الضرائب والترتيب من ص 70 إلى 72.

13- إصلاحات متفرقة من ص 73 إلى 74.

14- العربية لغة المغرب الرسمية من ص 74 إلى 77.

15- العلم المغربي من ص 78 إلى 79.

المقاومة السياسية بسلا خلال الثلاثينات

العربي واحي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية2
– الدار البيضاء –

إن الحديث عن المقاومة المغربية ضد الاستعمار خلال القرن العشرين لا يجب أن نفهم منه أن المقاومة المغربية هي وليدة الفترة المعاصرة، وأن المغاربة استسلموا وأذعنوا لأمر الواقع منذ أن استقر البرتغاليون على السواحل المغربية مع مطلع القرن الخامس عشر.

إن المقاومة التي نحن بصدد الحديث عنها اليوم في إطار هذه الندوة لا تمثل في نظري سوى الحلقة ما قبل الأخيرة في المواجهة الدائمة والمستمرة للمغرب والمغاربة ضد المد الإمبريالي بمختلف أشكاله وحيثياته منذ أن ابتلي المغرب بالظاهرة التوسعية الأوروبية، وما المعركة الحالية، معركة استكمال الوحدة الوطنية وتحقيق التقدم، وفرض الهوية التاريخية، إلا مظاهر لهذه المقاومة الدائمة.

لقد اعتاد مؤرخو المغرب المعاصر اعتبار الظهير البربري في 16 ماي 1930 بمثابة شهادة ميلاد الحركة الوطنية المغربية خلال القرن العشرين. وإن حركة مواجهة الظهير التي انطلقت من مدينة سلا في صيف 1930 لتعم بعد ذلك بقية المدن المغربية، الرباط، فاس، مراكش، وغيرها كانت البداية الفعلية للعمل السياسي المنظم. هذا العمل الذي تطور خلال الثلاثينات ومطلع الأربعينات في اتجاهات ثلاثة:

ـ تطور في هياكل التعبئة من الناحية التنظيمية وبذل مجهود في صيانة المطالب

وتحديد استراتيجية النضال وظهر ذلك واضحا من خلال تشكيل كتلة العمل الوطني وتقديم دفتر مطالب الشعب المغربي والمطالب المستعجلة.

- تجذير المطالب، من الإصلاح في إطار نظام الحماية إلى المطالبة بالاستقلال والديمقراطية.

- انخراط فئات اجتماعية جديدة - شعبية - في النضال الوطني مما كان له بعض الأثر على المقاومة الوطنية بعد 1947 وبخاصة 1953 وانتهاج الكفاح المسلح كرديف للعمل السياسي.

لعل الصورة التي تقدمها مدينة سلا في الثلاثينات، باعتبارها من معاقل النضال الوطني خلال عهد الحماية تقربنا أكثر مما هو معروف بشكل عام عن المقاومة السياسية المغربية خلال الحقبة الممتدة من 1930 إلى 1937.

من مقاومة الأعيان إلى مقاومة الحرفيين:

مقاومة الأعيان خلال حركة الظهير البربري:

تمثل أحداث الظهير البربري بسلا خلال صيف 1930 نموذجا للوقائع التاريخية التي تتعدد الروايات حولها إلى حد يجعل من الصعب الاطمئنان لإحداهما دون المجازفة بالسقوط في منزلقات وأخطاء تاريخية فقد تعددت الجهات التي ادعت أنها كانت وراء تفجير هذه الأحداث رغم أهميتها وأبعادها على المستويين المحلي والوطني. من هذه الملاحظات تأتي أهمية بعض الوثائق التي وقع الكشف عنها مؤخرا ولأول مرة، وقد استعملت جانبا منها في إطار بحث موسع حول المجتمع السلاوي في ظل الحماية.

هذه الوثائق عبارة عن أرشيف مصلحة المراقبة المدنية بسلا خلال الثلاثينات، والتي عثرنا عليها ضمن محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية في مدينة NANTES[1]. إن من شأن الاعتماد على هذا الصنف من الوثائق وعليها وحدها تقديم صورة محددة ومنسجمة حول الأحداث السياسية التي كانت مدينة سلا مسرحا لها سواء في صيف 1930 أو فبراير 1937 بالنسبة لأحداث الظهير البربري.

من خلال التسلسل الكرونولوجي لهذه الأحداث، وفق ما تقدمه تقارير

الاستعلامات اليومية التي كان يبعث بها المراقب المدني لحاكم منطقة الرباط، يمكن إبراز الملاحظات التالية:

1- إن الأحداث عرفت في تطورها العام أربع مراحل:

- مرحلة الإعداد لحركة اللطيف بسلا وانطلاقها يوم الجمعة 27 يونيو 1930>

- مرحلة التنسيق مع بقية المدن المغربية؛ الرباط وفاس (1 يوليوز).

- مرحلة تطورت فيها صيغ الاحتجاج من قراءة اللطيف والتظاهر بالمساجد إلى كتابة عرائض الاستنكار وتشكيل الوفود لطلب مقابلة السلطان من أجل التماس إلغاء الظهير.

- مرحلة فتور الحركة أواخر شتنبر 1930 وإقدام باشا المدينة على إرسال تقرير مفصل عن الأحداث إلى حاكم منطقة الرباط يوم 28 شتنبر 1930 (والتقرير موجود).

2- إن قيادة حركة الاحتجاج لم تكن قيادة قارة وثابتة طوال المدة التي استغرقتها الأحداث فقد تناوبت على قيادة الحركة ثلاثة قيادات أي بمعدل قيادة كل شهر.

3- إن تطور الأشكال النضالية من قراءة اللطيف إلى كتابة العرائض وتشكيل الوفود لمقابلة السلطان جاءت كنتيجة لبداية التنسيق مع مراكز الحركة الأخرى: الرباط وفاس.

4- الحرص على إشراك القبائل البربرية المجاورة لمدينة سلا في زمور (بعث رسالة إلى أعيان زمور ودعوتهم للمشاركة في أحداث الجمعة 4 يوليوز 30 في الوقت الذي شددت فيه سلطات الحماية المراقبة على تحرك أعيان زمور).

5- إن الفتور الذي وقع في حركة الاحتجاج في شتنبر 1930 له علاقة بالرسالة السلطانية الموجهة إلى أهالي المدن[2] التي شهدت حركة الاحتجاج بسلا، الرباط، مكناس، البيضاء، مراكش والمؤرخة بـ 14 غشت 1930 من أجل حثهم على التخفيف من حدة التوتر وكبح جماح الشباب المندفع. وقد كان من نتائج هذه الرسالة أن

أصبح الأعيان علماء وتجار يعارضون الاستمرار في اتخاذ المساجد كإطار للاحتجاج وفضلوا نهج أسلوب آخر للتعبير عن احتجاجهم وهو كتابة عريضة وتقديمها للسلطان.

6- إن تجاوب أهل سلا مع حركة اللطيف كان قويا فقد انتقل عدد المرددين للطيف من حوالي 1500 مردد يوم 27 يونيو 1930 إلى 3000 يوم 20 يوليوز 1930.

7- إن تطور أحداث الظهير البربري بسلا خلال صيف 1930 تبين كيف أن مجموعة سلا التي فجرت حركة اللطيف ـ لتعم بعد ذلك بقية المدن ـ لم تتمكن من الاحتفاظ بالمبادرة في قيادة وتوجيه الأحداث حيث حلت كل من الرباط وفاس كمراكز أساسية لتوجيه العمل السياسي الوطني. ولعل ذلك مرتبط بالتكوين الثقافي لأغلب العناصر السلوية (جلهم خريجي القرويين وذوي ثقافة عربية إسلامية، مع استثناءات قليلة: عبد اللطيف الصبيحي ومحمد حصار).

خلقت أحداث الظهير البربري ديناميكية سياسية واجتماعية على المستوى الوطني تبلورت في تكتل الوطنيين حول برنامج سياسي محدد في إطار تنظيمي موحد هو كتلة العمل الوطني التي قدمت «دفتر مطالب الشعب المغربي» في دجنبر 1934 إلى سلطات الحماية. إلا أن انخراط فئات اجتماعية جديدة (الحرفيون) في صفوف العمل الوطني في الثلاثينات كان في نفس الوقت تعبيرا عن عمق الأزمة التي مست المجتمع المغربي بمختلف فئاته، وكذلك منطلقا سيعطي للمواجهة مع المستعمر بعدا جديدا وهذا ما سنلمسه من خلال معالجة انتفاضة الحرفيين بسلا في فبراير 1937.

انتفاضة الحرفيين في فبراير 1937

تعتبر سنة 1937 من السنوات الحاسمة في تاريخ تطور المجتمع المغربي خلال فترة الحماية.

فقد سجلت المحصولات الفلاحية انخفاضا كبيرا بسبب الجفاف الذي مس جل السهول المغربية، حيث يمكن اعتبار أن الإنتاج الزراعي سنة 1937 شبه منعدم[3].

تبرز أهمية هذا المعطى بالنسبة للوسط الفلاحي الذي يمثل الزبون الرئيسي

للإنتاج الحرفي بالمدينة سواء من حيث اقتناء المنتوجات الحرفية أو تزويد الحرفيين بالمواد الأولية.

فقد تظافرت عدة عوامل جعلت من الحرفيين يعيشون أوضاعا صعبة خلال الثلاثينات. فآثار الأزمة الاقتصادية العالمية لسنة 1929 والظروف المناخية غير المواتية في مطلع الثلاثينات، غزو الجراد والسنوات الفلاحية العجاف إضافة إلى منافسة التجارة الأجنبية، كلها عوامل جعلت الحرف في جل المدن المغربية وخاصة المعتمدة في نشاطها على الحرف (فاس، الرباط، سلا، مراكش...) تعيش أوضاعا مأساوية حيث انتشر البؤس في صفوف الحرفيين.

كانت هذه الظروف مناسبة لنمو وعي وطني في صفوف الحرفيين وبداية التنسيق مع العناصر الوطنية التي تبنت بدورها مطالب الحرفيين وأضحى بذلك النضال النقابي حلقة من الصراع السياسي ضد النظام الاستعماري وهذا ما نلمسه من خلال وقائع انتفاضة الحرفيين بسلا خلال فبراير 1937.

وقائع الانتفاضة:

في يوم الخميس 11 فبراير 1937 قصدت مجموعة من الحرفيين ـ ثلاثون متعلما من حرفة الحصارة ـ إدارة المراقبة المدنية بسلا مطالبة برفع أجورها وتخفيض ساعات العمل.

اعتصم الحرفيون بالإدارة البلدية. هذه الأخيرة وضعت الجميع بالسجن البلدي؛ خلال الغد حاول المراقب المدني إخلاء السجن من المعتقلين، رفض هؤلاء مغادرة السجن إلى حين الاستجابة لمطالبهم مذكرين بأنهم لم يتناولوا طعاما منذ أربعة أيام. حين تأكد للحرفيين تعنت إدارة المراقبة المدنية في الاستجابة لمطالبهم قصدوا السوق المركزي «السوق الكبير» ونهبوا محلات بيع الخبز، وبعد ذلك توجهت مجموعة منهم (ما بين 200 و300 حرفي) إلى الإدارة البلدية مطالبين مقابلة الباشا والمراقب المدني.

حاولت القوات المخزنية صد المتظاهرين فبدأ هؤلاء يقذفون المخازنية بالحجارة وتحول مدخل الإدارة البلدية إلى ساحة حقيقية للمعارك ولم يتم التحكم في الوضع

إلا بعد وصول تعزيزات أمنية من خارج مدينة سلا حيث تم اعتقال مجموعة من المتظاهرين وتقديمهم إلى المحاكمة حيث حكم على سبعة منهم بمدد تتراوح بين 3 أيام وشهر واحد سجنا(4).

اعترف الحرفيون الذين وقع اعتقالهم بصلتهم بالعناصر الوطنية وأن هؤلاء هم الذين أوحوا إليهم بطرح مطالبهم النقابية والدفاع عنها. يظهر هذا واضحا من خلال الرسالة التي وجهها الوطنيون بسلا إلى مصالح المراقبة المدنية في 8 فبراير 1937 (ثلاثة أيام قبل الانتفاضة) احتجوا فيها على عدم إعطاء أي اعتبار لهيئة الوطنيين التي حاولت إثارة وضعية الحرفيين المزرية، مما جعل العناصر الوطنية تلجأ إلى اختيار القوة لتظهر من جهة تأثير العناصر الوطنية على فئة الحرفيين ومن جهة ثانية عجز الإدارة الاستعمارية عن الاستجابة لأدنى مطالب الحرفيين.

لقد أعطى انخراط الحرفيين في صفوف العمل الوطني خلال الثلاثينات بعدا شعبيا للحركة الوطنية المغربية، وأضحت مطالب الحرفيين تتبلور أكثر فأكثر ضمن المطالبة العامة للحركة الوطنية (مثلا حجم مطالبهم في دفتر مطالب الشعب المغربي).

وقد استمرت أعمال التنسيق بين الجانبين وهذا ما تبينه الوقائع.

فقد حضر الحرفيون والتجار بسلا يوم 23 شتنبر 1937 إلى جانب الوطنيين تظاهرة تضامنية مع ضحايا مكناس بعد أحداث 2 شتنبر 1937 ومع معتقلي تارودانت ومراكش، إثر المواجهات التي انفجرت في كثير من المدن المغربية ضد نظام الحماية.

إلا أن هذه التظاهرة التضامنية كانت آخر عمل قامت به العناصر الوطنية وهي موحدة في إطار كتلة العمل الوطني. فبعد يناير 1937 انقسم الوطنيون بسلا (شأنهم في ذلك شأن جل الوطنيين في بقية المدن) إلى قسمين انحاز كل قسم إلى واحد من التيارين اللذين برزا في صفوف كتلة العمل الوطني بعد 1937.

كان من نتائج هذه الانتفاضة اعتراف سلطات الحماية على المستوى المركزي والمحلي بالظروف المأساوية لفئة الحرفيين والتدخل من أجل إنقاذ وضعية الحرف

والحرفيين حيث تكونت لجنة على المستوى المركزي في 25 مارس 1937 بقرار من المقيم العام برئاسة مندوب عن الإقامة العامة وممثلين مؤهلين للمصالح الإدارية وشخصيات لها دراية بأمور الصناعة التقليدية(5) وتوجت بإصدار ظهير 13 ماي 1937 المتعلق بإنقاذ الحرف، أما على المستوى المحلي فإن المسألة أخذت باهتمام اللجنة البلدية المختلطة والتي اتخذت في اجتماعاتها مجموعة من القرارات للتخفيف من أزمة الحرفيين كتخفيض رسوم البيع(6) وتخصيص اعتمادات مالية للحرف المتضررة(7).

لقد أبانت المقاومة السياسية في الثلاثينات على المستوى المحلي بسلا عن جدلية تطور الاستقلال وتجذر المقاومة.

فبقدر ما كان النظام الاقتصادي الاستعماري يطوي مراحله مخلفا ضحايا جدد في صفوف المجتمع المغربي بقدر ما كانت المقاومة السياسية المحلية بتنسيق مع المقاومة الوطنية تنوع وتجذر آلياتها ووسائلها الفكرية والاجتماعية لمواجهة نظام الحماية.

لقد شكلت مرحلة الثلاثينات فترة خصبة ومختبرا لرواد الحركة الوطنية المغربية حققوا فيها تراكما نضاليا سيجعل حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية تستند إلى إيجابيات هذا التراكم مما سيجعل النضال الوطني أصلب عودا وأحسن قدرة على التكيف مع المتغيرات الوطنية والدولية يومئذ للدفع بالمقاومة الوطنية نحو الغايات التي وجدت من أجلها في تحقيق الاستقلال والوحدة والتقدم.

مصادر البحث وهوامشه

1- وثائق المراقبة المدنية بسلا بين 1930 و1937 موجود بـ Nantes Région de Rabat Salé

Liasse 128 copie de correspondance 1930
Liasse 129 copie de correspondance 1931
Liasse 130 copie de correspondance 1932
Liasse 132 Renseignement journalier 1934
Liasse 133 copie de correspondance 1935
Liasse 134 copie de correspondance 1937

2- نص رسالة موجودة في مؤلف عبد الله الجراري: شذرات تاريخية، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة 1976 - صص 63-64.

3- Montagne (R) "Déséquilibre de l'économie indigène et soutien de l'Etat en 1937" *B.E.M N° 19* Janvier 1938 p 8.

4- صدرت الأحكام في حق المتعلمين التالين:

- عبد القادر بن بوعزة العمري: 15 يوما.
- عبد الحق بن بوبكر الزواوي: 3 أيام.
- المهدي محمد الرياحي: شهر واحد.
- عبد الله بلحاج: 15 يوما.
- عبد السلام بن أحمد بنسعيد: 8 أيام.
- عبد القادر بن محمد الشاوي: شهر واحد.
- المكي بن أحمد العلمي: شهر واحد.

5- Montagne (R), op.cit. p. 12

6- Procès verbal de la commission municipale mixte de Salé en date du 1 juillet 1937.

7- Procès verbal de la commission municipale mixte de Salé en date du 8 Mars 1937.

برنامج الكفاح الوطني لحزب الشورى والاستقلال بين سنوات 1947-1951

محمد المعروف الدفالي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
عين الشق – الدار البيضاء –

في أعقاب سياسة الانفتاح النسبي، التي نهجتها فرنسا، بعد الحرب العالمية الثانية، بمستعمراتها ومحمياتها، أسس محمد بن الحسن الوزاني العائد من منفاه بالصحراء – سنة 1946 حزبا جديدا على أنقاض «الحركة القومية» التي كان قد أسسها سنة 1937 أطلق عليه اسم «حزب الشورى والاستقلال».

وقد بدأ هذا الحزب منذ تأسيسه، متأثرا على مستوى المبادئ بأجواء المرحلة، بشكل ملفت، جسده في التركيز على القيم الديمقراطية والشعور الوطني، والتوق إلى الاستقلال، ورفض كل ما يمس الحقوق الوطنية. أما على مستوى الإيديولوجيا، فقد آمن قياديوه ومنظروه بجدوى الإصلاح، والتطور، وإمكانية الوصول إلى تحقيق الأماني بالتدريج؛ لهذا قسموا قضية المغرب بين مشكلة داخلية، يمكن حلها بواسطة إصلاحات سياسية، على أسس ديمقراطية، ومشكلة خارجية بين المغاربة وفرنسا، لا تحل إلا باستقلال المغرب.

وتبعا لذلك طلبوا بالشورى وبالاستقلال، بأسبقية «الشورى» التي أعطوها مدلول «الديمقراطية» «بالمفهوم الغربي» على الاستقلال وطريقا إليه، من منطلق اعتبار «الدستور»، و««المؤسسات الدستورية» سبيلا لترشيد المغاربة سياسيا،

وتأهيلهم لأخذ زمام الأمور بيدهم.

ولتجسيد هذه المبادئ وهذه الإيديولوجيا، بشكل ملموس وعملي، صاغ الشوريون برنامجا، ضم تصورهم لتصفية المشكلة المغربية / الفرنسية، وطريق الوصول إلى الاستقلال، عبر مرحلة انتقالية، مشفوعة بتوقيع معاهدة بديلة عن معاهدة الحماية، تحفظ لفرنسا مصالحها الحيوية بالمغرب، وتؤمن للمغرب استقلالا محفوظا بنظام ملكي دستوري.

واشتهر هذا البرنامج ـ الذي قدم إلى المراجع العليا بكل من المغرب وفرنسا، في شهر شتنبر 1947 في الأوساط السياسية، باسم «مذكرة 23 شتنبر». ومثل أي خطوة سياسية، في مثل نفس الظروف خلق برنامج حزب الشورى والاستقلال، صدى على المستوى الداخلي والخارجي توزعت المواقف فيه بين مناصرة ومعارضة. وكان من نتائجه الكبرى المساهمة في إظهار مخططات فرنسا بالمغرب على حقيقتها، وفضح التردد الفرنسي إزاء حل المشكلة المغربية، وكذا المساهمة في تقريب وجهات النظر بين أحزاب الحركة الوطنية، والتعجيل بتشكيل جبهة بينها سنة 1951.

1- الشروط العامة والخاصة المؤطرة للبرنامج:

أحاط ببرنامج حزب الشورى والاستقلال - في المرحلة المقصودة - صياغة، ومضمونا، وتقديما للمراجع الرسمية العليا، مجموعة من الشروط العامة والخاصة، الموضوعية والذاتية، التي ارتبطت بالظرفية وانعكاساتها، وبإيديولوجيا الحزب، ومبادئه، وأصوله السياسية. يمكن إجمالها في معاناة العمل الوطني في الأربعينات، وبحثه عن بديل لإخراج القضية المغربية من شرنقتها، وتحولات السياسة الدولية بعد الحرب العالمية الثانية، وتأثير ذلك على السياسة الاستعمارية بشكل عام، والمنطلقات الإيديولوجية للشوريين.

فمنذ أواخر سنة 1937، عرفت الحركة الوطنية نوعا من الركود، تسببت فيه ظروف الحرب العالمية الثانية، وتحرشات سلطات الحماية بالوطنيين وما تولد عن ذلك من اعتقال، نفي لزعامات الحركة، وقياداتها، ومن فرض لنظام الأحكام

العرفية.

ومحاولة لتجاوز الركود، وبتشجيع من التحولات التي عرفها العالم في أعقاب الحرب، طالبت الحركة الوطنية رسميا، سنة 1944 باستقلال البلاد، عن طريق رفع هذا المطلب إلى الدوائر المسؤولة، يوم 11 يناير من طرف «حزب الاستقلال». ويوم 13 يناير من طرف «الحركة القومية». غير أن سلطات الحماية، واجهت الأمر بالقمع، وسياسة الأعراض، استنادا إلى مبررات واهية، ولم تغير سياسة الانفتاح التي بدأتها سنة 1946 مع المقيم العام «ايريك لابون»، في العمق شيئا، حيث لم تتجاوز إطلاق سراح المعتقلين، وعودة المنفيين، والسماح بتكوين الأحزاب، والترخيص للصحافة، وطرح مجموعة مشاريع إصلاحات، لم تنل رضى الوطنيين الذين غمرتهم روح ما بعد الحرب وانتظروا بر الحلفاء - خاصة فرنسا - بالوعود التي قدموها، مقابل ما أسداه المغاربة إليهم من تضحيات مادية، ومعنوية، وما سقط من أرواحهم دفاعا على أراضي أوروبا ضد الفاشية.

ورغم فترة الانتظار لم ييأس الوطنيون، لأن شعارات مابعد الحرب كانت ماتزال - في هذه المرحلة تستقطب الاهتمام. فحق الأمم في تدبير شؤونها وفي تقرير مصيرها، وميثاق الأطلسي والنقط الاثنتا عشرة لترومان، ومبادئ هيئة الأمم، والتغير الواضح الذي عرفته السياسة الاستعمارية البريطانية، كانت كلها مؤشرات أمل حول ضرورة تغيير السياسة الاستعمارية الفرنسية بشكل ملموس، خصوصا بعد أعمال وتوصيات «مؤتمر حكام المستعمرات الفرنسية في إفريقيا»، الذي انعقد ببرازافيل سنة 1944، وأقر بوجوب منح المستعمرات حرية إدارية واقتصادية كبرى على أساس نظم كلية تشرك الأهالي في إدارة الشؤون العامة، وبعد القرار الفرنسي لسنة 1945، القاضي بتوسيع اختصاصات «المجالس النيابية» والذي استفاد منه، «مجلس شورى الحكومة بالمغرب»...

على أن الأمر الذي غذى الحركة الوطنية بشحنة تفاؤلية حول مستقبل جاد ضمن بعض البنود الخاصة بالمستعمرات ضمن الدستور الفرنسي الصادر سنة 1946.

فقد ورد في مقدمة هذا «الدستور» أن فرنسا تنوي قيادة الشعوب التي تحملت

أمانتها إلى الحرية، وإدارة نفسها بنفسها، وتدبير شؤونها الخاصة، حسب النظام الديمقراطي.

كما استبعدت مجمل بنوده الخاصة بالمستعمرات والمحميات، سياسة الإخضاع والمركزية المباشرة، واعترفت بضرورة المساواة في الحقوق والواجبات بين أهالي هذه المناطق وفرنسا[1]، وبدا ظاهريا من خلال ذلك أن هذا الدستور يريد وضع حد للنظام الاستعماري القديم، بمنح أهالي المستعمرات، والمحميات، حق إسماع صوتهم محليا، وفي باريس، تحقيقا لرغبة البرلمانيين الفرنسيين المتأثرين بالتقاليد القديمة عن المركزية واحتراما لنظام الحكم الذاتي كما أقره ميثاق الأمم المتحدة[2].

في ظل هذه الوضعية، وفي ظل تجاذب الحركة الوطنية بين اليأس والأمل جاءت زيارة السلطان لطنجة، وما أسفرت عنه من نتائج، من بينها تذكر الجناح المتشدد في الحماية، واستبدال المقيم العام المتفتح «ايريك لابون»، بمقيم عسكري وهو الجنرال «الفونس جوان» بدا أفق المشكلة المغربية أميل إلى الظلامية - خصوصا بعد التهليل الذي أحاطت به الصحف الاستعمارية تعيين جوان - وأصبح على الوطنيين استدراك الوضع بمبادرة تعيد مسألة الاستقلال إلى الواجهة.

هكذا اضطر حزب الاستقلال أمام ازدواجية السياسة الفرنسية بالمغرب إلى تبني سياسة مزدوجة، وجهها الأول هو التصلب والمطالبة بالاستقلال الناجز، والتأكيد على ضرورة تدويل القضية المغربية، والاستفادة من الجامعة العربية في الأمر[3]. ووجهها الثاني، نوع من الحوار غير المباشر، ومحاولة الاستفادة من الدستور الفرنسي، عن طريق السماح لمجموعة من مناضليه بالمشاركة في «مجلس شورى الحكومة» باسمهم الخاص لمراقبة ما يجري داخل المجلس، وأملا في تطويره، وكذلك إظهارا للاستعداد لأي حوار جدي وفعال حول مصير المغرب.

وعلى العكس من هذا التكتيك، استبعدت قيادة حزب الشورى والاستقلال، إمكانية أي استفادة من تدويل القضية المغربية مؤكدة أن «لا أمل في المؤتمرات العالمية»، و«الأندية الدولية والمجالس الأممية»، لأنها تحت سيطرة الأقوياء يسخرونها في سبيل مطامعهم[5]، وصنف الشوريون في هذا السياق هيئة الأمم المتحدة بأنها

«منظمة داستها الأقدام، وحكمت عليها بالإعدام، ودخلت (   ) في طور الاحتضار، متأرجحة بين مخالب الشيوعية وجبروت الدولار»[6]، وإن الحرية والاستقلال ليسا «أمانة مستودعة لدى المنظمات الأممية والهيئات الدولية الأخرى، وقدرتها على رفض مشاكل الاستعمار، معتبرين الإيمان بمفعول هذه المنظمات ليس أكثر من «إيمان العوام بظهور» «الإمام المهدي المنتظر» الذي «سيطهر الأرض من الظلم ويملأ الدنيا عدلا»[8] ومن هذا الموقف نبذوا سياسة التدويل، ورددوا أن القضية المغربية لا تحل إلا داخليا وبيد المغاربة. وبنفس حدة فقدان الثقة في نتائج تدويل القضية المغربية، رفض الشوريون كذلك المشاركة في مجلس شورى الحكومة معتبرين إياه «مؤسسة شوهاء»، وتخدم مطامع الاستعمار، وتؤيد سياسة الحماية»[9].

هكذا ومن منطلق هذه المواقف، وضرورة الابتعاد عن سياسة التصلب والإيمان بإمكانية الدفاع عن حقوق البلاد بطرق ووسائل أخرى جعل الشوريون «على رأسها الحكمة والسياسة»[10]، «والموعظة والمجادلة» بالتي هي أحسن[11] ومنطلق الإيمان بجدوى الإصلاح الذي عرفوه بأنه «إنكار للوضع القائم والثورة على تقاليده وأعرافه»[12] والإيمان بضرورة حل المشكل المغربي داخليا، وبيد المغاربة، ومحاولة لاستغلال التحولات النظرية في السياسة الاستعمارية الفرنسية صرح زعيم الحزب في «لوباريزيان لوبيري» "Le Parisien libéré" بأن حزب الشورى والاستقلال يقبل مبدئيا «تكوين معاهدة جديدة مع فرنسا، تكون الغاية منها ضمانة استقلال المغرب، وتنظيم العلاقات المغربية الفرنسية، والاحتفاظ للفرنسيين بمصالحهم المشروعة»[13] ملمحا للاستعداد لإجراء حوار جدي في هذا الشأن. وقدم الحزب في يناير من سنة 1947 لفانسان أوريول "Vincent Auriol" رئيس الجمعية الوطنية الفرنسية، أثناء زيارته للمغرب مذكرة بين فيها وجهة نظره في حل المشكلة المغربية[14].

ولما وصل المقيم العام «جوان» إلى المغرب، فوجئ الشوريون ببعض التصريحات التي فاه بها أثناء تحركاته ببعض المدن والجهات وحتى في باريس حول الحماية، ومطالب الحركة الوطنية، واعتبروها دعوة للوطنيين إلى حوار مباشر حول استقلال

المغرب[15].

فقد صرح هذا المقيم بأن «معاهدة الحماية التي خولت لفرنسا مهمة الوصاية على المغرب، وإصلاح أحواله... ليست بخالدة، وستنتهي يوم تتمكن الدولة المغربية من إعداد أطرها الإدارية والمتخصصة»[16]، موضحا أن مهمة فرنسا هي مساعدة المغرب على إعداد تلك الأطر[17]، كما صنف مطالب الحركة الوطنية التي طالما تنكرت لها سلطات الحماية بأنها «عادلة ومعقولة، وإنجازها يتطلب الزمن والحكمة»[18].

ولم يتوقف هذا المقيم عند تصريحاته التي راهن بها على تهدئة الوطنيين وربما استقطابهم إلى جانبه، بل وازى بينها وبين اتصالات مع تنظيماتهم، حاول من خلالها استدراج حزب الشورى والاستقلال للمشاركة في مجلس الحكومة، دون جدوى، كما استند إلى تقرير الصحفي الإنجليزي «جورج فرازير»[19] حول الأحزاب الوطنية ليخرج بفكرة فتح حوار مع هذا الحزب. وفي سبيل هذه الفكرة وظف وسيطين مغربيين كان أحدهما هو «امبارك البكاي» باشا صفرو، والثاني حسب إشارة لعبد الهادي بوطالب في مذكراته، مشارك سابق في عمل وطني سياسي معتدل، يعمل في الميدان الحر مستقلا عن الإدارة الفرنسية، كان يقوم بدور التوفيق بين «جوان» ومطالب الوطنيين[20] وكنتيجة لهذه الوساطة تلقى المكتب السياسي لحزب الشورى والاستقلال دعوة من الإقامة العامة تم على إثرها لقاء بينه وبين المقيم العام يوم 10 شتنبر 1947، تمخض عنه تقديم البرنامج المقصود في المداخلة يوم 23 شتنبر 1947، بواسطة وفد مكون من الأمين العام للحزب محمد الوزاني وأعضاء المكتب السياسي عبد القادر بن جلون وعبد الهادي الشرايبي ومحمد العربي العلمي، إلى السلطان محمد بن يوسف وإلى المقيم العام جوان ليسلم نسخة منه للحكومة الفرنسية.

2- مضمون البرنامج:

وصف الشوريون استجابتهم لرغبة المقيم العام «جوان» في فتح نقاش مباشرة مع الحركة الوطنية المغربية، ولقاءهم به بأنها كانت خطوة «مسؤولة من حزب

سياسي مسؤول في ظرف سياسي تاريخي دقيق»[21]، وفرصة كان من اللازم «اغتنامها لفائدة قضية الاستقلال، الذي كان الوطنيون يبحثون عن مخرج سالك إلى تحقيقه»[22]، وأرجعوا أسباب تقديم برنامجهم بعد هذا اللقاء إلى محاولة تدارك تدهور العلاقات المغربية الفرنسية الناجم عن فقدان ثقة المغاربة في الفرنسيين وتسلط الإدارة الفرنسية، واستبدادها بكل السلطات وما نتج عن ذلك من ظلم وتعسف، واختلال سياسي واجتماعي واقتصادي كرس دونية المغاربة[23]، مقتنعين بأن هذا التدارك لا يمكن أن يكون إلا عن طريق التمسك بالواقعية، وتصور وتطبيق الحلول، وضرورة التزام فرنسا بالاستعداد لتفهم المغرب والتفاهم معه[24].

وخوفا من أي اتهام بالارتجال أو التسرع في فهم المشكلة المغربية وفي تصور حلول مستقبلية لها، أكدوا باستمرار أن برنامجهم «ثمرة تفكير متصل في أصول الأزمة المغربية وعوارضها»[25].

أما إذا عدنا إلى هذا البرنامج، فإننا نجد أن فكرته الرئيسية تقوم على المطالبة بفتح مفاوضات بين المغاربة والفرنسيين، من أجل حصول المغرب على استقلال تدريجي، عبر مرحلة انتقالية[26]، يتم فيها انتقال المغرب من «طور الحجر إلى طور الرشد السياسي، ومن نظام الوصاية إلى عهد الحرية»، عن طريق تخويل المغاربة بالتدريج حق التسيير والتصرف، عبر عدة إجراءات هي:

- تأليف حكومة وطنية مغربية مؤقتة، لها حرية التصرف في أداء مهامها، وتوجيه المغرب نحو الاستقلال بأسرع الطرق، عن طريق نهج سياسة حازمة للإصلاح الأساسي في كل ميادين العمل وإعداد الأطر القادرة على تدبير شؤون البلاد.

- إلغاء معاهدة الحماية، وتعويضها باتفاق مؤقت مكون من بنود تحدد المرحلة الانتقالية، وتحدد مدتها، وتنسق العلائق المغربية الفرنسية.

- تكوين مجلس وطني توكل إليه مهمة وضع دستور يؤكد على فصل السلطات ويضمن الحريات العامة، ويجعل من بلاد المغرب دولة ملكية دستورية، دينها الإسلام ولغتها العربية.

- إلغاء النظام المباشر، ومغربة الإدارة بالتدريج في سائر المراتب.
- إلغاء المناطق العسكرية.
- تنظيم الجيش الوطني، والشرطة المغربية، على أسس استقلالهما وإناطتهما بمهمة المحافظة على النظام، وحماية التراب الوطني المغربي.

واقتراح برنامج الشوريين إلى جانب إجراءات المرحلة الانتقالية، خطوتين إجرائيتين عمليتين، إحداهما تتم قبلها أو موازية لها، والثانية بعدها. فأطلقوا على الأولى اسم «الجو السياسي» قاصدين بذلك تهيئ المغاربة نفسيا، ومعنويا إلى واقع جديد، يوجههم نحو الرشد السياسي وحرية تقرير المصير من خلال:

- إعلان الفرنسيين رسميا حق الشعب المغربي في الاستقلال.
- إلغاء كل القوانين والتشريعات الجائرة والاستثنائية.
- إصدار عفو عام يشمل كل المغاربة ضحايا الاضطهاد. أما الخطوة الثانية، فتأتي كما أسلفنا في نهاية المرحلة الانتقالية وتتضمن اعتراف فرنسا باستقلال المغرب، وحريته، وكامل سيادته وإبرام معاهدة حقيقية بين الطرفين تقوم على التحالف، والمودة بينهما وقد عبر الشوريون في إطار برنامجهم عن الاستعداد الكامل لتحمل المسؤولية، والاضطلاع بأعباء إدارة الشؤون العامة إذا ما أظهرت السلطات الفرنسية استعدادها لتغيير سياستها بالمغرب جذريا، لتلائم غايات المغاربة، واستعدادها لتغيير مواقف التردد والاضطهاد، وسياسة التسويفات والمماطلات والحلول العوجاء.

3- صدى البرنامج:

لم تعارض حكومة باريس برنامج الشوريين بعد إطلاعها عليه، وأعطت لمقيمها العام بالمغرب الضوء الأخضر للدخول في حوار معهم على أساسه، انطلق أواخر شهر نونبر من سنة 1947، عبر لقاءات بحضور ممثلين عن سلطات الإقامة، وثلاثة عناصر شورية هي: محمد حسن الوزاني وعبد القادر بن جلون وعبد الهادي الشرايبي.

وفي تلك اللقاءات حرص الشوريون بحذر شديد على أن لا يتجاوز الأمر

مستوى حوار أولي لمفاوضات بين الحكومة الفرنسية والحركة الوطنية برمتها. وبمجرد تسرب خبر تقديم البرنامج وخبر بداية الحوار انفجرت ردود فعل سياسية حوله توزعت بين التأييد والاستنكار.

وانطلقت ردود الفعل الأولى من مصر لعدة أسباب نذكر من بينها الاهتمام الكبير الذي أصبحت توليه الأوساط العربية لقضايا الشمال الإفريقي بعد تأسيس الجامعة العربية، والانسجام الموجود بين البرنامج، وبرنامج الحركة الوطنية المصرية خصوصا في مسألة الاستقلال التدريجي، ومسألة الدستور، وتأييد محمد بن عبد الكريم الخطابي لمشروع الشوريين[27] وصدور ردود الفعل الأولى لحزب الاستقلال بصدده من القاهرة.

وقد أدى اهتمام الصحافة الفرنسية بمشروع حزب الشورى والاستقلال إلى إيفاد هذا الأخير «محمد العربي العلمي» عضو المكتب السياسي مندوبا إلى مصر لشرح الخطوات الأولى للبرنامج، والاتصال بابن عبد الكريم.

وقد أيد المشروع بالإضافة إلى محمد بن عبد الكريم الخطابي كما أسلفنا، حزب الوفد المصري، وبعض المفكرين والمثقفين المصريين[28]، باعتباره برنامجا «صالحا لحل المشكلة المغربية بدون دماء»[29]، كما أيده من الأوساط السياسية المغربية، حزب الوحدة والاستقلال، وحزب الإصلاح الوطني الذي اقترح ضرورة إطلاع «لجنة تحرير المغرب العربي على سير المفاوضات»[30] بينما تميزت مواقف الحزب الشيوعي بالتأييد تارة والمعارضة أخرى. أما حزب الاستقلال فقد رفض البرنامج شكلا ومضمونا، وشن حملة انتقاد واسعة ضده، فاعتبر مطلب الدستور سابقا لأوانه «يجب أن يطرح بعد الاستقلال وليس قبله»[31] معتبرا أي دستور في ظل الاستعمار مجرد «وبال على البلاد وتنظيم للاحتلال»[32] وندد بمطلب المرحلة الانتقالية بدعوى التقائها مع مخطط المقيم العام في تجريد الملك من السلطة التشريعية[33] وكما عارض الاستقلاليون مطلب الدستور، والمرحلة الانتقالية، عارضوا فكرة الحكومة المؤقتة وفكرة الاتفاق المؤقت معتبرين إياها «عاملا قد يخرج القضية المغربية من وضعها الدولي المؤطر بمعاهدة الجزيرة الخضراء، إلى وضعية

ثنائية بين المغرب وفرنسا، مع ما يترتب عن ذلك من هيمنة للنفوذ الفرنسي»[34]

واعتمادا على الانتقادات التي وجهها حزب الاستقلال لبرنامج الشوريين، اتهمهم بالعمل من أجل تسهيل دخول المغرب مشروع «الوحدة الفرنسية»[35].

وقد أثرت انتقادات حزب الاستقلال كثيرا في الشوريين، ودفعتهم إلى الرد عليها، بشكل متتابع ومسترسل طيلة الفترة الممتدة بين 1949 و1950 تقريبا. وكانت ردودهم في مجملها تتهم الاستقلاليين بالسبق للتعاون مع الحماية عندما دخلوا في مباحثات سنة 1946 مع المقيم العام «ايريك لابون»، وعندما شاركوا في مجلس شورى الحكومة[36]، كما اتهمتهم بالميل «إلى احتكار الرأي السياسي والاستبداد بالعمل دون... الهيئات والأفراد»[37]، وبالجمع بين المتناقضات عن طريق الدخول والمشاركة في مجلس شورى الحكومة، كتصرف معتدل، والمطالبة بالاستقلال الناجز كتصرف متطرف[38]. واستنادا إلى مجمل هذه الانتقادات نعتوا معارضة حزب الاستقلال لبرنامجهم بأنها «معارضة حزبية مقيتة تضحي بقضية البلاد الكبرى في سبيل غايات وأغراض خاصة»[39] وتمنوا لو كانت معارضة الاستقلاليين لمشروعهم بمشروع أحسن منه لتحقيق استقلال البلاد[40]

ورغم الخلافات التي تعمقت بين التنظيمين بسبب برنامج حزب الشورى فإن هذا الأخير حاول تحسين علاقته بحزب الاستقلال، فوجه له دعوة اقترح فيها إقامة جبهة وطنية بينهما لتوحيد الخطط ووسائل العمل[41] في الداخل تعزيزا لجبهة، «لجنة تحرير المغرب العربي» بالخارج، غير أن قادة الاستقلاليين رفضوا الدعوة بحجة ما أسمته «الفوارق الجوهرية بين الحزبين»[42]، ثم اشترطوا على الشوريين بعد أن جددوا الدعوة بنفس السنة (1950)، إلغاء برنامجهم والتخلي عليه «بكيفية صريحة لا يبقى معها التباس أو غموض»[43] فرفض حزب الشورى والاستقلال الشرط متشبثا ببرنامجه بدعوى صلاحيته من وجهة نظر كل المهتمين بقضايا المغرب.

4- مصير البرنامج:

اعتبر الشوريون برنامجهم مجرد قاعدة للعمل المستعجل، وأساسا للحوار الذي يمكن أن يجري لحل المشكلة المغربية[44] ويمهد لتنظيم مرحلة الانتقال من عهد

الحماية إلى طور التنظيم الدستوري في سبيل الاستقلال[45].

ولكي يكونوا منطقيين مع أنفسهم وأهدافهم، حرصوا على تبليغ الملك محتوى ما وصلت إليه اللقاءات غداة كل اجتماع مع مسؤولي الحماية، كما عبروا عن حريتهم في الحوار مع سلطات الحماية حول برنامجهم، بمبادرات ملموسة، فقدموا مقترح مشروع للاتفاق المؤقت مع فرنسا[46] اقترحوا فيه تحديد مدة المرحلة الانتقالية في سنتين، كما اقترحوا دستور مصر لسنة 1923 للاستئناس في وضع الدستور المغربي المرتقب.

وقد كانت النقطة الوحيدة، التي حسمت فيها لقاءات الحوار، ووقع الاتفاق حولها، هي مسألة تكوين مجلس تأسيسي لصياغة دستور مغربي، أما النقط الأخرى فلم تتوصل لأي تقارب لوجهات النظر حولها، بل أن مسألة الاتفاق المؤقت عرقلت أي تطور حقيقي للحوار، الذي توقف بشكل مفاجئ ونهائي.

ولا تفصح الوثائق المتوفرة عن الطريقة التي سار بها ذلك الحوار، ولا عن الأسباب التي أدت إلى توقفه، فقد أرجع الشوريون تلك الأسباب تارة إلى ما اسموه «المكائد الحزبية»، والتي قصدوا بها معارضة حزب الاستقلال لبرنامجهم، وتارة أخرى عن الجو المضطرب الذي ساد إثر توتر علاقة القصر بالإقامة العامة وثالثة عن تراجع سلطات الحماية عن سياستها وفقدانها الشجاعة اللازمة لاستمرار الحوار[47]، وطمعها في تنازلات، تمس سيادة الشعب المغربي[48].

ومهما كان الأمر فإن حزب الشورى والاستقلال، انتظر طويلا استئناف الحوار مع سلطات الحماية دون جدوى، قبل أن يتأكد من أن الإقامة العامة طوت برنامجه «طي السجل للكتاب»[49]، وأن «المسؤولين الفرنسيين تخلوا عن الالتزام بالمفاوضات على أسسه»[50]وأن الجنرال جوان مجرد «حلقة من سلسلة وتابع ليس بمبتدع ولا مجدد»[51].

ولا شك أن السبب الرئيسي الذي أوصل حزب الشورى والاستقلال مع الإقامة العامة إلى «الباب المسدود» هو اختلاف وجهة القصد التي توخاها كل طرف، حيث كان حزب الشورى والاستقلال يطمح إلى استقلال عبر إصلاح سياسي دستوري

تضمنه معاهدة بديلة لمعاهدة الحماية، بينما كانت الإقامة العامة، ومن ورائها حكومة باريس، غير مستعدة للذهاب أبعد من البحث عن متعاون معتدل من داخل الحركة الوطنية تعطي من خلالها عن نفسها صورة السلطة المرنة المستعدة للحوار، وتمرر بعض الإصلاحات، في إطار نظام الحماية، وربما في أفق المشاركة، وتطبيق فكرة «الاتحاد الفرنسي» الذي طالما اعتبره بعض الشوريين نوعا من التسلط معززين موقفهم بشعار «المغرب للمغاربة وحدهم» وبذلك كان الحوار بين الطرفين كما وصفه الشوريون أنفسهم غير ملموس بأنه نوع من «حوار الصم».

خاتمة

استمرت مسألة «البرنامج» عالقة بين الفرنسيين، والحركة الوطنية منذ مطلع الثلاثينات، فحاول الوطنيون تجاوزها سنة 1934 بتقديم دفتر المطالب، دون أن يفلحوا، وسنة 1944 بالمطالبة بالاستقلال، فما كان حظهم أوفر من السابق.

ولم يخرج فشل الشورى والاستقلال في محاولته سنة 1947 عن نفس تصور سلطات الحماية، وحكمها على الحركة الوطنية بالقصور. إلا أن صد الإقامة العامة عن برنامج الشوريين حمل معه، إيجابية تقارب الأحزاب التي تعذرت قبل ذلك.

فقد تزامن هذا الفشل مع تفاقم المشاكل بين القصر والإقامة العامة وبين الإقامة العامة، وحزب الاستقلال. وانسحب عناصر حزب الاستقلال من مجلس شورى الحكومة إثر اختلافهم مع المقيم العام، فساهمت هذه الأوضاع في خلق أرضية مشتركة سهلت مأمورية التقارب، وتأسيس جبهة الأحزاب سنة 1951 من حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال وحزب الإصلاح، وحزب الوحدة والاستقلال.

ورغم توقيع حزب الشورى والاستقلال على ميثاق هذه الجبهة الذي أكدت بعض نقطه على رفض أي مفاوضات مع سلطات الحماية قبل الاستقلال، وضرورة تدويل القضية المغربية وطرحها على أنظار هيئة الأمم المتحدة، فإن الشوريين لم يتنكروا أبدا لبرنامجهم وحافظوا عليه كوثيقة يذكرونها بخير كلما حلت مناسبة.

الهوامش

1- انظر Hubert Deschamps, L'union français

Histoire - institution - réalités. Paris - Albert Charton 1952 p: 79

2- المرجع نفسه ص 84

3- حول بدايات اهتمام حزب الاستقلال بتدويل القضية المغربية.

انظر عبد الكريم غلاب : من رابطة الدفاع عن مراكش حتى مكتب المغرب العربي. الرباط - منشورات حزب الاستقلال 1983 ص 13 وما بعدها.

4- محمد حسن الوزاني : جهاد مصر في سبيل استقلالها. الرأي العام عدد 17 دجنبر 1947

5- المرجع نفسه

6- عبد الهادي الشرايبي : منظمة الأمم المتحدة من فشل دريع إلى إخفاق شنيع، الرأي العام، عدد 15 أكتوبر 1947.

7- محمد حسن الوزاني : شعوب جامعتها الحرية. الرأي العام. عدد 24 دجنبر 1947.

8- محمد حسن الوزاني : لتحقيق الأهداف الكبرى. الرأي العام عدد 7 أبريل 1948.

9- محمد حسن الوزاني : يحلون أعواما، ويحرمونه أياما. الرأي العام. عدد 4 غشت 1950.

10- الوزاني محمد حسن : شعوب جامعتها الحرية. م.س.

12- أبو الوفاء : القرآن والدستور. الرأي العام عدد 8 يوليوز 1948.

13- عدد 23 غشت 1946.

14- انظر : Dialogues de sourds ou les pourparles franco-marocains 1947-1950

Les cahiers du Maroc. Bureau d'édition de P.O.I N° 2 décembre 1951 p: 9

15- عبد الهادي بوطالب : ذكريات وشهادات ووجوه - الحلقة 112. الشرق الأوسط. عدد 1990/6/27

16- أورد التصريح عبد الهادي بوطالب بالمرجع أعلاه.

17- المرجع نفسه.

18- نفسه.

19- جورج فرازير صحفي إنجليزي كان يقيم في العاصمة الفرنسية باريس، مراسلات لعدة صحف أمريكية وإنجليزية، ربطته علاقات ودية مع عدد من الوطنيين المغاربة في الأربعينات.

20- انظر عبد الهادي بوطالب : مذكرات... الحلقة 112 م.س.

21- المرجع نفسه.

22- نفسه.

24- انظر نص البرنامج في نهاية المداخلة.

25- من الرسالة التي وجهها الشوريون إلى الملك صحبة مشروع برنامجهم.

26- لمزيد من التوضيح انظر نص البرنامج في نهاية المداخلة.

27- نشر تأييد ابن عبد الكريم بجريدة الأهرام. ونقلته عنها جريدة الرأي العام. عدد 14 يناير 1948.

28- انظر عبد الهادي الشرايبي، طور جديد من الكفاح - الرأي العام. عدد 21 يناير 1948 .

29- انظر الرأي العام. عدد 3 مارس 1948 .

30- انظر الرأي العام. عدد 21 يناير 1948 .

31- من رسالة وجهها المجلس الأعلى لحزب الاستقلال إلى فروع الحزب أوائل 1948 بشأن ايديولوجية وبرنامج حزب الشورى والاستقلال. انظر علال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب... ص 389-382

32- انظر غلاب عبد الكريم، الحياة السياسية في العالم العربي. العلم. عدد 5 دجنبر 1949

33- من رسالة المجلس الأعلى لفروع الحزب... م.س.

34- المرجع نفسه.

35- المرجع نفسه.

36- أبو رجاء: دعايات ومناورات. الرأي العام. عدد 3 مارس 1948 .

37- من ندوة صحفية عقدها محمد بن الحسن الوزاني في فبراير 1951. انظر الرأي العام. عدد 16 فبراير 1951 .

38- المرجع نفسه.

39- عبد الهادي الشرايبي: المرحلة الانتقالية أو هذه المرحلة. الرأي العام عدد 13 شتنبر 1949 .

40- محمد حسن الوزاني: فصل الخطاب. الرأي العام عدد 1 دجنبر 1950 .

41- الرأي العام عدد 8 مارس 1951

42- المرجع نفسه.

43- المرجع نفسه.

44- انظر الرسالة التي قدمت البرنامج للملك... م.س.

45- انظر نص البرنامج به نهاية المداخلة.

46- مشروع نص الاتفاقية منشور بكتاب: IZARAB. M. H. Ouazzani *Entretiens avec mon père*: Fes. Fondation M.H. O. pp. 188-196.

47-من الندوة التي عقدها الوزاني في فبراير 1951 م.س.

48- انظر الرأي العام. عدد 13 غشت 1948 .

49- الشورى من وحي 23 شتنبر. الرأي العام. عدد 23 شتنبر 1949 .

50- محمد حسن الوزاني: موقفه السياسي من خلال مذكرة 23 شتنبر الرأي العام عدد 22 شتنبر 1950 .

51- محمد حسن الوزاني: سياسة إرهاب ومتمنيات. الرأي العام عدد 14 أبريل 1948 .

LE MAROC EN LUTTE POUR SON INDEPENDANCE

Dans un mémorandum remis au Gouvernement français

LE PARTI DEMOCRATE DE L'INDEPENDANCE

affirme le droit du peuple marocain

A DISPOSER LIBREMENT DE LUI-MEME
LE PROBLEME MAROCAIN

Il est un fait indéniable que les relations franco-marocaines ne sont pas à l'heure actuelle, empreintes de cordialité et de compréhension. Il est un fait aussi que ces relations tendues ne font qu'empirer de jour en jour et qu'elles menacent même de provoquer une coupure de plus en plus profonde, sinon définitive. entre Marocains et Français.

Du côté du peuple marocain, il y a méfiance et désillusions à l'égard des Français et de l'administration française; à l'égard des premiers. parce qu'ils vivent dans ce pays en marge de la vie marocaine, incompréhensifs et insensibles aux souffrances et aux maux dont souffre ce peuple; à l'égard de l'administration, parce qu'elle s'est substituée entièrement à la souveraineté marocaine et a érigé dans le pays, au nom du prestige mal compris de la France, un système organisé d'arbitraire politique, social et économique.

Du fait aussi bien de la confusion des pouvoirs que la revendication de droits qu'aucune CONSTITUTION n'a déterminés et organisés, des heurts se produisent fatalement et très fréquemmcnt entre le Maghzen et la Résidence, créant entre eux une tension de plus grande.

Du côté de la colonie et de l'administration françaises de ce pays. il ya, outre l'incompréhension des problèmes du peuple marocain et de ses aspirations légitimes, de l'intransigeance dans la défense de leurs intérêts et de leurs privilèges, et du mépris souvent affiché ostensiblement à l'égard d'un peuple qu'ils considèrent toujours comme un peuple mineur, incapable d'évoluer et de se gouverner par lui-même.

Si l'on ajoute à cela la déception vive et profonde de voir les promesses les plus solennelles faites au moment du danger complètement foulées au pied après la victoire. l'oubli inadmissible des sacrifices humains et matériels consentis par le peuple marocain pour le triomphe de la cause commune de liberté et d'émancipation. La mauvaise volonté. sinon la mauvaise foi, avec lesquelles certaines autorités françaises de ce pays traitent les problèmes les plus importants et les plus sacrés qui concernent le peuple marocain, l'on ne peut etre étonné des progrès que fait la mésentente entre Marocains et français, Le danger de cet état d'esprit ne peut être mésestimé et il importe de le faire

disparaître de toute urgence, dans l'intérêt du Maroc et de la France.

L'absence d'une solution radicale et adéquate au problème perpetue dans le pays un malaise politique qui envenime de plus en plus les rapports franco-marocains et risque de dégénerer en veritable antagonisme.

La solution du problème marocain ne saurait être recherchée dans la continuation ou une nouvelle application du système de protectorat qui est à l'origine du grand malaise actuel et qui a fini par faire faillite.

Ce point de vue est également celui qu'on trouve, depuis quelque temps, soutenu et défendu dans la presse française, dont l'un des plus importants organes écrivait tout récemment: "Il faut aller vite et prendre les choses à la base. Pour la Tunisie et pour le Maroc, notamment, il convient d'en finir sans retard avec la solution du protectorat, qui appartient à l'Histoire et est maintenant révolue." (Georges Duhamel, le Figaro, 7-7-1947.)

M. le général Juin, porte-parole du Gouvernement français au Maroc, ne cesse, de son côté, d'énoncer en termes nets et précis que le traité du 30 mars 1912 a une fin et qu'il sera remplacé par un nouveau traité.

NOTRE BUT GENERAL

Le Parti Démocrate de l'Indépendance se propose, comme l'indique son nom, d'oeuvrer par tous les moyens en son pouvoir pour l'avènement au Maroc, au profit du peuple marocain, d'une vraie démocratie politique, sociale et économique, ainsi que pour la restauration et le plein exercice de la souveraineté nationale, dans le cadre de l'intégrité territoriale du pays et de son unité politique. et sous l'égide d'une monarchie constitutionnelle.

PLAN D'ACTION IMMEDIATE

a) Méthodes et moyens.

Le Parti Démocrate de l'Indépendance poursuivra la réalisation de tels objectifs nationaux:

1° En recourant à la voie des négociations;

2° En faisant preuve de réalisme autant dans la conception des solutions à apporter aux divers problèmes marocains que dans l'application de telles solutions, ceci en raison des conditions de vie propres au peuple marocain et de l'état d'évolution actuel de ce pays;

3° En admettant une étape de transition qui permettra au Maroc de s'organiser librement et de s'acheminer par les voies les plus rapides vers son avenir plein de promesses et vers son nouveau destin libre c'est-à-dire sa pleine souveraineté et son indépendance, garanties par un traité d'alliance et d'amitié librement consenti:

4° En faisant franchement appel à la France et en lui demandant de fournir au peuple marocain la preuve de son esprit de compréhension, de sa bonne volonté, de ses dispositions conciliantes, de son propre libéralisme et de sa clairvoyance politique.

Cet appel à la France est, de notre part, le témoignage de notre bonne volonté. Il est également l'expression de notre ferme espoir que la solution du problème marocain soit trouvée sur place et à Paris.

b) Climat politique.

Il faut d'abord créer au Maroc un climat de détente. Cela est nécessaire pour faire passer le Maroc de son état de malaise à celui de vrais progrès politiques materiels et moraux qui doivent l'orienter résolument et le plus rapidement possible vers sa majorite politique et la libre disposition de ses destinées. Ce climat politique favorable peut être obtenu:

1) En proclamant officiellement, au nom de la France, le droit du peuple marocain à disposer librement de lui-même dans le plus bref délai, à la primauté de ses intérets dans son propre pays et à la pleine sauvegarde de sa souveraineté et de son indépendance nationales.

2) En abrogeant toutes les lois draconiennes et la législation d'exception qui demeurent en vigueur au Maroc et qui frappent plus particulièrement le peuple marocain et handicapent son évolution générale;

3) En décretant l'amnistie politique au bénéfice de tous les Marocains victimes de l'arbitraire;

4) Le climat politique pourra précéder ou accompagner la période de transition destinée à permettre au Maroc de passer sans heurts et handicap de la minorité à la majorité et de la tutelle à la liberté.

c) Période de transition.

Une période de transition est nécessaire pour faire passer le Maroc de son régime politique actuel, périmé et impopulaire, à un nouveau régime de démocratie et d'indépendance.

Cette période de transition devra rendre effective l'autonomie (self gouvernment) du Maroc et lui assurer tout le développement constitutionnel, sans lequel il n'y aura ni réel progrès, ni vraie liberté pour le peuple marocain.

La période de transition sera caractérisée par:

1) La formation d'un Gouvernement national marocain. Il sera provisoire, mais responsable et solidement établi. Il jouira de la confiance de la nation et de Sa Majesté le Sultan et aura toute liberté d'action pour s'acquitter de sa mission fondamentale de conduire le Maroc, par la voie de la Constitution, vers sa nouvelle destinée de patrie libre et indépendante.

Le Gouvernement marocain provisoire s'imposera, entre autres tâches, celle particulièrement importante et vitale d'entreprendre une politique hardie de réforme de structure dans tous les domaines de l'activité marocaine. A titre d'exemple, ce Gouvernement organisera l'instruction primaire obligatoire et gratuite pour les Marocains des deux sexes. Il dotera les fellahs et les travailleurs marocains d'un statut social et économique adapté aux conditions de vie dans le pays en sauvegardant efficacement

leurs intérêts dans le cadre d'une coopération moderne.

Il créera les grandes écoles d'administration et de la magistrature, des écoles normales, d'agriculture, des travaux publics, des mines, etc...

2) La substitution au traité du protectorat du 30 mars 1912 d'un "modus vivendi", en attendant la conclusion d'un traité définitif d'alliance et d'amitié entre le Maroc libre et souverain et la France libre et démocratique. Ce dernier traité interviendra lorsque les conditions ci-dessus énumérées de préparation et de mise en place des organismes réguliers de la nation auront été remplies.

Le mondus vivendi contiendra les clauses garantissant l'organisation de la période transitoire. Il fixera les délais de cette période et aménagera les rapports franco-marocains jusqu'à la conclusion du traité, il sauvegardera les intérêts légitimes des Français et des étrangers.

3) L'élaboration par un Conseil national représentatif de l'opinion publique marocaine, d'une Constitution qui sera, dans le cadre d'une monarchie démocratique, la loi organique, le statut fondamental du Maroc libre de demain.

La future Constitution marocaine organisera les pouvoirs législatif, exécutif et judiciare sur le principe de la séparation; elle garantira à tous les Marocains l'égalité devant la loi, la liberté individuelle, l'inviolabilité du domicile, de la propriété individuelle et collective et de la correspondance; elle assurera la liberté de conscience, d'opinion, de réunion, d'association et de pétition dans les limites déterminées par la loi; elle garantira la liberté de la presse et de l'imprimerie et interdira la censure préventive en temps normal. Enfin, elle sauvegardera:

a) L'Islam, religion du peuple et de l'Etat marocain, ainsi que les institutions qui en découlent (Chrâa, Habous, etc...);

b) La langue arabe, langue spirituelle et nationale du Maroc;

c) Les principes de la monarchie constitutionnelle marocaine.

4) La promulgation d'une législation destinée à marocaniser progressivement l'administration du pays, à tous les échelons, en transférant, au fur et à mesure de la préparation des cadres, aux nouvelles autorités marocaines compétentes, les responsabilités exercées par les fonctionnaires français sous le régime actuel.

5) La suppression de cette anomalie propre au Maroc que constituent les "zones" dites " d'insécurité", où le pouvoir est despotique et le peuple est vassal.

6) La réorganisation autonome de l'armée et de la police marocaines, qui seront chargées du maintien de l'ordre à l'intérieur et, le cas échéant, de la défense militaire et de la sécurité du territoire national. Cette réorganisation sera entreprise avec le concours de compétences françaises sous forme de missions spéciales qui auront également pour tâche d'organiser la défense commune.

Telles sont les grandes lignes du programme minimum que le Parti Démocrate de l'Indépendance croit devoir proposer pour la période de transition entre le régime du protectorat et celui de l'organisation constitutionnelle en vue de l'indépendance.

Ce programme, que le parti adopte comme base principale de son action immédiate, est destiné, dans son ensemble, a permettre d'apporter, dans le système général du gouvernement et de l'administration du pays, tous les changements profonds qui sont rendus nécessaires tant par l'évolution nationale du peuple marocain que par la gravité des circonstances politiques où vit le monde à présent.

Le parti espère voir bientôt arriver le jour où le peuple marocain pourra, dans une atmosphère de paix, faite de justice sociale et politique, s'orienter résolument, par la voie de la vraie démocratie et avec le concours loyal du Gouvernement français, vers son indépendance.

En dehors de cettc voie et de ce cadre. le parti ne conçoit point de progrès réel et rapide ni d'avenir radieux pour le Maroc, qui entend diriger sa propre évolution, redevenir maître de ses destinées et forger lui-même son avenir. En d'autres termes, le Maroc veut entrer en possession de tous les moyens et tous les instruments propres à assurer son développement politique, social et matétriel, et dans une paix publique reposant non sur la force des baïonnettes et le pouvoir arbitraire, mais sur la liberté et la justice, qui seules assureront le grand destin auquel il est promu.

La France, qui se donne une mission au Maroc se doit sans tarder de transformer radicalement sa politique et de la conformer aux nobles buts que le peuple marocain se propose d'atteindre avec son aide sincère et sans réserve. Le Gouvernement français ne doit plus tergiverser devant le problème dont il se trouve une fois de plus saisi. Il doit, au contraire, prendre conscience des dangers que présente toute politique d'atermoiements et de demi-mesures.

Il doit le faire d'autant plus que les principes des solutions à apporter aux problèmes des pays non autonomes sont déjà fixés par la Constitution française qui proclame de nouveau le principe du gouvernement du peuple, pour le peuple par le peuple (article2).

Quant au problème de la liberté des peuples, la Constitution en proclame la solution dans le préambule qui dit: "Fidèle à sa mission traditionnelle, la France entend conduire les peuples dont elle a pris la charge à la liberté de s'administrer eux-mêmes et de gérer démocratiquement leurs propres affaires."

Enfin, la Constitution répudie expressément tout système de colonisation fondé sur la force et l'arbitaire, et garantit dans les pays liés à la France l'exercice individuel et collectif des droits de la personne humaine.

Ceci est la théorie officielle. Nous demandons au Gouvemement français de mettre celle-ci en pratique, en donnant mission à ses représentants de conformer leur politique aux déclarations de principe et aux discours officiels.

Par ailleurs, la France est signataire de la Charte des Nations Unies. Comme celles-ci, elle s'engage à respecter les principes des droits de l'homme et des libertés fondamentales pour tous, de la primauté des intérêts des peuples non autonomes, de l'égalité des droits des peuples et de leur droit à disposer d'eux-mêmes.

RESPONSABILITES

Soucieux de voir rapidement le Maroc sortir de la situation faite d'incertitude et de confusion où il se trouve actuellement, pénétré de la gravité des circonstances politiques présentes, à l'intérieur et à l'extérieur, et conscient que l'heure est venue où le Maroc pourrait, dans une atmosphère rassérénée et paisible, traiter le problème de son organisation autonome et constitutionnelle. Le Parti Démocrate de l'Indépendance se déclare entièrement prêt à prendre ses responsabilités et à assurer la direction des affaires publiques sous l'egide de Sa Majesté chérifienne Sidi Mohammed Ben Yousef; son indépendance totale. Son integrité morale et son dévouement entier et éprouvé à la cause marocaine le désignent particulièrment pour diriger le pays dans la voie sûre de la démocratie et de la libération, et ils sont la meilleure preuve qu'il ne revendique pas le pouvoir pour le pouvoir, mais uniquement dans l'intéret général et le bien de la nation.

CONCLUSION

Le réveil du peuple marocain est désormais un fait accompli, et un fait avec lequel la France doit compter.

La France, pour inspirer à nouveau confiance. doit rendre à l'idée de la civilisation sa valeur spirituelle et morale.

Le Peuple marocain, qui revendique ses droits légitimes. veut vivre sa vie libre et propre.

Porte-parole de l'opinion marocaine, le Parti Démocrate de l'Indépendance, en faisant des propositions concrètes que forme son plan d'action immédiate, a la ferme conviction qu'il rend, dans les conjonctures actuelles, un grand service au pays.

La question marocaine est grave. Conscient de ses responsabilités et de la Mission, le Parti Démocrate de l'Indépendance, la pose. à nouveau. avec clarté et franchise. Le bien du pays est son seul guide.

Mohammed Hassan Ouazzani

Me A. BENJELLOUN. Avocat.

اليوسفية
ايديولوجية القومية المغربية

علي حسن
كلية العلوم القانونية
والاجتماعية والاقتصادية
– مراكش –

لم تكن عريضة المطالبة بالاستقلال، أو كما تدعى بيان المطالبة بالاستقلال، التي قدمت إلى السلطان سيدي محمد بن يوسف وإلى الإقامة العامة الفرنسية بالرباط وكذا إلى قناصل دول الحلفاء: انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية وقنصلية الاتحاد السوفياتي بالجزائر، إلا عقد ميلاد تحالف وطني جديد قرب نهاية الحرب العالمية الثانية. وبالرغم من أنه يطالب باستقلال المغرب ويرفض كل إصلاح في إطار النظام الحالي للحماية فإنه يطالب باحترام سيادة السلطان كما حددتها بنود معاهدة فاس. ولم تعد الاستراتيجية الوطنية المطالبة بالإصلاحات بل أصبحت الاستقلال من أجل الإصلاح، إلا أن أهم نتائج هذا التحالف هو انخراط السلطان العلني و«الشبيبة المغربية» في حركة المطالبة بالاستقلال الذي أكد الاجماع الوطني على هاته القضية.

إلا أن البيان يعهد قيادة المركزية الوطنية المغربية إلى السلطان الذي يعد مجرد عامل من عوامل استراتيجية الوطنية لمرحلة ما بين الحربين لمدينة فاس حيث هتف الشباب الوطني بحياة «سلطان الشباب» إلا أن الحماية أدركت بعد التفاف الوطنيين حول رمز الوحدة الوطنية وما سيجر عليها من ويلات فأبعدت العاهل فورا إلى

الرباط.

وسيدي محمد بن يوسف وهو يدافع عن صلاحياته المسلوبة من طرف سلطات الحماية ويرفض إمضاء ظهائر إصلاحات الإقامة العامة التي تهدف نسف سلطته السياسية والدينية لإقامة ديمقراطية كولونيالية رفع الالتباس حول تعايش سيادتين إحداهما نظرية والأخرى فرضها الواقع الاستعماري.

والإقامة العامة من أجل شرعيتها القانونية (عقد فاس 1912) لجأت إلى نفي السلطان الشرعي، ولم يدر بخلدها أنها قدمت للعاهل المنفي خدمة كبيرة لا تتصور، حيث تحول إلى رمز الانعتاق الوطني وحركة المقاومة وجيش التحرير انبثقت مستلهمة هذا التصور وغايتها فرض عودة السلطان الشرعي سيدي محمد بن يوسف إلى عرشه وشعبه عن طريق ما كانوا يسمونه بالإرهاب، أي إرهاب «الحزب الاستعماري». هكذا أصبح السلطان في عيون كل فئات الشعب المغربي رمزا وقضيته برنامج عمل الحركة الوطنية بكل مكوناتها، حتى أن الاستقلال شعار التحالف الوطني، أصبح قبل كل شيء، سواء بالنسبة للنخبة أو للعامة، إعادة السلطان سيدي محمد إلى عرش أسلافه بكل سلطته الدينية والدنيوية التي سلبته إياها الدولة الحامية عن طريق ممارسة سياسة الإدارة المباشرة (l'administration directe) بدل المراقبة (contrôle) وهي مفاهيم روجها المارشال ليوطي للتفريق ما بين الاستعمار والحماية، إلا أن محنة النفي أسدلت القداسة على شخصية السلطان والقداسة هنا تستمد هويتها من البرنامج التحديثي للسلطان: نشر التعليم، تحرير المرأة، معارضة عقد الحماية ثم المطالبة بالاستقلال وهو ما يمكن أن نطلق عليه «اليوسفية» وقد استطاعت استيعاب التيارات الثلاث التي تعايشت داخل الحركة الوطنية زمنا طويلا أي منذ انبثاقها في العشرينات وهي السلفي، السياسي والثقافي، أمام جماهير يافعة عبأت خلف العاهل المغربي كل الطاقات الشابة للأمة المغربية التي رأت فيه منقذها وقائدها وشكلت النساء والبروليتاريا والمقاومون القاعدة الاجتماعية «لليوسفية».

تشكل التحالف الوطني حول رمزين أحدهما تقليدي والآخر حديث، فالأول

يمثله السلطان الذي يمثل الاستمرارية التاريخية للملكية المغربية والثاني تمثله المدرسة، رمز التحديث وكلا الرمزين يعملان معا على توحيد الأمة المغربية.

من أجل خلق مجتمع مدني كانت المدرسة (التعليم) تشكل قطب الاستراتيجية الوطنية بعد تحرير السيادة الوطنية المتمثلة في استرجاع سيادة السلطان. والسلطان نفسه يشجع ويترأس حفلات افتتاح أو وضع الحجر الأساسي لبناء مدارس وطنية جديدة وعن طريق هاته المدارس يعمل الوطنيون على استقطاب وتسييس الجماهير وتكوين أطرها حتى تتمكن من أخذ مكانها الطبيعي في حركة التحرير الوطني. والمدرسة الوطنية لم تعد هي المدرسة القرآنية المجددة أو العلمية التي انبثقت عن الحركة السلفية في العشرينات، ولكن المدرسة الوطنية أصبحت مدرسة عصرية لا يميزها شيء عن مدارس الحماية سواء على مستوى المقررات أو (البيداغوجيا) (طرق التدريس) إلا أن المدارس الوطنية تخصص ساعات أكثر للغة العربية وللقرآن الكريم، مثال مدرسة سيدي محمد لحزب الاستقلال. ومدرسة مولاي الحسن لحزب الشورى والاستقلال وكلاهما بالدار البيضاء.

ثقافة جديدة ومثقف جديد انبثقا عن مواجهة الحداثة الكولونيالية (صدمة الحداثة) إذ لم يعد الفقه أساس الثقافة الجديدة، بل الأدب الذي يعطي الأولوية إلى التأمل، التفكير والنقد بدل الحفظ والاستظهار فالأدب كان يعني التحرر في الثقافة العربية الحديثة، وهي بهذا، أي الثقافة الجديدة تساهم في خلق مفهوم «المواطن» «المواطنة» بدل «الرعية» والعلاقات السلطوية الإقطاعية إلا أن منهجية الفقه وخصوصا قياس الشاهد على الغائب ظلت متجذرة لدى المثقف الوطني.

ولقد شكلت الجرائد الفرنسية في صيغتها المغربية بالشرق، المعين الذي لا ينضب لحركة النهضة الثقافية في المغرب حتى أيامنا هذه رغم أن المثقفين كانوا موزعين ما بين الإصلاح الديني (السلفية) والتسيس، وبلورة ايديولوجية وطنية، لكن قوة الأشياء غلبت تسييس الجماهير منذ 1930 لدى صدور الظهير البربري وهو ما أطلق عليه الوطنيون «الإرشاد» وهو مفهوم سلفي سياسي استعير من مجلة «المنار» والذي يعني إرشاد العوام إلى طريق الصواب، نبذ الطرق الضالة والانخراط

في الوطنية. والإرشاد هو غير «النصيحة» التي دعا إليها العلماء بعد هزيمة ايسلي مثل نصيحة الشيخ عبد الكبير الكتاني. و«الإرشاد» عند الوطنيين مفهوم مدني يهدف إلى العمل على خلق دولة وطنية كفيلة بمواصلة البناء الوطني. هكذا يمكننا تلمس مشروع جديد لمغرب الغد. وإذا كانت أجهزة الحداثة الكولونيالية هي المدرسة، القانون، الإدارة فإن الحداثة الوطنية تتلخص في التسيس والمدرسة والحزب.

لكن كيف تشكل التحالف الوطني، وما هي مكوناته وماهي أرضيته وبمعنى آخر كيف أصبحت اليوسفية ايديولوجية القومية المغربية؟

- اليوسفية أو ثورة الملك والشعب:

«اليوسفية» هي التعبير الإيديولوجي للتحالف الوطني الذي يجد صيغته السياسية في عريضة المطالبة بالاستقلال (11 يناير 1944). وإذا كان الوطنيون (السياسيون) هم أصحاب المبادرة، فإن المقاومة وجيش التحرير تزعموا هاته الإيديولوجية عن طريق «الفداء» إلى عقيدة قومية أليس أول منشور لهم وربما الوحيد يحمل «نداء محمد الخامس إلى شعبه العزيز» مزينا بصورة السلطان عنوانا للولاء والمحبة.

وقد تبلورت «اليوسفية» عبر ثلاث مراحل: الاستجابة الوطنية، تثبيت سيادة السلطان والتي تنتهي بنفي العاهل المغربي. فالمرحلة الأولى تبتدئ من 1943 أما الثانية فتمتد من 1944 حتى 1953 وهي مرحلة العمل على استعادة سيادة السلطان التي امتصتها سياسة الحماية والمطالبة بإعادة صياغة العلاقات الفرنسية المغربية على أسس جديدة تأخذ بعين الاعتبار تطور المغرب الحديث. أما المرحلة الثالثة وهي الواقعة ما بين 16 حتى 20 نونبر 1955 وهي سنوات النفي وإبعاد السلطان الشرعي سيدي محمد بن يوسف.

أ- تثبيت سيادة السلطان:

واجه السلطان سيدي محمد بن يوسف ثمانية مقيمين من أصل إثني عشر كلفوا بتمثيل فرنسا في المغرب في الفترة الواقعة ما بين 1927 و1953 عين أغلبهم في

الفترة التي تفصل ما بين 1944، سنة صدور بيان المطالبة بالاستقلال، ونفي العاهل المغربي في 20 غشت 1953. وقد حاول المقيم العام شارل نوجيس (1936 - 1943) كسب السلطان للدولة الحامية خصوصا خلال الحرب العالمية الثانية فكان إلى جانب العاهل المغربي في زياراته لمختلف مناطق البلاد سواء في القرى أو في المدن حيث عمل على تقديم السلطان في صورة أنه الحاكم الوحيد، غير أن انهزام الدولة الحامية في يونيو 1940 زعزع قناعة السلطان في قوة فرنسا التي لا تقهر. وإذا لم يستغل هذا - يقول إيناك ليب - فأنما وفاء للصداقة الفرنسية المغربية ولما تمليه النخوة والشرف المتأصلين في الشعب المغربي[1] ويؤكد ذلك روبير مونطاني قائلا «إنه بفضل صداقة الجنرال شارل نوجيس بقي السلطان وفيا لصداقته لفرنسا وفاء لم تكذبه الأحداث منذ 1939 حتى 1943»[2] والأهم أنه لما واجه الفرنسيون المعارضون نظام فيشي الموالي لقوات الاحتلال النازية قام السلطان بحماية المقيم العام الجنرال شارل نوجيس[3].

ولما طلب نفس الجنرال (نوجيس) بناء على قرار من حكومة فيشي تطبيق القوانين العنصرية على اليهود المغاربة رفض العاهل المغربي ذلك على اعتبار أن اليهود رعايا مغاربة لا سلطة لفرنسا عليهم. ورفض السلطان كذلك مغادرة عاصمته الرباط والرحيل مؤقتا إلي مكناس، حينما طلب منه ذلك الجنرال نوجيس تحسبا للغارات الأمريكية البريطانية غداة إنزالهم في إفريقيا الشمالية يوم 8 نونبر 1942، وكان رفض السلطان مبنيا على أن هذه القوات تهاجم الموالين لنظام فيشي وليس المغرب.

إلا أن لقاء أنفا في يونيو 1943 ما بين السلطان والرئيس روزفلت خارج مراقبة المقيم العام، يمثل منعطفا حاسما حسب جورج سبيلمان في تاريخ العلاقات الفرنسية المغربية، إذ لم يعد الأمر يهم إصلاحات أو إعادة النظر في مفهوم الحماية أو الانتداب، بل أصبح الأمر يتعلق بوضوح بالاستقلال[4] ويعقب على هذا الحدث صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني، فيقول «إنه بعد عشاء أنفا والوعود التي قطعت لوالدي، وضع والدي بحزم الشعب المغربي على طريق الاستقلال»[5] وفي تقرير

سري لمديرية الشؤون السياسية في دجنبر 1942 نقرأ «إن هدف السلطان هو استرجاع سلطاته كاملة (   ) في حين يرفض بوضوح تام مفهوم الحماية ويود استبداله بعقد صداقة مع فرنسا، وهو في العمق يريد أن يكون ملك المغرب وتحت سلطته المغاربة والفرنسيون والمقيمون على أرض المغرب»[6].

زيارة طنجة: 10 - 12 أبريل 1947، كان لها وقع هام على المستوى الدولي لأن طنجة آنذاك كانت بمثابة «العاصمة الدبلوماسية للمغرب» إذ كانت منطقة دولية تحت إشراف مجلس مكون من جميع قناصل الدول الأوروبية، ثم إن الرحلة لا يمكن أن تتم إلا بالمرور بالمنطقة الخليفية التي هي تحت الإدارة الإسبانية وهذا يعني سياسيا وحدة التراب الوطني. وكان آخر الملوك العلويين الذي زار هاته المدينة، المولى الحسن الأول، في 1849. ولقد صرح جلالته للصحفيين لدى وصوله لحدود المنطقة: «أنتم ترون اليوم أن المغرب أمة واحدة وعائلة واحدة وآمال الأمة المغربية هي نفسها آمال كل الأمم...» ثم أمام الهيئة الدبلوماسية «اليوم، تطالب الأمم بحقوق تتلاءم والأزمنة الحديثة، وأنه لمنطقي أن يحقق الشعب المغربي مطامحه الشرعية ويحصل على حقوقه مثل باقي الشعوب».

وكانت مفاجأة الجمهور كبيرة حينما أم جلالته بهم صلاة الجمعة بالمسجد الأعظم، واعتلى أمير المؤمنين المنبر لإلقاء الخطبة، والتي كانت رغم طبيعتها الدينية تطفح بالمعاني السياسية في تضامن إسلامي إلى حق المغرب في العيش الكريم.

أما في 10 أبريل حيث ألقى خطابه الرسمي في الساحة الكبرى لمدينة طنجة فقد أكد جلالته أن المغرب بلد عربي وله روابط متينة مع باقي دول المشرق العربي ولديه مبادرات الجامعة العربية. وختم خطابه قائلا: «إن ما نصبو إليه منذ اعتلائنا عرش آبائنا الأماجد، هو تمكين كل أفراد مجتمعنا من التمتع بالحقوق الديمقراطية» وقد لاحظ علال الفاسي «أن العاهل المغربي بزيارته لطنجة أثبت سلطته الروحية والزمنية على جزء من مملكته»[7].

إلا أن ما أثار غضب سلطات الحماية الفرنسية هو عدم الثناء على الدولة الحامية في خطاب السلطان مما أدى إلى عزل المقيم العام الليبرالي ايريك لابون وتعويضه

برجل عسكري هو الجنرال جوان.

وقد كانت خطة الوطنيين آنذاك هو رفض أي تعاون مع سلطات الحماية على أساس عقد فاس (مارس 1912). وفي هذا الصدد يقول صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني «وأدرك الملك أن على المقيم أن يكتفي اليوم باللجوء إلى إجراءات مؤقتة وأن الإصلاح الذي سبق التفكير فيه سيتحول إلى مسكنات ومهدئات بسيطة غرضها المد من عمر نظام لا نريد بقاءه كليا، ومرة أخرى قام الدليل على أن الاستقلال وحده هو الذي باستطاعته أن يسمح بتحقيق الإصلاحات الضرورية لوجود الأمة»[8].

هكذا قاوم السلطان باستماتة مشاريع الحماية الهادفة إلى المس بسلطاته، مما وضع الحماية في الميزان وهو ما أطلق عليه لفترة طويلة «الأزمة الفرنسية المغربية» لقد احتد الخلاف حول مسألة الديمقراطية وطريقة تحديث المغرب إلا أن لكل طرف مفهومه للديمقراطية والتحديث، فالإقامة العامة تهدف إعطاء الفرنسيين المقيمين بالمغرب حقوقا سياسية في إطار السيادة المشتركة أو المتداخلة (co-souveraineté) في حين يعتبرهم السلطان مجرد أجانب هذا هو جوهر الخلاف الذي أدى إلى إبعاد السلطان الشرعي.

ب- محنة السلطان:

أمام «إضراب الخاتم السلطاني» أي رفض التوقيع على ظهائر الإصلاحات اعتقدت الإقامة العامة أن الحل هو عزل السلطان، كما كان الأمر لما نصب الماريشال ليوطي في 1912 السلطان مولاي يوسف بدل أخيه مولاي عبد الحفيظ لضمان استمرار التعاون مع حكومة الحماية، ولرفض الأول أن يكون «سلطان الحماية» بعدما كان سلطان الاستقلال.

لكن نفي السلطان الشرعي سيدي محمد أذكى الشعور الوطني وجعل من محنة السلطان ملحمة نضال شعبية، بطلها رمز الكفاح من أجل الاستقلال وهكذا تمثلت «اليوسفية» نهائيا في شخص السلطان سيدي محمد: فأصبح الناس يرونه في القمر ليلا، القمر عند العرب رمز الجمال والعشق، وعتمة الليل تشكل الغطاء للتواصل السري، وصورة سيدي محمد بن يوسف تعد منشورا ذا مسحة صوفية

وطنية تتحدى أمنية الجماهير فتمكر به إذ أن قوة الاحتلال تعاقب كل من وجدته يحمل تحته صورة للعاهل المغربي تنكل به وتعذبه لأنه يخل بنظامها العام. والوطنيون أدركوا منذ ماي 1933 ثم في إقامة حفلات عيد العرش منذ 1934، ما للسلطان كرمز، من نفوذ لوحدة الأمة، خاصة وأنه في هذا الوقت كانت الإقامة العامة والوطنيون يتنافسون لكسب السلطان: ومن ربح الرهان تأكد من انتصاره، وفي الحقيقة لم يفصل الوطنيون إلا أن استعاروا استراتيجية الحماية تمثلا لمفاهيم ليوطي التي رددها كثيرا الشباب الوطني.

وأمام العلاقات التي ساءت ما بين القصر والإقامة دعا الرئيس الفرنسي فرانسوا اوريول سيدي محمد بن يوسف إلى زيارة باريس، إلا أن السلطان اشترط أن تكون زيارته مناسبة لفتح محادثات حول المشاكل السياسية التي يعيشها المغرب. وانطلاقا من هاته القناعة قدم السلطان مذكرة بتاريخ 10 أكتوبر 1952 إلى الحكومة الفرنسية مع سبع ملحقات توضيحية، حيث تقع محاكمة نظام الحماية وضرورة إعادة إرساء العلاقات الفرنسية - المغربية على أسس جديدة موافقة للعصر وملبية لمطامح الشعب المغربي. وهو ما أعاد تأكيده في مذكرة ثانية بتاريخ 2 نونبر 1950 بعد الرد الحكومي المبهم على المذكرة الأولى حيث ذكر بوضوح «أن إصلاحا جوهريا للأوضاع لا يمكن أن يتم إلا بإلغاء نظام الحماية»(9) والحق أن مذكرة 10 أكتوبر 1952 تستعيد الخطوط الكبرى لبيان المطالبة بالاستقلال في صيغة ديبلوماسية وسيظل مضمون هذه المذكرة محور المحادثات الفرنسية - المغربية حتى إبعاد السلطان سيدي محمد في 20 غشت 1953.

لم تسفر المحادثات عن أي نتيجة ودفعت الحكومة الفرنسية إلى أن يبقى الصراع ما بين المقيم العام والسلطان محصورا في حدود المغرب رغم نداءات سيدي محمد بن يوسف المتكررة لرئيس الدولة الفرنسية وفي 18 نونبر 1952 بمناسبة عيد العرش خطب جلالته قائلا: «لم نشك لحظة واحدة أن أحسن الأنظمة التي يمكن لبلد ذي سيادة ويدير شؤونه بنفسه هو النظام الديمقراطي الجاري به العمل في العالم المعاصر. وهو لا يتنافى بتاتا مع مبائ الإسلام(10) إنه يرد على اتهامات الحزب

الاستعماري وحتى بعض مثقفي اليسار الفرنسي الذي يتهمونه بالأوتوقراطية. وانتقد مفهوم الحماية الذي لا يتطور وصوره بـ«قميص طفل كبر أصروا على إلباسه نفس القميص الذي قصر وضاق كثيرا عنه»[11].

ويركز نقده للحماية في مفهوم التحديث «إذا كانت الحماية قد قدمت منذ قيامها نتائج ملموسة على الصعيد الاقتصادي، فإنها لم تقدم شيئا من هذا على الصعيد الاجتماعي ولا على الصعيد السياسي بما يتفق مع مقتضيات العصر الحديث ومع تطور الشعب المغربي»[12]

لقد اشتدت الخلافات مابين السلطان والمقيم العام الجنرال جوان الذي كان من طبيعة مغايرة للمارشال ليوطي ونوجيس اللذين كانا يكنان للسلطان احتراما وتقديرا كبيرين، إذ كان الجنرال جوان يستعمل أسلوبا فظا إذ يضرب الطاولة أحيانا[13] ففي 26 يناير 1950 طلب جوان من السلطان إدانة صريحة لحزب الاستقلال والتي رفضها الملك. واعتقد الجنرال جوان «أن الفرصة حانت للتخلص نهائيا من سلطان رفض مبدئيا المشاركة في اللعبة»[14].

فمسألة السيادة المتداخلة (co-souveraineté) تطرح لا دينية المملكة الشريفة وتنسف الأساس الإسلامي للحكم في المغرب حيث إذا كان هناك أهل الذمة محميين من طرف السلطان فإن المشروع الديمقراطي الكولنيالي يمنح حقوقا للفرنسيين المقيمين بالمغرب، ويمنعها عن المغاربة ليصبح هؤلاء الأخيرين ذميي النصارى، ذميين في وطنهم، فصوت الفرنسي يساوي 25 صوت مغربي أي كل أربع أصوات فرنسية تساوي 100 صوت مغربي.

وينظم الجنرال مؤامرة لخلع السلطان بتعاون مع بعض كبار القياد كالحاج التهامي الكلاوي والعيادي الذين أمضوا عريضة تطالب بنتيجة السلطان[15] ورغم تكرار السلطان لنداءاته إلى الحكومة الفرنسية من أجل أن تضع أن تقوم بتصريح رسمي من شأنه طمأنة النفوس بعد الأحداث الأخيرة المؤسفة، وذلك من أجل فتح عهد جديد يسوده التفاهم المتبادل»[16].

لن ترد وزارة الخارجية على المذكرة السلطانية إلا في 17 شتنبر، بعد ستة أشهر،

لتقول بعدم الاختصاص. لكن السلطان رد على الحكومة الفرنسية في 3 أكتوبر 1952 مؤكدا أن الإصلاحات المزعومة لا تهدف عمليا في روحها وتوجهاتها إلا أقسام السيادة المغربية. وذكر في بيان آخر التضحيات التي قدمها المغاربة عن طواعية لفرنسا في أحلك ساعات حياتها، وبالصداقة الفرنسية المغربية والتي بإمكانها، إذا احتفظ بها أن يتم تعايش مثمر وغني ما بين العناصر الفرنسية والمغربية في هذا البلد. وفي بيان آخر يقول جلالته «أنه من الضروري التذكير بندائنا في شتنبر 1939 لصالح فرنسا وسلوكنا الودي اتجاه الشعب الفرنسي طيلة الحرب. الشيء الذي منحنا وسام «رفيق التحرير» (Compagnon de la libèration). وفي نفس السياق يقول صاحب الجلالة الحسن الثاني: «بعد هزيمة فرنسا في جوان 1940، والذي ظل وفيا ومؤيدا للحكومة الفرنسية الشرعية، حكومة الماريشال بيتان (...) كانت المسألة بالنسبة له قضية شرف.[17]

وفشل المؤامرة الأولى، لحكمة وتبصر السلطان إلا أن الحزب الاستعماري (الإقامة العامة المعمرون بعض كبار القياد...) لن يهنأ لهم بال حتى يتخلصوا من ما سموه بسلطان الكاريان سنطرال وتم لهم ذلك ليلة عيد الأضحى الموافق ليوم 20 غشت 1953 حيث أبعد جلالته وأنجاله الأمراء المولى الحسن ومولاي عبد الله، بعيدا عن أرض الوطن بكورسيكا، حيث فتح عهد جديد في مقاومة الحماية.

بعد ثلاثة أسابيع من نفي السلطان الشرعي قام نجار صغير في الرباط يسمى علال بن عبد الله بالهجوم بالسلاح الأبيض على «سلطان النصارى» ابن عرفة وهو في طريقه إلى المسجد لتأدية صلاة الجمعة.

وهذه العملية الانتحارية فجرت في المغرب كله مجموعة من العمليات طيلة سنوات نفي سيدي محمد بن يوسف. وكانت تهدف في روحها إلى تأدية واجب ديني، رفع الظلم عن أمير المؤمنين وعودته إلي عرشه ولا أدل على ذلك من عملية السوق المركزي (Marché Central) ليلة حفلة نويل 1950 وهي أكبر احتفال مسيحي، جاءت كرد فعل على انتهاك سلطات الحماية لحرمة الاحتفال بعيد الأضحى.

حركة المقاومة المسلحة كانت تدعى حركة الفداء، وهي تعني شراء سيدي

محمد بافتداء الأنفس، وذلك واضح في نداء محمد الخامس إلى شعبه الوفي، «أن فرنسا لما أبعدت السلطان: حرمتنا من إمامنا فباسم من نقيم الصلاة؟ إنه لواجب ديني فرض عودة السلطان الشرعي من المنفى»[18].

محنة النفي أضفت القداسة على شخصية السلطان، وهذه القداسة تستمد مضمونها ليس من التقليد (البركة) ولكن من الحداثة، نشر التعليم تحرير المرأة والعمل على استقلال المغرب. هكذا كانت اليوسفية حيث أصبح السلطان في الاستراتيجية الوطنية الغاية والوسيلة رمز وملهم النضال الوطني ونشاطه خاصة في مسألة تعليم الفتيات جعل منه لوتر Luther النساء المغربيات. إذ كان أكثر تقدمية من الشبيبة المغربية la Jeunesse Marocaine المنضوية في جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي يوسف، التي قدمت له تقريرا تطالب فيه فقط بإعداد الفتاة لمهامها في البيت[19].

وكان عيد العرش المناسبة التي يعبر فيها السلطان عن مطامحه وانتقاداته فنجد كل القساريات والأسواق مزينة بصور السلطان هذا في المدن أما في القرى وفي المناطق السكنية العمالية، الواقعة غالبا في ضواحي المدن الكبرى وحيث للوطنيين ممثلين، تجد خياما منصوبة على طول الطرق الكبرى احتفالا بعيد الأمة. ويقول روبير مونطاني R. Montagne إن هذه التجمعات تساهم في خلق عصبية ذات إجماع شعبي حول سيدي محمد بن يوسف من طرف مهيجين والذين قرروا استعمال مختلف القوى الجماعية[20].

هذا الولاء لشخص السلطان والذي يأخذ أشكالا مختلفة حسب طبيعة الزمان والمكان يشكل الأساس العقائدي «لليوسفية» وقد أصدرت جريدة الاستقلال "l'Istiqlal" مقالا واضحا في هذا الشأن وعنونته رابطة الرعية – الملك le lien sujet roi في العدد السابع والصادر في 18 نونبر 1951 لكن للأسف لم يقع تعريبه رغم أهمية. فعن مفهوم الأمة المغربية تقول الصحيفة: ليس العامل المهم المؤسس لمفهوم الأمة بالنسبة للمغاربة ينحصر في الأرض والدين، اللغة والتاريخ، بل العامل المهم هو العرش، وكل العوامل الأخرى تنصهر في بوتقة هذا العامل لتعطي الوحدة، هذا

الانصهار يترجم عند أفراد الأمة المغربية ليس في شكل وعي وطني ولكن في شكل تعلق لا تنفك عراه بهذا العرش...».

ويختم صاحب المقال بقوله «أن الرابطة الرعية - الملك ستظل لحمة النضال من أجل الحصول على الاستقلال والحرية» وعن هذا يحدثنا جان لاكوتور عن ابن يوسف، ابن يوسف كلمة واحدة على كل الألسن المسألة المغربية تجد تعبيرها في اسم واحد، والناطقون باسم الأحزاب وقادتهم يرددون نفس الشعار كجماهير بوادي الأسواق».(21)

إن المساهمة السياسية «لليوسفية» تمكن في أنها عرت أسطورة الحماية وأظهرت جليا استحالة تعايش سيادتين: الأولى نظرية والثانية مفروضة بحكم الواقع، وبذلك تجاوزت مفهوم الحماية لدى ليوطي التي طرحت المراقبة contrôle بدل الإدارة المباشرة كمفهوم للحماية، وبذلك حررت الفكر الوطني من ايديولوجية المارشال ليوطي و«اليوسفية» ببعدها الروحي مكنت القومية المغربية ولأول مرة من ايديولوجية ستجمع كل قوى الأمة الحية وراء هدف واحد هو الاستقلال، وقد جددت «اليوسفية» عقيدة وعملا شرعية الملكية أما التحالف الوطني الذي وجد صيغته في عريضة المطالبة بالاستقلال فقد استعاد مضمون الثورة الحفيظية (1908) المتمثل في خلقه الدولة الوطنية.

الهوامش

1- I. Le pp, Midi, somme au Maroc P. 198.

2- R. Montagne, *Le Maroc en révolution*, P. 192.

3- G. Sipillmann, *Du Protectorat à l'Indépendance*, p. 96.

4- Ibid P; 102.

5- جلالة الملك الحسن الثاني. التحدي ص 47.

6- *Arch. Nat. F.* 60 814.

7- علال الفاسي، الحركات الاستقلالية...، ص 306.

8- جلالة الملك الحسن الثاني التحدي، ص 60.

9- جلالة الملك الحسن الثاني التحدي ص 66.

10- نفس المصدر ص 75

11- نفس المصدر.

12- نفس المصدر.

13- أنظر، قاسم الزهيري، محمد الخامس الملك البطل، الدار البيضاء 19.

14- Ch. A Julien, la Maroc face aux impérialismes, ed afrique, Paris 1977. le PP Midi somme au Maroc, op cit, P 209.

15- أنظر نص العريضة في رشيد فليس نضال ملك، ج 2، ص 166 - 167.

16- مذكرة 14 مارس 1952 إلى الحكومة الفرنسية.

17- صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني، التحدي ص 29.

18- ذكره عبد الكريم غلاب، تاريخ الحركة الوطنية، الرسالة، الرباط ج 2، ص 620.

19- انظر عبد الله الجراري. العدوتين الرباط وسلا ج 1 ص كان كاتب التقرير هو المرحوم المهدي بنبركة.

20- R. Montagne, *Le Maroc en révolution*, op e.T. P 230.

21- Simone et T. Lacouture, *Le Maroc à l'épreuve*, Seuil Paris 19 p 11.

دور الصحافة في النضال السياسي للحركة الوطنية المغربية من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الإعلان عن الاستقلال

جامع بيضا
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
– الرباط –

مقدمة

من المعلوم أن الصحافة الوطنية برزت إلى الوجود بصفة علنية ومنظمة إبان الثلاثينات من القرن الجاري سواء بالمنقطة السلطانية أو الخليفية. فظهرت بتطوان وفاس والرباط جرائد ومجلات لعبت – بالرغم من المضايقات الرسمية – دورا مهما في تعبئة المغاربة وفي التعريف بطموحات الحركة الوطنية السياسية الناشئة، كما ساهمت في جعل القراء المغاربة يتتبعون مختلف الأحداث الدولية التي كانت تسير آنذاك بالعالم قدما نحو حرب عالمية ثانية.

إن هذه الحرب قد بينت للجميع الدور الخطير الذي يمكن للإعلام أن يلعبه في التأثير على الشعوب وبالتالي على الأحداث والوقائع وقد استوعب الوطنيون هذا الدرس استيعابا جيدا لذا فلا غرو أن يهبوا، مباشرة بعد وضع الحرب لأوزارها، إلى تسخير ذلك السلاح في معركتهم السياسية الرامية إلى الانعتاق والاستقلال.

إن هذا العرض المتواضع يرمي إلى التعريف بالدور الذي لعبته الصحافة في النضال السياسي للحركة الوطنية المغربية، ولما كانت البلاد مجزأة إلى ثلاث مناطق تسيرها أنظمة استعمارية مختلفة، بالرغم من قواسمها المشتركة العديدة، فإننا

ارتأينا التطرق إلى تطور الصحافة الوطنية في كل منطقة على حدة، ثم في المهجر الذي انتقلت إليه بعد أن تعذر نشاطها تحت القهر وبعد أن اتخذت القضية المغربية بعدا دوليا.

إننا سنتفادى القيام بجرد كامل للصحف والمجلات الوطنية الصادرة بالمغرب والخارج، وسنكتفي بالوقوف على أهمها مع إبراز دورها والتيارات السياسية التي تمثلها. وقد اعتمدنا في بحثنا على دراسة مضمون معظم تلك الصحف، كما استعنا بوثائق غميسة أغلبها محفوظ في دور أرشيف أجنبية.

1- الصحافة الوطنية بالمنطقة السلطانية:

كان طبيعيا أن تعكس الصحافة الوطنية خريطة الأحزاب والتيارات السياسية النشيطة في هذه المنطقة. وهكذا ظهرت عقب الحرب العالمية الثانية صحف استقلالية وشورية وشيوعية.

1-1 الصحافة الاستقلالية:

تمثلت في صحف باللغة العربية (العلم، المغرب) وأخرى بالفرنسية (l'Opinion du peuple). وكانت جريدة العلم، التي تأسست في شتنبر 1946، أهمها جميعا من حيث نسخها اليومي ومن حيث شيوعها، فقد كان إصدارها اليومي يتراوح بين 7000 و10.000 نسخة. وقد استغل الاستقلاليون ذلك الجو الليبرالي النسبي الذي عرف به عهد المقيم العام «ايريك لابون» لإعطاء وثبة نوعية، عن طريق الصحافة، للمرحلة الجديدة من مطالبهم التي دشنوها في يناير 1944 بوثيقة المطالبة بالاستقلال. بل إنهم عززوا نشاطهم الصحافي، ابتداء من مارس 1947، بإصدار جريدة باللغة الفرنسية تمكنهم من تفسير أفكارهم وتطلعاتهم لقسم من الرأي العام الفرنسي ومن جعل صوتهم مسموعا لدى الرأي العام الدولي. وهكذا أسست بالرباط صحيفة (l'Opinion du peuple) التي كان يديرها عبد الكريم بن جلون ويرأس تحريرها محمد اليزيدي. وكان لزاما التحايل على القانون المنظم للصحافة (ظهير 27 أبريل 1914)، وذلك بتعيين شخصية فرنسية تكون مسؤولة أمام الإدارة. فوقع ذلك على عاتق عقيلة محمد الديوري، أحد الموقعين على وثيقة الاستقلال. فقد

كانت السيدة الديوري من جنسية فرنسية وسبق لها إبان الثلاثينات أن تحملت نفس العبء عندما أصدرت الحركة الوطنية l'Action du peuple بالرباط سنة 1937 .

لم تستمر l'Opinion du peuple مدة طويلة إذ توقفت في يونيو 1948 نظرا لصعوبات مادية مستفحلة بسبب الضربات المتكررة للرقابة. وبالرغم من استمرار صدور جريدة العلم، فقد ظلت الحاجة ملحة إلى منبر باللغة الأجنبية في الوقت الذي تتخذ فيه القضية المغربية أبعادا دولية. لذا، أسس الاستقلاليون، في أكتوبر 1951، أسبوعية أخرى تحت عنوان جريدة : Al Istiqlal. ومما تميز به هذا المنبر الجديد الذي كان يديره عبد الرحيم بوعبيد انفتاحه على بعض الشخصيات الليبرالية الفرنسية المتعاطفة مع المغاربة، وعلى رأسهم Pierre Parent(1) الذي كان ينشر مقالات على فصحات الجريدة، فوبخته الإقامة العامة على ذلك بأن طردته من المغرب غداة أحداث دجنبر 1952. ويضاف إلى هذه الميزة كون اهتمام صحيفة الاستقلال Al Istiqlal ينصب على الطبقة الشغيلة. فقد كانت تخصص صفحة كاملة لنضالاتها تحت عنوان Travailleurs en lutte والتي نجد ضمن مقالاتها مساهمات بأقلام بعض النقابيين المغاربة البارزين (مثل الطيب بوعزة). وهذا الاهتمام يواكب التطور الذي حققه حزب الاستقلال في عملية السيطرة على الاتحاد العام لكونفدرالية الناقابات بالمغرب (U.G.S.C.M) والتي بلغ عدد المنضوين تحت لوائها، 70.000 عامل معظمهم مغاربة سنة 1952 .

بالإضافة إلى هذه الصحف المنتمية صراحة إلى حزب الاستقلال، يمكن أن نذكر صحيفتين متعاطفتين مع هذا الحزب بالرغم من إعلانهما الحياد في النزاعات الحزبية القائمة بين أهم التيارات السياسية الوطنية. إنهما Jeune Maghrebin والشاب المغربي اللتان أسستا، الأولى سنة 1946 والثانية 1947، من طرف أحمد بوهلال كثيرا بقضايا الشباب وقدمتا له الأمير مولاي الحسن كقدوة يحتذي به. أما موقفهما من السلطات الاستعمارية، فإنهما، بالرغم من لهجتهما المعتدلة، ما فتئتا تنددان بكل تعسفاتها وتعرفان بمجهودات الأحزاب الوطنية الرامية إلى محاربتها.

1-2 الصحافة الشورية :

شهر واحد بعد صدور العلم، عقد حزب الشورى والاستقلال اجتماعا بفاس (أكتوبر 1946 تقرر فيه تأسيس جريدة ناطقة باسم الحزب، وفعلا، ظهر العدد الأول من جريدة «الرأي العام» في منتصف أبريل 1947 بعد ستة أشهر من المساعي لدى الإدارة الفرنسية.

كان عنوان الجريدة مكتوبا وسط رسم يمثل مجلسا برلمانيا يوحي بالخطة السياسية «للرأي العام» التي كرست حياتها للدفاع عن ضرورة دمقرطة الحياة العامة وتزويد البلاد بدستور يكون لبنة أولى نحو الاستقلال. ولم تكن الصحافة الاستقلالية تشاطر هذا النهج.

ساهمت «الرأي العام» إلي جانب الصحف الوطنية الأخرى في التنديد بانتهاك حقوق الشعب المغربي تحت وطأة الاحتلال، كما عملت على تعبئة الجماهير لمقاطعة البضائع والمنتجات الفرنسية. ولذلك ضيقت عليها الإدارة الخناق بالتوقيف والرقابة. ولعل أهم هذه المضايقات المحاكمة التي تعرضت لها في ربيع 1952، بعد أن نشرت مقالا لاذعا ضد السلطات الفرنسية تحت عنوان «سياسة الأبهة أو الآلهة الجدد» ولم تلبث الجريدة أن عرفت، في نهاية نفس السنة، مصي الصحف الوطنية الأخرى... أي التوقيف.

1-3 الصحافة الشيوعية:

لا يصح الحديث عن صحافة شيوعية وطنية إلا غداة الحرب العالمية الثانية. فوقتئذ فقط توفرت الشروط الضرورية لجعلها في حظيرة الصحافة الوطنية، أما فيما قبل فقد كانت الصحافة الشيوعية قد صفقت للقمع الذي سلطته الإدارة على الوطنيين في يناير وفبراير 1944 عقب الإعلان عن وثيقة الاستقلال. لكن سرعان ما بدأ الزعماء الشيوعيون يتراجعون عن هذا الموقف الذي كان يسئ لشعبيتهم في الأوساط المغربية، فأخذوا يطالبون بالإفراج عن المعتقلين.

بعد وفاة «ليون سلطان»[2] سنة 1945، حل محله علي يعتة كأمين عام للحزب. ولم تغير اسم الحزب من «الحزب الشيوعي بالمغرب» إلى الحزب الشيوعي المغربي. ولذلك دلالة كبرى في وقت أخذ فيه هذا الحزب يتمغرب بسرعة على

صعيد أطره وقاعدته (حوالي 30.000 منخرط مغربي).

لقد انعكس هذا التطور على ما كانت تنشره جرائد مثل Espoir (العدد الأول 5 فبراير 1945) و«حياة الشعب» (التي كانت تصدر سريا نظرا لعدم قبول السلطات الترخيص لها)، وكذا جرائد الاتحاد العام للنقابات التي مازال الشيوعيون يهيمنون عليه: l'Action syndicale وLe Petit Marocain وهذه الأخيرة منزوعة من صاحبها الأصلي: Pierre Mas المتهم بالتوطئ مع النازية.

في سنة 1947، كان التنظيم النقابي المشار إليه مشكلا من المغاربة بنسبة 5/4، وابتداء من منتصف مارس 1947 سمح للسانها l'Action Syndicale بأن تحرر جزءا من صفحتها الأولى باللغة العربية. ومن الملاحظ أيضا أن مقالاتها، مثلها في ذلك مثل Espoir التي كان يديرها عبد السلام بورقية، تحمل أكثر من أي وقت مضى توقيعات مغربية.

لقد دأبت الصحافة الشيوعية في هذه الفترة على مطالبة حزبي الاستقلال والشورى بتوحيد الجهود مع الشيوعيين في إطار جبهة وطنية لكن نداءاتها قوبلت بالرفض من طرف تلك القوى السياسية التي كانت تطعن في مغربية الحزب الشيوعي وتذكر بإلحاح بموقفه «اللاوطني» إبان أحداث 1944 وعندما تشكلت بطنجة في أبريل 1951 «الجبهة الوطنية المغربية» فإن تياراتها قد أجمعت على اقصاء الحزب الشيوعي المغربي من هذا التنسيق.

بالرغم من بعض التراشق بالتهم بين الصحافة الشيوعية وصحافة التيارات السياسية الأخرى، فإن الجرائد الشيوعية ظلت متمسكة بالخط الجديد الذي دشنه حزبها منذ غشت 1946 ولعبت دورها الوطني الذي أقلق ليس فقط راحة الاستعماريين الفرنسيين، ولكن أيضا حتى راحة بعض الملاحظين الأمريكيين المتتبعين لتطور الأوضاع بهذه المنطقة الاستراتيجية(3)

في 30 مارس 1952 - ذكرى معاهدة فاس لسنة 1912 - منعت Espoir من الصدور لمدة شهرين بسبب مقال كان من شأنه أن يهدد الأمن العام حسب تعبير السلطات الفرنسية. وفي دجنبر من نفس السنة، وبعد أحداث الدار البيضاء،

منعت الجريدة من جديد شأنها في ذلك شأن الصحف الوطنية الأخرى الصادرة بالمنطقة السلطانية. لكنها استمرت مع ذلك هي وشقيقتها حياة الشعب في الصدور سريا، وبطريقة غير منتظمة، حتى عهد الاستقلال.

2- الصحافة الوطنية بالمنطقة الخليفية:

غداة الحرب العالمية، أخذت الحركة الوطنية بالشمال ترتب أمورها لانطلاقة أخرى تكون منسجمة مع المعطيات الجديدة. وكانت الصحافة من الوسائل التي أعرتها اهتماما خاصا. وهكذا قام حزب الإصلاح الوطني بإعطاء نفس جديد لصحيفة «الحرية» الناطقة باسمه، والتي توقفت منذ 1942، فعهد برئاسة تحريرها إلى المهدي بنونة الذي رجع لتوه من القاهرة حيث تلقى «تعليما جامعيا في ميداني السياسة والصحافة. فكان يحرر فيها مقالا يوميا لاذعا بالنسبة للاستعمار الإسباني تحت عنوان همسات في الظلام» أما الافتتاحيات فكانت غالبا ما تكتب من طرف زعيم الحزب، عبد الخالق الطريس.

إلى جانب «الحرية»، كان بإمكان حزب الإصلاح أن يستغل أيضا جريدة «الأمة». التابعة له رسميا وكذا صحيفة «الريف» التي كان يرأس تحريرها التهامي الوزاني والتي كانت تقدم نفسها على أنها جريدة وطنية حرة سياسية ثقافية. وهذا التعدد في المنابر الإعلامية كان يشكل خطة ناجعة لتفادي التعطيل الذي تفرضه الرقابة كلما نشر مقال مزعج في إحدى الصحف كما حدث، مثلا بمناسبة المظاهرات الوطنية التي شهدتها تطوان في يناير 1946، وكما جرى أيضا غداة الزيارة السلطانية في أبريل 1947

يؤازر المجهود الذي تقوم به صحافة حزب الاستقلال الوطني عمل إعلامي يقوده تنظيم سياسي آخر هو حزب الوحدة المغربية، فهذا التيار الذي يتزعمه المكي الناصري، كان يملك صحيفتين بتطوان هما: الوحدة المغربية باللغة العربية وUnidad Marroqui باللغة الإسبانية وقد تعرضتا لبطش الرقابة في يناير 1946 بعد أن اتهمتهما السلطات الإسبانية بالدعوة إلى التمرد والعنف. ونتيجة لذلك ارتأى حزب الوحدة المغربية أن يقود نشاطا إعلاميا موازيا بالمنطقة الدولية، خاصة بعد أن ضاق مجال

الحريات العامة تحت سلطة المندوب السامي الإسباني الجنرال فاريلا Varela المعروف بتشدده.

وأخيرا، تجدر الإشارة إلى جريدة الدستور التي أصدرها بتطوان إبراهيم الوزاني، وذلك ابتداء من 30 يناير 1948 وقد سبق لنفس الشخص أن أسس قبل الحرب جريدة الدفاع[4] الصادرة بثلاث لغات (عربية وفرنسية وإسبانية) والناطقة باسم مكتب الدفاع الوطني.

وتتلخص أهداف الدستور في النقاط الست التالية الواردة في صدر العدد الأول.

1- استقلال المغرب وإرجاع سيادته الكاملة.

2- تحقيق وحدة المغرب الصغرى والكبرى

3- إقامة نظام شورى نيابي ووضع دستور مغربي وإنشاء حكومة قومية دستورية.

4- المحافظة على النظام الملكي والتعلق بأهذاب العرش العلوي.

5- إلغاء عقد الحماية وإبرام معاهدة صداقة وتحالف بين إسبانيا وفرنسا على أساس يضمن للمغرب حريته وكرامته، ويحافظ للدولتين على مالها من مصالح.

6- مقاومة فكرة الاندماج والانضمام على أي لون وشكل كان مع الاحتفاظ بشخصية المغرب التاريخية.

3- الصحافة الوطنية بالمنطقة الدولية:

استعادت منطقة طنجة نظامها الدولي في خريف 1945، فارتأى حزب الوحدة المغربية أن يركز فيها دعايته نظرا للضمانات الدولية المتوفرة فيها. وهكذا أسس المكي الناصري بمدينة البوغاز جريدة La Voix du Maroc[5] ووضع على رأسها مختار أحرضان وهو أحد الزعماء الذين لعبوا في الثلاثينات دور الوسيط بين الحركة الوطنية في الجنوب وبين شكيب أرسلان المقيم حينئذ بجنيف.

صدر العدد الأول من La Voix du Maroc في 22 يناير 1946 وسرعان ما اكتسبت الجريدة شهرة جذبت إليها أنظار القراء والدبلوماسيين المعتمدين بالمدينة. ذلك أنها نصبت العداء للاستعمارين الإسباني والفرنسي، بالرغم من أن لهجتها كانت أشد وأقسى كلما تعلق الأمر بالفرنسيين. ولعبت هذه الجريدة دورا مهما في التمهيد للزيارة السلطانية لطنجة في أبريل 1947. وقد خصصت لها عددا خاصا يوم التاسع من أبريل وهو عدد مزين بالصور، يتضمن 12 صفحة (بدلا من أربعة)، صدر منه 3000 نسخة من بينها 500 على ورق ممتاز تم توزيعها على بعض الخاصة.[6]

تنبه الفرنسيون مبكرا إلى الدور الخطير الذي كانت تلعبه هذه الصحيفة، فأخذوا ينسجون المخططات الرامية إلى إسكاتها. ففي فبراير 1946، وبعد أن صدرت من الجريدة ثلاثة أعداد فقط، قامت الأوساط الفرنسية بالضغط على صاحب «المطابع الدولية بحجة أن المادة العاشرة من قانون 1923 المنظم للمنطقة الدولية يمنع تحويل هذه المنطقة إلى قاعدة أية دعاية تستهدف النيل من الأنظمة القائمة بالمنطقتين السلطانية والخليفية، كما يمنع أن توجه منها الانتقادات ضد بلد أجنبي. وبعد رضوخ «المطابع الدولية» للضغوط الفرنسية، سدت أبواب كل المطابع الأخرى في وجه الصحيفة مما حفز الوطنيين إلى التفكير في اقتناء مطبعة خاصة بهم.

بعد هذه العراقيل، وجهت ضربة أخرى إلى الصحافة الوطنية في مارس 1946 عندما أقدمت الإدارة الدولية - بايعاز من - الفرنسيين على طرد مجموعة من الوطنيين من المدينة بتهمة التعاطف مع النازيين إبان الحرب، وكان ضمن المطرودين المختار أحرضان مدير جريدة La Voix du Maroc. بعد شهور من التوقف، استطاع الوطنيون أن يخرجوا العدد الرابع من الجريدة بتاريخ 17 يوليوز 1946. ولقد تم طبعه لا بالمطابع الدولية كسابقيه ولكن بمركز الطباعة المغربية الذي استطاع اتباع النصارى أن يؤسسوه كشركة مجهولة بذلت مناورات شتى للحيلولة دون قبوله في السجل التجاري.

لم يطمئن الساسة الفرنسيون للدور لعبته La Voix du Maroc إبان الزيارة السلطانية لطنجة، ولا إلى ما كتبته حول ضحايا الدار البيضاء ولا إلى ما سطرته من

انتقاد ساخر في حق الرئيس الفرنسي فانسان اوريول انتقاما لكرامة سلطان المغرب الذي لم ترحمه الصحافة الاستعمارية. فتحرك القنصل الفرنسي بطنجة داعيا إلى اجتماع عاجل لللجنة الدولية يوم 7 ماي 1947، ملحا على توقيف الجريدة.

صوت كل أعضاء اللجنة لصالح الاقتراح الفرنسي، ما عدا الأمريكي Paul Alling الذي امتنع عن التصويت بعد أن حاول دون جدوى الدفاع عن مبدأ حرية الصحافة وهكذا تم توقيف الجريدة لمدة ستة أشهر.

بالرغم من هذه المضايقات، ظلت المنطقة الدولية تكتسي أهمية خاصة بالنسبة للدعاية الوطنية، مما جعل حزب الاستقلال بتنسيق مع بعض التيارات الأخرى يضع سنة 1947 مشروعا لتأسيس جريدة باللغة الإنجليزية بطنجة، لكن المشروع لم ير النور بسبب انشغال حزب الاستقلال بأمور أخرى[7].

وبعد أحداث دجنبر 1952 بالدار البيضاء وما آلت إليه من تضييق الخناق على الحريات العامة، كانت «الشعب» التي أسسها المكي الناصري بطنجة منبرا لحزب الوحدة المغربية وحلفائه في إطار الجبهة الوطنية المغربية. فأعمدتها كانت مفتوحة لوطنيي الشمال والجنوب على السواء فعلى سبيل المثال، كتب فيها الطريس يوم 7 أبريل 1953، مقالا شديد اللهجة للتنديد بالمؤامرة التي كانت تدبرها الزوايا والقواد بإيعاز من الإقامة العامة. كما نشطت «الشعب» في التعريف بمواقف بعض الفرنسيين الليبراليين أمثال Peretti وRobert Barrat[8] وCH.A Julien وF. Mauriac[9] وذلك بتعريب بعض مقالاتهم المنشورة بالصحافة الفرنسية. لكن هذا المنبر الوطني منع غداة نفي سيدي محمد ابن يوسف ومباركة المندوب السلطاني بطنجة لذلك.

4- الصحافة الوطنية بالمهجر:

رغبة في تدويل القضية المغربية وجعل مطامح الشعب المغربي مسموعة في الخارج، أسس الوطنيون عدة مكاتب إعلامية خارج الوطن كان أهمها في تلك الحقبة «المكتب المغربي للإعلام والتوثيق» (Moroccan office of information and documentation) بالولايات المتحدة الأمريكية الذي نشط، ابتداء من 1947 بفضل مجهودات ثلة من الوطنيين أمثال المهدي بنونة والمهدي بنعبود وعبد الرحمان

أنكاى وغيرهم.

لعب هذا المكتب دورا دعائيا مهما، وذلك بإقامة محاضرات وإصدار منشورات، وهو نشاط يستحق دراسة مستقلة[10] وفي الخمسينات عندما طرحت القضية المغربية على أنظار الأمم المتحدة، نشط المكتب المغربي أكثر من أي وقت مضى فأصدر دوريتين هما: Morrocan News Bulletin (النشرة الإخبارية المغربية) وهي دورية مرقونة صدرت ابتداء من أكتوبر 1952. -Free Morocco (المغرب الحر) وهي مجلة شهرية صدرت ابتداء من أبريل 1953.

كانت هذه النشرات توزع في كواليس المنتظم الدولي وتلعب دورها في التعريف بالقضية المغربية. ومما يؤكد أن هذا العمل قد أزعج الفرنسيين كون سفارتهم بواشنطن أصدرت بدورها نشرة تحت عنوان Moroccan Affairs (القضايا المغربية) لتفسير الأطروحات الرسمية الفرنسية.

ملاحظات ختامية:

1- الصحافة الوطنية المغربية هي أساسا صحافة حزبية نظرا لاستحالة النهوض بأمرها من طرف أفراد مستقلين تعوزهم الوسائل الضرورية في ظروف سياسية قاهرة.

وإذا كان الطابع الحزبي قد خلق شتاتا من الصحف المتحزبة أدى كل منها دوره حسب اقتناعات معينة، فإن لذلك وجها إيجابيا يمكن في تلقين عموم القراء إمكانية التعددية في الرأي ولو كان الهدف واحد.

2- إن عدد النسخ التي تنشرها الصحافة الوطنية محدود جدا إذا ما قورن بما تنشره الأحزاب الوطنية تفسر جزئيا هذا النقص، فإن لتفشي الأمية في عموم الشعب المغربي نصيبه أيضا من التفسير لكن هذا النقص يتدارك بفضل الطريقة التقليدية التي كانت تقرأ بها الصحف آنذاك، فالناس كانت تتحلق حول شخص نال حظا وافرا من الثقافة أو على الأقل نال من التدريس ما يسمح له بقراءة وفهم مضمون جريدة، فيقرأ ويشرح ويعلق لإشباع فضول المستمعين وبذلك تتسع رقعة إشعاع النسخة الواحدة من الصحيفة.

3- القاسم المشترك لكل الصحف الوطنية هو أنها كانت تقاسي الأمرين من مضايقات السلطات الاستعمارية وقد أشرنا أعلاه إلى بعض حلقاتها، أن الأساليب قد تعددت في محاربة الصحافة الوطنية.

- فالرقابة تبيض بعض أعمدتها بين الفينة والأخرى.

- ويتم حجز بعض الأعداد باسم الحفاظ على الأمن العام. بل وتمنع صدورها لفترات غير قصيرة ويجبر أصحابها على أداء غرامات مالية.- تخلق صحف منافسة تدعى التحدث باسم المغاربة : La Volonté; La Liberté، العزيمة واللائحة طويلة.

- الاعتقال والنفي. فغداة أحداث «الكاريان سنطرال» (دجنبر 1952) شمل الاعتقال والنفي المئات من المواطنين، ومن بينهم رجالات الصحافة الوطنية، نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر

- أحمد اليزيدي (شقيق محمد اليزيدي) الذي كان يدير منذ سنة 1948 مطبعة جريدة العلم.

- الفقيه محمد الغازي مدير الأسبوعية رسالة المغرب.

- عبد الرحيم بوعبيد مدير جريدة Al Istiqlal.

- عبد الكريم حجي: مدير جريدة المغرب.

- قاسم الزهيري رئيس تحرير جريدة العلم.

- محمد الشرايبي محرر جريدة الرأي العام.

- Pierre Parent وهو فرنسي كان يحرر مقالات في صحيفة Al Istiqlal.

ومن المعلوم أن كل هؤلاء لم تكن لهم أية مشاركة فعلية في الأحداث، لكن السلطات كانت تؤاخذهم عن مسؤوليتهم المعنوية.

وأخيرا، نشير إلى أن التنكيل بالصحافة الوطنية قد وصل إلى درجة مطاردة الباعة المتجولين في الأزقة والشوارع، وأولئك الباعة الذين كان بعضهم جنودا مجهولين لعبوا دورا مهما في عملية التوزيع في وقت رفضت فيه الشركات الاستعمارية المتخصصة القيام بذلك العمل وقد كان بعض أولئك الباعة في بداية

الخمسينات يصيح في الأزقة والأسواق «دابا يجي الاستقلال» كتعريف مقصود لـ «لافيجي الاستقلال..

الهوامش

1-عن هذه الشخصية، انظر ما كتبه الأستاذ إبراهيم بوطالب في معلمة المغرب ج 3 صص 978-979.

2- يهودي فرنسي، من مواليد القسطنطينة (الجزائر) سنة 1905 مارس مهنة المحاماة بالمغرب ابتداء من 1929، كما نشط في صفوف الاشتراكيين ثم الشيوعيين الذين أصبح أحد زعمائهم. شارك في الحرب العالمية الثانية وتوفي، بعد رجوعه إلى المغرب متأثرا بجروحه وذلك في يونيو 1945.

3- نلمس ذلك بجلاء في التقارير التي كان يبعث بها إلى واشنطن القنصل العام الأمريكي بالدار البيضاء (محفوظة بدار الأرشيف الوطني National Archives- بواشنطن).

4- أصدر مكتب الدفاع الوطني «جريدة الدفاع» وليس «الدستور» كما جاء خطأ في مذكرات محمد حسن الوزاني (مذكرات حياة وجهاد...) الجزء السادس ص 18. ظهر عددها الأول بتطوان في 10 يناير 1938 وهذا يصحح ما كتبناه في مناسبة سابقة، اعتمادا على المذكرات سالفة الذكر. انظر: جامع بيضا «المغرب والدعاية النازية». في المغرب وألمانيا، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط 1991 ص 18.

BAIDA Jamâa "Le Maroc et la propagande du IIIème Reich - in Hespéris - Tamuda vol XXVIII 1990 p 99.

5- صدر مؤخرا كتاب عن دور الصحافة المغربية في معركة الاستقلال، فأقصت مؤلفته la voix du maroc من دراستها لكونها لم تعثر لهذه الجريدة على أثر لذا وقد أسعفنا الحظ في تصفح غميسة متعلقة بها، ارتأينا أن نسهب شيئا ما في التعريف بها انظر: ACHOUR Amina, La presse marocaine dans la lutte pour l'Indépendance (1933 - 1956) Ed. Wallada 1990 p. 81.

6- اقتبسنا هذه التفاصيل وغيرها المتعلق بـ La voix du maroc من وثائق محفوظة بدار الأرشيف الوطني بواشنطن، خاصة الملف الحامل لرقم 6 - 918 C.S/ J.R.C 881.

7- المهدي بنونة المغرب... السنوات الحرجة.

نشر الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، جدة، 1989 صص 184-188

8- عن هذه الشخصية انظر ما كتبناه في معلمة المغرب ج 3 ص 980.

9- ساهم الكاتب فرانسوا مورياك مساهمة فعالة في الدفاع عن القضية المغربية على أعمدة الصحافة الفرنسية انظر:

- جامع بيضا: مواقف الصحافة الباريزية من الصراع المغربي الفرنسي (1950-1956) في مجلة دار النيابة العدد 6، ربيع 1985 صص 28-35.

10- إنه موضوع استقطب اهتمامنا منذ سنوات، وقد نخصص له مقالا في فرصة لاحقة.

انعكاسات العمل الوطني
على رجال الحركة الوطنية
وعلى محيطهم

بوشامة الحسين
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- القنيطرة -

لقد انقسم المغاربة في تعاملهم مع الوجود الاستعماري الفرنسي خلال فترة الحماية إلى ثلاث فئات رئيسية: فئة أولى رفضت الاستعمار وقامته بقوة السلاح، ثم بالعمل السياسي بأشكاله المختلفة، ثم بالعمليات الفدائية. فئة ثانية دفعتها أسباب وظروف إلى التعاون مع المستعمر، ولو كان ذلك على حساب الفئة الأولى. فئة ثالثة كانت منشغلة بهمومها اليومية ومشاكلها المعيشية، رغم أن قلبها كان مع الفئة الأولى التي كانت تضم أشخاصا اشتهروا عندنا باسم الوطنيين أو الفدائيين الذين استرخصوا كل شيء من أجل الدفاع عن كرامة بلدهم وسيادته.

فهل هذا يعني أن رجال الفئة الأولى كانوا وحدهم يحبون وطنهم؟ في الواقع جميع المغاربة كانوا ولايزالوا يكنون حبا كبيرا لهذا الوطن. لكن حتى يأخذ حب الوطن طابع الفعالية، فهو يحتاج إلى خصلة نادرة لا تتوفر عند أي إنسان، وإنما هي امتياز تحظى به فئة قليلة من البشر، حباهم الله بتلك الموهبة السامية وهي الشجاعة. فهؤلاء المناضلون كانت لهم تلك الجرأة التي بدونها لم يكن في إمكانهم أن يحولوا تلك العاطفة الطبيعية إلى عمل ملموس ضد الوجود الاستعماري. فقد مكنتهم تلك الجرأة من تخطي حاجز الخوف والتصدي للمستعمر رغم تفوق

المادي، ورغم علمهم علم اليقين بأن ذلك سيعرضهم لأضرار جسيمة ولأخطار كبيرة قد تصل إلى الموت. ولنا في انتفاضة أطفال الحجارة بفلسطين المحتلة أروع الأمثلة على القدرة على تخطي ذلك الجدار النفسي. فقد استطاع أطفال صغار، لا سلاح لهم سوى الحجارة، أن يزرعوا الرعب في جنود صهاينة مدججين بالأسلحة وبشتى آليات القمع.

وإذا كان رجال الفئة الثانية قد غلب عليهم الطمع وحب النفس، وإذا كان الخوف قد استحوذ على رجال الفئة الثالثة، فإن رجال الفئة الأولى جمعوا ما بين الغيرة على الدين وحب الوطن والشجاعة، مما جعلهم يتميزون بحساسية رهيفة، فينفعلوا ويواجهوا ولا يستسلموا. ونظرا للتضحيات التي تحملها بصبر رجال الفئة الأولى، والتي لم يجرأ على تقديمها رجال الفئة الثانية والثالثة فقد كان من الطبيعي أن يحظى هؤلاء المناضلون باحترام كبير وصل مستوى الوقار وبتقدير فائق بلغ درجة الإعجاب. لكن هذا العطف لم ترافقه محاولة حقيقية لتسجيل أخبارهم وتوثيق أعمالهم. فقد تردد الباحثون طويلا قبل الشروع في الخوض في موضوع الحركة الوطنية. وذلك لما كان يثيره هذا الموضوع من حساسيات وحزازات، خاصة وأن بداية عهد الاستقلال تميزت بصراع حاد وصل درجة العنف بين حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال.

وقد بدأ التحفظ منذ بداية السبعينات مع ظهور مذكرات لبعض القادة الوطنيين البارزين، وحاول عدد من الباحثين، مغاربة وأجانب تسليط الضوء على هذه الفترة الهامة من تاريخ المغرب المعاصر كما بدأت الأبحاث الأكاديمية تتجه أكثر فأكثر إلى هذا الموضوع، لكن أهم إنجاز في هذا المجال هو ما حققته المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير في السنوات الأخيرة بواسطة اللجن التي أنشأتها والتي تتنقل عبر أقاليم المغرب. رغم الطابع الاستعجالي لهذه العملية. وكذلك عن طريق الندوات التي تساهم هذه المؤسسة الحكومية في تنظيمها بتعاون بين الجامعات المغربية. ولعل تنظيم هذه الندوة لأكبر دليل على مدى التعاون بين الجانبين وعلى رغبتهما لإعطاء هذه الفترة ولرجالها حقهم الوافر من البحث والتحليل. وقد تم فعلا تدوين عدد هام من المعلومات وجمع حجم كبير من الوثائق

والشهادات الحية حول هذه المرحلة وحول رجالها. وإن الاستمرار في هذا التعاون لكفيل بتحقيق ما نرغب فيه كلنا من معرفة كاملة ومدققة لتلك الفترة المليئة بالأحداث الحاسمة بالنسبة لمصير المغرب.

ولكن رغم التقدم المهم الذي حققته الأبحاث حول هذه الفترة وحول أصحابها، فإنها أغفلت جانبا مما يعتبر ضروريا إذا أردنا أن تكون رؤيتنا مكتملة لهذه الفترة، وحتى نستوفي كل الذين ساهموا في أحداثها حقهم كاملا غير منقوص. هذا الجانب هو الوجه الآخر للعمل النضالي الذي قام به الوطنيون أي ما سبب لهم عملهم النضالي من مشاكل وما خلق لهم من انعكاسات بالنسبة لأوضاعهم الاجتماعية وعلاقاتهم العادية مع الناس بما فيهم الأصدقاء والأقارب.

فالأبحاث اهتمت أساسا بذكر الأعمال البطولية التي قام بها أعضاء الحركة الوطنية ضد مصالح المستعمر الفرنسي من عمليات تخريبية كنسف وسائل النقل والمواصلات وإحراق الضيعات وتلغيم أماكن تجمع الفرنسيين، وأعمال فدائية كاغتيال المتطرفين من الفرنسيين والمتعاونين من المغاربة. كما حاولت هذه الكتابات إبراز ما تعرض له أعضاء الحركة الوطنية من محن انطلاقا من التهديد إلى الأعمال الشاقة والإعلام مرورا بالاستنطاق والتعذيب والنفي.

ولقد تمكنت فعلا هذه الأبحاث، بفضل ما توفر لديها من وثائق وشهادات من إعطاء توضيحات هامة ومفصلة حول بعض الحالات وحول أعمال المناضلين الوطنيين وما تعرضوا له من قمع ومطاردة. لكن هؤلاء المناضلين بالرغم من عملهم الوطني كانوا يشتغلون في حرف وأعمال مختلفة تجعل اتصالهم بالناس لا ينقطع. إلا أن نشاطهم النضالي لابد أن يكون له تأثير كبير على هذه العلاقات.

وغالبا ما كان هذا التأثير سلبيا على المناضل سبب له أضرارا أخرى لا تقل خطرا عن الأضرار التي تعرض لها من جهة المستعمر وهذا هو الجانب الآخر للعمل الوطني.

ولإظهار هذا الوجه الآخر للعمل الوطني أقدم هنا نموذجا لأحد رجال الحركة الوطنية وما واجهه داخل محيطه العائلي ووسط بيئته من مشاكل لا لشيء سوى أنه رفض حياة الذل تحت المستعمر وفضل الدفاع عن كرامة بلاده وسيادته هو المناضل

المولى الصادق الحلاق في مدينة صفرو.

لقد قام مناضلنا كباقي أعضاء الحركة الوطنية لمجموعة من الأعمال والنشاطات بدأها منذ سنة 1943 بالاحتجاج على لحم الطريفة وهي نوع من اللحوم المحرمة عند اليهود، والتي أرادت السلطات الاستعمارية فرضها على المسلمين عوض اللحوم العادية التي كانت تصادر مواشيها حية في إطار عملية التقنين قصد إرسالها إلى فرنسا. وكان المولى الصادق من بين الذين تزعموا حركة الاحتجاج ونظموا وقفة أمام مقر البلدية، وطالبوا تزويدهم باللحوم التي تعودوا على استهلاكها. ومنذ هذا التاريخ وضع المولى الصادق في لائحة المشاغبين والمحرضين على الفتنة.

وقد صادف صدور وثيقة الاستقلال في 11 يناير 1944 وجود «الطابور الرابع» المكون من الجنود المغاربة بإحدى ثكنات المدينة، وقد مكنته مهنته من الاتصال بهؤلاء الجنود وبدأ يحرضهم على رفض كل أمر يمس مصلحة الوطن وسيادته ويحثهم على الانضمام إلى الوطنيين. وفي نفس الوقت شارك المولى الصادق في تكوين الخلية الأولى للعمل الوطني بالمدينة.

وفي ماي 1948 وعلى إثر الإعلان عن قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين قام المولى الصادق وأصحابه بتنظيم حملة دعائية سرية تدعو إلى مقاطعة التجار اليهود الذين اضطروا إلى تقديم شكوى إلى سلطان الحماية المحلية، والتي لم تتمكن إجراءاتها من إنهاء المقاطعة التي استمرت مدة.

وبمناسبة العيد الفضي الخامس والعشرين للسلطان محمد بن يوسف في نونبر 1952، توصل المولى الصادق وأصحابه بتعليمات لإرسال وفد إلى الرباط لتمثيل السكان في هذه الذكرى التي كانت تكتسي في تلك الفترة أهمية خاصة، لأن سلطات الحماية كانت منذ مارس 1952 قد دخلت في صراع حاد مع السلطان واتهمته بالتحالف مع حزب الاستقلال والشيوعيين، فكان الحضور أمرا ضروريا، فهو يعبر عن تأييد المغاربة للسلطان الشرعي وعن استنكارهم للتصرفات التعسفية التي أصبحت تنهجها سلطات الحماية منذ تعيين الجنرال جوان مقيما عاما بالمغرب. وقد تم اعتقال المولى الصادق بمجرد مغادرته لمنزل مكوار بحي البطحاء بفاس حيث حضر اجتماعا تنسيقيا. وكان يحمل معه لائحة بأسماء الوفد المتوجه إلى الرباط.

ولم يجد من وسيلة للتخلص منها سوى جعلها في مخرجه.

وعلى إثر اغتيال الزعيم النقابي التونسي فرحات حشاد في 5 دجنبر 1952 وأحداث «كاريان سنطرال» الدامية بالدار البيضاء يومي 7 و8 دجنبر، وتنفيذا لتعليمات حزب الاستقلال بمناسبة انعقاد دورة الأمم المتحدة، نظمت مجموعة المولى الصادق حملة للتنديد بالأعمال الإجرامية التي ارتكبتها سلطات الحماية ودعت إلى إغلاق الدكاكين وصوم ثلاث أيام.

وفي 13 دجنبر أخذ المولى الصادق من منزله ليلا، وبعد ثلاثة أيام من الاستنطاق والتعذيب نفي إلى ميسور حيث وجد عددا كبيرا من الوطنيين من بينهم باحنيني. لكن على إثر أحداث 21 غشت 1953 التي وقعت بمدينة صفرو بعد وصول خبر نفي السلطان محمد بن يوسف أعيد المولى الصادق إلى صفرو في 26 أكتوبر 1953 وقدم للمحاكمة بتهمة التحريض على الفوضى وذلك بعد اعتراف أحد المعتقلين بأنه هو زعيمهم وأنه كان معهم على اتصال منتظم من منفاه بميسور. وقد حكم عليه بسنتين سجنا قضى مدة منها بسجن صفرو، ومدة بسجن عين قادوس بفاس ومعظمها بسجن لعلو بالرباط. وقد أطلق سراحه في نونبر 1955.

من خلال هذه المعلومات المختصرة يظهر أن ما قام به المولى الصادق لا يرقى إلى مستوى الأبطال البارزين أمثال الزرقطوني، الحنصالي وعلال بن عبد الله، وإنما يضعه في مستوى أغلبية المناضلين الذي رفضوا الأمر الواقع الذي حاول الاستعمار الفرنسي فرضه على بلدهم وعلى شعبهم وقرروا التصدي له بكل ما لديهم من إمكانيات. فقد قام بما استطاع له من تحركات ونشاطات، وتحمل ما قدر عليه من تعذيب واعتقال. لكن ما قام به كان يتطلب، كما قلنا في البداية، جرأة كبيرة وإيمانا راسخا وغيرة قوية، وكان لابد أيضا أن يؤثر على علاقاته الشخصية والمهنية ويسبب أضرارا لوضعيته الاجتماعية. وهذا التأثير يبرز من خلال بعض الحالات التي عاشها مناضلنا أما مباشرة أو انعكست عليه بطريقة غير مباشرة.

1- الحالة الأولى هي أعراض الناس عنه وتفادي الالتقاء به، بل حتى توجيه السلام له أو رده عليه، وتغيير اتجاه الطريق أو الرصيف أو اللجوء إلى ذريعة ما لعدم لقائه وجها لوجه. وقد كان الخوف المصدر الرئيسي لهذا الغرض. فمن الناس من

كـان يخـشـى عـقـوبة ومنـهـم من كـان يخـاف ان يـطرد من عـمله . وقـد حـدث ذلك بالضـبط لأحـد الأصـدقـاء المولى الصـادق والذي كـان يعـمـل سـائقـا لسـيـارة ضـابط فرنسي : فقد قال له الضابط (لقد شاهدتك تتكلم مع ذلك الشيطان ، فاذهب إذن معه)

لكن إذا كـان الخوف هو مـصـدر هذا الاعـراض عند العامة ، فـان الحسـد كـان هو السـبب الرئيـسي عند بعض الأثرياء والفـقـهـاء الذين كـانوا في وضع أحـسن من غيـرهـم بحكم دورهم الاجتماعي ونفـوذهم الروحي ، إلا أن نفوسهم التي فرغت من الجـرأة ملئت بالحـسـد الذي دفع البـعض منـهم إلى الاسـتكانـة ، والبـعض الآخـر إلى التعاون مع المستعمر ومن هنا جاءت انتقاداتهم لرجال الحركة الوطنية ، والتي بلغت في بعض الأحـيـان درجة التبـرؤ منهم ، واتهامهم بعيـون مختلفة أقلها نعتهم بالشـبـاب الطائش الذي لا يحـتـرم دينه ويسـاهـم في اشـعـال نار الفتنة والتـفـرقة بين المسلمين . وقد كـان هذا مـوقف أحد الفقـهـاء من مناضـلنا ، فـهـو لـم يرض أن يكون حلاقا متواضعا في طليعة حركة النضـال بالمدينة . وقد بـلغ حقده على الرجل درجة رفض تفسير آية قرآنية وقال لمن معه من الحاضرين (اذهبوا إلى الحجام ليفسر لكم القرآن ، فأنا لم أعد بقارىء) . وكـان مناضلنا في المستوى إذ توجه إلى الفقـيه وقال له يا فـلان ، إن العـصـا كـانت بيـدك لكنك رمـيـتـهـا أنت بنفسك ، ولا يهـمـك من حـملهـا من بعـد ، لأنك لـم تقـدر عليـهـا . وحـتى إذا فـسـرت القـرآن أعـوج فـان الله سيجازيني على قدر اجتهادي وحسب نيتي .

2 - عدم إقبال الزبناء للحلاقة عنده رغم تجربته الطويلة في المهنة وبشاشته المعروفة ولطافته في التعامل وقناعته بالأجر القليل . فقد أخذ الزبناء يتناقصون حتى وجد نفسـه مرغـمـا على إغـلاق الدكـان والبـحث عن عـمل آخـر وقـد نتج عن ذلك تراكم واجبات سنتين من كراء الدكان والمنزل .

وقد تنازل له صـاحب المنزل عن واجب الكراء مقـابل إفـراغ المنزل . فلجأ المولى الصادق إلى بيت بجانب الواد ظل مهجورا منذ فيضان 1950 وسوف يفقد فيـه أحد أبنائه غرقا

3 - أثناء حفلة العقـيـقة بمنزل أحد أقربائه ، بينما كان المولى الصادق جالسا

ضمن باقي الضيوف وقف أحد المدعوين بباب الغرفة، وهو موظف بإدارة الحاكم العسكري للمدينة، وتوجه مباشرة إلى مناضلنا دون أن يسلم على الحاضرين وقال له «ماذا تفعل أنت هنا؟ هل الوطني يحضر هنا؟». وكان جواب المولى الصادق في مستوى السؤال: «هل تركتم لنا ما نعمله؟ لا نكاد نتحرك نحن حتى تخبروا أنتم قبل أن نتحرك نحن». فرد عليه الموظف المغرور «أما زلت تعتقد أن هذا وقت التعشاق على النبي ودق السيف» فرد عليه هذا زمن المدافع «والتروبلان» (Troplin) هل عندكم شيء من هذا؟ «فأجابه المولى الصادق» هنا افترقنا معكم، لأننا مقتنعون بأن التروبلان والمدافع الله سبحانه هو الذي سخرها. وهو القادر أيضا سبحانه على نصرنا إذا أراد رغم توفرها عند أصحابك. «هذا الجواب أثار غضب الرجل الذي أخذ يهدد مناضلنا بأشد العقوبات، مما أثار خوف بعض الحاضرين الذين غيروا الغرفة أو انصرفوا بالمرة. وحتى لا تصل الأمور إلى تصعيد خطير لم يكن أمام أب المولى الصادق إلا أن يخرج ابنه من المنزل ويغادروا الحفل.

4- عندما كان المولى الصادق بالمنفى بميسور حاول أبوه زيارته بمناسبة قرب حلول شهر رمضان. وبباب السجن سأل رجلا عن ابنه فأخبره الرجل بأنه مسجون معه ويقيم معه في نفس الغرفة. فلم يمتلك الأب نفسه وأفرغ ما كان في صدره من شوق لولده على ذلك الرجل، حيث ارتمى عليه وعانقه بلهفة وحرارة. ولكن ذلك أثار غضب الضابط الفرنسي الذي شاهد ما وقع، فأمر بإلقاء القبض على الأب الشيخ الذي قضى كل شهر رمضان في السجن بعيدا عن ابنه، ثم أرغم على مغادرة المنطقة دون أن يتمكن من رؤية ابنه.

5- عندما أعيد المولى الصادق من منفاه بميسور إلى صفرو في أكتوبر 1953 ليقدم للمحاكمة وحكم عليه بسنتين سجنا، مكث مناضلنا بسجن صفرو مدة من الوقت مع باقي رفاقه المحكومين عليهم أيضا بالسجن. وخلال مقامهم بسجن صفرو كان المساجين يخرجون للعمل في حديقة كبيرة مجاورة للسجن، ولما لاحظ بأن ذلك الخروج إلى الحديقة يتم بشئ من الانتظام، قام المولى الصادق وأحد رفاقه المسجونين بتنظيم لقاءات مع زوجتيهما بواسطة إمرأة كانت تعمل عونا في السجن وبمساعدة حارس مقابل مكافأة مالية تكلف بدفعها المسجون الآخر. وكانت بعض

هذه اللقاءات مناسبة للمولى الصادق للخلو مع زوجته. وعندما نقل مناضلنا إلى سجن عين قادوس بفاس اكتشفت زوجته أنها حامل وبينما هو بسجن لعلو بالرباط وضعت زوجته ولدا. وهذا كان بمثابة فضيحة للعائلة، بحيث لما انتشر الخبر بدأ الناس يتساءلون كيف يمكن للمرأة أن تلد وزوجها لم يرها منذ ما يقرب عن سنتين. فرفض أي المولى الصادق الاعتراف بالمولود الجديد، وهذا يعني ضمنيا اتهام زوجة ابنه بالفساد، مما جعل الأم وأولادها تعيش وضعية أليمة من الناحية النفسية ومتأزمة من الناحية المعيشية بسبب انتشار الخبر بالمدينة ومقاطعة بعض أفراد العائلة. وعندما رجع المولى الصادق من السجن في نونبر 1955 كان ينتظر أن يستقبله أبوه بنفس الشوق والحرارة التي كان قد عانق بها مسجون ميسور الغريب. لكن الأب قابله ببرودة جليدية تدل على النفور والاستنكار والغضب، بل كاد الجد أن يتبرأ من ابنه ومن حفيده لولا اعتراف المولى الصادق وشهادة المرأة والحارس اللذين لعبا دور الوسيط في لقاء المولى الصادق مع زوجته وكذلك شهادة المسجون الآخر الذي كان هو أيضا قد استقبل زواره في نفس الظروف وتكلف بدفع المصاريف.

6- عندما كان المولى الصادق مع أصحابه بسجن عين قادوس بفاس كانوا يخرجون مع مجموعة من المسجونين الفاسيين للعمل في ثكنة ظهر المهراز، وذلك تحت مراقبة شخصية قضيا مدة طويلة بالسجن قبل أن يصبحا حارسين. وقد أخذ هذان الحارسان يتحرشان بشابين فاسيين. وحتى يرغمهما على الخضوع لرغبتهما الجنسية أرهقاهما بالأعمال الشاقة. فاشتكى الشابان إلى المولى الصادق ولما تهيأت الفرصة نزع المولى الصادق واثنين من رفاقه العصى من الفؤوس وهددوا بضرب الحارسين بعد أن حاصروهم في مكان خفي وضيق، ولم يفرجوا عنهما إلا بعد أن أخذوا منهما وعدا قاطعا بعدم التعرض مستقبلا للشابين الفاسيين ولم تمض على هذا الحادث سوى مدة قصيرة حتى نقل المولى الصادق وأصحابه إلى سجن لعلو بالرباط.

إن هذه الحالات التي عاشها المولى الصادق بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بسبب مساهمته من أجل تحرير هذا الوطن ما هي إلا جزء يسير من عدد من الحالات التي عاشها كل الذين تأهب لأجل إعادة الكرامة والسيادة لو ،طنهم مهما بلغت

التضحيات. ولابد أن نجد بين هذه الحالات المتعددة حالات أكثر إثارة ومأساوية من التي ذكرنا. وهذا وحده دليل كاف لإبراز أهمية هذا الجانب الخلفي للعمل الوطني والذي يستوجب منا أن نوجه له ما يستحقه من العناية والاهتمام.

ولهذا يكون من الأفيد أن يشمل البحث كلا الجانبين، هذا مع العلم بأن الجانب الأول يهتم بالعمل الوطني المباشر يعتمد في نفس الوقت على الوثائق المكتوبة وعلى الشهادات الحية. بينما الجانب الآخر، وهو الوجه الخلفي للعمل الوطني، يكاد يعتمد فقط على الشهادات الحية أي الرواية الشفوية. ونحن نعلم ما تتطلبه هذه الطريقة من شروط لتأكيد الخبر وإثبات صحة المعلومات.

وإذا كانت اللجن المختصة التي أنشأتها المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، والندوات التي تنظم حول موضوع الحركة الوطنية، والأبحاث الجامعية التي تهيئ في إطار أكاديمي قد كشف عن جزء مهم من تاريخ هذه الفترة وأحداثها، فإن الكثير مازال لم يكشف بعد، بل فقد بعضه نهائيا بسبب وفاة عدد هام من رجال الحركة الوطنية الذين ذهبوا بأسرار ومعلومات ثمينة لا تقدر بأي ثمن. وهذا يجعل الاتصال بما بقي منهم على قيد الحياة ضرورة ملحة قبل فوات الأوان أن نحن أردنا الحفاظ على هذا التراث العظيم من تاريخ المغرب المعاصر وبهذه المناسبة أتقدم باقتراح عملي يعتبر في رأيي أحسن وسيلة لتحقيق هذا الهدف، وهو تكوين مجموعات للبحث على مستوى الجامعات المغربية بتعاون مع المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير والسلطات المحلية. تقوم هذه المجموعات بتنظيم لقاءات منتظمة مع رجال الحركة الوطنية في إطار موائد مستديرة في المدن والقرى المغربية لجمع الأخبار والمعلومات والوثائق والشهادات التي تخضع للتحليل من طرف باحثين مختصين. ونتمنى أن يضع المسؤولون والباحثون يدا في يد لإنجاز هذه العملية الكفيلة بحفظ تراث ثمين من تاريخ وطننا المغرب.

وإذا كنا قد حاولنا من خلال هذه المداخلة المتواضعة أن نبرز أهمية هذا الجانب الخفي للعمل الوطني، ودعونا الباحثين إلى إعطائه ما يستحقه من الاهتمام، فإننا نلتمس من المسؤولين أن يأخذوا بعين الاعتبار هذا الجانب عند دراسة ملفات رجال

الحركة الوطنية قصد مكافأتهم. وهذه المكافأة إذا كان لها جانب مادي هام فلها أيضا جانب معنوي أهم يشعر المناضل بأن التضحيات التي قدمها لم تذهب سدى وحتى لا يصاب بخيبة الأمل. وفي هذا الصدد أذكر ما حدث لمناضلنا مع أحد المتعاونين مع المستعمر بعد مرور مدة عن حصول المغرب على الاستقلال. فقد وجد ذلك المتعاون السابق الجرأة ليطرح بشيء من السخرية هذا السؤال على المولى الصادق: «ها أنت جئت بالاستقلال، ولكن ماذا غيرت في هذا الكون وماذا ربحت؟» وكان جواب مناضلنا في الصميم: «لقد فهمنا أننا لم نحقق شيئا، لما قلنا «الله يسامح» ولو أننا تحاسبنا لعرفنا نحن ولعرفتم أنتم أيضا ما جئنا به. لكن «الله يسامح» أفسدت كل شيء وجعلت كل واحد منا نحن لا يعرف ما قام به، وجعلت كل واحد منكم أنتم ينسى ما كان عليه من دين لنا ولهذا البلد».

ولهذا فإن المكافأة بالنسبة لهؤلاء المناضلين هي بمثابة اعتراف، هم في أمس الحاجة إليه لتحسين وضعيتهم المادية والرفع من معنوياتهم. ولنا في هذا الصدد كامل الثقة في المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير لما تبذله من جهد وما تبدله من الاستعداد.

المحور الخامس

المقاومة المسلحة في الخمسينات

جوانب من الحركة الوطنية
بالدار البيضاء خلال الخمسينات:
مقاربة تحليلية للمقاومة المسلحة

محمد رزوق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
عين الشق – الدار البيضاء –

كثيرا ما ركزت الدراسات التي تناولت موضوع الحركة الوطنية خلال الخمسينات على الجانب السياسي، مهملة عن قصد أو عن غير قصد جانب المقاومة المسلحة مع أنه أساسي. فإذا استثنينا ما تقوم به المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير فإننا لا نجد إلا أعمالا منفردة لا ترقى إلى مستوى أهمية الحدث.

أولا: المصادر المعتمدة لكتابة تاريخ المقاومة المسلحة بالدار البيضاء:

– الجرائد الصادرة آنذاك، وطنية وأجنبية.

– المنشورات السرية الصادرة عن بعض المنظمات الفدائية.

– وثائق بعض المنظمات السرية بالدار البيضاء.

– الرواية الشفوية: وهي عنصر هام من عناصر كتابة تاريخ المقاومة بالمدينة، خاصة وأن العديد من المقاومين الذين شاركوا في عمليات المقاومة مازالوا على قيد الحياة، بل منهم من يمارس نشاطات سياسية داخل الأحزاب الوطنية.

ورغم أهمية الرواية الشفوية فإنه لابد مع ذلك من الإشارة إلى عدد من الصعوبات:

– العدد الكبير للمقاومين بالمدينة وتوزيع خلايا المقاومة في أنحاء مختلفة،

انطلاقا من الحي المحمدي، فابن مسيك إلى غاية درب السلطان . . . مما يتطلب معه تجنيد مجموعات متعددة من الباحثين لأخذ أقوال المقاومين، ومقارنتها، وتتبع نشاطات الخلايا بالمدينة.

- هناك خلايا عديدة صغيرة كانت تعمل في أحياء خاصة في نطاق محدود، وبالتالي كانت وثائقهم بين أيدي أشخاص معينين وأتلفت وثائقهم بمجرد إعدامهم أو اعتقالهم من طرف المستعمر، أو ضاعت في فترة الاستقلال نتيجة وفاتهم.

- مصداقية الرواية الشفوية نفسها: لا ننسى أننا أمام أقوال مقاومين عاشوا هذه الأحداث منذ أزيد من 40 سنة، فيدخل الباحث في حسابه النسيان والخلط، ولتلافي ذلك يمكننا أن نعمد إلى استخدام أدوات مساعدة على سبيل المثال والاستئناس، من هذه الأدوات

* الرجوع إلى صحف الجرائد الصادرة في الخمسينات والتي نجد بها تسجيلا لكثير من عمليات المقاومة بالمدينة.

* مقارنة أقوال المقاومين لسد بعض الثغرات.

ثانيا: بعض خصائص حركة المقاومة بالمدينة:

كانت الدار البيضاء تتوفر على ساكنة مدنية (حضرية)، مما أكسبها قنوات عديدة للاتصال وسهل بالتالي تسرب تيارات فكرية وسياسية مختلفة، إذ أن تركيز أهم الصناعات بالمدينة جعلها تستقطب أيدي عاملة قروية كانت تعرض نفسها بأثمنة زهيدة وتشعر بصفة مباشرة بالاستغلال البشع الذي يلحقها ولهذا بدا تأثير النشاطات السياسية على المدينة بظهور كتلة العمل الوطني سنة 1934، والحزب الوطني، ثم حزب الاستقلال.

هذه العوامل هي التي تفسر لنا أن الخلية الأولى التي تكونت في المدينة حوالي 1951 والتي تبنت العمل المسلح كانت عناصر نشيطة في حزب الاستقلال، والتي أعلنت عن إنشائها بإصدار المنشور الأول والثاني الذي كان يحمل اسم «المتطوعون» وسجلت ظهورها بالقيام بمجموعة من الأعمال الفدائية.

اتخذت المقاومة بالمدينة أشكالا متعددة:

* عمليات فدائية ضد المستعمر نفسه: اغتيال شخصيات فرنسية معروفة

بعدائها للوطنيين المغاربة، نسف الأماكن التي يرتادها المستعمر.

* عمليات فدائية ضد المتعاونين مع الفرنسيين (الخونة)، غير أننا نشير بالمناسبة إلى أن المقاومة لم تشن حربا عشوائية على كل الموظفين المغاربة، بل كانت تقوم بتنفيذ عملياتها بعدما تستنفذ إمكانيات الحوار، حيث كانت ترسل تحذيرا إلى الأشخاص المستهدفين تحثهم على التراجع، وحينما تيأس من اقتناعهم تقوم بتنفيذ حكمها.

ثالثا تنظيم الخلايا المسلحة:

هناك ملاحظات يمكن إبداؤها ونحن بصدد الحديث عن تنظيم الخلايا المسلحة

- إن فكرة الخلايا كانت موجودة، لكن الاتجاه الجديد ساعد على بلورتها على الشكل الذي أصبحت عليها

- استغل هذا الاتجاه التنظيم الحزبي لانتقاء العناصر القادرة على حمل السلاح، بحيث انضمت إلى المجموعة الأولى مجموعة ثانية.

- ابتدأت هذه الخلايا بإمكانيات بسيطة، تتجلى بالخصوص في نوعية الأسلحة التي كانت تتوفر عليها من مسدسات وقنابل من صنع أفراد الخلية.

- لم تكن توجه المقاومة المسلحة قيادة عليا تصدر عنها الأوامر بل كانت الخلية تخطط لعملياتها بطرق انفرادية، ولكن بالتنسيق مع باقي الخلايا، حتى لا يحصل هناك ارتباك أو اضطراب في ضرب الأهداف، كما كانت هذه العلاقة علاقة تعاون تتمثل في تبادل الأسلحة والمعلومات حول تنقل الخونة وتحركات فرقة مكافحة الإرهاب، إلا أن هذا التنسيق لم يكن يتم إلا على مستوى شخص عن كل خلية حتى إذا ما تم إلقاء القبض على أحدهما لا يكون علي علم بباقي أفراد الخلية. بالإضافة إلى هذه الطرق المستعملة للاحتياط هناك طرق أخرى يتم الالتجاء إليها كاتخاذ ألقاب متعددة بالنسبة للمقاومين وأقصى ما يمكن أن يلتجئ إليه المقاوم في حالة إلقاء القبض عليه هو تناول السم مضحيا بحياته من أجل سلامة الآخرين.

- وسيلة الإعلام بالنسبة للمقاومين هي المناشير، التي كانت تطبع في سرية تامة.

- تخضع التحاق المقاومين بهذه الخلايا لمسطرة دقيقة، خوفا من أن تقع الخلية بين أيدي البوليس الفرنسي (فرقة مكافحة الإرهاب)، لهذا كان الاحتياط والحذر من العناصر الجديدة ضروريا إلى درجة تبعث معها المنظمة بمن يقوم بتحريات حول سيرة الشخص المرشح للالتحاق بالخلية، هذا بالإضافة إلى البحث في الجانب الأخلاقي (التدين الغيرة الوطنية، الصدق في المعاملة).

رابعا مصادر التمويل:

1- الناحية المالية

كان هناك تمويل ذاتي للمنظمة عن طريق تبرع أفرادها حسب إمكانياتهم وعن طريق عمليات الاكتتاب، بالإضافة إلى تبرعات بعض الأشخاص الميسورين خارج المنظمة الذين تدفعهم الغيرة الوطنية إلى التبرع بمبالغ هامة. وقد كان جزء من هذا المال يخصص لإعالة أسر المسجونين أو توفير الإقامة للمقاومين الفارين إلى منطقة نفوذ الحماية الإسبانية في الشمال.

وحسب بعض الشهادات هناك محاولات جرت لكسب ثقة بعض الميسورين من التجار (تجارة بالجملة) وبالتالي ضمان مساعدات مادية من هؤلاء، إلا أنهم رفضوا رفضا قاطعا وسخروا من ذلك. وهناك عدة تفسيرات لهذا الموقف:

- إما لأن مصالحهم كانت متداخلة مع مصالح المعمرين الفرنسيين.
- أو لعدم ثقتهم في العمل المسلح وعدم جدواه.

2- السلاح:

كانت الأسلحة بسيطة بحجم المال المتوفر، في البداية لم يكن يتعدى بضع مسدسات.

وكانت مصادر الأسلحة مختلفة:

- من القاعدة الأمريكية، وقد أكد هذه الحقيقة أكثر من مقاوم.
- شراؤها من الخارج وتهريبها إلى الداخل.
- منطقة الحماية الإسبانية، فقد أصبحت المصدر الرئيسي للأسلحة إذ كانت تصل بانتظام خاصة بعد نفي محمد الخامس.

وهذا نتيجة للموقف الإيجابي للحكومة الإسبانية، إذ تم السماح لرجال

المقاومة والحركة الوطنية بالاستقرار في منطقة الشمال، كما أن الحاكم الإسباني «فالينو» كان يغض الطرف عن تهريب الأسلحة وتحركات المقاومين هنالك.

وأسباب هذا الموقف الإسباني متعددة:

- الخلافات بين الحكومة الإسبانية والفرنسية ترجع إلى سنة 1947، فقد طلبت الأولى تسليمها ضباطا متمردين فروا إلي منطقة الحماية الفرنسية لكن هذه الأخيرة رفضت.

- هناك موقف فرانكو من المغاربة الذين ساعدوه خلال الحرب الأهلية الإسبانية 1936-1939.

- موقف سلطات الحماية الإسبانية مما فعله الفرنسيون بنفيهم السلطان محمد الخامس.

خامسا: موقف الفرنسيين تجاه المقاومة المسلحة:

كانت سلطات الحماية تنعت العمل المسلح بالعمل الإرهابي، وكانت تحاول ما أمكن أن تخفي الصبغة السياسية لذلك، وأنشأت لهذا الغرض فرقا خاصة لمكافحة ما تسميه بالإرهاب، بل إنها كانت تلجأ إلى كافة أساليب التعذيب تجاه كل من كان موضع شك لديها من أجل استخلاص أية معلومات تساعدها في كشف تنظيمات المقاومة.

* قنبلة السوق المركزي 24 دجنبر 1953

جاءت هذه العملية كرد فعل مباشر ضد نفي السلطان محمد الخامس، وقد خلفت 19 من القتلى وعددا كبيرا من الجرحى وخسائر مادية كبيرة، وقد اختارت المقاومة مناسبة حلول السنة الميلادية لتنفيذ العملية. أما عن الذين نفذوا العملية فحسب مذكرات حسن العرائشي وصك الاتهام وأطوار المحاكمة يتبين أن هناك عدة زعماء ساهموا فيها من بينهم:

* كما تشير إلى عمليات أخرى مثل عمليات محطات الوقود في 24 و25 يناير 1954 إذ أضرمت النار في عدد من محطات الوقود بالمدينة، كما انفجرت قنبلة أخرى في المخزن الرئيسي لشركة «شال» بحي «روش نوار».

* هنالك أيضا عملية اغتيال الدكتور «ايرو» مدير جريدة «لافيجي ماروكان»

وقد خطط لهذه العملية الشهيد محمد الزرقطوني ونفذها إبراهيم فردوس بمساعدة ابن المختار محمد والشهيد إدريس الحريزي الذي نفذ فيه حكم الإعدام في 2 غشت 1955

سابعا بعض المنظمات الفدائية التي نشأت بالمدينة :

* اليد السوداء :

أسست سنة 1952 ، وبدأت أعمالها في غشت 1953 كما صرح بذلك السيد الأيوبي ومولاي الطاهر أثناء المحاكمة التي جرت في أبريل سنة 1954 بالمحكمة العسكرية بالدار البيضاء. لقد سطرت المبادئ الأولى لهذه المنظمة في بيت الفدائي مولاي الطاهر فوضع «شبه دستور» من بين بنوده: الابتعاد عن العمل الحزبي وعدم تعرف الأعضاء على رؤسائهم.

* خلية درب الكبير

أسست بدرب الكبير وكان أعضاؤها يجتمعون أسبوعيا بنفس الحي تحت رئاسة الفقيه الزرهوني، وكان جل أفراد هذه الخلية من الجنوب، وقد انفصلت هذه الخلية عن حزب الاستقلال بحيث لم يكن أفرادها مقتنعين بخطة الحزب السياسية.

وفي سنة 1950 تم توسيع الخلية المنفصلة عن الحزب بتأسيس مجلس سمي بالمجلس الإداري لاتحاد الجنوب.

وأمام تكاثر العناصر واقتناع أفراد الخلية بسلامة نهجهم قرروا إجراء انتخابات من أجل تعيين مفتشين. وقد أسفرت الانتخابات عن تعيين كل من السيدين: محمد بن أحمد الجزولي وعبد الله الصنهاجي.

* المنظمة السرية :

تأسست يوم 7 أبريل 1951 بدرب السلطان، وإن كانت بوادرها موجودة قبل هذا التاريخ على يد كل من محمد الزرقطوني وعبد الله الصنهاجي والتهامي النعمان، وحسن العرائشي.

* منظمة الهلال الأسود: يرجع تأسيس هذه المنظمة إلى سنوات 1951 و1952 وكانت تتكون من بعض الأفراد الذين كانوا يعملون داخل حزب الاستقلال.

* أبطال الأطلس: أسست عام 1954 بتيط مليل على يد كل من السيدين

الخدير امبارك والخدير حسن وقد كانت تتكون من 12 عضوا.

* أبطال الحرية: أسست سنة 1953 بدرب الكبير بالدار البيضاء على يد السيد خيور عبد الرحيم.

* المنظمة الحسنية تأسست سنة 1952 بدار القاضي بن إدريس على يد الشهيد إبراهيم الروداني.

انتفاضة 20 غشت 1955 بوادي زم:
الجذور والوقائع

خالد بن الصغير
المدرسة العليا للأساتذة
– الرباط –

عرف المغرب في شهر غشت من سنة 1955 سلسة من الفورات والانتفاضات الشعبية التي كانت لها أبعاد تاريخية وسياسية لا يمكن الاستهانة بها في إطار التاريخ المغربي المعاصر ولم تكن تلك الانتفاضة شيئا جديدا أو طارئا في تاريخ المغرب ضد قوات الاحتلال الأجنبي، بل يمكن اعتبارها استمرارا لتقاليد ولطابع تميز به تاريخ المغرب عبر كل العصور. إلا أن موجة الانتفاضات التي وقعت في شهر غشت 1955 قد اكتست طابعا مختلفا ومتميزا عن سابقاتها نظرا للتغيرات التي طرأت على الساحتين السياسية والاقتصادية سواء داخل المغرب أو خارجه. وتدخل الانتفاضة التي حدثت يوم 20 غشت بمدينة وادي زم الصغيرة في هذا الإطار. حيث قام سكان هذه المدينة وإلى جانبهم سكان القبائل المجاورة كالسماعلة وبني خيران وبني سمير بانتفاضة مسلحة ذهب ضحيتها عدد هام من الفرنسيين، وكان ذلك تعبيرا منهم عن رفضهم الصريح والكامل للوجود الاستعماري بكل أشكاله فوق التراب الوطني. وإذا كانت المظاهرات والانتفاضات في شهر غشت 1955 قد توزعت على عدة نقط جغرافية من البلاد، حيث عرفت كل من خنيفرة ووادي زم وأبي الجعد والدار البيضاء انتفاضات أقلقت بال الوجود الفرنسي بالمغرب، فإن ما حدث في وادي زم يوم 20 غشت من تلك السنة قد بلغ درجة كبيرة من الخطورة، إذ فاقت الخسائر البشرية في صفوف الفرنسيين وبدرجة كبيرة ما حدث في باقي

الجهات بما فيها الحواضر الكبرى.

فما هي الظروف التي مهدت لحدوث تلك الانتفاضة التاريخية؟ إن الإجابة على هذا السؤال يقتضي القيام بالتقصي العميق بهدف الوصول إلى الإطار العام الذي جرت فيه تلك الأحداث على المستوى الجغرافي والبشري والاقتصادي، حتى يكون القارئ ملما بكل عناصر الموضوع وتكون الدراسة متكاملة الجوانب. وتطبيقا لهذا المنهج، كان من الضروري الرجوع إلى الوراء لرصد الظروف التي نشأت فيها المدينة، وظهور عناصر من الحركة الوطنية بين أحضانها، ثم نشأة فروع للأحزاب السياسية والمنظمات الفدائية التي كانت لها مساهمة فعالة في تأطير القوة البشرية التي كانت تكتنزها المدينة وباديتها للقيام بتلك الانتفاضة التحريرية. وأخيرا الحديث بالتفصيل والإسهاب عن واقع يوم 20 غشت ونتائجه السياسية والتاريخية.

تتميز وادي زم بموقعها القاري والداخلي، حيث توجد في مكان وسط بين الساحل الذي تبعد عند بحوالي 150 كلم وبين جبال الأطلس المتوسط الذي تقع المدينة في بداية سفوحه الغربية. وكان للموقع الداخلي تأثير على المعطيات المناخية والبشرية والاقتصادية للمنطقة، إذ تصل درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر في فصل الشتاء وإلى أكثر من 40 درجة في فصل الصيف. أما الأمطار فهي متوسطة على العموم وتتميز بعدم الانتظام، إذ غالبا ما يتأخر تساقطها إلي فصل الربيع ومن حيث الطبيعة التضاريسية للمنطقة، فإن المدينة مستقرة في منخفض على شكل وادي، يتكون في جزء كبير منه من أراضي صلبة يسميها أهل المنطقة ب (المكراط). مع ذلك تتوفر أراضي ذات تربة جيدة في السماعلة وبني خيران المحيطتين بالمدينة.

كانت تعتمد المنطقة وما تزال، في اقتصادها اعتمادا أساسيا على النشاط الفلاحي، وخاصة زراعة الحبوب كالقمح الصلب والشعير اللذين يتحملان قساوة المناخ القاري، بالإضافة إلى تربية الماشية. ويعتبر الجزء الموجود حاليا شرق وشمال المدينة المعروف بطريق الرباط، من أجود الأراضي التي كانت ماتزال تنتج الحبوب بسخاء كبير في الهضبة الوسطى. أما تربية الماشية فقد كانت تسود على النمط

الرحلي، وظهرت فيما بعد التربية العصرية للماشية داخل ضيعات عصرية مستقرة أنشأها المعمرون الفرنسيون. ولابد من الإشارة إلى أن أراضي بني سمير على منجم «سيدي الضاوي» الذي يحتضن أكبر المدخرات الفوسفاطية في المغرب على الإطلاق.

إذا كانت مدينة أبي الجعد التاريخية التي تبعد عن وادي زم بثمانية عشر كيلومترا مدينة قديمة تعود نشأتها إلي القرن السابع عشر، فإن وادي زم حديثة كل الحداثة، حيث لم يكن لها أي وجود على الخريطة المغربية قبل 1917. وهناك إشارة عند الناصري في الجزء السابع من كتابه الاستقصا (ص 151). يذكر أن هناك قصبة تحمل اسم «قصبة وادي زم» أيام السلطان مولاي عبد الله. وتقول الرواية الشفوية إن المنطقة التي ظهرت فيها المدينة فيما بعد كانت في فترات تاريخية بعيدة جدا عبارة عن منطقة خالية من السكان وتغطي أرضها غابة كثيفة نسبيا. كما ذكر بعض المسنين بالمدينة أن المنطقة كانت تصل إليها الحيوانات المفترسة ربما من جبال الأطلس المتوسط وخاصة منها الأسود. ومما لاشك فيه أن اسم المدينة مشتق من التسمية البربرية للأسد والتي هي إزم. ومما يؤكد صحة هذه الرواية الشفوية هو وجود بقايا لغابة مشهورة حاليا بقبيلة السماعلة. ومن المحتمل أن تكون تلك الغابة قد تدهورت بفعل عملية الاجتثات وحلت محلها تدريجيا النباتات القصيرة الحجم في كل أنحاء الهضبة. إلا أن هناك نبعا مائيا كان يجلب إليه العناصر البشرية التي كانت تتنقل بالمنطقة فسمي بوادي زم، وكانت تتردد عليه قبائل مختلفة بماشيتها حسب الفصول. ويبدو أن المنطقة وأهلها قد ظلت تعيش حياة رتيبة بين المراعي والخيام والماشية منغلقين على أنفسهم معتمدين على مواردهم المحلية إلى بداية هذا القرن.

وتتحدث الرواية الشفوية عن الصراعات التي كانت تقع بين القبائل التي كان عناصرها مضطرين إلى الشغل بحثا عن المراعي والمياه والمواد الغذائية التي يبدو أنها كانت نادرة لصعوبة المناخ وقساوته من جهة وقلة الأراضي الخصبة من جهة ثانية. ولذلك كان من الطبيعي جدا أن تهجم قبيلة على أخرى لسلب ما لديها من مخزونات غذائية. فعمد السكان إلى بناء ما يسميه أهل المنطقة بالداشر وهي عبارة

عن حصن على هيئة قلعة تستعمل للدفاع عن القبيلة وممتلكاتها. ويساهم في بنائه كل أفراد القبيلة. وظلت أطلال أحد هذه المداشر قائمة إلي حدود السنتين الفارطتين في الطريق المؤدية إلى الدار البيضاء. ومن الناحية الهندسية فإن شكله مربع، وكل واحد من أضلاعه يساوي ثلاثمائة متر ويبلغ ارتفاعه ما بين الأربعة والخمسة أمتار أما مواد البناء فهي عبارة عن حجر عادي غير منجور وغير سوي، يضاف إليه مقدار من الجير وليس لذلك النوع من البناء أي طابع فني أو جمالي، بل هو مجرد جدار خشن الغرض من بنائه هو أن يكون من جهة حصنا للدفاع عن عناصر القبيلة التي كانت تحمي نفسها من خطر اللصوص وقطاعي الطرق ومن جهة ثانية كان المدشر عبارة عن مخزن تدخر فيه القبيلة محاصيلها الزراعية والصوف وغيرها. ويظهر من خلال المدشر الذي ظلت أطلاله قائمة على مشارف المدينة أن بناء تلك القلاع يعود إلى القرن الماضي فقط وقد تتناقض فكرة وجود هذه المداشر مع ما تمت الإشارة إليه من قبل من أن سكان المنطقة لم يعرفوا الاستقرار في الفترات السابقة، وأنهم كانوا رحلا ينتقلون بخيامهم وماشيتهم بحثا عن الماء والعشب. وتقدم لنا هنا الرواية الشفوية إجابات توضيحية مفادها أن عناصر القبيلة كانوا لا يلجأون إلى المدشر إلا في حالة وجود خطر طارئ. وأن الذين كانوا يسكنونه بصفة دائمة هم فقراء القبيلة غير القادرين على التنقل والترحال طالما أنهم لا يملكون ماشية تدعوهم لذلك. ولذلك يكتفون بمهمة حراسة مخازن أولئك الذين رحلوا بماشيتهم وخيامهم. ويطلق على تلك العناصر المعوزة لفظ «المراسة» وقد عرفت قبائل المنطقة صراعات حادة فيما بينها مازالت عالقة في الذاكرة الشعبية إلى اليوم ويسمونها بقضية الدشر وتتلخص في حدوث نزاع حاد بين قبيلة السماعلة وبني سمير. التي تدهورت خلالها العلاقات بشكل كبير بين القبيلتين. وذهب ضحيتها عدد هام من الأفراد وكان سبب النزاع هو المراعي ونبع الماء المسمى بوادي زم الذي كان موجودا فوق أرض قبيلة بني سمير ومن الطبيعي أن تحدث مثل هذه الصراعات ذات الطابع الاقتصادي في هذه المنطقة نتيجة للاقتصاد المغلق الذي كان سائدا فيها.

حيث تمكنت القوات الفرنسية من فرض حمايتها على المغرب، وإخضاع منطقة الشاوية ومعها جل السهول الساحلية، بدأت سلطات الحماية تفكر في

إخضاع باقي أجزاء المغرب وخاصة المناطق الجبلية. إلا أن الوصول إلى جبال الأطلس المتوسط يسبقه حتما المرور بالهضبة الوسطى وخاصة هضبة ورديغة التي توجد فيها منطقة وادي زم، والتي اعتبرتها السلطات الفرنسية منطقة ذات أهمية استراتيجية في هذا الإطار أي أن الجيوش الفرنسية كانت ملزمة بالعبور إلى الأطلس المتوسط مرورا بمنطقة وادي زم وأمام المقاومة العنيفة التي شنها سكان الجبال. وجد الجيش الفرنسي نفسه أمام مهمة صعبة لا يمكن إنجازها إلا بعد مدة زمنية ليست بالسيرة ولابد أن تتحقق بواسطة عمليات عسكرية متكررة ومن تم أتت ضرورة بناء ثكنة عسكرية بمنطقة وادي زم، لاتخاذها كنقطة متقدمة تستند عليها القوات الفرنسية وتجعل منها نقطة انطلاق لتوجيه الحملات الفرنسية بالفعل من اختراق الأطلس المتوسط سنة 1917، ثم تغلغلت داخله انطلاقا من سنة 1920. وبهذا أصبحت لمنطقة وادي زم وظيفة جديدة فرصتها الاستراتيجية العسكرية لجيوش الاحتلال هي الوظيفة العسكرية، فتحولت وادي زم إلى مقر للسلطات العسكرية بينما اتخذت من أبي الجعد القريبة من وادي زم مقرا للسلطة المدنية تحت رئاسة المراقب المدني دوكا (Duca).

ماذا كان رد فعل سكان المنطقة أمام مجئ قوات الاحتلال الفرنسية لمنطقتهم؟ ومن هم هؤلاء السكان؟ تضم المنطقة التي تحمل اسن هضبة ورديغة والتي هي جزء من الهضبة الوسطى ثلاث قبائل رئيسية هي: السماعلة وبني خيران وبني سمير. ولكل من هذه القبائل منطقة خاصة تعيش فيها (انظر الخريطة). كما تضم كل قبيلة مجموعات قبلية صغرى تابعة لها وتربطها علاقات القرابة أو المصاهرة. ولكل من هذه القبائل عاداتها وتقاليدها الخاصة بها.

توجد قبيلة السماعلة حاليا شمال شرق وادي زم، وتضم قبائل ثانوية هي: أولاد فنان، البراكسة، والمعادنة. وكل منهما يحتوي على عدة دواوير مثل الحوازم والشرفاء والطرش والعشاشكة... إلخ. وتقول الرواية الشفوية أن السماعلة من العرب الذين وفدوا إلى المغرب قادمين من الشرق العربي في إطار الهجرات العربية التي أتت إلى المغرب في فترات تاريخية سابقة. وحين أتوا بخيامهم وإبلهم حاولوا البحث عن مكان يصلح لرعي ماشيتهم فاستقروا في مكان يدعى ترتماد. وأن عدد

خيامهم كان يفوق الثلاثة والثلاثين خيمة. وخلال تنقلاتهم وصلوا إلى منطقة ورديغة التي وجدوا فيها مكانا ملائما للرعي والحياة الرعوية فدقوا خيامهم هناك وتحولوا من التنقل إلي الاستقرار. وللسماعلة عادات بها مزيج من عادات وتقاليد بقية القبائل، وذلك بحكم موقعها بين الشاوية غربا وتادلة جنوبا ثم البربر شرقا. فكان من الطبيعي أن يتأثر السماعلة بعادات ذات طابع بربري لاتصالهم الوثيق بزيان.

أما قبيلة بني خيران فتقع حاليا غرب السماعلة وتضم قبائل ثانوية هي الكناديز وأولاد بوغادي. وجنوبها توجد قبيلة آيت عمار. وكل هذه القبائل تحتوي على عدة دواوير وتأتي قبيلة بني خيران في الدرجة الثانية بعد السماعلة من حيث عدد السكان ومن حيث تأثيرهم بصفة عامة على مدينة وادي زم الناشئة، ومن حيث عادات وتقاليد أبناء قبيلة بني خيران، فيلاحظ مدى تأثرهم الكبير بجيرانهم زعير نظرا لاتصالهم بهم أكثر من غيرهم.

في حين توجد قبيلة بني سمير غرب وجنوب المدينة، وقد لعبت دورا بسيطا في المنطقة لقة عدد سكانها. وصغر منطقة نفوذها إذا ما قورنت بالسماعلة وبني خيران. إلا أن قبيلة بني سمير تتميز بكونها تحتل المنطقة التي ظهرت فيها المدينة بالإضافة إلى المنجم الفوسفاطي الهام بسيدي الضاوي.

بطبيعة الحال هذه القبائل قد عانت، نتيجة لاستقرار الفرنسيين بمنطقة نفوذها، الشيء الكثير، خاصة وأن الثكنة العسكرية قد بنيت على مقربة من منبع وادي زم الذي كان يستفيد منه سكان المنطقة عند ترحالهم. وكان من المفروض أن يدفع ذلك بسكان المنطقة إلى مناهضة الفرنسيين، إلا أن الفرق كبير بين ميزان القوى لدى الطرفين، وبالتالي كانت النتيجة هي فشل أية محاولة للمقاومة وإخضاعهم بسهولة كبيرة من طرف جيش الاحتلال. ويعتقد أن عناصر من قبائل ورديغة قد تراجعوا لفترة زمنية قصيرة عن منطقة وادي زم وعاشوا مدة طويلة بعيدين عنها إلى أن تأكدوا بأن أمر الاحتلال أصبح فعليا فاستأنسوا تدريجيا بوجود الفرنسيين في منطقتهم.

إلى حدود سنة 1917، لم تكن المدينة قد وجدت بعد، كل ما كان هناك هو منبع مائي تجري مياهه قرب ضريح لولي صالح يدعى سيدي محمد الحضري. وبعيدا عنه بمسافة قريبة بنيت الثكنة العسكرية. وكان الجيش الفرنسي قد صاحب معه إلى المنطقة بعض المرتزقة المنتمين إلى دول مختلفة كإسبانيا وإيطاليا وغيرها، فقام هؤلاء ببناء مساكن لهم بمواد خفيفة حتى تكون مستقلة نسبيا عن الثكنة وفي نفس الوقت قريبة منها

وفي بداية العشرينات، اتجهت نحو وادي زم هجرات بشرية مهمة سواء من المناطق المجاورة لها أو البعيدة. وتذكر الرواية الشفوية أن عناصر من أهل الشاوية قد وفدوا على منطقة وادي زم لممارسة التجارة مع أفراد الجيش الفرنسي، وإن كان حجم تلك التجارة بسيطا جدا. ولم تكن في بداية الأمر أية بنايات كالدكاكين والمتاجر، فاقتصر أولئك التجار في بداية الأمر على خيام صغيرة يبيعون فيها موادهم خلال النهار وينامون فيها خلال الليل. وبصفة تدريجية تزايد عدد الخيام بتكاثر عدد التجار الوافدين إلى أن أصبحوا يشكلون سوقا يوميا على مقربة من الثكنة.

كما تلقت المنطقة بموازاة ذلك هجرات مهمة من أبي الجعد، وتميزت هذه المدينة التاريخية بطابعها الحضاري والثقافي والديني الذي كان له إشعاع وتأثير فاعل على كل المناطق المجاورة. كما تميزت تلك الحاضرة الصغيرة بمهارة صناعها وكثرة الحرفيين من بين سكانها وكانت هجرة العديد منهم نحو وادي زم حاسمة في تعمير المنطقة بشريا من جهة أولى، وفي تكوين المدينة وبنائها بفضل مختلف الحرف التي كانت معروفة بأبي الجعد كالبناء والتجارة والخياطة وغيرها. ومع ذلك لابد من التأكيد على أن العناصر التي قدمت من أبي الجعد نحو وادي زم كانت قليلة من حيث العدد. أما العنصر البشري الذي لعب دورا أساسيا في تعمير المدينة الناشئة من حيث العدد فهم من قبيلة السماعلة وبني سمير.

وتذكر الرواية الشفوية أن السلطات الفرنسية كانت تشجع الناس على تعمير المنطقة مهما كانت الجهات التي يمكن أن يأتوا منها، إذ كان يهمهم كثيرا تعمير المنطقة ونموها اقتصاديا وعمرانيا لأهميتها في مخططاتهم الاستعمارية

خاصة بعد اكتشاف مناجم الفوسفاط بالمنطقة. إلى درجة أن سلطات الحماية كانت المساحات الأرضية ومواد البناء بالمجان لكل من كان يرغب في بناء سكن أو دكان للتجارة. وبهذا بدأت منطقة وادي زم تتحول إلى قرية كبيرة، ودخلت إليها تدريجيا عناصر الحضارة الحديثة من مقاييس ومكاييل وعملة جديدة.

فوجد السكان أنفسهم أمام معطيات لا عهد لهم بها على جميع المستويات فحاولوا الاستئناس بها والتكيف التدريجي مع عناصرها.

اتسعت القرية الكبيرة لتصبح تدريجيا مدينة صغيرة، خاصة أن عددا لابأس به من اليهود قد حلوا بها وافدين عليها إما من أبي الجعد أو من الدار البيضاء. وأقاموا بها متاجر متوسطة وكبرى لبيع بعض المنتجات وخاصة مادة الحبوب التي كانوا يشترونها بالتقسيط من الفلاحين فينقلونها لتباع من جديد إلى المطاحن الكبرى الموجودة وقتئذ بكبريات المدن. وفي الثلاثينات أصبحت المدينة أكثر اتساعا، وتزايد عدد سكانها بفعل ارتفاع درجة درجة الهجرة من القبائل المجاورة نحو المدينة. وساهم موقعها في ازدهارها نسبيا على المستوى الاقتصادي، حيث أصبحت محطة ضرورية يتوقف بها كل من يرغب في المرور من المناطق السهلية إلى الجبال سواء من الرباط أو الدار البيضاء في اتجاه تادلة وبني ملال وأزيلال وكل مناطق الأطلس المتوسط بوجه عام. ولم يقتصر تعمير المدينة على المغاربة فقط بل ساهم في ذلك الفرنسيون الذين أولوا اهتمامهم للمنطقة فاستقرت أسر فرنسية عديدة سواء بالمدينة نفسها أو بضواحيها.

وبالنسبة للفرنسيين الذين استقروا بالمدينة فقد شيدوا منازلهم في حي خاص بهم أطلق عليه الحي الأوربي الذي يمتد على طول الطريق الرئيسية المؤدية إلى أبي الجعد شرقا وإلى الدار البيضاء غربا. وتم وضع تصميم حديث للمدينة بشوارع فسيحة، وبذلك أصبح هناك نطاقان أحدهما تابع للأوربيين والآخر للمغاربة. ومنذئذ نقل مركز السلطة المدنية من أبي الجعد إلى وادي زم التي أصبح التسيير الإداري لكل المناطق المحيطة بالمدينة يتم انطلاقا منها. كما قامت السلطات الفرنسية بإنشاء بحيرة جميلة حول ماء وادي زم لإضفاء طابع جميل على المدينة الصغيرة. وتجدر الإشارة هنا أن هوامش تلك البحيرة وجوانبها كانت تمثل خريطة

لفرنسا، ويمكن معاينة ذلك اليوم وإن كان قليل من الناس يفطنون لذلك.

ولم يغفل سكان المدينة عن الجانب الديني، حيث تم بناء مسجد جامع بالحي الشعبي المغربي، بينما بنى الفرنسيون كنيسة في وسط المدينة يقصدها للصلاة الفرنسيون المقيمون بعين المكان وكذلك المعمرون المقيمون بضواحي المدينة، وبهذا تطورت الأوضاع بمنطقة وادي زم التي تحولت إلى مركز هام من مراكز الوجود الفرنسي بالمغرب. وتكفي الإشارة إلى أن بعض المعمرين الذين كانوا يملكون ضيعات، أو لهم نشاط معين يقومون به في مناطق بعيدة عن وادي زم كأزيلال مثلا يقضون يومهم هناك ويعودون في المساء للمبيت في وادي زم، خاصة وقد تم بناء عدد كبير من الحانات في الشارع الرئيسي للمدينة والذي أطلق عليه Place de France حيث كان يلتقي المعمرون وعائلاتهم لقضاء أوقات فراغهم والترويح عن أنفسهم خاصة في فصل الصيف حيث يشتد الحر بالمنطقة. ونظرا لوداعة وهدوء تلك المدينة التي أصبحت جميلة وكثر فيها العمران نسبيا، فقد أطلق عليها سكانها الفرنسيون اسم باريس الصغير (Le petit Paris).

سجلت سنة 1934 نهاية الغزو العسكري الفرنسي لجل التراب المغربي، وبدأت بعدها عملية الاستغلال المنهج لخيرات البلاد البشرية والاقتصادية، إلا أن كبريات المدن المغربية ستعرف بموازاة مع ذلك انطلاقة الحركة الوطنية على يد الطلبة الذين كانوا يزاولون دراستهم في القرويين بفاس أو بعض المدارس الموالية، ورأى عناصرها أنه على الرغم من كل السلبيات والحواجز المطروحة والمتمثلة في انتشار مختلف مظاهر التخلف كالجهل والبؤس في صفوف المغاربة، فإنه من الضروري العمل على نقل بذور الحركة الوطنية إلى باقي المدن المغربية حتى يعم الوعي بوضعية الاحتلال وما يترتب عنها من استغلال الاستعماري لدى سكان المدن كمرحلة أولى، على أن يعمل رجال الحركة الوطنية على نشر ذلك الوعي في البوادي كمرحلة ثانية.

فماذا كان حظ مدينة وادي زم من الحركة الوطنية التي شهدتها كبريات المدن؟ يبدو لأول وهلة وبالنظر إلى صغر حجم المدينة وبعدها عن المدن الكبرى وتركز المعمرين المتزايد بها وانتشار الأمية والبؤس بين سكانها، يبدو من خلال هذه

العاصر أن انتشار فكرة الوطنية بهذه المدينة أمر يكاد يكون مستحيلا. إلا أن الاستطلاعات التي سبق لي منذ سنوات أن قمت بها في عين المكان أثبتت عكس ما يمكن أن يتوقعه الباحث المتسرع في حكمه. لأن الوطنية عرفت بمدينة وادي زم تقريبا في نفس الوقت ونفس الفترة التي ظهرت فيها بالمدن الكبرى، وذلك بفضل وجود بعض الشخصيات الوطنية المعروفة بهذه المدينة خلال الثلاثينات. ويكفي هنا ذكر اسم السيد محمد بن عبد الله الشرقاوي الذي كان قاضيا بالمدينة والذي يذكر الناس أن بيته كان بيت علم ووطنية. والذي أقدمت السلطات الفرنسية على نفيه وإبعاده عن وادي زم ونقله إلى الجديدة سنة 1937 ولولا مساهمة محمد بن عبد الله الشرقاوي في نشاط مناوئ لسلطات الحماية لما نفته بعيدا عن وادي زم. وتدخل تلك العملية في إطار سياسة القمع التي قامت بها الإقامة العامة التي كان على رأسها وقتئذ الجنرال نوكيس (Nogues) ضد الزعماء الوطنيين الذين تمكنوا من توسيع نطاق نشاطهم الوطني. وقد تكفي هذه الشهادة لكي نثبت بأن الحركة الوطنية كانت معروفة وموجودة بوادي زم في فترة لا تبعد كثيرا عن مرحلة ظهورها بالحواضر الكبرى.

كانت بالمدينة في نهاية الثلاثينات شخصيات وطنية أخرى، يذكر من بينهم أبناء المدينة مولاي إدريس ابن عم السلطان بن يوسف، وكذلك الفقيه غازي الذي قضى مدة قصيرة بوادي زم، وكذا الأستاذ محمد عواد الذي كان مدرسا بالمدينة. وكل هؤلاء الوطنيين قدموا إلى وادي زم من أجل هدف رئيسي وهو القيام بنشر الوطنية سرا في صفوف السكان. وقد وجدوا بالفعل آنذاك آذانا صاغية لدى أبناء المدينة، ويذكر منهم على سبيل المثال الفقيه السعيدي، الحاج التاغي، عباس الزمراني وحمو الشلح وغيرهم. هذه المجموعة تشبعت إلي حد ما بالروح الوطنية التي كانت تأتي من جامعة القرويين ومستمدة أصولها من الحركة السلفية. ولم يقصر أفراد هذه المجموعة من جهدهم لنشر فكرة الوطنية بمدينتهم وتوعية السكان بوضعيتهم الحقيقية. إلا أن عملهم ذلك كان صعبا لاعتبارات كثيرة، منها صغر حجم المدينة والذي كان يسهل على السلطات الفرنسية مراقبة كل تحركاتهم وسكناتهم، بالإضافة إلى انتشار الفقر والجهل في أوساط غالبية السكان. ومهما

يكن فإن تلك العناصر الوطنية على قلتها قد شكلت البذرة الأولى للحركة الوطنية بالمدينة والتي ستطور تدريجيا مع مرور الزمن.

وحين اتخذ رجال الحركة الوطنية من التعليم وسيلة لنشر الوعي في صفوف المواطنين، تأسست المدارس الحرة في مختلف أرجاء البلاد لتربية الجيل الجديد على المبادئ الوطنية، إلا أن مدينة وادي زم لم يكن لها أدنى حظ في ذلك الإطار، أي أنها لم تعرف تأسيس مدرسة حرة. وكان ذلك من الأسباب التي دفعت بأبناء المدينة وباديتها إلي الهجرة نحو المدن التي توجد بها تلك المدارس، وخاصة نحو فاس ومراكش والدار البيضاء، وكان الوطنيون بوادي زم رغم قلة عددهم يشجعون الشباب من أبناء المدينة على التوجه نحو تلك المدارس علما منهم بأنها كفيلة بإقرار فكرة الوطنية الصحيحة في ذهن أبناء الجيل الجديد.

وعرفت سنة 1940 تأسيس مدرسة مولاي عبد الله الحرة بالدار البيضاء ومن غريب الصدف أن كان السيد محمد بن عبد الله أحمد خريجي جامعة القرويين الذي وقع عليه الاختيار ليكون مديرا لتلك المدرسة، قد سبق له أن مكث في مدينة وادي زم من 1937 إلى نهاية 1939، حيث كان من بين الذين يعملون على نشر الوطنية سرا بين السكان. وبما أن هذه المدرسة قد كانت قريبة نسبيا من وادي زم فقد التحق بها عدد مهم من الشباب لتحصيل المعرفة. وقد لعبت تلك المدرسة دورا رئيسيا في تكوين جيل من الشباب الوطني الذي لم يوجد مثله من قبل بفضل الجهود الكبيرة التي كان يبذلها أساتذتها لزرع فكرة الوطنية وحب الوطن في قلوب الشباب، ونذكر من بينهم السيد ممدوح بن بوشعيب ومحمد المزالي اللذان ضمن الفوج الأول الذي حصل على الشهادة الابتدائية بتلك المدرسة الحرة سنة 1943، فعادا إلى مدينتهما وادي زم حاملين معهما ما سمحت لهما به ظروفهما من علم ومعرفة بالإضافة إلى ما تشبعا به من روح وطنية. ومن جهة أخرى هناك مجموعة من أبناء البادية أي من السماعلة وبني خيران وبني سمير الذين كانوا بعد حفظهم للقرآن بقريتهم، يتجهون نحو أبي الجعد وفاس لإتمام دراستهم، ومنهم من اتجه إلى بعض المدارس الحرة سواء بمكناس أو فاس والدار البيضاء. وعندما كان هؤلاء الطلبة يتممون دراستهم فقد كانوا يرجعون إلى قبيلتهم حاملين معهم قدرا من

المعرفة إلى جانب فكرة الوطنية التي يحاولون بدورهم نشرها قدر الإمكان في الوسط القروي رغم المشاكل التي كانت تطرح أمامهم لبلوغ ذلك الهدف. وبهذا تكون وادي زم وباديتها قد نالت قسطا من الأفكار الوطنية التي كانت موجودة بحجم أوسع في كبريات المدن.

وجاءت الحرب العالمية الثانية لتدخل عدة متغيرات على الساحة الدولية والمغربية على السواء. وكان من أهمها انتشار الأفكار والحملات المناوئة للاستعمار. وصدر ميثاق الأطلس في غشت 1941 الذي نص على ضرورة احترام حق الشعوب في تقرير مصيرها. فانتهى ذلك إلى إصدار الزعماء الوطنيين وبتنسيق مع السلطان محمد بن يوسف لوثيقة 11 يناير 1944 للمطالبة بالاستقلال. فأين هي واذي زم من هذه التطورات، وماذا كان موقف سكانها؟ هل ظلت هادئة صامتة تنظر إلى الأحداث باستغراب وتعجب أم كانت لها مساهمة في ما كان يحدث على الصعيد الوطني؟

منذ 1937، وبعد عملية النفي التي تعرض لها، كما أشرنا سابقا السيد محمد بن عبد الله إلى الجديدة، حرص سكان المدينة الصغيرة على متابعة الأحداث الوطنية وتطوراتها، وتم ربط الصلات باستمرار مع رجال الحركة الوطنية. ويتمثل ذلك في عدة مظاهر نذكر من بينها حرص سكان المدينة على الاحتفال بعيد العرش منذ أن أصبح ذلك رسميا سنة 1934، والذي كان يهدف إلى جمع السكان حول رمز معين هو السلطان، جعل هذا الأخير يهتم ويكثف عن اتصالاته برجال الحركة الوطنية. ويذكر أبناء المدينة أن إحياء تلك الذكرى كان في بداية الأمر يتم ببساطة كبيرة. حيث كان المنادي يمر في اليوم السابق ليوم عيد العرش ليعلن أن الاحتفال سيكون في اليوم الموالي وفي الغد يجتمع الناس فيشربون الشاي ويقرأون القرآن ويستمعون إلى خطاب السلطان ثم يتفرقون في المساء. إلا أن حجم الاحتفال قد عرف قفزة نوعية ابتداء من 1944 لأن تلك السنة قد شهدت صدور عريضة الاستقلال في 11 يناير، وضمن البعثات التي أرسلها رجال الحركة الوطنية نحو مختلف المدن لكسب التأييد من طرف السكان، أتى إلى وادي زم، حاملا نسخة من تلك العريضة، شخص سبق له أن أقام في الثلاثينات مدة قصيرة بالمدينة وهو الفقيه

غازي المعروف. وقد تم التوقيع على العريضة من طرف سكان المدينة وباديتها على السواء أمام المحكمة الشرعية.

ولا بد من الإشارة إلى الطريقة التي تم بها التوقيع على العريضة من طرف السكان. فعند مجئ الفقيه غازي إلي المدينة، سلمها إلى مولاي إدريس ابن عم السلطان الذي كان مقيما بالمدينة. فطلب هذا الأخير من قائد آنذاك وهو السيد العربي وأخيه الخليفة عبد السلام أن يدعو الناس ليأتوا من البادية والمدينة بهدف التوقيع على عريضة الاستقلال. وحدث ذلك فعلا حيث تمت الاستجابة إلي الدعوة. وإذا كان سكان المدينة قد أقبلوا بسهولة على عملية التوقيع لكونهم فهموا الغرض من العملية، فإن سكان البادية قد ترددوا في التوقيع. ومع ذلك تم إقناعهم بضرورة التوقيع اعتمادا على العنصر الديني، حيث قيل لأهل البادية أنه من كان مسلما حقيقيا فعليه أن يوقع وذلك بوضع بصمات أصبعه على الورقة، ومن شاء أن يكون نصرانيا فله الحق بأن لا يوقع. عندئذ تحرك شعورهم الديني فوضعوا بصماتهم بحماس على العريضة وبهذا ساهم سكان وادي زم التوقيع على عريضة الاستقلال، فسلمت إلى الفقيه غازي الذي غادر المنطقة مسرعا إلى الرباط قبل أن يبلغ الأمر إلى علم المراقب المدني، ومع ذلك فإن السلطات الفرنسية قد علمت الخبر، فقامت بحملة انتقامية ذهب ضحيتها ثلاثة أشخاص بارزين في المدينة، حيث تم عزل القائد العربي عن منصبه وكذا أخيه عبد السلام والسيد عبد العزيز اللذين كان يشغلان منصب خلفاء القائد. كما تمت استنطاقات وبعض الاعتقالات في صفوف السكان الذين كانوا يحثون الناس على عملية التوقيع.

مباشرة بعد تقديم عريضة الاستقلال في 11 يناير 1944 تم الإعلان عن تأسيس حزب الاستقلال، فتكونت الفروع الأولى للحزب بأهم المدن المغربية. وحاول المشرفون على هذا الحزب العمل على تأسيس عدة فروع بمختلف المدن المغربية بما فيها المدن الصغرى والبوادي إذا أمكن. وقد بدأت جريدة «العلم» تصل إلى جل المدن المغربية وتعرف الناس بمبادئ الحزب وأهدافه وتدعوهم إلى الانضمان والانخراط في صفوفه.

وفي سنة 1946 تم الاتصال بين بعض الأفراد من سكان البادية والمدينة، وخاصة

بين أولئك الذين سبق لهم ولوج إحدى المدارس الحرة أو جامعة القرويين، فتم الاتفاق بينهم على إرسال البعض منهم إلي مركز حزب الاستقلال الموجود بالدار البيضاء والذي كان يشرف على كل الفروع الموجودة بين الدار البيضاء وبني ملال. وكان المشرفون عليه هم بوشتى الجامعي وبناصر حركات والهاشمي الفيلالي، الذين أعطوا تعليماتهم ونصائحهم للوفد الذي أتى من وادي زم، وتوجت تلك الاتصالات بتأسيس أول فرع لحزب الاستقلال بالمدينة سنة 1947.

وبدأ ذلك الفرع البسيط يزاول مهامه، كبيع جريدة «العلم» والعمل على نشرها ضمن الأوساط الشعبية، وكذا توزيع المناشير التي كانت تصل أحيانا من الرباط، أو من الدار البيضاء. إلا أن تلك التجربة الأولى قد منيت بالفشل، ووقع تصدع للفرع الناشئ نتيجة أن تم حل الفرع وقبض على بعض عناصره. واقتصر نشاط ما تبقى من الأعضاء على بيع جريدة العلم، وكان المسمى الجيلالي بن الميلودي يتخصص في هذا النشاط لمدة طويلة. وتمت اتصالات جديدة بمركز حزب الاستقلال بالدار البيضاء، وبعد اجتماعات سرية داخل المدينة وفي قبيلة السماعلة تقرر إنشاء فرع جديد في أبريل 1947 وقد أحيط ذلك العمل بسرية كبيرة، وتم إبعاد كل المشكوكين في وطنيتهم والمتواطئين مع السلطات الفرنسية حتى لا تكون عاقبة الفرع الثاني كسابقه.

وقد تم الإعلام عن تأسيس الفرع الجديد سرا بين الأعضاء المنخرطين في مكان يبعد عن مدينة وادي زم بسبع كيلومترات في دوار الحوازم التابع لقبيلة السماعلة، ويطلق عليه اسم «المظلوم» وهو عبارة عن وادي صغير مخضر بالأشجار والنباتات، فتظاهر أعضاء الجديد بالخروج إلى نزهة عادية. وهناك تحت شجرة، ثم الإعلان عن تأسيس فرع جديد لحزب الاستقلال لمدينة وادي زم، وأقسم خلال ذلك اللقاء كل الأعضاء على كتاب الله بأن يكونوا مخلصين لله وللوطن والملك، وأن يكتم السر بين أعضاء الفرع، والعمل من طرف كل عضو على تنفيذ التعليمات والأوامر التي قد تصدر عن القيادة العليا للحزب وعن فرعه بوادي زم بغض النظر عن كل العواقب التي يمكن أن تترتب عن ذلك العمل كالسجن أو الموت إن اقتضى الأمر ذلك، ثم أن يعمل كل عضو حسب إمكاناته لإخراج الفرع من السرية إلى العلنية

بصفة تدريجية، بالإضافة إلى توعية الجماهير ومحاولة كسب أعضاء جدد لفائدة الفرع.

ولا بأس من ذكر أسماء بعض أعضاء هذا الفرع بوادي زم، زين الدين العربي الجيلالي بن الميلودي، ممدوح بن محمد بن بوشعيب وكان مدرسا بالمدينة، حمو الخياط، أحمد الفيكيكي، صالح بن أحمد الصحراوي، البصير بن الغزواني، مصطفى بن بوعزة الديكي، المعطي بن الخطيب، فخر الدين عباس، إلى جانب أعضاء آخرين يضيق المجال لذكرهم، كانوا كمستشارين أو أعضاء في فرع الحزب.

وكان نشاط هؤلاء الأفراد يتجلى في ربط الاتصال باستمرار بمركز الحزب في الدار البيضاء، ونقل الأخبار والتعليمات إلي وادي زم. وكانت تصل إلى المدينة عدة جرائد وصحف وطنية إلى جانب جريدة العلم،و مثل جريدة «الرأي المغربية». بالإضافة إلى جريدة «البصائر» التي كانت تأتي من الجزائر ومجلات أخرى تصل من الشرق العربي.

كما أولى الفرع عناية خاصة للاحتفال بذكرى عيد العرش، وذلك بجمع التبرعات والمساهمات من السكان المتعاطفين لإعداد المنصة التي كانت تلقى منها خطب حماسية تشيد بالوطن وشخص محمد بن يوسف. وغالبا ما كانت تقع في صفوف أعضاء الفرع اعتقالات عقب كل احتفال بعيد العرش، لأن البعض منهم كان لا يتردد في إدراج أقوال أو إشارات في خطبته تمس مباشرة سلطات الحماية.

إن أهم حدث سجلته سنة 1950 بالنسبة لفرع حزب الاستقلال بوادي زم، هو الخلاف الذي قام به بعض أعضائه حول أمور تتعلق بحسابات الفرع ومصاريفه. وبذلك انسحب بعض الأعضاء عن حزب الاستقلال بصفة نهائية، نذكر من بينهم ممدوح بن بوشعيب، والسكوري ومحمد المزالي وآخرين. ومعلوم أن حزبا ثانيا كان قد ظهر على الساحة السياسية منذ 1946 هو حزب الشورى والاستقلال. وكان السيد محمد الشرقاوي من العناصر الأساسية في هذا الحزب، فقام بإجراء اتصالات بالأفراد الذين انسحبوا من فرع حزب الاستقلال، وقاموا بزيارة لبيته في أبي الجعد فوافقوا على الانخراط في حزب الشورى والاستقلال. وكان لهذا الخلاف الذي حدث بين أعضاء فرع حزب الاستقلال بوادي زم نتائج إيجابية على مستوى

النشاط السياسي للمدينة. فعوضا من حزب واحد أصبح بها حزبان وذلك من شأنه أن يخلق المنافسة بين الأعضاء المنخرطين في كلا الحزبين للقيام بمادرات تشرف الوطنية بالمدينة وخاصة أثناء الاحتفال بعيد العرش.

وفي شهر دجنبر 1952، وصلت أخبار اغتيال الزعيم النقابي التونسي فرحات حشاد إلى وادي زم، حيث وصلت عدة مناشير قبل يوم 8 دجنبر تدعو كلها إلى القيام بإضراب عام للاحتجاج على ذلك العمل، وصادف يوم 8 دجنبر بوادي زم يوم الاثنين الذي ينعقد فيه السوق الأسبوعي. مما جعل القيام بالإضراب في ذلك اليوم مهمة جسيمة تتطلب من الوطنيين بالمدينة جهودا كبيرة لإنجاحه. وتطبيقا لذلك الغرض، تجند الوطنيون وانقسموا إلى فئتين: مجموعة أولى خرجت قبل طلوع الفجر إلى الطرقات لاعتراض التجار المتوجهين نحو السوق ومنعهم من الدخول إليه. ومجموعة ثانية أسندت لها مهمة التجول بأحياء المدينة المغربية لحث أصحاب الدكاكين على عدم فتح الأبواب. ورغم كل الصعوبات التي طرحت فقد تم الإضراب ونجح بفضل الجهود التي بذلها كل السكان.

انتهت الأزمة بين الإقامة العامة والقصر كما هو معلوم يوم 20 غشت 1953 بنفي محمد بن يوسف خارج البلاد، وكان ذلك العمل نقطة تحول هامة في صراع الشعب المغربي للحصول على استقلاله. وفي حقيقة الأمر، لم يكن المغاربة جميعا، ومن بينهم سكان وادي زم يتصورون أبدا إمكانية قيام السلطات الفرنسية بنفي محمد بن يوسف خارج بلده. ولكن بعد تنفيذ العملية، ساد صمت رهيب في المدينة وأحس السكان بحزن عميق، وبدأوا يفكرون في رد الفعل ويبحثون عن طريقة جديدة للتفاهم مع سلطات الحماية. لكن ماهي تلك الطريقة؟ إن تأسيس الأحزاب السياسية وإصدار الصحف الوطنية وتوزيع المناشر وعقد الاجتماعات كل هذه الوسائل قد استنفذت ولم تحقق أية نتائج إيجابية. استنتج الجميع أن وقت الكلام والتجمعات قد انتهى، خاصة وأن السلطان محمد بن يوسف والزعماء السياسيين والنقابيين قد تم إبعادهم خارج البلاد، ولم يبق داخلها إلا الشعب الذي يجب أن يقرر مصيره بنفسه، إن العمل الذي قامت به فرنسا قد أدى إلى إقفال باب التفاهم والحوار السياسي مع المغاربة، وبذلك تكون فرنسا دون أن تضرب

حساباتها قد دفعت بالجماهير الشعبية إلى فتح باب جديد هو باب العنف والثورة المسلحة والحركة التحريرية التي تتخذ من القتل والحرق والتخريب الوسائل الكفيلة بتحقيق مطالبها. وبالفعل فقد بدأت علامات السخط تظهر في كل المدن وذلك بتفجير القنابل وإلحاق الأضرار البليغة بالمصالح الاقتصادية التابعة للمعمرين وأعوانهم.

ولم يتخل سكان وادي زم عن المشاركة في تلك الأعمال خلال تلك المرحلة العصيبة. ففي صيف 1954، ومع بداية موسم الحصاد قام بعض السكان من البادية والمدينة على السواء بإضرام النيران في عدة مزارع كان يملكها المعمرون في الطريق المؤدية إلى الرباط. وفي يوم الإثنين 30 غشت من سنة 1954، وعلى الساعة الواحدة بعد الزوال قامت جماعة من دوار الحوازم بتفجير قنبلة صنعت محليا في متجر لبيع السجائر التي كانت ضمن المواد الفرنسية التي دعا الوطنيون إلي مقاطعتها. وفي الساعة الثالثة من نفس اليوم تم اعتقال العديد من سكان المدينة للتحقيق معهم في قضية تفجير القنبلة. فاتضح أن الفاعلين قد حصلوا على الديناميت من منجم آيت عمار الذي يستخرج منه الحديد. وتم تفجير قنبلة ثانية في نفس السنة بسوق الجمعة بالسماعلة مما كان سببا في إفراغ السوق وانفضاضه من المشترين قبل الأوان.

وبهذه الأعمال، على الرغم من بساطتها تكون وادي زم قد ساهمت على قدم إمكاناتها في التعبير الكامل عن رفضها للعمل الذي أقبلت عليه الإقامة العامة بنفيها لرمز البلاد. تراكنت الأحداث بشكل متسارع، وظلت الأزمة قائمة حتى سنة 1955. وتميزت هذه المرحلة بانتشار واضح للوعي الوطني عند كل المغاربة سواء بالمدن أو البوادي. وأصبحت تسيطر على كل العقول فكرة الاستقلال وعودة محمد بن يوسف إلى البلاد. ولم يقف الوطنيون بوادي زم مكتوفي الأيدي، بل قاموا بعقد الاجتماعات واللقاءات بين أعضاء الأحزاب السياسية التي تم حلها وحذرها. ومع ذلك استمر العمل في الخفاء، فالعناصر التي كانت تكون فرع حزب الاستقلال بوادي زم عقدت اجتماعات سرية بعضها في المدينة وأخرى بقبيلة السماعلة. وبينما كان الأعضاء السابقون في حزب الشورى والاستقلال

يجتمعون، حسب ما وراء بعض الأعضاء بانتظام كل يوم خميس في بيت السيد محمد الشرقاوي بأبي الجعد. وكان وفد مدينة وادي زم يمثله ممدوح بن بوشعيب، ومحمد المزالي والحاج عبد الكبير الذهبي ومحمد الفقير وعبد القادر الكراب. ورغم ثقافته الأجنبية فقد كان محمد الشرقاوي متشبعا بالروح الوطنية الأصلية، فلعب دورا أساسيا في توعية الوطنيين وإبداء النصح لهم. فكان يحدث الحاضرين في الاجتماعات المقامة ببيته عن حملة العنف والقمع المتزايدة ضد الوطنيين وخاصة في الدار البيضاء حيث قتل من بينهم الكثير على يد أعضاء الحركة المضادة للإرهاب.

وكان رد فعل المغاربة عنيفا أيضا من لدن الفدائيين بالدار البيضاء والذين نظموا أنفسهم في إطار منظمات فدائية مثل منظمة الهلال الأسود، اليد السوداء، أنصار محمد الخامس، منظمة معنينو وغيرها، ثم بدأت تباعا عمليات القتل في صفوف الفرنسيين وتفجير القنابل في الأماكن العمومية، وحسب معلومات قدمها إلى بعض الأعضاء السابقين في حزب الشورى والاستقلال فإن السيد محمد الشرقاوي كان يمر في تلك الظروف بوادي زم ويلتقي سرا ببعض الوطنيين فيحاول إيقاظ هممهم وإثارة حماسهم، وكأنه يقول لهم: «ألا ترون ما يحدث بالدار البيضاء، قنابل، حرائق، قتل، وأنتم هنا في وادي زم لا تحركون ساكنا. مع العلم أن بعض الفرنسيين ينطلقون من وادي زم نحو الدار البيضاء ليقومون بقتل المغاربة. لابد لكم أن تفعلوا شيئا ما، وإلا ستظل فرنسا هنا إلى الأبد. إن السلطات الفرنسية تقول بأن ما يقوم به سكان وادي زم من مشاكل يعتبر تافها ولا يعبر عن حماسهم حول قضيتهم. فكان بعض أبناء المدينة يردون على كلام السيد محمد الشرقاوي بأن المدينة صغيرة وإمكاناتها بسيطة أو يعتذرون له بمثل هذه العبارات. إلا أن الرجل كان يعود ليلح عليهم بضرورة القيام بعمل هام يؤكد للفرنسيين أن هناك حقا شعبا يرغب في الدفاع عن حقوقه وكرامته.

وخلال سنة 1955، اتصل بعض الأفراد من وادي زم والسماعلة ببعض المنظمات الفدائية بالدار البيضاء، فكانت الحصيلة هي تكوين منظمات فرعية بوادي زم. وكان من بينها: المنظمة السرية وعلى رأسها السيد هشام علي الذي كان

يشرف على مجموعة مكونة من عشرة أفراد موزعين بوادي زم والسماعلة، وكان هشام على اتصال بالمنظمة الأصلية بالدار البيضاء التي كانت تزوده بالأخبار وأحيانا بالسلاح. ثم منظمة اليد السوداء وكان يرأسها البدوي البصير، والمنظمة المحمدية وعلى رأسها الفغاني الجيلالي ويساعده منتصر محمد، بالإضافة إلى منظمة أسود التحرير التي كان يرأسها السيد عاطفي أحمد بمساعدة العناوي بوعزة الموجود بالسماعلة وكذلك المعلم الجيلالي. وتضم ثمانية أشخاص آخرين موزعين بين البادية والمدينة، وأخيرا منظمة صوت الاتحاد التي كان يترأسها ممدوح بن محمد بن بوشعيب.

وكان كل رؤساء هذه المنظمات على اتصال مستمر بالدار البيضاء إما عن طريق اتصالات شخصية أو بواسطة أشخاص مجهولين يقومون بنقل الأخبار أو إيصال الأوامر الصادرة عن المنظمة الأم إلى المنظمات الفرعية وتزويدها ببعض الأسلحة. وكانت الحافلات التي تقطع المسافة الفاصلة بين الدار البيضاء وبني ملال وسيلة فعالة لتزويد الفدائيين المتواجدين على طول هذه الطريق بالمناشير والأخبار والأسلحة بواسطة سوائقيها ومساعديهم. وقد اشتهر في أوساط المقاومين سائق يلقب بـ «أشلاغمو» قام بتلك المهمة أحسن قيام.

كانت أخبار القتل التي ينفذها الفرنسيون في صفوف سكان الدار البيضاء تصل إلي كل المدن المغربية ومن بينها وادي زم وبواديها. وكان وصول تلك الأخبار يزيد في حماسهم للدفاع عن قضيتهم ويملأ قلبهم بالمزيد من الحقد على الفرنسيين وكل ما يمت إليهم بصلة. وكانت ذكرى نفي محمد بن يوسف على الأبواب وهي يوم 20 غشت. وكانت الإقامة العامة تحت قيادة كرنفال Grandval تخشى ذلك اليوم نظرا للمظاهرات التي كان من الممكن وقوعها، ولذلك اتخذت عدة احتياطات ليمر ذلك اليوم بأقل عدد ممكن من الاضطرابات والضحايا. وحاول كرنفال الإلحاح على الحكومة الفرنسية لتنصرف بسرعة وتعلن عن ذهاب ابن عرفة وأن يتم تشكيل مجلس للوصاية ومجلس حكومي للمفاوضات وأخيرا أن يتم نقل محمد بن يوسف إلى فرنسا ونشر تصريح لهذا الأخير. ومن جملة الاحتياطات التي اتخذت لضمان مرور يوم 20 غشت بسلام، تم اختيار نفس اليوم بالضبط لافتتاح

المفاوضات في إيكس ليبان Aix-les-Bains وقال بيير جولي P. July الذي كان يشغل وقتئذ منصب وزير للشؤون المغربية التونسية في حكومة إدكارفور E. Faure.

«إن البرنامج الذي اقترحه السيد كرنفال لم يكن من الممكن تحقيقه في تلك الظروف. إن تحقيق ذلك البرنامج من شأنه فعلا أن يهدئ الوطنيين، لكن يوجد بالمغرب عدد مهم من الفرنسيين المصممين على عزمهم والذين من الممكن أن يعلنوا عن ثورتهم في حالة ما إذا تم تنفيذ برنامج كرنفال (   ) ومع اقتراب يوم 20 غشت أعطيت التعليمات من الحكومة الفرنسية لكي تتخذ كل الاحتياطات الضرورية لإحباط كل المظاهرات المحتمل حدوثها. وفي المدن الكبرى التي تعتبر ميدانا نشيطا للوطنيين المتطرفين تم وضع تأطير عسكري قوي لقمع أية مظاهرة ممكنة».

وفي يوم 18 غشت 1955 أبرق كرنفال الوزراء الذي كان سينعقد في نفس اليوم بباريس، وجاء في تلك البرقية ما يلي:

«إن الرؤوس ساخنة، وننتظر انصراف السلطان مولاي عرفة يوم 19 غشت، فالمغاربة يعتبرون بما أنه لم يتمكن من تشكيل حكومته في المدة التي خولت له من طرف الحكومة الفرنسية، فإن على هذه الأخيرة أن ترغمه على الانصراف».

وأضاف كرنفال في برقيته قائلا:

«إنني أتأسف أسفا شديدا لكون الحكومة الفرنسية لا تولي أهمية لخطورة الموقف وإلى السرعة التي تتدهور بها الأمور».

وقبل 20 غشت بأيام قليلة صرح الجنرال ديفال Duval المسؤول الأعلى عن القوات المسلحة الفرنسية بالمغرب، إلى بيير جولي بما يلي:

«إنني أعرفهم جيدا وأحبهم (يعني المغاربة) ولكنني أقول لك أنه في حالة عدم تصرف فرنسا باستخدامها لقوتها فإننا سوف نصل إلى أمور ذات خطورة بالغة (   ) إنني أفضل أن أقوم الآن بقتل ألف من المغربة على أن أكون مرغما على القيام بحرب يمكن أن يؤدي إلى ثلاثمائة قتيل.

كانت هذه هي الوضعية العامة التي عليها السلطات الفرنسية قبل 20 غشت. وكل هذه الإشارات توضح أو كانت تنبئ باحتمال وقوع أحداث خطيرة. ودون

شك استغلت هذه التناقضات الموجودة بين الإقامة العامة والحكومة الفرنسية من طرف بعض الوطنيين والمتطرفين منهم وكذا الفدائيين لإشعال نار الاضطرابات في عدة مدن مغربية.

وضمن الاحتياطات التي اتخذتها السلطات الفرنسية لمواجهة يوم 20 غشت تم وضع أجهزة أمنية بالمدن الكبرى، ظنا منها أن العنف ظاهرة حضرية بينما أغفلت المدن الصغرى والبوادي ولم تزودها بالقوات الضرورية استخفافا بكل ما يمكن أن يحدث بها. وربما استغل هذا الخطأ من طرف الفدائيين والوطنيين فقاموا بالدعاية سرا لإثارة انتفاضات محلية بصغريات المدن التي لم يكن بها تأطير عسكري مهم.

منذ أن تمت عملية نفي محمد بن يوسف وسكان وادي زم يفكرون في رد الفعل ضد الفرنسيين. وسبقت الإشارة إلى الدعوات التي كان يوجهها الوطنيون لسكان وادي زم وباديتها للقيام بعمل يثبت حرص مدينتهم على حرية واستقلال البلاد. وعلى ضرورة عودة محمد بن يوسف إلى عرشه. خاصة وأن المدينة أصبحت بها فروع للمنظمات الفدائية وأن السكان أصبحت لديهم درجة كبيرة من الوعي بوحدة المصير، وبما أن فرنسا قد استخدمت العنف والقوة في كل تصرفاتها مع المغاربة، إذن فليس من سبيل إلا مواجهة القوة بالقوة والعنف بالعنف رغم الفرق الموجود والواضح بين الإمكانات المادية والبشرية لدى الطرفين. وهكذا بدأ الاستعداد لوم 20 غشت ليكون يوما مشهودا في تاريخ المدينة الصغيرة.

وتطبيقا لهذه الغاية أعدت المنظمات الفدائية كل الوسائل التي يمكن استخدامها لمهاجمة الفرنسيين فكانت الأسلحة بسيطة جدا بطبيعة الحال. فحسب شهادة السيد هشام علي رئيس المنظمة السرية فإن منظمته تمكنت من توفير ما يلي: مسدسين أحدهما من نوع والتر 765 وآخر من نوع 635، كمية من القنابل من نوع ف.م الأمريكية الصنع، قنابل مسيلة للدموع من صنع إيطالي، ثم أزيد من 25 بندقية صيد. كل هذه المعدات تم توزيعها على الخلايا التابعة للمنظمة بالإضافة إلى أربع شاحنات وكمية من السلاح الأبيض من كل الأصناف. وحين سئل رئيس المنظمة السرية عن مصدر هذه الأسلحة أجاب بأنه قد تم الحصول عليها من القاعدة

الجوية بالنواصر

أما منظمة اليد السوداء، فكان لديها من الأسلحة ما يلي: بندقيتان من نوع ساسبو، أربع مسدسات، ثلاثة من نوع 9 ملم والرابع من نوع 5 ملم وقد توصلت المنظمة باثنين منهما من يد السايح بوجمعة أحد أعضاء جيش التحرير. في حين اشترت المنظمة المسدسين الآخرين من صندوقها. هذا بالإضافة إلى أربعين بندقية صيد والعديد من الشواقير والخناجر والعصي. وأعدت المنظمة المحمدية ما يلي: أحد عشرة بندقية للصيد، ثمانية بنادق عادية عشرة شواقير وخمسا وأربعين لترا من البنزين وخمس شاحنات ثم ثلاثين من الخيول. وتمكنت منظمة أسود التحرير من تزويد أعضائها بمسدس من عيار 7,65 ملم ومسدس من عيار 9 ملم وخمس مفرقعات يدوية. وكذلك وفرت منظمة صوت الاتحاد عدة أسلحة أغلبها من السلاح الأبيض. كما أن هناك عدة أشخاص غير المنتمين لأية منظمة كانوا يتوفرون على بعض الأسلحة. أما عامة السكان فكان سلاحهم هو الإيمان العميق بقضيتهم العادلة.

وتجدر الإشارة إلى أنه لم يحصل اتفاق بالإجماع بين المنظمات السابقة الذكر على اليوم الذي يجب أن يحدث فيه الانتفاضة، بل وصل الأمر إلى حد وقوع خلافات بين رؤساء المنظمات. فمنظمة اليد السوداء يقول رئيسها البدوي البصير أنها تلقت أمرا من جيش التحرير عن طريق السايح بوجمعة للقيام بالانتفاضة يوم 8 غشت 1955، بينما قرر أعضاء المنظمة السرية يوم 5 يونيو 1955. في حين ارتأت المنظمة المحمدية أن تكون الانتفاضة يوم 29 يوليوز 1955. ويمكن أن نستنتج من هذه الخلافات التي كانت حول تحديد يوم انتفاضة فروع المنظمات الفدائية بوادي زم لم تكن منعزلة عن المنظمات الأصلية الموجودة بالدار البيضاء، وأنها كانت تسير تبعا لأوامرها وبتنسيق معها. ومهما يكن فقد تم الاتفاق النهائي بعد اجتماع سري عقد بين المنظمات والخلايا التابعة له على أن يكون يوم 20 غشت، اليوم الذي نفي فيه محمد بن يوسف، هو اليوم الأمثل لوقوع الانتفاضة، وتنفيذا لذلك وضع برنامج محكم حتى تحقق الانتفاضة هدفها المنشود، فقسمت المسؤوليات بين كل الأفراد، وعين من يقوم بالدعاية في صفوف الجماهير بالبادية والمدينة لإخبارهم بضرورة التحرك الجماعي يوم 20 غشت المعلوم.

وتفيدنا الرواية الشفوية بأن يوم 18 غشت 1955 قد شهد انعقاد اجتماع بين السيد محمد الشرقاوي بأبي الجعد حضر خلاله بعض أبناء وادي زم نذكر من بينهم : ممدوح بن بوشعيب ومحمد المزالي، فساهموا جميعا في التحضير ليوم 20 غشت . وعند العودة إلى وادي زم في نفس اليوم قام هؤلاء الأفراد بتحرير منشور يدعو إلى الانتفاضة يوم السبت المقبل . وكان عدد المناشير هو 1600 . وفي يوم الجمعة 19 غشت وزعت مناشير عديدة تحمل أسماء كل المنظمات التي كانت لها فروع وخلايا بالمدينة والبادية على السواء . وكلها تدعو السكان إلى العمل والتضحية يوم 20 غشت . وبالنسبة للدعاية في بادية السماعلة فقد راجت الأخبار عن الاستعداد ليوم السبت بواسطة التجار المتجولين الذين كانوا ينتقلون في الأسواق الأسبوعية بالمنطقة . ماذا كان موقف السلطات المسؤولة من هذه الاستعدادات ؟ ومن كان يمثلها قبيل حدوث الانتفاضة ؟ من الناحية الإدارية كانت هناك ثلاث قيادات : فمدينة وادي زم وبني سمير يشكلان قيادة واحدة على رأسها القائد بنيس الفاسي الذي سبق له أن عمل سنوات طويلة في صفوف الجيش الفرنسي . أما قبيلة السماعلة فكانت منقسمة إلى شطرين، الجزء الشمالي الذي كان يضم جماعة أولاد فنان والبراكسة وكان على رأسها القائد بن الحاج بوعزة، ثم الجزء الجنوبي الذي كان يضم جماعة المعادنة وعلى رأسها القائد بوشعيب بن رحال، وكانت قبيلة بني خيران منقسمة هي الأخرى إلى شطرين، قسم شمالي يسمى الكناديز وعلى رأسه القائد بن الحاج الدرمومي، وقسم جنوبي يسمى بأولاد بوغادي وعلى رأسه القائد الضاوي . وتدخل ضمن هذا القسم منطقة أيت عمار التي كان يستخرج منها الحديد .

إذن نلاحظ بأن كل قيادة قد وضع على رأسها قائد مغربي، وهناك المسؤولون الفرنسيون الذين يعتبرون الممثلين الفعليين للإدارة والمسؤولين الحقيقيين عن تسيير المنطقة إداريا واقتصاديا وسياسيا وهم كالتالي : رئيس الدائرة المسمى ألين (Alines) ويساعده في مهمته مراقب مدني كان هو مينيون (Mignon) ولهذا الأخير ثلاثة نواب يساعدونه في مهام التسيير الإداري للمنطقة وهم : النائب بوط (Bout) كمسؤول عن تسيير مدينة وادي زم وقبيلة بني سمير . ثم النائب كريول (Carayol)

المسؤول على إدارة وتسيير قبيلة السماعلة، أي جماعة أولاد فنان والبراكسة والمعادنة. وأخيرا النائب طوفان (Tofin) المسؤول على منطقة بني خيران التي تضم الكناديز وأولاد بوغادي. ويساعد هؤلاء جميعا رئيس للشرطة المسمى كامبوس (Campus) الإسباني الأصل وله هو الآخر مساعدين أوروبيين ومغاربة بالإضافة إلى فرقة من رجال الدرك على رأسها ضابط من رتبة ملازم.

وكانت توجد بالمدينة لجنة مكونة من اثني عشر فردا يمثلون أعيان المدينة، وكانت السلطات الفرنسية تأخذ برأيهم أحيانا في بعض الأمور المتعلقة بالمدينة. وتروج رواية بالمدينة تقول أن أولئك الأفراد الذين كانوا يكونون لجنة الأعيان وقتئذ قد وقعوا عريضة تبرأوا فيها من كل الأعمال التي كان يقوم بها الوطنيون المحليون ضد سلطات الحماية، وذلك خوفا بطبيعة الحال من تعريض مصالحهم الشخصية للخطر

تمكن الفرنسيون من التنبه بواسطة مخبريهم المندسين ضمن عامة الناس إلى المناشير التي وزعت بالمدينة سواء المحلية منها أو تلك التي وصلت من الدار البيضاء على وجه الخصوص. فكان لابد من عقد اجتماع ترأسه الينس (Alines) رئيس الدائرة، وخلاله درس الفرنسيون ما استوجبت الظروف دراسته، واتفقت على الاحتياطات الواجب اتخاذها لمواجهة الموقف. ومع ذلك فإن السلطات الفرنسية بالمدينة لم تأخذ الأمور بكثير من الجدية، حيث غلب على ظنها بأن المنطقة هادئة ولا يمكن أن تحدث بها أشياء ذات أهمية تستحق الانزعاج من أجلها. فتقرر اتخاذ إجراءات بسيطة اقتصر فيها على إخراج السجناء من السجن يوم الجمعة 19 غشت لالتقاط الأحجار التي كانت ملقاة في شوارع المدينة حتى لا تستعمل من طرف السكان في حالة وقوع تحركات ما، كما تم استدعاء فرقة من القوات المساعدة من خريبكة. وبالنسبة للمعمرين القاطنين بوادي زم، أعطيت لهم التعليمات من طرف المراقب المدني ليكونوا على حذر تام من كل ما يمكن أن يحدث. أما عناصر الأمن من شرطة ورجال درك وقوات مساعدة فقد أعطيت لهم تعليمات نصت في مضمونها على أن تكون مواجهة السكان بطريقة عنيفة وقاسية في حالة حدوث أي اضطرابات.

عرفت مدينة خنيفرة يوم 18 غشت 1955 انطلاقا من السابع صباحا عدة عمليات عسكرية إلا أن فيلقا من الجيش تمكن من الوصول إلى عين المكان على الساعة العاشرة قادما من مريست. وفي صبيحة اليوم الموالي تم إعدام بعض المتظاهرين ودفنهم بسرعة، وما لبثت الاضطرابات أن تجددت واستدعت قدوم إمدادات عسكرية إضافية من الحاجب، فكانت الحصيلة هي مقتل ثلاثة مظليين وجرح شرطيين جروحا بليغة، بينما قدر عدد الموتى من المتظاهرين المغاربة باثنى عشر شهيدا. ووصلت أخبار هذه الوقائع مساء الجمعة 19 غشت إلى وادي زم ما كان له أثر في الرفع من حماس السكان للعمل الذي كانوا عازمين على القيام به في اليوم الموالي. وعند المساء أطفئت الأنوار في كل المدينة في وقت مبكر على غير العادة، وأعلن حظر التجول، بينما توزع رجال الأمن من شرطة ودرك وجيش في إحياء المدينة المغربية. وقد توافد على المدينة في ذلك المساء عدد من أبناء قبيلة السماعلة، فقضوا الليل بها حتى يتمكنوا من الاتصال مع سكان المدينة والتنسيق معهم ليوم الغد.

وفي صبيحة يوم 20 غشت استيقظ كل الرجال من أبناء السماعلة باكرين، واتخذ كل منهم وسيلة معينة تنقله إلي المدينة كالدواب أو الشاحنات، إلا أن جلهم أتى مشيا على الأقدام. أما في المدينة فقد ظلت الحراسة مستمرة طوال الليل بالتناوب بين رجال الأمن. وعند الصباح الباكر قام رجال الأمن بجولات في المدينة لتفقد أحوالها. وقد صرح نائب المراقب المدني بوط Bout فيما بعد إلى جريدة الفيكارو قائلا:

«بعد لحظة استراحة، استيقظت باكرا صباح يوم السبت الأخير (...) لم يكن بالي مطمئنا حوالي الساعة السابعة والنصف قمت رفقة أربعة من رجال الدرك بجولة وسط المدينة التي كانت هادئة بعد ذلك ذهبت إلى الطريق الرئيسية على متن شاحنة صغيرة».

يتضح لنا من خلال هذا التصريح أن الأوضاع كانت ما تزال هادئة بالمدينة حتى حدود الساعة السابعة والنصف، كما يروي السيد ممدوح بن بوشعيب أنه قد استيقظ من نومه على الساعة السابعة وخرج من بيته على الساعة السابعة

والنصف، فركب دراجة عادية ليقوم بجولة في شوارع المدينة التي كانت ماتزال فارغة. لكن ابتداء من الثامنة صباحا بدأ الناس يخرجون من منازلهم ويتجمعون تدريجيا.

وفي نفس الساعة، تدفق بعض المتظاهرين من بني زمور على مدينة أبي الجعد فاحرقوا بعض المنازل والدكاكين التي كانت تبيع التبغ أساسا، ووضعوا بعض المتارس بالطرق. فوجد رجال الأمن أنفسهم محاصرين بالمتظاهرين فشرعوا في رميهم بالرصاص لكن بدون جدوى. إلا أن رئيس دائرة وادي زم أرسل بعض الامدادات على شكل فرقة من رجال الدرك وبعض المخازنية الذين تمكنوا من إعادة الهدوء إلى أبي الجعد حوالي الساعة التاسعة.

أما في وادي زم، فيروي ممدوح بن بوشعيب أنه على الساعة التاسعة صباحا قد تمكن من جمع حشد كبير من السكان حوله، وأخرج صورة للسلطان محمد بن يوسف كان يخفيها تحت ملابسه وصعد فوق كومة من التراب وشرع في الحديث مع الجماهير بحماس كبير عن الوطن والوطنية وعن كفاح محمد بن يوسف من أجل استرجاع الحرية والاستقلال. وكان عدد المتجمهرين يتزايد شيئا فشيئا حول السيد بن بوشعيب وحين أنهى هذا الأخير خطبته تقدم أمام الجماهير التي قدرت بالآلاف، وبدأوا جميعا يتجولون في شوارع المدينة هاتفين بحياة السلطان وحاملين الأعلام المغربية، وفجأة بدأت تظهر بعض الأسلحة في أيادي المتجمهرين وقد أخرجوها من مخابئها. وبصفة تدريجية ارتفعت درجة الحماس في صفوف المنتفضين، فأخرج كل واحد ما استطاع الحصول عليه من بنادق قديمة من شتى الأنواع، ومن سلاح أبيض من كل الأصناف، فكانوا كلهم ينتظرون الإشارة لتبدأ أعمال القتل والحرق والتخريب.

وكان أول عمل قام به بعض المتظاهرين أنهم حملوا بعض الحجارة وبدأوا يرمون بها رجال الدرك لاستفزازهم. كما رميت بعض الحجارة تجاه بعض النوافذ التي كسر زجاجها، وبغتة أطلقت رصاصة دون أن يعرف مصدرها الحقيقي، فربما خرجت من بندقية لأحد رجال الأمن، وربما أطلقت من طرف أحد المتظاهرين. ومهما كان مصدر تلك الطلقة النارية فإنها كانت كافية للإعلان عن بداية معركة

طاحنة لم تعرف نهايتها إلا بعد ستة ساعات.

وفي الساعة التاسعة والنصف كانت الجماعات التي خرجت صباح نفس اليوم من قبيلة السماعلة قد وصلت إلى مشارف المدينة قرب السكة الحديدية مستعملين الطريق رقم 22. وحين علمت السلطات بالخبر اتجه مساعد المراقب المدني كاريول المسؤول عن إدارة قبيلة السماعلة إلى عين المكان بهدف الحيلولة دون دخول الوافدين إلى المدينة. واتضح بأن مهمة كاريول والدركي الذي يرافقه صعبة جدا إن لم نقل مستحيلة. حيث وجدا أنفسهما أمام حشد هائل من الجماهير الحاملين لأنواع مختلفة من الأسلحة البيضاء والمناجل والعصي، البعض منهم راجلا والبعض ممتطي الدواب على متن الشاحنات. وجه كاريول كلامه إلى المتظاهرين داعيا رياهم للعودة من حيث أتوا إلى البادية. إلا أن صوته لم يصل إليهم، بل استمرت الجماهير في التقدم إلى الإمام، فلم يجد بدا من إطلاق النار على عجلة إحدى الشاحنات التي كانت تتقدم الجموع، فأصابها. وبدأ بعد ذلك يضرب بمسدسه في الفضاء لتخويف المتظاهرين وإرغامهم على التراجع إلي الوراء، إلا أنهم لم يعيروا أي اهتمام لذلك. بل تقدموا مندفعين بكل ثقلهم نحوه فتم قتله من طرف الجماعة شر قتلة هشم معها جسده إلى درجة صعبة فيها التعرف على هويته. خاصة وأن علاقة كاريول بأبناء السماعلة لم تكن طيبة. حيث قاسى الناس الكثير من تعنته وجبروته. وكان قد فرض عليهم جماعات وفرادى شتى الخدمات الشاقة. فقد أرغمهم على سبيل المثال على جلب الحجارة على متن البهائم وكسرها وتسويتها حتى يتسنى له بناء طريق رابطة بين مولاي بوعزة وسوق الأربعاء بالسماعلة. ولاشك أن تلك التصرفات قد أثرت على نفسيتهم، فوجدوا في تلك الفرصة أفضل مناسبة للتخلص منه هو ومساعده الدركي قرب السكة الحديدية البعيدة عن المدينة بكيلومترين.

عندئذ، أصبحت أبواب المدينة مفتوحة أمامهم على مصراعيها فتدفقوا كالسيل الجارف للالتحاق بسكان المدينة الذين استبشروا بقدومهم ورحبوا بهم لمساندتهم في عملهم التحريري. وقدرت الصحف الفرنسية عدد هؤلاء الوافدين من قبيلة السماعلة بأزيد من عشرة آلاف شخص. في حين كان عدد العناصر الآتية من بني سمير جنوب وعرب المدينة قليلا نسبيا. ومهما يكن فقد اختلط أبناء

المدينة بأبناء السماعلة وبني خيران وبني سمير. وفي وقت وجيز أصبحت الجهة الشمالية الشرقية من المدينة، حيث يوجد الحي الأوروبي، كلها في قبضة المنتفضين.

وكان أول عمل قاموا به هو تحطيم الأعمدة الكهربائية وأسلاك الهاتف، ثم وضعت تلك الأعمدة بعد إسقاطها وسط الطرق لتتخذ كمتارس لمنع مرور السيارات أو الشاحنات التي قد يحاول الفرار على متنها بعض الأوروبيين، ولم يجد المنتفضون أي مقاومة تذكر أثناء هجومهم على الحي الأوروبي ولذلك تفرقوا في شوارعه جماعات جماعات واخترقوا أبواب المنازل بقوة، ففوجئ بعض الفرنسيين داخل بيوتهم، ولم يتأخر المنتفضون عن استخدام كل ما كان بأيديهم من أنواع الأسلحة لقتلهم جميعا وبدون استثناء رجالا ونساء وأطفالا، بل حتى الحيوانات الأليفة التي صادفوها في بيوت الفرنسيين لقيت نفس المصير، وبذلك وضع حد لحياة أسر فرنسية بأكملها. ومن جهة أخرى تمت السيطرة من طرف المتظاهرين على محطات البنزين الموجودة بالمدينة، وتكلف البعض منهم بنقل مقادير من البنزين إلى الحي الأوروبي حيث كان يصعد شخص فوق سطح المتاجر أو المنازل التي كانت في ملكية المعمرين فيحدث ثقبا في السقف ويفرغ عبره مقدارا من البنزين لتضرم النيراد بعد ذلك داخل المبنى ليحترق كل ما في داخله من سكان وأثاث وملابس وسلع تجارية.

حوالي الساعة العاشرة حمي وطيس المعركة، فإذا بالنيران قد انتشرت في الحي الأوروبي بكامله، وقتل كل الفرنسيين الذين كانوا به أثناء الهجوم الجماعي، كما حطم كل ما يمكن تحطيمه وتخريبه. واستهدفت عمليات التخريب على الخصوص أهم المصالح الاقتصادية الحيوية العمومية منها أو الخاصة التابعة لسلطات الاحتلال والمعمرين بالمدينة. وبالإضافة إلى مساكن الأوروبيين تم كذلك إحراق واحدة من أكبر مطاحن الحبوب بالمغرب آنذاك والتي كانت تابعة لشركة «لندا» (Lunda) وكانت تشغل تلك المطحنة مساحة تبلغ أربعة الآف متر مربع تقريبا. وتضم إلى جانب الآلات مستودعا كبيرا من يستعمل لتخزين الحبوب، ويروي بعض الأفراد الذين شاركوا في إحراق المطحنة أنهم عثروا على مقادير مالية مهمة جدا فألقوا بها في النيران، حتى لا يتم اتهامهم فيما بعد بالسرقة ويحدث بذلك

تأويل في اتجاه مخالف لتلك الحركة التحريرية.

بعد أن تمكن المنتفضون من قتل كل الفرنسيين الذين سقطوا في أيديهم، حاولوا التوجه نحو مكتب الدائرة الذي كان قد لجأ للاحتماء به عدد كبير من الفرنسيين قبل اكتساح المدينة. وقام المراقب المدني بتزويدهم بالأسلحة الضرورية للدفاع عن نفسه والحيلولة دون وصول المنتفضين إلى مكتب الدائرة. وبالفعل تمكن الفرنسيون من قتل كل الذين حاولوا جاهدين اقتحام مكتب الدائرة فتساقط المغربة بالعشرات. وكان الجرحى من بينهم وكذلك الجثث تنقل إما نحو المسجد أو إلى الزاوية التيجانية.

أما الفشل في مهاجمة مكتب الدائرة، نادى بعض المنتفضين بالتوجه إلى السجن المدني لإطلاق من كان بداخله من السجناء المغاربة. إلا أن الأمر تعذر كثيرا بسبب الحراسة التي كانت مشددة على السجن وتوفر الحراس على أسلحة كانت كافية لمنع أي اقتحام للبناية. وعندئذ توجهت الجموع بكل ثقلها نحو المستشفى المدني وكلهم يصيحون هاتفين باسم محمد بن يوسف وحاملين الأعلام المغربية. وعند وصولهم إلي عين المكان، أقفلت أبواب المستشفى وكان مسكن الطبيب الرئيسي فيسباشير (Fischbacher) أمام المستشفى وعلى مقربة منه، وحين سمع صياح الجماهير خرج من منزله وحول إيقافهم وإبعادهم عن المستشفى. وكان فيسباشير يتمتع بسمعة طيبة لدى كل سكان المدينة، إذ كان شخصا نزيها ومخلصا لمهنته. ومع ذلك فشل في إقناع المنتفضين بالابتعاد عن المستشفى ففضل الدخول إلى بيته تاركا المنتفضين وشأنهم. لكن مباشرة بعد دخوله إلي بيته بدأت الطلقات النارية توجه نحو الجماهير، ففهموا من ذلك أن الطبيب خدعهم بكلامه ودخل إلى بيته ليطلق عليهم الرصاص من داخله وفي ذلك الحين، ثارت ثائرة المنتفضين الذين سقط منهم البعض قتيلا على الأرض، فاتجه جزء منهم إلى المستودع الذي كانت توجد به سيارة الطبيب فأخرجوها من مكانها وحاولوا إضرام النار فيها. عندئذ اضطر فيسباشير إلى الخروج من بيته لمنعهم من حرق سيارته فأطلقت رصاصة من وسط المنتفضين أردت الطبيب قتيلا، وعلى الرغم من مقتل الطبيب استمرت الطلقات النارية دون أن يعلم مصدرها الحقيقي. وبعد نهاية الانتفاضة

عرف بأن مقتصد المستشفى المسمى «كرو» هو الذي كان مختفيا في خزان الماء الموجود في بهو المستشفى ومنه كان يرمي الجموع بالرصاص. ومباشرة بعد مقتل الطبيب الرئيسي، اقتحمت أبواب المستشفى ودخل المنتفضون وأسلحتهم المختلفة الأصناف كانت ماتزال بأيديهم، فتفرقوا في كل القاعات ووضعوا حدا لحياة كل الفرنسيين الذين كانوا بداخلها قصد العلاج. وجاء كتاب شارل أندري جوليان «المغرب في مواجهة الأطماع الامبريالية» «في الصفحة 434» أن المتظاهرين قد قاموا إلي جانب قتلهم للطبيب الرئيسي فيسباشير بقتل أربعة عشر مريضا من بينهم إحدى عشر مسلما». وهذا الرأي يجعل المنتفضين يقومون بالقتل حتى في صفوف إخوانهم، وهو أمر يتناقض مبدئيا مع هدف الانتفاضة التي كانت موجهة أساسا ضد الفرنسيين ومصالحهم. وحين استفسرت في عين المكان بعض الأشخاص الذين كانوا يعملون وقتئذ بالمستشفى علمت من خلال أجوبتهم بأن المستشفى كان يحتوي على جناح مخصص للمرضى المغربة وآخر للمرضى من الفرنسيين، وعندما دخل المنتفضون قاموا في البداية بإخراج المرضى المغربة من الجناح المخصص لهم، واتجهوا بعدئذ إلى الجناح الخاص بالفرنسيين الذين تم ذبحهم وتفصيل أعضائهم، بالإضافة إلى تخريب وإتلاف تجهيزات المستشفى.

يبدو أن هذا الوصف الدقيق لتتابع الأحداث بالمدينة أن المنتفضين قد تمكنوا من السيطرة على المدينة بكاملها باستثناء مكتب الدائرة والسجن المدني. وأنهم تمكنوا من القيام بمختلف أعمال القتل والتخريب من التاسعة صباحا إلى حوالي الثالثة بعد الزوال دون أن يجدوا من يقف في طريقهم، وكأن القوات الفرنسية لم يكن لها أي وجود فعلي فوق التراب المغربي. ويحق التساؤل عن الأسباب التي جعلت المسؤولين عن الأمن بالمنطقة يفشلون في مواجهة المنتفضين ومنعهم من القيام بالأعمال التي سبق ذكرها.

صحيح أن عدد القوات التي كانت في المدينة ضئيل جدا إذا ما قورن بالحشود الهائلة من المهاجمين الذين فاق عددهم الستة عشر ألف شخص. وسبقت الإشارة إلى الإمدادات التي أرسلها رئيس دائرة وادي زم صباح يوم 20 غشت إلي أبي الجعد لتساهم في تهدئة الوضع هناك. وقد عادت تلك الإمدادات إلى وادي زم وعناصرها

متعبين مما جعل مقاومتهم تكون ضعيفة. ولم يبق لدى رئيس الدائرة «منيون» ومساعده «كرايول» سوى ستة دركيين وحوالي مائة مخزني ( ) وأشرنا إلى قيام المتنفضين منذ أول وهلة بقطع أسلاك الهاتف مما حال دون وصول أي خبر عن الأحداث بسرعة إلى الدار البيضاء لإرسال النجدات وإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

لكن جوليان أكد في كتابه: «بأن هناك إشارة تثبت بأن الهاتف كان صالحا للاستعمال وللاتصال بالدار البيضاء حتى الساعة الحادية عشرة وخمسة وأربعين دقيقة يوم 20 غشت. وأن منيون رئيس الدائرة بوادي زم قد ألح على الجنرال فرانكي للحصول على النجدات التي لم تصل إلى وادي زم إلا بعد خمس ساعات من الانتظار. مع العلم أن وادي زم لا تبعد عن الدار البيضاء سوى بمائة وخمسين كلم ( ) وأن الجنرال فرنكي كان بإمكانه استعمال المخازنية الموجودين في حالة استنفار دائمة بالدار البيضاء لكنه لم يفعل، وأن عناصر ضعيفة من الجيش لم تخرج من مديونة حتى الساعة الحادية عشر وثلاثين دقيقة ( ) ولما وصلوا إلى وادي زم في الساعة الثالثة بعد الزوال كان المتظاهرون قد تفرقوا».

وهكذا وصلت في الساعة الثالثة، إلى مشارف المدينة إمدادات عسكرية هائلة تتكون من سرية وفصيلتين مصفحتين وفيلق. كل هذه القوات دخلت إلى المنطقة وبدأت تباشر عملياتها التطهيرية. وعلى الساعة الثالثة والنصف نزلت فرقة من المظليين بالمطار القريب من المدينة. وفي الرابعة والنصف، وصلت فرقة من الكوم وسرية مدرعة، فقام الفيلق بتمشيط الحي الشعبي وجاء عند كلود بايا في كتابه (La Liquidation)، وقد تدخل الفيلق الرابع للمشاة بقيادة الكولونيل بوريلي (Boreilli) الذي تم استدعاؤه على استعجال من فاس ليتجه إلى ناحية وادي زم لإعادة الهدوء إلى المنطقة.

وفي نفس الساعة الخامسة تم إفراغ المدينة، حيث فر المئات من المنتفضين نحو البادية وماتت منهم مئات أخرى، وبقي الجيش وحده مع الجثث، وكانت الحصيلة النهائية للانتفاضة هي تسع وأربعون قتيلا من الأوروبيين، من بينهم أربعة من البحرية ودركي واحد وثمانية نساء وخمسة عشر طفلا، وظلت الإمدادات العسكرية الأخرى حتى حوالي السابعة مساء.

أما المنتفضون، فقد فر كل واحد بنفسه في اتجاه معين. جزء توجه إلى البادية نحو السماعلة وبني خيران، بينما دخل جزء آخر للاختباء في البيوتات داخل المدينة. وهناك من بقي في ساحة المعركة إلى آخر نفس. وأحسن مثال على ذلك هما بن داود الغزواني السميري، ومحمد بن عيادة السماعلي، اللذان رفضا الاستلام للجيوش الفرنسية التي سيطرت على كل أرجاء المدينة وحولتها إلى ثكنة كبيرة وطوقتها بالمصحات. وقد حاصرت الجيوش مسكن بن داود الذي ظل صحبة رفيقه يقاتلان ويرميان الرصاص من بندقيتهما ببسالة وشجاعة ولم تتمكن عناصر الجيش من القبض عليهما، فتمت قنبلة المنزل الذي تداعت جدرانه فأصيبت إحدى ساقي بن داود، ودخل الجيش ليخرجه مع صديقه بن عيادة فتم إعدامهما حينا وفي نفس المكان، ولم تقف القوات الفرنسية عند ذلك الحد، بل توجهت عناصر منها إلى قبيلة بني سمير وبحثوا عن أفراد عائلته بالمنطقة المعروفة بالحمري، وهناك رواية تنص على أن الإعدام قد شمل كل من عثروا عليه من أفراد أسرته.

ويمكن اعتبار هذا الشخص الذي كان طاعنا في السن بطلا لتلك المعركة التحريرية، والمثال الحقيقي للتضحية البريئة في سبيل الكرامة والحرية. حيث لم يكن للرجل أي تكوين ثقافي ولم يسبق له أن انخرط في صفوف حزب من الأحزاب السياسية ولا منظمة من المنظمات السرية أو العلنية. وحين قمت بزيارة إلى مقبرة الشهداء بعين المكان أثار انتباهي قبر الفقيد بن داود الذي تميز كثيرا عن قبور بقية الشهداء الذين سقطوا برصاص الفرنسيين أثناء الانتفاضة وبعدها. إذ على مقربة من مدفنة توجد شجرة لطخت بعض عروشها بالحناء، وعلقت في بعض أغصانها قطع ملونة من الأثواب، لا شك أنها قطع ملابس النساء التي تتردد على المقبرة لزيارة مدفن الشهيد بن داود والتبرك به. أي أن هذا الرجل قد دخل بتضحيته وكفاحه في زمرة الأولياء والصالحين الذين يجب تعظيمهم وتقديسهم.

وحين بدأت الجيوش الفرنسية تلاحق المنتفضين الذين فروا إلى السماعلة، وتابعوا سيرهم متوغلين في اتجاه الغابة المجاورة، ومنهم من ذهب إلى الجبال المجاورة لواد كرو. أما في المدينة فقد اخترقت العساكر أبواب المنازل وهتكوا حرماتها بحثا عن العناصر التي شاركت في أحداث الصباح، وتم بفعل عمليات التفتيش إلقاء

القبض على جل الذين حاولوا الاختفاء بالمدينة، فتحولت بعض المنازل الكبيرة بالمدينة مثل دار بوشعيب الكيحل إلى مراكز للاستنطاقات. وكان رد الفعل الفرنسي قويا وعنيفا اكتسى طابعا انتقاميا قد لا يليق بدولة تدعى الحضارة واحترام حقوق الإنسان على حد قول بعض المشاركين في الانتفاضة.

وفي مساء نفس اليوم، أي 20 غشت، وبعد أن تدخلت الجيوش الفرنسية بأعدادها الضخمة، بدأ الهدوء يعود إلى وادي زم وتراجعت عناصر قبيلة السماعلة نحو البادية. إلا أن الانتفاضة التي انتهت بوادي زم والتي أتت على حوالي خمسين فردا من سكانها الأوروبيين قد بقي فصل منها سيتم في مناجم أيت عمار البعيدة عن وادي زم بحوالي ثلاثين كلم والتي كان يشرف على استغلال مناجمها بعض الأوروبيين. وقد لخصت صحيفة لوبوتي ماروكان le Petit Marocain بتاريخ 22 غشت 1955 أحداث أيت عمار كما يلي:

«قام الآلاف من المغاربة، سواء الذين يشتغلون في استخراج الحديد من المنجم أو سكان القبائل المجاورة، بهجوم مفاجئ على الفرنسيين الذين فروا ودخلوا مكتبا صغيرا للاحتماء به من المهاجمين بعد أن وزعت عليهم الأسلحة بسرعة. إلا أن الذخيرة سرعان ما نفذت فعمد المهندسون إلى وسيلة خطيرة للدفاع عن أنفسهم وهي الديناميت (...) وعند حوالي الساعة الواحدة صباحا من يوم الأحد تدخل الجيش ليعثر أخيرا على أربعة عشر جثة (...) وتبين أن المنتفضين قد استحوذوا على مئات الكيلوغرامات من الديناميت، فتخوفت السلطات الفرنسية من إمكانية استخدامهم لتلك المتفجرات في عمليات أخرى».

وعرف يوم الأحد 21 غشت انتفاضة شعبية أخرى بمدينة خريبكة، جرفت على إثرها عدة منشآت تابعة للمكتب الشريف للفوسفاط فقدرت الخسائر بحوالي مليار فرنك، وبعد زوال نفس اليوم تمت السيطرة على الأوضاع من طرف عناصر الجيش والسكان الأوروبيين.

يتضح من خلال هذه الانتفاضات التي شهدتها مدن مختلفة، أن الاحتياطات التي اتخذتها سلطات الحماية كانت دون جدوى تقريبا كما أن الاضطرابات لم تقتصر على خريبكة ووادي زم وخنيفرة، حيث تمت صدامات عنيفة بين القوات

النظامية الفرنسية والمنتفضين. إلا أن ما حدث في وادي زم على مستوى النتائج كان أكثر تأثيرا في الرأي العام سواء داخل المغرب أو خارجه، ويظهر ذلك بوضوح من خلال الاهتمام البالغ الذي أولته وقتئذ الإذاعات العالمية والصحف الدولية لأحداث وادي زم، بالإضافة إلى كثرة التصريحات من طرف المسؤولين سواء بالمغرب أو فرنسا.

أثارت انتفاضة وادي زم دهشة كل الفرنسيين بالمغرب وخاصة المقيم العام كرانفال الذي أشار في مذكراته قائلا:

«وفي يوم 20 غشت كانت قد مرت على وجودي بالمغرب ستة أسابيع فلم تثر انتباهي أبدا منطقة وادي زم، بحيث لم تكن هناك علامة تنذر بالخطر فيما يتعلق بتلك المدينة الصغيرة الهادئة التي لم تكن بالنسبة إلي سوى نقطة على الخريطة بنواحي تادلة، لم أكن أعرف حتى اسم مراقبها المدني ورئيس دائرتها ( )».

وفي مساء نفس اليوم، أي 20 غشت، بعث المقيم العام إلى الصحافة بالتصريح التالي:

«لقد تميز هذا اليوم العصيب باضطرابات دموية بمختلف جهات المغرب. فإذا كانت النداءات بالانضباط والتعقل قد لقيت آذانا صاغية لها في الجزء الأكبر من البلاد، وخاصة بالمراكز الكبرى منها، فإنني وللأسف الشديد لاحظت حدوث وسيادة التعصب الأعمى في عدة جهات أخرى. إن ما حدث ليست له أية علاقة وأنا - متأكد من ذلك - بالشعور الحقيقي لدى كل المغاربة، وعلى الرغم من التضحيات الكبيرة التي قدمتها قوات الأمن فإن حصيلة تلك العمليات العنيفة كانت كبيرة.

( ) لم يكن بالإمكان في هذا المساء معرفة العدد الحقيقي لضحايا الهجوم المروع الذي تعرض إليه الأوروبيون من بين سكان وادي زم، حيث تم قتل النساء والأطفال بل وعائلات بأكملها (...) إن هذا العمل الفظيع قد مس بالأبرياء ومن أجل ذلك فإنني مصمم العزم على متابعة عمليات الردع بكل قوة. وإن هذه الأعمال الشنيعة لتعتبر بحق اعتداء على الصداقة الفرنسية المغربية. إن الرجل الذي جاء إلى المغرب بعد شهر ونصف ولديه رغبة أكيدة في إعادة الهدوء والسكينة، إن قلب هذا الرجل قد تحطم في هذا المساء، ليس هناك قضية على

الإطلاق يمكنها أن تبرر حدوث مثل هذه الجريمة، فكيف يمكنني القيام بمهمتي إذا لم يقم الشعب المغربي بالتعبير معي على استنكاره ورفضه لهذا العمل الوحشي.

وصرح السيد إدكارفور يوم 21 غشت، معبرا عن موقف الحكومة الفرنسية عن أحداث وادي زم، قائلا: «لقد كان يوم 20 غشت بالنسبة للمغرب وفرنسا يوم محنة كبيرة، بمدينة خنيفرة ووادي زم على وجه الخصوص، حيث وقعت أعمال الرعب والهمجية. تلك الأعمال لا يمكن لأي شيء ولا لأي أحد أن يبررها، إن بلادنا تشعر بألم عميق إزاء الطابع المأساوي لتلك الساعات من الاصطدام والحزن. إن الحكومة الفرنسية تنحني بعطف وإجلال أمام الضحايا الأبرياء لهذه الجريمة، وتعاهد بمعاقبة المجرمين شر عقاب، إننا نشاطر العائلات معاناتها...) وأطلب من الجميع بذل مجهود إزادي أعتبره ضروريا للمواجهة وللتغلب على أي شعور أو إحساس انتقامي (   )».

وبالفعل فقد كان رد فعل السلطات الفرنسية بالمغرب قويا كما جاء في التصريحين السابقين. فإذا كانت حصيلة الانتفاضة بوادي زم ستين قتيلا في صفوف الفرنسيين، فإن القوات الفرنسية التي ظلت بالمنطقة ما بين 22 غشت و7 شتنبر معززة بالدبابات والطائرات قد أتت على بضع مئات من المغاربة خاصة وأن المعمرين المدنيين لم يبقوا مكثوفي الأيدي بل شاركوا في أعمال انتقامية ضد المدنيين المغاربة.

وكان من الطبيعي جدا أن يطلق الجيش الفرنسي أياديه في المنطقة حيث انتهكت الحرمات وخربت المنازل سواء بالمدينة أو بقبيلة السماعلة فقد تعرض السكان إلي الضرب والتعذيب بأشكال لا تليق بدولة تدعي السبق الحضاري. وما زال السكان يذكرون الأعمال الوحشية واللاإنسانية التي قامت بها عناصر الجيش الفرنسي، حيث قتلت البهائم وأحرقت المنتجات الزراعية سواء منها الموجودة بالحقول أو المخزونة داخل الدور والخيام، مما جعل الناس يعانون مدة ليست باليسيرة من الجوع والحرمان.

أما الصحف والجرائد الدولية فقد أولت لإحداث وادي زم اهتماما كبيرا وتباينت الآراء حول حصيلتها.

فقد ورد في جريدة لوماند Le Monde بتاريخ 23 غشت ما يلي:

«إن مذبحة وادي زم تسمح لنا بأن نكون على إطلاع وإدراك تام بخطورة الوضع في شمال إفريقيا. وذلك بشكل يفوق ما يمكن أن توضحه لنا عشرات الاجتماعات والمؤتمرات. إن هذا الحدث المروع يؤكد لنا مدى العنف والهمجية التي تطبع ذلك الصراع العنيف. والآن يمكننا إدراك جسامة العمل الذي يجب القيام به لضمان سلام دائم في أوروبا».

وجاء أيضا في نفس الصحيفة وبنفس التاريخ ما يلي:

«إن المعارك التي دارت بوادي زم تعتبر بحق معارك طاحنة يقوم بها ثوار ذوو عزم شديد ومصممين بكل إرادتهم لتحرير الوطن وإعادة سيادته وكرامته. وتعبر هذه المعركة الأكثر خطورة بإفريقيا الشمالية من حيث الشكل والجوهر».

وجاء في صحيفة الفيكارو بتاريخ 24 غشت ما يلي:

«أجمعت الصحافة الدولية بأن معارك وادي زم وضواحيها لتعتبر بحق معارك طاحنة لا يمكن إيقافها إلا بشرط لا بديل له هو الاستقلال التام للمغرب».

وبالفعل، فإن أحداث 20 غشت 1955 بوادي زم قد قلبت كل الحسابات وحققت كل أهدافها وبنجاح كبير. حيث يكفي القول بأنها قد كذبت الادعاءات الاستعمارية التي كانت تعتبر سكان البادية مضادين لسيدي محمد بن يوسف. لقد جعلت انتفاضة وادي زم الحكومة الفرنسية أمام الأمر الواقع وارغمتها على تغيير مواقفها إزاء القضية المغربية ككل. فإذا كانت منطقة وادي زم التي لا تتوفر على تضاريس وعرة ولا على غاية يمكن أن تسهل مهام المقاومين المغاربة، قد شهدت تلك الأحداث الخطيرة، فماذا يمكن أن يقع لو تحركت القبائل المتوسطية والريفية من جديد؟ بالإضافة إلي سكان المدن الكبرى، لقد أصبح واضحا بأن استمرار الوجود الفرنسي بالمغرب أمر لا يمكن أن يطول. لأن ذلك يتطلب إمكانات عسكرية ومادية ضخمة للوقوف في وجه كل انتفاضة محتملة. وبذلك تكون انتفاضة وادي زم من بين العوامل التي دفعت بعجلة التحرير بسرعة إلي الأمام والتي أخرجت القضية المغربية من الجمود إلى الحركة والانطلاق نحو الحسم النهائي فيها، حيث لم تمض سوى بضعة شهور على انتفاضة وادي زم ليعود محمد بن يوسف إلى المغرب وتحصل البلاد على استقلالها.

المراجع المعتمدة

- الرواية الشفوية، عدة لقاءات واستجوابات بعين المكان سنة 1980 .

- Grandval (Gilbert), *Ma mission au Maroc* Plon, 1956

- Julien (Charles André), *Le Maroc face aux impérialismes 1415 - 1956.* Edition. J.A. 1978

July (Pierre), *Une république pour un roi,* Foyard, 1974 (coll. Les grandes études contemporaines).

- Paillot (Claude), *Vingt ans qui déchirèrent la France,* 2 la liquidation 1954 - 1962, Robert Laffont. (Coll. L'Histoire que nous vivons)

- La presse, le Figaro. Août 1955

- L'Humanité, Août 1955

- Paris Match, août / Septembre 1955

- Le Petit Marocain, Août, 1955

- La Vigie Marocaine, Août, 1955.

أضواء على تاريخ الكفاح الوطني
من أجل الاستقلال بمراكش

أحمد أزكروز
النائب الجهوي للمندوبية السامية لقدماء
المقاومين وأعضاء جيش التحرير
- مراكش -

من مراكش أحمل إليكم أبياتا شعرية أعجبتني وهي لشاعر مراكش واحد أقطاب الوطنية بها، «مولاي أحمد النور» قالها في سوس وفي تاريخ سوس. ونحن نتواجد هذه الأيام في سوس وفي عاصمة إقليم سوس.

لي نحو سوس تشوق يعتادني في كل حين
كم يذكر الخبراء ما حازت من المجد المبين
فيروقني التحرير من علمائها المتضلعين
ويهزني الإبداع من شعرائها المتفننين
تاريخ سوس عامر برجالها المتفوقين

وبعد،

أن تواجدي في هذه المنصة يرجع الفضل فيه إلى السيد المندوب السامي ومساعديه الذين شجعوني على هذه المبادرة، فإليهم أرفع تشكراتي وإلى كلية الآداب بأكادير أرفع مشاعر امتناني.

إن مداخلتي كما يدل على ذلك عنوانها لا أروم من خلالها إلا تسليط بعض الأضواء وتسجيل بعض الوقفات الهامة في تاريخ الحركة الوطنية والمقاومة المسلحة بمراكش وهي بالتالي ليست دراسة معمقة ودقيقة شاملة لكل بجوانب هذا

الموضوع. واعترف أنها متواضعة لذلك فإني أرجوكم أن تقبلوا عذري، فأنا لست باحثا متخصصا في التاريخ ولا أتقن البحث التاريخي الممنهج، كل ما في الأمر أنني تجمعت لدي بعض المعلومات والأفكار أحببت أن أشاطركم إياها وأتقاسمها معكم حتى تعم الفائدة، ذلك أنه إذا كانت آفة العلم النسيان، فإن أضاعته هو الاحتفاظ به في الصدور خصوصا إذا تعلق الأمر بموضوع كالتاريخ. وتاريخنا هو أعز ممتلكاتنا كما يقول صاحب الجلالة. وإن المغرب من الأمم القليلة كما تعلمون التي لها تاريخ عريق في المجد تاريخ كله بطولة وتضحية وكفاح. إذ أن المغاربة كانوا دائما بالمرصاد لكل معتد أثيم وكل مستعمر دخيل باستثناء طلائع الفتح الإسلامي التي فتحوا لها قلوبهم وضموها إلى أحضانهم.

هكذا كان المغاربة وسيبقون في كل جهة من هذا الوطن من بوغازه إلى صحرائه ومن شماله إلى جنوبه.

وهكذا كانت مراكش.. مراكش الحضارة مراكش التراث مراكش الأمجاد مراكش الجهاد والمقاومة، مراكش التي تسمى بها المغرب.

وقبل الشروع في هذه المداخلة اسمحوا لي أن أذكر ببعض الخصائص التي تتميز بها هذه المدينة في عجالة:

- فهي كانت عاصمة لعدد من الدول المتعاقبة على حكم المغرب: المرابطين والموحدين والسعديين والعلويين بعض الوقت.

- وبالتالي اكتسبت هذه المدينة صفة المخزنية (Ville Impériale)

- وهي تمتاز بكونها تضم خليطا من السكان (Cosmopolite) بعد الدار البيضاء. سكان من كل جهات المغرب تنوعت مشاربهم واختلفت تقاليدهم ولهجاتهم وعقلياتهم.

أما في عهد الحماية، فإن حلقات الاستعمار جعلت منها عاصمة عسكرية تراقب منها المنطقة كلها (Région Militaire) ونصبت على رأسها جنرالا وبالإضافة إلى ذلك أسست بها إدارتين مدنيتين مختلفتين:

- إدارة بالأسلوب الفرنسي: المراقب المدني ومساعدوه.

- أسلوب إداري تقليدي: الكلاوي وحاشيته.

لذلك فإن المراكشي يقولون إن مدينتنا ابتليت باستعمارين :

- الاستعمار الفرنسي.
- والاستعمار الكلاوي.

ومن هنا نستخلص أن مراكش لها قيم سياسية دقيقة جدا، يحسب لها حسابها، ولكن سنرى أن حسابات المستعمر ستذهب كلها سدى، ذلك أن سكان مراكش كباقي إخوانهم في جميع مناطق المملكة، كانوا يتوفرون دائما على وعي وشعور وطني. وأنهم كانوا دائما تربة خصبة لا تنتظر إلا من يخدمها لتعطي الثمار.

فإذا كانت ثورة المراكشيين ضد الاستعمار أخذت في بدايتها صبغة العفوية والتلقائية خاصة قبل الثلاثينات، فإننا سنراها ينتظمون ويجمعون أنفسهم بعد ذلك ليوجهوا الضربات تلو الأخرى وليقدموا المسامير في نعش المستعمر، وسيبلغ هذا التنظيم أوجه سنة 1953 عندما امتدت يد الاستعمار البغيض إلى رمز وحدة البلاد الملك الشرعي محمد الخامس رضوان الله عليه بالنفي والأبعاد إلى كورسيكا ثم مدغشقر.

وعلى هذا الأساس فإن مداخلتي ستتناول المحاور الرئيسية الآتية :

1- مرحلة التلقائية والعفوية قبل الثلاثينات.

2- مرحلة التنظيم والعمل الوطني المنظم بعد الثلاثينات.

3- مرحلة العمل المسلح المنظم : المقاومة وجيش التحرير في غشت 1953.

I- مرحلة العفوية والتلقائية :

سبقت الإشارة إلى أن الوعي الوطني متجذر في قلوب المراكشيين كباقي المغاربة، إلا أن هذا الوعي الوطني لم يجد بعد والمستعمر يعد عدته للانقضاضا على البلاد، من يمينه ويقويه ويوجهه. ومن جهة أخرى فإن الإنسان المراكشي يتوفر على حاسة سادسة وعلى حساسية تجاه كل دخيل، خصوصا لما رأى الطلائع الأولى للاستعمار تطأ أرض مدينته في بداية هذا القرن، واستنتج أن هناك حركة غير عادية وأن الزمر يتعلق لا محالة بالتمهيد لاحتلال البلاد. ولم تكن هذه الطلائع الأولى إلا جواسيس تعددت إشكالهم وأهدافهم ومن هؤلاء موشان وفوكور وليري جنتيل

وغيرهم كثير

فهذا يتستر وراء مهنة الطب وذلك وراء البحث الجيولوجي وذلك تحت مهنة الرحلة والاستكشاف.

واسمحوا لي أن أتوقف عند حادثة سجلها تاريخ مراكش وهي حادثة اغتيال الدكتور موشان ذلك أنه كما قلت فإن مداخلتي هي عبارة عن وقفات تاريخية.

1- اغتيال الدكتور موشان

هذه الحادثة التي كانت سنة 1907 هزن أركان المستعمر وهو يستعد للانقضاض على بلادنا، جاءت إذن قبل دخول المستعمر إلى المغرب بحوالي 5 سنوات. وموشان طبيب ولكنه أيضا جاسوس عاش في مراكش منذ سنة 1905 التي قدم إليها رفقة الجيولوجي لويس جنتيل (Louis Gentil)، واستطاع بحكم مهنته أن يحصل على حب الناس وأن يكتسب شعبية كبيرة في مراكش. وفتح مستوصفا للعلاج «بعرصة موسى» وبمساعدة دولته حول هذا المستوصف إلى مستشفى، إلا أن غروره خول له ذات يوم أن يرفع علم بلاده فرنسا فوق بناية مستشفاه متحديا بذلك مشاعر المراكشيين الذين تيقن لديهم أن شعورهم الوطني قد ضرب في الصميم. وكان رد الفعل عنيفا، فهجموا عليه وقتلوه وذلك يوم 26 مارس 1907.

ونورد هنا ما قاله المؤرخ ابن زيدان في الأتحاف حول هذه الحادثة:

«فاتفق أنه عندما ركب الطبيب المذكور علم دولته بمحله بعرصة موسى يوم 4 صفر 1325 في الحين تسارع إليه همج من الرعاع وقتلوه بالضرب والعصي والحجارة وتركوه جثة هامدة ملقاة على الأرض بباب داره»(1) والواضح من خلال الإطلاع حول ما كتبه عن هذه الحادثة أن هناك ثلاث أقوال حول هذا الاغتيال:

- القول الأول: إنه عندما تجرأ «موشان» ورفع علم بلاده فوق عيادته أثار ذلك حفيظة المراكشي وأحسوا أن هذا الأجنبي الذي عضوا عنه الطرف خلال السنوات الأولى من حلوله بمدينتهم، قد تحداهم في شعورهم الوطني فهجمو عليه وقتلوه، وهذا في نظرنا هو القول الصحيح للأسباب الآتية:

- إن المراكشيين لهم غيرة وطنية على بلادهم وهم على استعداد لمواجهة كل من سولت له نفسه أن يمس شعورهم الوطني.

- روح التسامح والتعايش مع الأجانب التي يتصف بها المغاربة عامة وبعدهم كل البعد عن التعصب الديني. لذلك لا يمكن إرجاع مقتل موشان إلا إلى الدافع الوطني وليس لكونه «نصرانيا»، بل لكونه جاسوسا أوفد كغيره من طرف بلاده تمهيدا لغزو المغرب. وفي هذا الصدد يقول «فوكو» وهو أيضا نضعه في نفس الخانة مع موشان، «إن تصلب المغاربة إزاء الأجانب وعدم تسامحهم لا يعود إلي التعصب الديني وإنما تنبع أصوله من شعور عام لدى كل الأهالي، فبالنسبة لهم لا يمكن أن يكون السائح الأوروبي في بلادهم إلا جاسوسا أرسل للتجسس عليهم ودراسة أحوالهم تمهيدا للغزو، إنهم يقتلونه كجاسوس لا ككافر».(2)

هذا ما قاله فوكو وتعرفون فوكو، والحق ما شهدت به الأعداء.

القول الثاني: إن الذين أغروا الأهالي لقتل موشان هو الألمان الذين كانوا في صراع مع الفرنسيين حول المستعمرات وخاصة منها المغرب الذي سال له لعاب كل الدول الاستعمارية نظرا لموقعه الاستراتيجي، فهم الذين بثوا في نفوس السكان الابتعاد عن الفرنسيين خصوصا وأنهم أدخلوا جهاز «اللاسلكي» إلى البلاد الذي يسهل مهمة تجسسهم عليها.

وكان موشان من هؤلاء الذين أدخلوا هذا الجهاز وأثبته فوق عيادته. ويذهب إلى هذا القول ابن زيدان.(3)

القول الثالث: احتمال أن يكون الفرنسيون أنفسهم هم الذين دبروا مكيدة مقتل موشان، وذلك لكون فرنسا تبحث عن أعذار للدخول إلى وجدة. واتخذت من هذه الحادثة وحادثة ميناء الدار البيضاء في 1907/7/30 ذريعة للدخول إلي وجدة ثم إلى باقي أنحاء المغرب.

إلا أنه في نظرنا فإن هذين الاتجاهين لا يصمدان أمام المنطق، إذ أن الألمان لم يعبروا في هذا الوقت عن مطامعهم الصريحة في المغرب وحتى إذا كان ذلك فإن تعبيرهم سيكون أكبر حجما من أن يقوموا بتدبير مثل هذه الحادثة، كما أن الفرنسيين لا يمكن أن يقتلوا أحد خدامهم الأوفياء وهو موشان الذي قال عنه وزير خارجية فرنسا آنذاك «بشون» أمام البرلمان الفرنسي «إن الدكتور موشان المسكين قد أدى بموته خدمة كبيرة لعمل فرنسا بالمغرب».(5)

والحاصل أن الدكتور موشان تحدى الشعور الوطني للمراكشي فنال عقابه.

ودائما ونحن بصدد العمل الوطني التلقائي اسمحوا لي أن أقف وقفة أخرى مع انضمام أهل مراكش إلى حركة مولاي أحمد الهيبة.

2- انضمام أبناء مراكش إلى حركة مولاي أحمد الهيبة.

هذه المرة ومباشرة بعد توقيع معاهدة الحماية قام أحمد الهيبة ابن الشيخ ماء العينين بحملة ضد الفرنسيين الذين انتزعوا حرية المغرب. وعقد أول اجتماع له مع زعماء القبائل يوم 5 ماي 1912، واستطاع أن يحرز على تأييد ودعم من طرف السكان. وانطلاقا من تزنيت توجه إلى مدينة مراكش حيث وجد هذا القائد التربة صالحة والوعي الوطني الذي ينتظر من يحركه، فانضم إليه أغلبية المراكشية سواء من المدينة أو القبائل المحيطة بها مسلحين بالسكاكين والمناجل والهراوات. ومن هذه المدينة توجه موكب مولاي أحمد الهيبة حاملا راية الجهاد ضد أعداء الوطن والدين للقاء الغزاة الذين احتلوا الدار البيضاء في غشت 1912 والذين يزحفون في اتجاه مدينة مراكش.

والتقى الجمعان وبلغت القلوب الحناجر في معركة البحيرة بسيدي بوعثمان على بعد حوالي 30 كلم من مراكش يوم 6 شتنبر 1912. إلا أن الهزيمة كانت لقوات أحمد الهيبة. وفي نظرنا فإن هذه الهزيمة تعود أسبابها إلى:

- افتقار قوات أحمد الهيبة إلى التنظيم والتأطير العسكري اللازم لخوض مثل هذه المعركة.

- تكالب القواد الذين انضموا بعد أن حمت المعركة إلى صفوف قوات مانجان ومن هؤلاء الكلاوي المتوكي والكنافي. وكانوا أول الزمر قد ساندوا أحمد الهيبة في حركته.

واحتلت قوات مانجان مراكش يوم 8 شتنبر 1912 أي يومين فقط بعد معركة سيدي بوعثمان.

ونستلخص من هذه الوقفة مع معركة البحيرة:

- إن القوات الاستعمارية سوف لن يهنأ لها بال أبدا، ذلك أن استقبالها وهي تدخل إلى مراكش لم يكن بالثمر والحليب ولكن كان بقوة الحديد والنار.

- إنه سوف يتأكد للقوات الاستعمارية أو تأكد لديها أن حركة الهيبة انضم لها سكان مراكش، وأن هؤلاء المراكشيين يجب أن يحسب لهم حساب خاص. وأن يحكموا بالبطش والقمع وخنق الأنفاس. وأن مراكش يجب أن تنصب بها إدارة خاصة، وأن الكلاوي وحاشيته يجب أن تعطى لهم جميع الوسائل لمساعدة فرنسا على خنق أنفاس المراكشيين.

ولذلك ومنذ ذلك الحين شرع الاستعماريون في تثبيت دعائم بهذه المدينة حيث جعلوا منها قلعة لجيوشهم ومنطلقا لبسط نفوذهم على ما تبقى من الأقاليم جنوبا، وكان مخططهم ينبني على الركائز التالية:

- إنشاء إدارة تعتمد على القمع وإذلال العباد.

- خلق طبقة من المتعاونين والخونة الذين باعوا ضمائرهم وصدهم بالامتيازات.

- الإجهاز على ما تبقى من كرامة الإنسان المراكشي وذلك بنشر الانحلال الخلقي وبفتح مواخي للبغاء العلني والتحرش بالنساء المراكشيات «وفي هذا الصدد نورد ما قاله الفقيه المختار السوسي وهو بصدد وصفه «لكوجي» أحد ركائز الاستعمار بمراكش، «طاغية أشيب مستهتر، مولع بهتك عفاف الإبكار»[6]، إضافة إلى ذلك نشر المستعمرون أنواع الخمور من خلال فتح حانات لتناولها بمختلف أحياء المدينة.

- منع السكان من إحياء الأعياء الوطنية والدينية وخاصة منها أعياء: عيد المولد النبوي وعيد العرش.

أمام هذا المخطط الاستعماري سيشرع قادة الوطنيين بمراكش وزعماؤها الذين تلقوا تعليمهم بكلية ابن يوسف ومدارس أخرى في إعداد مخططهم المضاد مواز للمخطط الاستعماري، والخطان المتوازيان لا يلتقيان أبدا، وهنا تبدأ مرحلة التنظيم.

II- مرحلة العمل الوطني المنظم

1- البداية:

أ- كان مخطط الوطنيين ينشأ على القواعد الآتية:

- تعميق الوعي الوطني لدى السكان والذي هو موجود ولكن في حاجة إلى من ينميه، وذلك من خلال فتح المدارس وتقوية دروس الوعظ والإرشاد وعقد التجمعات السرية وإحياء الأعياد الوطنية.

- وللوصول إلى تعميق هذا الوعي أولى الوطنيون اهتمامهم الخاص بنشر التعليم ودفع السكان وتحفيزهم وتحمسهم لارتياد جامع ابن يوسف أو المدارس الأخرى التي فتحت أبوابها.

- مقاومة الانحلال الخلقي الذي تفشى بالمدينة بشكل ملفت للأنظار.

- عقد التجمعات السرية في هذا المكان أو ذاك. ويذكر المراكشيون أن أول تجمع عقد من طرف الفقيه سيدي المختار السوسي وثلة من أصدقائه.(7) حيث كانت التجمعات تعقد بالتناوب وفي سرية تامة، في بيوت أعضاء هذه الجمعية. ومن هذه الجمعية انبثقت خلايا الحركة الوطنية التي مرت بين شباب المدينة فيما بعد.

- العرائض التي شرع المراكشيون في رفعها إلى سلطات الاستعمار ويذكر منها المراكشيون العريضة التي رفعها علماء مراكش لاستنكار الانحلال الخلقي بالمدينة وكانت سنة 1937 (8)، وعريضة الصناع التقليديين والحرفيين المرفوعة لرفع الظلم الذي لحقهم.(9)

ولكننا ونحن نتحدث عن تفجير الوعي الوطني من جديد لدى المراكشيين، لابد أن نتساءل عن العوامل أو عن بعضها على الأقل، التي ساعدت على ذلك والتي جعلت من التربة الخصبة تربة بدأت تعطي ثمارها.

2- بعض العوامل التي ساعدت على تفجير الوعي الوطني من جديد لدى المواطن المراكشي:

أ- إن أول عامل إن لم يكن هو العامل الرئيسي في تفجير هذا الوعي، هو عامل التعليم «وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» ذلك أن علماء مراكش وفقهاؤها وأقطاب الوطنية بها رغم قتلهم أول الأمر بذلوا جهدا كبيرا في نشر التعليم وتعميمه. وإذا ذكر العلم بمراكش ذكر جامع ابن يوسف أو كلية بن يوسف.

هذا الجامع الذي لعب نفس الدور الذي لعبته جامعة القرويين بفاس في

تخريج دفعات من زعماء الوطنيين الذين كان لهم الفضل في حمل مشعل الحركة الوطنية لا على صعيد مراكش فحسب، بل على صعيد المغرب كله.

كانت تدرس فيه العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وأصول والعلوم اللسانية من نحو وصرف وبلاغة وعروض وكذا الأدب وفنونه على يد فقهاء أجلاء أمثال الفقيه عبد القادر المسفيوي وسيدي أحماد أكرام وغيرهم رحمهم الله.

وبهذا الجامع جناح خاص يتكون من غرف متعددة لإيواء الطلبة يشبه ما يسمى بالحي الجامعي اليوم. وهنا يغتنم الطلبة فرصة إيوائهم لعقد التجمعات السرية والتذكير والتشاور حول قضية وطنهم ويذكر المراكشيون ما تعرض له طلبة هذا الجامع وأساتذتها من أساليب الترهيب والترغيب من طرف الاستعمار وأذنابه وتروي قصص عديدة حول التعذيب الذي يتعرض له الطلبة وخاصة «بالفلفل السوداني» لعب هذا الجامع إذن دوره في تخريج الدفعات الأولى من زعماء الوطنية الذين أنار العلم طريقهم وتحملوا مسؤولية تأطير السكان فيما بعد، إلى جانب هذا الجامع الكبير ذي التاريخ العريق هناك مدارس أخرى لعبت نفس الدور وساهمت في نشر التعاليم الإسلامية وأهمها روح الجهاد، ونخص بالذكر منها المدارس الآتية:

- مدرسة الرملية أو مدرسة الحياة التي أسسها الفقيه المختار السوسي عند حلوله بمراكش قادما إليها من سوس سنة 1927 والتي كانت أصلا زاوية والده بمراكش، ويقول عنها الروداني[10] لم يكن جيران الزاوية يحسون بالحركة العلمية حتى صاروا إليها أولادهم ثم صار غيرهم على إثرهم». وبدأت المدرسة تستقبل لا أبناء مراكش فقط بل تلاميذ من مختلف أنحاء الجنوب المغربي من سوس والصحراء والشياظمة وعبدة والرحامنة.[11]

* مرحلة الصغار ويتعلمون القرآن + مرحلة المبتدئين ويتلقون مبادئ علوم الفقه والحديث.

* مرحلة المتقدمين ويتعمقون في علوم القرآن والفقه والحديث.

وتخرج من هذه المدرسة عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء ورجال الحركة الوطنية[12] هذا وإلى جانب المدرسة هناك جناح لإيواء الطلبة وتوفير المأكل لهم وذلك بفعل المساعدات التي يتبرع بها المراكشيون وغيرهم، كما أن المدرسة

كانت تتوفر على خزانة للكتب في مختلف العلوم.

وهناك مدارس أخرى أنشأها علماء مراكش ورواد الحركة العلمية بها لعب نفس الدور الذي لعبته مدرسة الرملية ونذكر منها:

- مدرسة «زنيقة الرحبة» التي أسسها رئيس كلية بن يوسف في بداية الثلاثينات الفقية سيدي عبد القادر المسفيوي رحمه الله.

- مدرسة «ازيزط» التي أسسها العلامة سيدي عبد الرحمان بن الفضيل.

- مدرسة «المواسين» التي أسسها العالم الفلكي سيدي محمد بن عبد الرزاق.

- مدرسة «حارة السورة» التي أسسها الفقيه الجليل سيدي احماد أكرم.

وتعززت هذه المدارس بعد ذلك بإنشاء المدارس الحرة بتمويل من وطنيي مراكش كمدرسة الفضيلة ومدرسة «بني دغوغ» برياض الغروس والمدرسة الحسنية والمدرسة العبدلاوية.

ب- العامل الثاني الذي ساعد على تفجير الوعي لدى المراكشيين:

سيعود إلى الحالة الاقتصادية والاجتماعية المتدهورة التي يوجد عليها المغرب وهي أصلا مرتبطة بالأزمة الاقتصادية والعالمية التي تفجرت سنة 1929، إذا أضفنا إليها حالة الجفاف التي اجتاحت المغرب والتي أصابت بالخصوص مراكش وناحيتها وجعلت السكان يعيشون في حالة فقر ومسغبة، وزاد الطين بلة تعسفات المستعمر ونهبه لخيرات السكان ومحاصرة أرزاقهم رغم قلتها لتسقط المدينة وناحيتها في دوامة من البؤس والحرمان.

ولم يجد الاستعمار وأذنابه والحالة هذه إلا فرض ضرائب جديدة على السكان والزيادة في النهب الممنهج لخيراتهم.

ففيما يتعلق بالفلاحين، فإنهم أجبروا على تغيير مكيال «العبرة» وذلك بصرف قسط منها لصالح الكلاوي والبياز، وفيما يخص الصناع والحرفيين فإنهم أجبروا على أداء ضريبة كلفة الدور العساسة التي تجبى بدورها لصالح البياز خليفة الباشا.

بلغت الحالة أسوأها سنة 1937، إذ شهدت أول مواجهة منظمة للمراكشيين ضد جهابذة الاستعمار في 24 شتنبر 1937 كما سيأتي تفصيل ذلك.

3- أحداث شهدتها الثلاثينات

أ- كانت المواجهات الأولى مع المستعمر على إثر صدور الظهير البربري المشؤوم في 16 ماي 1930، إذ أن صدور هذا الظهير كان له أثر الصاعقة في نفوس رجال الحركة الوطنية الذين فهموا مراميه وأبعاده. فهو يهدف إلى بث التفرقة بين المغاربة وإحداث هوة بين الشعب والملك، رمز الأمة للوصول إلى إحكام السيطرة على الشعب المغربي.

وكان رد فعل المغاربة عنيفا جدا. وكان الناس يجتمعون بمختلف المساجد المغربية لتلاوة اللطيف والتنديد بالظهير البربري المشؤوم. ومن أهم المساجد بمراكش مسجد الكتبية ومسجد اليوسفي ومسجد المواسين ومسجد باب دكالة وسنرى أن هذه المساجد ستكون مسرحا لعمليات فدائية عندما تفجرت أزمة غشت 1953.

ب- أما أهم حدث شهدته مراكش في مرحلة الثلاثينات فهو حدث 24 شتنبر 1937 والذي يعتبر بمثابة تحول جذري في تاريخ الوطنية بمراكش.[13]

- ونشير إلى أن هذا الحدث تزامن مع أحداث مكناس (بوفكران) في 25 أكتوبر 1937 وأحداث الخمسينات في 22 أكتوبر 1937، واسمحوا لي أن أطلق على هذه الأحداث «ثلاثية 1937» التي زعزعت أركان المستعمر انطلاقا من ثلاث مدن من المملكة: مراكش، الخمسينات، مكناس.

وإذا كانت أحداث مكناس يعود سببها إلى سيطرة المستعمرين على ماء وادي بوفكران وتوزيعها لصالح المستوطنين الفرنسيين الذي استولوا على أخصب الأراضي الفلاحية، وإذا كانت أحداث الخمسينات يرجع سببها إلى إقدام المستعمر على إقامة مظاهرة مسيحية نظمها المبشرون بهذه المدينة كحج للقديسة سانت تيريز راعية الكنيسة المسيحية الكاثوليكية[14]، متحدين بذلك المشاعر الإسلامية للسكان، فإن أحداث 24 شتنبر بمراكش تعود أسبابها إلى ما لحق السكان من بؤس ومسغبة وذل من جراء نهب المستعمرين لخيراتهم وإثقال كاهلهم بالضرائب، «كلفة الدور» كمثال والتنقيص من مكيال العبرة، والانحلال الخلقي الذي تفشى في مدينتهم.

أمام هذه الحالة أجمع السكان بتأطير من أقطاب الوطنية أمرهم وقرروا تنظيم أول وأكبر مظاهرة ضد المستعمر، واختاروا لها توقيتا ذهبيا : ألا وهو موعد زيارة وزير الأشغال العمومية في حكومة الجبهة الوطنية الفرنسية لمراكش والذي تم إيفاده من طرف حكومته لتقصي الحقائق حول ما تنشره الصحافة عن الجوع والبؤس والجفاف بالمغرب. حل الوزير بالدار البيضاء في 21 شتنبر 1937 في طريقه إلى مراكش التي حل بها يوم 24 من نفس الشهر والسنة مرفوقا بالمقيم العام (نوكيس) حيث استقبلهمًا جهابذة المستعمرين بمراكش بعد أن هيأوا كل الظروف الحسنة ليكون انطباع الوزير عن المدينة انطباعا حسنا عكس ما تنشره الصحف وما يروجه الوطنيون «المارقون».

ومر طريق الوفد من سوق السمارين إلى جامع بن يوسف مرورا بسوق الشعرية، فاستقبل من طرف سكان مراكش بمظاهرة ضمت آلافا من أهل مراكش حفاة عراة جياعا. وسارت الجماهير تنادي بسقوط الاستعمار وتهتف بالخبز والحرية والاستقلال ولم يخرج الوزير من هذه المظاهرة إلا بعد أن ترك قطعا من جبته وسرواله[15] وكانت ردود فعل القوات الاستعمارية وأذنابها عنيفة حيث نفي العديد من أقطاب الوطنية إلى تارودانت ليتم أخضاعهم للأعمال الشاقة. وهذه المظاهرة معروفة لدى المراكشيين بمظاهرة «سوق الشعرية» التي شارك فيها أزيد من 9000 متظاهر

ج- وخلال نفس الفترة، أي فترة الثلاثينات، بدأ المراكشيون يعقدون التجمعات على مرأى ومسمع من زبانية الاستعمار بعد أن كانت تنظم في السر وذلك لمناقشة الأحوال التي وصلت إليها بلادهم ومدينتهم، وبدأوا يرفعون العرائض والمطالب إلى سلطات الاستعمار بعد أن تخلصوا من عقدة الخوف والعمل السري. وقد ذكرنا أمثلة لهذه العرائض التي رفعها العلماء حول الانحلال الخلقي، والحرفيون حول رفع المظالم التي لحقتهم.

4- ما بعد الثلاثينات :

أ- وتتواصل مسيرة كفاح أهل مراكش وجهادهم ضد المستعمر.

وتأتي سنة 1944 فنجد ثلة من قادة الوطنية بها يشاركون مشاركة فعالة في

صياغة وثيقة المطالبة بالاستقلال وثيقة 11 يناير 1944 ويوقعون عليها من بين الموقعين، ويذكر تاريخ الحركة الوطنية بمراكش أسماء الوطني الغيور مولاي أحمد المنجرة والحسين الورزازي ومبارك الغراس وعبد القادر حسن وعبد الله إبراهيم خريجا مدرسة الرملية الأسبق ذكرها. والصديق بلعربي الذي كان قبل وفاته مديرا لخزانة ابن يوسف رحمة الله.

ب- وتأتي سنة 1951 عندما تفضل جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه لزيارة هذه المدينة للإطلاع على أحوالها، وتلقاه المراكشيون بالفرحة والحبور وتجمهروا على طول الطريق المؤدية إلى أغبالوا حيث مقره. نظم الكلاوي حفلا لاستقباله، حاملين لافتات يعبرون فيها عن ولائهم وحبهم له، طارحين في نفس الوقت الظلم والقهر الذي يعانونه على يد جهابذة الاستعمار وعلى يد الكلاوي وحاشيته، واستقبل محمد الخامس رضي الله عنه ممثلين عنهم، وتذاكر معهم حول أحوالهم واستمع إلى شكاويهم وأخبرهم أنه بجانبهم ووعدهم أن نصر الله قريب.

وغاظ محمد الخامس طيب الله ثراه ما عاينه من المضاعفات التي تعرض لها المراكشيون والاعتقالات التي تعرضوا لها لا لسبب إلا لأنهم ظفروا بلقائه وبث شكاويهم إليه.

وحدث جفاء بينه وبين الكلاوي الشيء الذي دفع محمد الخامس طيب الله ثراه إلى الرجوع في نفس اليوم إلى الرباط.

ج- تميزت سنة 1952 وبالضبط يوم 2 فبراير منها بحادثة مهمة تستحق الوقوف عندها وهي مظاهرة فندق المغرب أو فندق المنارة اليوم حيث نظم المراكشيون مظاهرة ضخمة أمام الفندق المذكور ضمت أزيد من 5000 متظاهر. إذ بهذا الفندق نزل دبلوماسيون[16] من 17 دولة.

والغاية التي توخاها المنظمون لهذه المظاهرة هي لفت نظر الدبلوماسيين المذكورين إلى قضية المغرب المتمثلة في طلب الحصول على الاستقلال والتعريف بها في بلدانهم وبالتالي طرحها على أنظار هيئة الأمم المتحدة.

ولم تستطع قوات الاستعمار تفريق المتظاهرين إلا بعد أن استخدمت قوات الكوم والمخازنية والشرطة. واستشهد خلال هذه المظاهرات عشرات المراكشيين

واعتقل المئات و60 من القادة المنظمين لها وصدرت في حقهم أحكام بالسجن والنفي والأشغال الشاقة. وكانت المناطق التي نفي إليها هؤلاء هي وزارات وتنغير وتزي أوماشو نواحي ايمنتانوت ودمنات.

وخلال نفس السنة شهدت مراكش مظاهرات أخرى تضامنا مع الشعب التونسي عندما أقدم المستعمر بها وهو نفس المستعمر الجاثم على المغرب والجزائر، على اغتيال الزعيم النقابي التونسي فرحات حشاد، شأنهم في ذلك شأن جميع المغاربة.

III- مرحلة المقاومة وجيش التحرير

ومع بداية غشت 1953 لم يقع اختيار سلطات الحماية إلا على هذه المدينة لتنفيذ مخطط طالما طبخته وهيأت له وهو الفعل الشنيع القاضي بخلع جلالة محمد الخامس طيب الله ثراه عن العرش وتنصيب دمية تكون رهن إشارتها، وذلك بعد أن تأكد لديها أن محمد الخامس متضامن مع رجال الحركة الوطنية وأنه يقف بالمرصاد لإحباط دسائسها ومخططاتها وأنه يترجم مشاعر شعبه إرادة في الحصول على الحرية والاستقلال.

وكان اختيار مكان التنصيب (تنصيب ابن عرفة سلطانا على المغرب) وقع أول الأمر على مدينة زرهون، إلا أن فرنسا تراجعت وقررت تنفيذه في مراكش نظرا للإمكانيات الزمنية المتوفرة لحماية السلطان البديل، إذ أن مراكش يحكمها أحد جهابذة الاستعمار ألا وهو الكلاوي ومساعدة البياز والحاج إيدار وغيرهما... إضافة إلى الجيش الاستعماري العرمرم الجاثم على صدرها.

وبعد اجتماعات ومشاورات بدار الكلاوي تقرر جعل التنصيب أو البيعة يوم 5 غشت، وقبل التطرق إلى ما قام به أهل مراكش من أجل إفشال هذا المخطط الشنيع والعمليات الفدائية البطولية التي تبعت ذلك، لابد أن نذكر في عجالة مميزات الكفاح المسلح بهذه المدينة.

أ- المميزات:

تنال مراكش مرة أخرى قصب السبق بتنظيم مظاهرة لم يشهد المغرب مثيلا لها من قبل ضد المستعمر والتي كانت حجرة تكسرت عليها أمواج المستعمر

الغاشم، وهي مظاهرة المشور الخالدة في 15 غشت 1953 وهي تأتي من حيث التوقيت بيوم واحد قبل مظاهرات وجدة التي روعت المستعمر.

- هذه المدينة هي التي أعطت أول شهيد في تاريخ المقاومة المسلحة ضد الاستعمار وهو الشهيد الحسن الصغير

- مراكش أعطت شهداء آخرين ذاع صيتهم وفاتت شهرتهم الآفاق أمثال الفطواكي والبقال وغيرهم.

ب- مظاهرة المشور

- إن أول عمل دشن به المراكشيون مواجهتهم للاستعمار في هذه المرحلة هو تنظيم لمظاهرة المشور إذ أنه ابتداء من 13 غشت شرع المقاومون في عقد اجتماعات على صعيد مختلف إحياء المدينة والدوائر التابعة لها وكان هدفهم الأول هو الحيلولة دون ذكر اسن ابن عرفة فوق المنبر يوم صلاة الجمعة يوم 14 غشت والهتاف بحياة الملك الشرعي.

وتوزع المقاومون على مختلف المساجد الكبيرة لهذه الغاية. والهدف الثاني تأطير المواطنين سواء بالمدينة أو بالبادية لإفشال حفل تنصيب ابن عرفة بالمشور يوم 15 غشت.

- ويوم الجمعة 14 غشت وقعت حوادث كثيرة بمختلف مساجد مراكش كانت أهمها حادثتا مسجد المواسين ومسجد الكتبية، حيث تم استعمال العنف ضد إماميها الذين تجرأ وذكر اسم ابن عرفة في خطبة الجمعة حيث وجه الخصوص استعمل السلاح الأبيض ضد الإمام حيث تعرض لطعنات خنجر أحد المقاومين وتمت اعتقالات في صفوف المقاومين وحوكموا وعذبوا. أما مسجد الكتبية الذي كان مقررا أن يصلي صلاة الجمعة به ابن عرفة نفسه مع الكلاوي، فقد كان مسرحا لأحداث دامية، خاصة وأن مقاومين منهم الزرقطوني الشهيد والصنهاجي وغيرهم قدموا من الدار البيضاء لاغتيال السلطان البديل، إلا أن سلطات الحماية غيرت رأيها واثنت ابن عرفة عن صلاة بالكتبية إحساسا منها أنه قد يلقى حتفه بهذا المسجد.

- وجاء يوم 15 غشت 1953، وجاء مظاهرة المشور، ففي هذا اليوم تظافرت

جهود المستعمر والخونة لتنصيب ابن عرفة ملكا على المغرب، وتفجرت فيه العقيدة الوطنية في نفوس المراكشيين بعدالة قضيتهم فهبت الحشود إلى ساحة المشور انطلاقا من «عرصة البيلك»، عرصة محمد مكوار اليوم، حاملين الهراوات والعصي التي وجدوها أمامهم بسوق الخضر قرب سور ميمون، وحاصروا دورية للبوليس التي كانت تجوب المشور، وخنجر أحد المقاومين المشهورين أحد أفراد هذه الدورية، وجاءت تعزيزات أخرى من رجال الشرطة والمخازنية وجنود الكوم، واستشهد في الساحة عدد من الشهداء من بينهم الشهيدة فاطمة الزهراء، وأصيب مئات المتظاهرين بجروح متفاوتة الخطورة وألقي القبض على بعض متزعمي المظاهرة وأصدرت في حقهم أحكام تتراوح ما بين الإعدام والسجن المؤبد والسجن المحدد. ومن الشهداء الذين نفذت فيهم عقوبة الإعدام والشهيدان رحال بن أحمد ومولاي علي لبيث.

وقد فاق عدد المشاركين في هذه المظاهرة 6000 متظاهر من مراكش والقبائل المجاورة.

ج- أحداث أولاد الكرن:

جاءت هذه الأحداث مباشرة بعد مظاهرة المشور أي يوم 21 غشت 1953، إذ أنه سبقت الإشارة إلى أن عددا كبيرا من سكان هذه القرية شاركوا في هذه المظاهرة حيث تمكن عدد منهم من الإفلات من الاعتقال والرجوع إلى ديارهم وصاحبوا معهم عددا آخر من المشاركين قصد إخفائهم عن أنظار قوات المستعمر التي شرعت في البحث عن كل من تشم فيه رائحة المظاهرة واعتقاله ومحاكمته.

وبلغ إلى علم القوات الاستعمارية أن عددا من الفارين إلى دوار أولاد الكرن ليتواروا عن الأنظار حيث توجهت زبانيتهم إلي القرية المجاهدة وحاصروها من كل جانب مدجحين بالأسلحة الخفيفة والثقيلة وذلك يوم 21 غشت. ودخل سكان القرية في مواجهة دامية معها، سلاحهم العصي والمناجل والفؤوس والسلاح الأبيض وسقط قتلى وجرحى واعتقل عدد آخر وحوكموا بالسجن لمدة تتراوح ما بين 3 أشهر إلى 15 سنة سجنا[10]

د- منظمات المقاومة المسلحة:

- منظمة الشهيد محمد بلحاج البقال:

إن أول منظمة للمقاومة المسلحة أسست بمراكش هي منظمة الشهيد محمد بلحاج البقال والتي اقترنت باسم مؤسسها. هذا الشاب الوطني الغيور الذي كان من المنظمين لمظاهرة المشور. ينحدر من عائلة كل أفرادها مقاومون. ولد بمراكش سنة 1926 وتوفي والده وهو لازال صغيرا وتركه في كنف أم وأختيه المقاومتين زينب وفاطنة. وتلقى تعليمه بجامع ابن يوسف وتربى تربية إسلامية وطنية. وكان بيته بالقصبة يوم مظاهرة المشور، مكانا لمعالجة الجرحى وإخفاء الفارين، وتعرض بيته من جراء ذلك للهجوم من طرف قوات المستعمر وأذنابه مرارا، ومزقت أفرشته وصودرت الكتب التي كانت في خزانته. وسيقت والدته وأختاه إلى دار الدفة بحي المواسين وهي عبارة عن سجن للنساء.

وبقي الشهيد وحده خارج السجن وأسس منظمته المشهورة التي كان شعارها النصر المبين وذلك في شهر نونبر 1953 أي حوالي شهرين بعد مظاهرة المشور.

وشرعت المنظمة الفتية التي تكون أعضاؤها من الشباب الذين يفيضون حماسا وحيوية وبدأت في تسديد ضرباتها إلى المستعمر وكان أهم منجزات هذه المنظمة كالآتي:

+ عملية محاولة نسف السكة الحديدية، وبالتالي نسف القطار الرابط بين الرباط ومراكش والذي يقل على متنه ابن عرفة وذلك في 21 نونبر 1953.

فعلى الساعة التاسعة والنصف ليلا لاحظ سائق القطار السريع رقم 75[21] سحابة من دخان غريب على السكة وفي حينه ضغط على فرامل الإغاثة إلا أن القطار بحكم سرعته تعدى المكان المشبوه فيه وتعرض لهزات عنيفة ناتجة عن ميل إحدى العربات من جراء اقتلاع جزء من السكة ناتج عن انفجار. دون أن يتعرض المسافرون إلى إصابات، والظاهر أن القنبلة الموقوتة التي وضعت بالسكة انفجرت قبل وصول القطار وذلك راجع إلى خلل في التوقيت.

وسرعان ما بدأ التفتيش وعثر في مكان الحادث على قنبلة ثانية لم تنفجر لكون لفافة الاشتعال انطفأت وبذلك لم تبلغ العملية هدفها ولكنها بداية حالة قالت للمستعمر أن هناك فدائيون سينالون منه إن اليوم أو غدا.

+ وقامت هذه المنظمة أيضا وعلى الخصوص الخلية التابعة لباب دكالة بعمليات أخرى ناجحة أهمها حريق «كاليري لافيت» بجيليز وهو متجر كبير في ملك أحد المستعمرين حيث أتت النيران على كل ما بداخله. وحريق الوكالة المغربية للنشر بجيليز أيضا

وسرعان ما بدأ البحث عن المدبرين لعملية نسف القطار حيث ألقي القبض على جميع أفراد المنظمة بسبب خطأ ارتكبه أحد أفرادها وهو أصغرهم سنا وذلك في يوم 30 دجنبر 1953. وصدرت في حق الشهيد البقال واثنين من رفقائه أحكام بالإعدام نفذت فيهم بسجن العاذر يوم 22 أبريل 1953 كما أن عضوين آخرين من المنظمة حكم عليهما بالإعدام أيضا ولكنه لم ينفذ فيهما وهما لا يزالون على قيد الحياة. أما باقي أعضاء المنظمة فصدرت في حقهم أحكام بالسجن تتراوح ما بين 6 أشهر إلى 5 سنوات.

- منظمة الشهيد حمان الفطواكي

إن من أهم منظمات المقاومة المسلحة بمراكش وبالمغرب كله على الإطلاق منظمة الشهيد حمان الفطواكي التي تأسست واكتمل نموها في مارس 1954 بعد سلسلة من الاجتماعات والمشاورات ابتداء من شهر أكتوبر

وقد أسسها الشهيد حمان الفطواكي مع ثلة من رفقائه صدقوا ما عاهدوا الله عليه، نذكر منهم الفقيه الجليل سيدي عمر الساحلي تلميذ وصديق الفقيه المختار السوسي الذي سبقت الإشارة إلى دوره في إذكاء روح الوطنية بمراكش، والذي كان أستاذا لأبناء الأمير مولاي إدريس بمراكش. ونذكر منهم الوطني الفذ محمد السوسي الذي كان متجره «بمحل الزميرتي» على بعد أمتار فقط من مركز الشرطة بجامع الفناء مكانا للاجتماعات وإخفاء الأسلحة التي حصلت عليها المنظمة. ونذكر منهم المقاوم مولاي امبارك الناجي الذي ينتمي إلى عائلة كل أفرادها مقاومون، والأستاذ الحسين النعمان البزوي، وعمر بلحسن، والحاج بوجمعة أبو فراس الذي كانت سيارته منذ تأسيس المنظمة إلى أن اكتشف أمرها، رهن إشارة المنظمة، ونذكر منهم أيضا الفقيه الأمغاري ومولاي اسعيد الشروعات الباعمراني الذي كان أمينا للمال. أما المقاوم الفذ معجزة مراكش مولاي عبد السلام الجبلي،

فإن دوره في تأسيس هذه المنظمة من مقر القيادة بالدار البيضاء مهم للغاية. إذ كان هو الموجه لها والموفق بين أعمالها وأعمال المنظمات المنبثقة عنها.

+ التنظيم: كانت هذه المنظمة غاية في التنظيم والانضباط حيث أن كل عضو فيها يعرف عمله ومهمته التي كلف بها، وكان كل عضو يحمل اسما مستعارا «اسم الحركة» حتى يستطيع التحرك في سرية تامة. وهكذا كان الشهيد حمان يحمل اسم الكحل، والساحلي يحمل اسم المرابط، والبزوي اسم الشابور، والسوسي اسم الترسيان ومولاي امبارك الناجي اسم المعلم، وأبو فراس اسم الفرملي أما مولاي عبد السلام الجبلي سيحمل اسم الموتشو.

وكانت المهام موزعة بين الأفراد على الشكل الآتي:

- السوسي أمين السر الدائم للمنظمة وكان متجره مركز للقاء اليومي لأفراد المنظمة وإخفاء السلاح.

- الفطواكي كان مسؤولا عن السلاح والبحث عن أفراد جدد لتعزيز صفوف المنظمة ومراقبة تنفيذ العمليات المخطط لها.

- عمر بلحسن يستعمل دكانه بجامع الفناء أحيانا لإخفاء السلاح.

- الحسين البزوي مكلف بالاستخبارات في دوائر الشرطة وكان منزله مقرا للاجتماعات المطولة نظرا لكونه كان عازبا.

- الفقيه عمر الساحلي كان مكلفا بجمع الإعانات المادية وربط الاتصال بالمرض سعيد بن عثمان ليكون رهن إشارة المنظمة عند الضرورة.

وكانت للمنظمة فروع في البوادي المحيطة بمراكش عينت على رأسها أفراد يرفعون تقارير إلى مقر قيادة المنظمة بمراكش ويأمرون بأوامرها منها أمزميز وأولاد بوالسبع وايمنتانوت وشيشاوة وتالوين...

+ الفطواكي: هو الشهيد حمان بن ابريك بن إبراهيم المعروف بحمان الفطواكي، ولد بقبيلة فطواكة سنة 1902 وانخرط في صفوف الجيش الإسباني وغادره بعد أن اكتسب خبرة عالية في استعمال السلاح والتخطيط العسكري مما ساعد منظمته على تحقيق إنجازات عظيمة. كان يمتاز بشجاعة نادرة وإيمان قوي بعدالة قضية وطنه انخرط في صفوف حزب الاستقلال وكان من أنشط العاملين به.

وانفصل عنه بعد إقدام سلطات الاستعمار على نفي رمز وحدة البلاد جلالة المغفور له محمد الخامس لنهج أسلوب جديد ضد المستعمر وأسلوب الكفاح الوطني المسلح.

+ إنجازات منظمة الفطواكي:

إن الخبرة العسكرية العالية التي اكتسبها الشهيد الفطواكي والإيمان القوي والتجربة السياسية الطويلة لباقي رفقائه أعضاء المنظمة، ساعدت هذه المنظمة على تحقيق منجزات عظيمة ضد الاستعمار ودق المسامير الأخيرة في نعشه والتعجيل برحيله عن البلاد. ومن أهم هذه الإنجازات نذكر على سبيل المثال لا الحصر

+ عملية مسجد بريما هذا المسجد الذي أمه ابن عرفة والكلاوي والحاشية لأداء صلاة الجمعة به يوم 14 مارس 1954 وقررت المنظمة اغتياله. وانتدبت لذلك فرقة من مقاومي هذه المنظمة لإلقاء قنابل على موكبه داخل المسجد حيث أصيب ابن عرفة بجروح بالغة وكذا بعض رفقائه[22] الذي ما إن أمسكت به زبانية الاستعمار حتى تناول قرص السم الذي كان بحوزته وذلك قبل أن يسدد إليه الكلاوي نفسه طلقات من مسدسه.

+ تلت هذه العملية البطولية محاولات أخرى لاغتيال الكلاوي بمسجد الكتبية الذي يؤمه لصلاة الجمعة من حين لآخر. ومرة أخرى تصوب القنابل والمفرقعات صوب الكلاوي وحاشيته وأصيب هذا الأخير بجروح في فخذه كما جرح أفراد حاشيته، وقد أشرف على هذه العملية الفطواكي نفسه ومعه أعضاء آخرون من رفقائه.

+ اغتيال مندوب الحكومة الفرنسية «موني» الذي سبق أن شارك في محاكمة 5 من فدائيي مراكش وذلك يوم 15 مايو 1954 داخل مرأب سيارته وقد نفذ هذه العملية الشهيد علال امكيك والشهيد الفطواكي نفسه والشهيد بنطريق مبارك...

+ محاولة اغتيال المقيم العام« كيوم» بمقر إقامته بقصر الباهية حيث فجر المقاومون التابعون للمنظمة قنبلة شديدة المفعول حصدت أرواحا كثيرة في صفوف قوات البوليس والجيش التي كانت رابطة به، بالإضافة إلى 50 جريحا في صفوفها[23].

+ اغتيـال الجنرال «دودفيل» رئيس الناحيـة العسكرية حيث أطلق عليه أحد المقـاومين النـار من خلف ظهـره ولاذ بالفـرار ونقل الجنرال إلى المسـتـشـفى جـيليـز وأجـريت له عـمليـة جـراحيـة باءت بالفشـل وتوفي بعد مـدة من الزمن وكـان ذلك في 20 يونيو 1954

+ تفـجيـر قنابل بمقـهى فـرنـسا ومـقـهى كلاسـي الذي يرتادها عـدد من قـوات البـوليـس والعـملاء المتعـاونين وذلك لمرات على التوالي أهمـها يوم 29 مارس 1954 و18 أبريل 1954

+ اغـتـيـال عـدد من المتـعـاونين مع الاسـتـعـمـار وذلك بعـد لفت أنظارهـم مـرارا للكف عن أذى المـواطنين ومنهم مقـدمـون وصـاحب مـحل لبـيع الدخـان الذي اغـتـيل بباب الخميس يوم 9 يوليوز 1954

+ اغتيـال المراقب المدني «تيفا» Tiva وذلك بتوجيه 4 رصاصات إلى صدره يوم 23 يوليوز 1954 والذي ذاق المقاومون والمواطنون عموما المرارة والعذاب على يده.

+ وهناك عـمليات أخرى تتفاوت أهمـيـتـهـا غـير أنهـا تصب كلهـا في مجرى واحـد هو زعزعـة المسـتـعـمـر وإرغـامه على الرحـيل ورجـوع مـحـمـد الخامس طيب الله ثراه من منفـاه والحـصـول عـلى الاسـتـقـلال وتـشـاء الأقـدار أن تضـع السـلطات الاستـعمـارية يدهـا على خيـط يوصلها إلى فـدائيين منظمـة الفطواكي، إذ ألقي القبـض على إحـدى عـشـر فـردا من أفـراد[24] يوم 9 غـشـت 1954 ويوم 14 غـشـت. وتم إلقـاء القبض عليـه في نفس اليوم الذي نفي فيـه ملك البلاد الشرعي إلى كورسيكا ثم إلى مدغـشقـر سنة 1953. وكـانت محـاكـمات مراكش الشـهيـرة[25] ولـم تفلح مـرة أخرى مرافعـات الأستـاذ جان شـارل لوكـران Jean charles le Grand في التخـفيـف من الأحكام الجائرة على الفـدائيـين. وهكـذا نفـذ حكـم الإعـدام في الشـهـيـد الفطـواكي يوم أبريل 1955 وفي رفقـائه الشـهـيد عـلال امكيك والشـهـيد امبارك بن بوكـبر في يوم 19 أبريل 1955[26] أما في بادية مـراكش فـقـد سـجن الشـهـيـد عـمـر بن الزي في زنزانـة تابعـة لرجال الدرك بايمنتانوت إلى أن استـشـهد في زنزانتـه. أما الشـهيـد بركاتوش علي فقد قطع رجـال الدرك أشلاءه من جـراء التعذيب والتنكيل حتى استـشـهـد ليروي بـدمائه أرض شيشاوة وأولاد بولاسبع.

- منظمات متفرعة عن المنظمة الأم وتابعة لها :

إلى جانب المنظمة الرئيسية للفطواكي الشهيد هناك أربع منظمات تفرعت عنها أو حملت مشعل المقاومة بعد إلقاء القبض على أفراد المنظمة الأم.

+ فرقة سيدي يوسف بن علي : التي كان يسيرها المقاومان علي رضوان والفقيه عبد الكريم مدحت خريج كلية ابن يوسف، وتأسست في نفس الوقت المنظمة الأم، إلا أنها اندمجت فيها بعد وكان لبعض أفرادها دور رئيسي في عملية مسجد بريما الآنف ذكرها.

+ فرقة الزاوية العباسية أو فرقة الضرير وهو المقاوم المرحوم المعتز بن إبراهيم وكذا المقاوم محمد بن إبراهيم حسونة والحبيب الرحمان. وهذه الفرقة أيضا مسؤولة أمام الشهيد الفطواكي وتأتمر بأوامره.

+ فرقة الخليل سيدي عبد السلام بن الشرفي التي استطاعت بحق أن تحمل مشعل المقاومة المسلحة بعد سقوط الفرقة الأم.

وقد تأسست هذه الفرقة بعد خروج الفقيه عمر الساحلي من السجن واتصاله بالفقيه بن الشرفي والحاج بوجكعة أو فراس وعبد الله الخياط وكان من بين أعضائها شباب أشداء لا يخافون في الله لومة لائم ونذكر منهم المقاوم حمو أمراغ والمرحوم أحمد الدبلالي وأحمد النجار ومحمد الكلاوي.

واستطاع عذا الرباعي أن يزرع الرعب من جديد في صفوف المستعمر بعد أن ظن أنه استراح بسقوط الفطواكي ورفقائه. ومن منجزات هذه الفرقة :

+ اغتيال القبطان العرج المعروف لدى المراكشيين بتكسير أبواب الدكاكين المقفلة يوم الجمعة برجله البئيسة والمعروف بغطرسته وجبروته. وذلك بطلقات نارية إلى صدره من مسدس من نوع طومسون بمساعدة أحمد النجار ومحمد الكلاوي واستطاع أن يلوذ بالفرار ولكن اليهودية التي كانت تطل من النافذة المجاورة لمنزل القبطان أعطت أوصافه مما جعل المقاوم المذكور يهرب إلى إفني للاختباء[27]

+ محاولة اغتيال الحاج ايدار وتأتي هذه العملية قبل عملية العرج، إلا أن الحاج ايدار نجا من موت محقق رغم الرصاصات التي وجهت إلى صدره والحاج ايدار

هنا من المساعدين الأقربين للكلاوي وقد قام بهذه المحاولة الرباعي المذكور.

+ اغتيال راهب لا يكف عن التبشير للديانة المسيحية ونفذ هذه العملية في واضحة النهار والناس في غدو ورواح بسوق السمارين المقاوم حمو أمراغ بمساعدة الثلاثي الباقي(28)

+ وهناك فرقة لا يتجاوز عدد أفرادها 6 أفراد بالقصبة أقلق مسيرها جيش التطهير الداخلي أسسها الفقيه رمزي السباعي.

– منظمات أخرى: هذه المنظمات كان لها بدورها الدور الفعال في تطويق المستعمر والتعجيل برحيله عن البلاد.

* منظمة اليد السوداء:

وتأسست أواخر 1954 على يد ثلة من الشباب بلغ عددهم 14 فردا ومن بين إنجازات هذه المنظمة:

– تفجير قنابل بمراكز البغاء

– إضرام النار في سيارات بعض المستعمرين

– إضرام النار في ضيعات المعمرين خاصة بمسفيوة وتسلطانت

وعدد العمليات التي نفذتها هذه المنظمة 12 عملية اختلفت أهميتها وحجم نتائجها ولكنها ساهمت في خلط أوراق المستعمر، وزعزعة كيانه.

وتم إلقاء القبض على أفرادها باستثناء واحد منهم الذي فر خارج مراكش في غشت 1955 وحوكم على أفرادها بالسجن لمدة متفاوتة.

* منظمة الهلال الأسود: وهي تابعة للمنظمة الأم المتواجد مركزها بالدار البيضاء، واستطاع أفراد هذه المنظمة القيام بأعمال منذ بداية 1954 نذكر منها:

+ حرائق في ضيعات المعمرين وتخريب ممتلكاتهم.

+ اغتيال عدد من المتعاونين مع المستعمر (يهودي بعرصة المعاش كمثال).

+ إلقاء قنابل ومتفجرات على أماكن يرتادها البوليس الفرنسي (قنلبة الخيرية الإسلامية مثلا)

+ محاولة اغتيال الكمندار بولو بمسفيوة بضيعته بدار بوفكرون حيث نجا بأعجوبة من موت محقق.

* المنظمة الحسنية :

تأسست بدورها في أواخر 1954 وتضم حوالي 17 فردا.

من منجزات هذه المنظمة على سبيل المثال لا الحصر.

+ تفجير قنبلة بسينما مبروكة

+ تفجير قنبلة بمركز الشرطة بجامع الفناء.

+ تفجير قنابل بأوكار الدعارة

وألقى القبض على أفراد هذه المنظمة وصدرت في حقهم أحكام بالسجن لمدد متفاونة.

* منظمة جيش الأطلس :

وتأسست بدورها في أواخر سنة 1954 وهي تابعة للمنظمة الأم بالدار البيضاء أسسها بمراكش ووطد أركانها السيد جسن الورزازي والمزوضي وغيرهما، ومن أفرادها النشيكين امحمد فريطس ومولاي إدريس الضميري والمهدي والنكليزي، وكان منزل امحمد فريطس برياض الزيتون مقرا لاجتماعات أفراد المنظمة.

ولابد من الإشارة إلى أن بعض أفرادها نفذوا في إطار هذه المنظمة عمليات فدائية بالدار البيضاء من بينها قنبلة «مرس السلطان في 14-7-1955[30].

وكان لهذه المنظمة فروع في البوادي والجبال وتنظيمها يشبه وكما يدل اسمها على ذلك، تنظيم الجيش.

ومن أهم منجزاتها

- اغتيال المعمر «ليكون» بتسلطانت.

- اغتيال عدد من المتعاونين مع الاستعمار مقدمين وخلفان...

- محاولة اغتيال المعمر «لوبريو» حيث دارت معركة بين أفراد المنظمة وقوات من الكوم التي استغاث بها المعمر عبر جهاز التلفون والتي قدمت من مراكش.

- تفجير قنابل بأماكن الدعارة.

كما نفذت الخلايا التابعة لأغمات وأولاد بوالسبع وباقي النقط الأخرى المحيطة بالمدينة، عمليات تفاوتت أهميتها ونتائجها.

هـ- جيش التحرير :

تأسس جيش التحرير بمراكش بواسطة السيد محمد بن حمو المسفيوي الذي أوفدته القيادة من خنيفرة ومعه ضباط آخرون من هذا الجيش إلى مراكش لهذا الغرض، وكان عدد الضباط الذين رافقوه إلى مراكش 13 ضابطا واتصلوا بشخصيات كانت على استعداد للتعاون مع الجيش منها السيد اسكرلي وبولقدم وإبراهيم بن مسعود وحمو مراغ والتهامي المسيوي وغيرهم.

وتم إنشاء مراكز لهذا الجيش بكل من آيت أورير وتعدوين واسي وأولاد أمطاع وثلاث بنيعقوب. ومن بين العمليات التي نفذها جيش التحرير الذي أتى على ما بقي من قوة المستعمر ودق آخر مسمار في نعشه:

- الهجوم على مركز قيادة شيشاوة وغنم السلاح المتواجد داخله.
- الهجوم على مركز قيادة امزميز وغنم السلاح الموجود فيه.
- الهجوم على معدن اردوز وإتلاف الآليات حتى يتوقف المستعمر عن استغلال هذا المعدن الذي يصدر إلى فرنسا والحصول على عدد من صناديق الكبسول والميش وأشياء أخرى.
- الهجوم على مركز حارس الغابة بتمشي بأيت اورير الذي ذاق السكان على يده الويل والعذاب.
- عرقلة مرور القوافل الاستثمارية وذلك من خلال نصب متاريس بالطريق المؤدية إلى ورزازات.

ولابد من الإشارة إلى أن قادة جيش التحرير بمراكش وكل المنخرطين تحت لوائه، كان لهم دور في المنجزات التي حققها هذا الجيش جنوب المغرب انطلاقا من أكادير، مرورا بتزنيت وبوينكارن وطرفاية إلى الصحراء المغربية، بل إن منهم من وصل إلى موريتانيا وألقى به في سجن لاس بالماس المعروف لدى الاستعمار الإسباني.

ولازال هؤلاء (الجيوش والضباط) يوصلون أداء رسالتهم في الدفاع عن حوزة البلاد في صفوف القوات المسلحة العتيدة التي انصهروا فيها منذ بداية الاستقلال. ولازالت مراكش ومنطقة أولاد امطاع على وجه الخصوص يذكرون بفخر واعتزاز الزيارة الكريمة والمباركة التي قام بها سمو الأمير ولي العهد آنذاك جلالة الملك

الحسن الثاني نصره الله لهذه المنطقة حيث استقبله جيش التحرير وجنوده ومعهم سكان إقليم مراكش عامة بالبهجة والسرور يوم 23 يوليوز 1956 حيث عبر له هؤلاء القواد عن[31] ولائهم للعرش العلوي المجيد وانخراطهم في صفوف القوات المسلحة الملكية العتيدة.

أيها السادة

هذه القوات، القوات المسلحة الملكية وقوات الشرطة والدرك والقوات المساعدة دافعت وتدافع عن مكتسبات ثورة الملك والشعب، ودافعت وتدافع عن مكتسبات المسيرة الخضراء المظفرة التي وحدت أجزاء الوطن وألفت بين قلوب أبناء الوطن الواحد من البوغاز إلى الصحراء والذين كلهم على استعداد ليقولوا نعم لمغربية الصحراء عندما يحين موعد الاستفتاء الذي لن يكون إلا تأكيدا وترميخا لحقوق المغرب في صحرائه. إن هذا الحدث العظيم، حدث المسيرة الخضراء الذي أعطى للشباب الذي لم يكتب له أن يعيش معركة التحرير والاستقلال فرصة للتعبير عن وطنيته وحبه لأرضه وتمسكه بصحرائه، يستحق بدوره أن تلقي حوله أكثر من محاضرة وأن تنظم له أكثر من ندوة.

والسلام عليكم ورحمة الله

الهوامش

1- ابن زيدان - الاتحاف ج 1 ص 415

Bulletin du comité de l'Afrique, Avril 1907, p. 130 -2

3- ابن زيدان الأتحاف ج 1

4- اتهم جنتيل - نقلا عن موشان - نفسه الألمان بإثارة أفكار ضد اللاسلكي

- *Bull etin du Comité de l'Afrique*, Avril 1907 p. 130

Ibid -5

6- الإلغيات. 1 الأستاذ المختار السوسي.

وكوجي هوريش بلدية مراكش آنذاك.

7- المختار السوسي، الأستاذ محمد خليل ص 88، دراسة لشخصيته وشعره.

8- جريدة العلم سلسلة مغرب 84.

9-نفس المصدر.

10- محمد بن عبد الله الروداني: ايليغ قديما وحديثا.

11- المختار السوسي الأستاذ خليل محمد ص 87.

12- نفس المصدر.

13- جريدة العلم سلسلة مغرب 84 عدد 2 دجنبر 1984 الأستاذ محمد الخليل.

14- تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب الأستاذ عبد الكريم غلاب. الجزء الأول ص 149.

15- الحركات الاستقلالية بالمغرب العربي، الأستاذ علال الفاسي.

16- حسب ما أفاد به أحد المنظمين لهذه الظاهرة. المقاوم مولاي سعيد بو الشروعات الباعمراني.

17- ملخصات عن حياة الشهداء الاستقلال المندوبية الشامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير ج 2.

18- يوميات المقاومة وجيش التحرير، المندوبية السامية، الوثيقة الأولى، ص 71.

19- نفس المصدر، ص 72. + تصريحات المقاومين المشاركين في المظاهرة.

20- حسب ما أفادني به اثنان من أبطال هذه الحوادث، الحاج كبور الخباشي وكذا العلوي كمال بن احمد.

21- صك الاتهام الموجه ضد أعضاء هذه المنظمة + يوميات المقاومة وجيش التحرير، الوثيقة الأولى، صص 141 و142.

22- ملخصات عن حياة وكفاح شهداء الاستقلال، الجزء الأول، ص 8، الشهيد أحمد أفلا، يوميات المقاومة وجيش التحرير، الوثيقة الثانية، صص 50 و51.

23- يوميات المقاومة وجيش التحرير، الوثيقة 2، صص 107 و108.

24- نفس المصدر، ص 188 لمن أراد مزيدا من الإطلاع.

25- جان شارل لوكران - أيتها العدالة يا مواطن الإنسان.

26- ملخصات عن حياة وكفاح شهداء الاستقلال.

27- حسب ما أفادني به بطل العملية المقاوم الحاج حمو أو فقير أمداغ.

28- حسب ما أفادني به المقاوم امحمد السوسي من مؤسسي منظمة حمان الفطواكي ومؤسسها الفقيه رمزي قبل وفاته.

29- تقرير عن أعمال هذه المنظمة تسلمته من أحد مؤسسي هذه المنظمة، الشريف العلوي الأسد ومولاي مصطفى.

30- مذكرات من التراث المغربي، ج 5، المقاومة.

31- يوميات المقاومة وجيش التحرير، الوثيقة 4، ج 1، ص 170.

إشكاليات العلاقة بين حزب الإصلاح الوطني والحركة المسلحة
(1953 - 1956)

عبد المجيد بن جلون
كلية العلوم القانونية والاجتماعية والاقتصادية
– الرباط –

إذا اعتبرنا أن نهاية الحركة المسلحة بالقبائل صادفت تقريبا ظهور الحركة الوطنية السياسية بالمدن، فإن الآراء تختلف حول العلاقات بين هذين الشكلين من الكفاح الوطني.

بالفعل، هناك من يرى بأن الحركتين مختلفتين أو متناقضتين وهناك من لا يرى أي فرق بينهما. ينقسم الذين يرون فرقا بين هاتين الحركتين إلى فريقين:

– الفريق الأول: لا يرى سوى اختلافات ذات أهمية متفاوتة.

– الفريق الثاني: يرى انفصالا بين الحركتين.

لنبدأ بالفريق الأول:

يقول علال الفاسي: «إن كل الأعمال التي قام بها إذ ذاك (الشعب المغربي فيما يخص الحركة المسلحة) لم تكن إلا إعدادات لمعنوية الشعب وتهيئته لتجديد الكفاح بصورة جديدة غير الصورة التي اعتادها يوم كان لكل فرد بندقية ولكل قبيلة قائد مغوار».[1] فجون ب. هالسطيد (John P. Halstead) يؤكد من جهته أن الحركة الوطنية العصرية لا يمكن تمييزها قبل 1921، وهذا لما وصل زعماء الاستقلال إلى النتيجة الآتية: وهي أن مقاومتهم الأخيرة ضد فرنسا لا تتشكل في الانعزال

والتمرد بل في إصلاح بناء لمجتمعهم.[2]

أما لديسلاف سريش (Ladislav Cerych) والأستاذ عبد الكريم غلاب، فإنهما يميلان إلى الانفصال بين الحركتين، يقول سريش: إن هزيمة ابن عبد الكريم لم تكن تشكل انهزاما للحركة الوطنية، بالعكس... لا يوجد هناك أي علاقة بين الذين يطالبون بإصلاح نظام الحماية ابتداء من سنة 1936، والذين قاوموا تأسيس هذه الحماية بين 1912 و1934، ومن بينهم ابن عبد الكريم.[3]

ويشاطر الأستاذ غلاب سريش في وجهة نظره: إنه يرى أن الحركة الوطنية هي التي بلورت الروح الوطنية بوسيلة التفكير والإقناع لا بالسيف والقوة، وهذا لأول مرة في تاريخ المغرب.[4]

لنهتم الآن بالمؤرخين الذين يرون امتدادا بين الحركتين، يقول كاني: (Cagne):

«إذا كانت 1930 سنة حاسمة في تاريخ الحركة الوطنية المغربية، فإنها لا تعتبر «ميلادا» لها. واعتبار سنة إقرار الظهير البربري كنقطة انطلاق لهذه الحركة الوطنية، يعني الحكم بجهل الحقيقة... وبما أن هذا يعني الاستسلام إلى عدم فهم حقيقة الوقائع الحالية، إذا رفضنا إدراجها في نسيج تاريخي، وربطها بحركات رد الفعل للتدخل الأجنبي، وبالخصوص تلك التي ظهرت في جميع التراب المغربي في بداية القرن... معناه الحكم بجهل القوة ودوام العاطفة التي تربط الشخص المغربي بإمامه»[5]

وفي نفس النمط، يقول الأستاذ محمد زنيبر: «كيف تواصل تأثير ابن عبد الكريم بعد انتهاء الثورة الريفية وانسحابه من الميدان؟ كل الظواهر السطحية توحي للملاحظ العجلان أنه وقع نوع من التقطع في خط الكفاح الوطني المغربي مع الصفحة الجديدة من الحركة الوطنية المبنية على النضال السياسي والمنطلقة من كبريات المدن. ولكن عند تدبر الوقائع بإمعان، ندرك في الحين أن المضمون الإيديولوجي للحركة الوطنية والمطالب التي برزت بها في الثلاثينات والأربعينات كانت مسطرة في برنامج محمد بن عبد الكريم... الحركة الوطنية تكون وحدة تاريخية، أي وحدة عضوية، وهذا يعني أنه لا يمكن فهم شطرها الثاني فهما صحيحا دون ربطه بشطرها الأول. فدراسة الموضوع في حد ذاته ومن جهة تاريخية

بحتة، يقتضي هذا الربط. وكيف يمكن أن يفهم الاتجاه إلى الأسلوب السياسي إذا لم نطلع بالكفاية على التجارب الحربية التي سبقتها والتي مرت هي أيضا من أطوار؟ وكيف يمكن أن نلمس دور المدن إذا لم نلم بالكفاح السابق في البوادي؟[6] ماهي الحقيقة؟ هل هناك فرق في الدرجة أو في الطبيعة؟ يمكننا أن نتدارس طويلا هذه المسألة ولكننا نعتبر أن هناك نظرية تستحق أن تدرج هنا لمحاولة حل مشكل العلاقة بين الحركتين. وهذه النظرية استنتجناها من رسالة الحاج عبد السلام بنونة لابنه الطيب، والمؤرخة ب 22 شتنبر 1930 يقول فيها ما يلي:

«الاستقلال والحرية شيء يؤخذ ولا يعطى، وأخذه بقوة السلاح مع الجهل لا يدوم، ونتيجته الثورة المتتابعة القاضية على البلاد وأهلها. والوصول إلى الاستقلال التام بقوة القلم وكثرة المعارف يكاد يكون من قبيل المحال، اللهم إذا ساعدت الظروف بأسباب خارجية. ومحصل هذا كله أن الزمة المغربية تتوقف على رجال ذوي مقدرة في المعارف بأنواعها ليكونوا قادة الشعب يسيرونه حسب إرادتهم لمصلحة الدين والوطن، ويجب إيجاد هؤلاء الرجال عاجلا ما دام بالقبائل الداخلية رمق من الحياة الحربية».[7]

وقد تنبأ الحاج عبد السلام بنونة بصفته منظرا محنكا عبقريا بالمرحلتين الأخيرتين من المراحل الثلاث التي شكلت تاريخ الحركة الوطنية. فبعد المرحلة الأولى التي عاشها، وهي الحركة المسلحة، لم يعش إلا السنين الأولى من الحركة الوطنية السياسية، حيث توفي سنة 1935.

أما المرحلة الثالثة فستكون نظرة تركيبية للمرحلتين السابقتين. نعم لقد كانت رؤياه صحيحة، رغم أن نظريته تستوجب من طرفنا بعض الملاحظات وبالخصوص فيما يخص المرحلة الأولى، وما قاله حول وجوب انهزام الحركة المسلحة التي كانت في رأيه مصحوبة بالجهل.

فالسؤال المطروح هو التالي: هل كانت الحركة المسلحة تجاه المستعمر من صنع أميين؟ نظرة خاطفة تمكننا أن نؤكد أن زعماء هذه الحركة كانوا بعيدين كل البعد عن الأمية[8] لكن ربما كان الحاج عبد السلام بنونة يقصد بكلامه جنود الصف أكبر منهم زعماءهم.

كيفما كان الحال، يمكننا أن نؤكد أن رجال القبائل، بغض النظر عن مراتبهم، كانت لهم حاسة كبيرة للموازاة بين الهدف والوسائل، وأن هذه القدرة تحمل اسن الذكاء. وهذا يؤدي بنا إلى سؤال آخر، هل الجهل هو عدم المعرفة أم عدم الذكاء؟

نعم، ندرك أن الثقافة تتطلب الذكاء والمعرفة، في آن واحد لكن يمكننا محاولة دراسة الحالات التي لا تتوفر على إحدى القدرتين، مما يؤدي بنا إلى ملاحظة أولية وهي أن المعرفة بدون ذكاء ليست معرفة. ولكن الذكاء في حد ذاته يمكنه إذا اقتضى الحال أن يحل محل المعرفة[9] فيما يحتويه من تكيف عملي حسب الأوضاع.

إذن، فالذكاء يمكنه أن يحل محل المعرفة العملية التي لها في نظرنا نفس الأهمية المعرفة التجريدية لاسيما وأن هذه المعرفة العملية يمكنها أن تشكل اقترابا عاما للحياة.

وكيفما كان الحال، فإن ما قاله الحاج عبد السلام بنونة لابنه الطيب تبقى له قيمته فيما يخص المرحلتين الثانية، والثالثة لتاريخ الحركة المغربية الوطنية، بالنسبة للمرحلة الثانية. سيتفق الجميع على أن الحركة الوطنية وحدها لم تستطع تحرير البلاد والحديث طويل فيما يخص الدعم الدولي أو الدبلوماسي الذي بدأت الحركة الوطنية تحظى به في السنوات الأولى التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية. وقد كان لهذا الدعم مفعول ملموس ما بين 1953 و1956، هذه الفترة التي تنبأ لها (دون تحديد الزمن) الحاج عبد السلام بنونة واعتبرها فترة امتزاج جهود المثقفين (وطنيي المدن) بجهود رجال القبائل الذين قال عنهم الحاج عبد السلام بنونة بأنهم يملكون الرمق الأخير لحمل السلاح.

ويمكن تطبيق أفكار الحاج عبد السلام بنونة على دور وطني القبائل في المقاومة المسلحة. وهنا ملاحظة تفرض نفسها: إن أغلبية الذين حملوا السلاح ابتداء من 1953 كانوا من أصل بدوي، وإن كانوا يسكنون بالمدن، حيث كانوا يحتفظون بالرمق الأخير لحمل السلاح. وقد درس ابن خلدون هذه القوة البدوية، حيث أن التمدن عدو لذوذ لسكان البادية الذين يرون قوتهم لحمل السلاح تنقص من جيل لجيل.

لكن هذا التمازج الذي وقع في 1953-1956 والذي قال عنه الحاج عبد السلام أنه سيتم في نوع من الانسجام، قد تم في أزمة قيادة وانقطاع.

يقول الأستاذ زنيبر في هذا الصدد : كانت نهاية الحرب العالمية الثانية 1945-1939 تشكل منعطفا كبيرا في تطور الوطنية المغربية التي يجب وضعها في إطار حركة تحرير الشعوب المستعبدة في العالم، تلك الحركة التي اتسع نطاقها وقوي مفعولها في كل جهات المعمور.

وإنها لوضعية فتحت آفاقا واسعة أمام الأحزاب الوطنية المغربية. لكن هؤلاء ظهورا في الوهلة الأولى، وكأن الأحداث تجاوزتهم، بمطالبتهم بالاستقلال التي عبروا عنها، والتي كانت تتجاوب مع عاطفة الجماهير، كانت تفرض تغييرا جذريا وسريعا في العادات والخطط. وهو أمر لم يكن سهلا. فالقادة الذين كانوا في معظمهم من أبناء المدن ومن مثقفي البرجوازية الناشئة، لم يكونوا يفكرون في تجاوز حدود العمل السلمي والمساير للمشروعية القائمة. وما فتئ هذا السلوك يبرهن يوما بعد آخر عن عدم جدواه.

فأصبح أولئك القادة يصطدمون شيئا فشيئا بضغط الجماهير العمالية فالعمال الذين وصلوا إلى درجة من الوعي بدأوا يطالبون بالتالي بتنظيمهم حتى يواصلوا النضال على طريقتهم الخاصة[10]، ومن ثم يمكن القول إن الوطنية المغربية كانت تجتاز أزمة دفينة، وقد يمكن وصفها بأنها أزمة نمو. ولكنها في الواقع كانت أكثر من ذلك، إنها تعلن عن تحول المسؤولية النضالية من النخبة إلى مستوى الجماهير...[11].

إننا نشاطر الأستاذ زنيبر رأيه إلا في نقطتين:

الأولى: لم يكن كل الوطنيين بالمدن ضد استعمال العنف وبالخصوص الزعيم علال الفاسي وعبد الكبير الفاسي وعبد الخالق الطريس الذي سنرى دوره في هذا المجال فيما بعد. وهذا يبين أن الانفصال لم يكن كاملا بين القاعدة والقيمة.

الثانية: تخص استعمال الأستاذ زنيبر للفظة «جماهير» بما أن المقاومين المغاربة كانوا يشكلون نسبة ضئيلة من الشعب المغربي يجب استعمال كلمة أقلية فعالة، ويجب ألا ننسى أن المقاومين المغاربة تكونوا في مدرسة الوطنية وبالخصوص في حزب الاستقلال. فقد تكلم الأستاذ زنيبر عن المقاومين المغاربة كتلامذة لوطنيي المدن.[12]

بعد توضيح التمازج في نفس الوقت بين الحركة الوطنية والمقاومة المسلحة بين

1953 و1956، نود أن نطبق أفكار الحاج عبد السلام بنونة على علاقات حزب الإصلاح الوطني والحركة المسلحة، إن هذا الامتزاج والانفصال اللذين ذكرناهما من قبل بين المدينة الوطنية وعناصر المقاومة المسلحة هما مكوني إشكالية هذه المداخلة.
هذه الإشكالية التي تؤدي بنا إلى تقسيم مداخلتنا إلى ثلاثة أقسام:

1- مجيء اللاجئين الفارين من الجنوب إلى المنطقة الشمالية وبالخصوص إلى تطوان.

2- دور الإصلاحيين الموجودين بمنطقة الريف الشرقي.

3- نظرة تركيبية.

هذه الإشكالية مشروعة في رأينا لأنها تعالج في العمق العلاقات بين الوطنية الحضرية والمقاومين من أصل بدوي.

بالفعل نرى أن العلاقات في المرحلة الأولى قد تجسمت في مجيء المقاومين الفارين من الجنوب إلى تطوان بالخصوص، ثم في المرحلة الثانية في دور بعض الإصلاحيين بالريف الشرقي في الحركة وجيش التحرير المغربي.

1- مجيئ المقاومين الفارين من الجنوب إلى المغرب الخليفي وتطوان بالخصوص:

بطبيعة الحال، إن الأزمة الناتجة عن نفي المغفور له جلالة الملك الشرعي محمد بن يوسف في 20 غشت 1953، كانت لها انعكاسات في المغرب الخليفي في ظروف جعلت الحركة الوطنية للمنطقة تعمل لصالح القضية المغربية بصفة عامة، ونعمل كذلك لصالح المقاومين الفارين من الجنوب إلى المنطقة الشمالية بالخصوص. وهذا العمل الأخير ينقسم إلى قسمين: العمل السياسي والعمل المادي.

أ- المبادرات السياسية للوطنيين الشماليين لصالح المقاومين:

لقد اغتنم الوطنيون الشماليون روح التفاهم النسبي الذي كان يسود علاقاتهم مع الإقامة العامة، ولاسيما أن الحكومة الإسبانية كانت ترفض علانية نفي الملك الشرعي المغربي. كما أن هؤلاء الوطنيين كانوا أذكياء في اعتمادهم نسبيا على الاستعمار الضعيف (الإسباني) للتغلب على الاستعمار القوي (الفرنسي).

وقد عمل الأستاذ الطريس كل ما في وسعه لإقناع بالينيو باستقبال المقاومين

الفارين من الجنوب باعتبارهم لاجئين سياسيين، ولدينا مجموعة من الوثائق التي تثبت ذلك، لكننا نكتفي بمذكرة بخط الأستاذ الطريس والمؤرخة بدجنبر 1953، والتي سلمها حزب الإصلاح إلى أحمد الشقيري الأمين العام المساعد للجامعة العربية أثناء زيارتهم لتطوان في نفس التاريخ. هذه الوثيقة تطلب من الجامعة العربية أن تتدخل لدى الحكومة الإسبانية لكي تعطي أوامرها لاستقبال أو حماية اللاجئين الفارين من المنطقة السلطانية. إلا أنه يجب القول أن هذه الجهود لإقناع الإسبان بخصوص هؤلاء اللاجئين، والتي نجحت، لم تكن منفردة، بل كانت من ضمن مجهودات متظافرة منبثقة من جهات متعددة. كما لا ننسى أن إسبانيا كانت تريد أن تقدم نفسها كبطل القضية المغربية وذلك لأغراض خاصة، والتي لن نتطرق لها في هذه المداخلة.

ب- الدعم المادي للإصلاحيين إلى الحركة المسلحة:

كان من المؤكد أن تنظيم إقامة اللاجئين المقاومين بالمنطقة الخليفية كان في غالبه تحت مسؤولية الإدارة الإسبانية، وبما أن عدد هؤلاء كان يزداد يوما عن يوم بكيفية تصاعدية، فقد قرر مسؤولو الإقامة العامة أن يعطوا لحق هذا اللجوء صبغة شبه مؤسسية. لكن هذا لم يمنع مناضلي حزب الإصلاح الوطني أو سكان المنطقة الخليفية من إيواء الفدائيين مع إعطائهم مساعدات مادية متعددة.

وقد كان دور الأستاذ الطريس في هذا الموضوع مثاليا.

وشهادة الأستاذ عبد الكبير بن المهدي الفاسي الذي وصل عنده في 19 غشت 1953 حول الكلام المتبوع بالتنفيذ الذي قاله له الزعيم التطواني كان معبرا. قال الأستاذ الطريس: «يا عبد الكريم إنني من الآن أصرح بأنني عضو عامل في حركة المقاومة، وأنت اعتبر نفسك أخا لي وعضوا بارزا من أعضاء عائلتي واسكن في داري أنت وعائلتك ونم في فراشي، وإنني أضع رهن إشارتك ورهن إشارة المقاومة المسلحة كل ما أمكله من مال ومتاع، وسأعقد اجتماعا مستعجلا مع رؤساء الحزب وأطره، فنقرر لا محالة أن نضع أنفسنا وأهلينا وأموالنا وكل ممتلكاتنا وجميع طاقاتنا رهن إشارتك وإشارة المقاومة التي جئت تمثلها، وسننظم في هذه المنطقة قواعد لتدريب المقاومين وتهريب اللاجئين».[13]

بإيعاز من حزب الإصلاح الوطني، كان الطعام يقدم للمقاومين، وقد نظم حزب الإصلاح الوطني اكتتابا لصالح المقاومة، وقد نشرت نتائجه في جريدة الأمة بصفة مستمرة بأسماء المتبرعين مع عدم التصريح بالمبلغ الذي أعطي لأن الأرقام التي نشرت في الأمة يظهر أنها غير كاملة. ولكن يبقى أن هذا القدر وصل في 14 أكتوبر 1955 إلى 250.000 بسيطة. أما المبلغ النهائي الذي توصلنا إليه من خلال استجوابات شاهدين، فهناك أرقام متناقضة لكي تؤخذ بعين الاعتبار.

لكن عبد الله الصنهاجي رحمه الله صرح بأن المقاومة لم تتوصل بالقدر المذكور[14] أما من ناحية تزويد الحركة المسلحة بالأسلحة فإنه يبدو أن الأستاذ الطريس قام بدور متواضع حيث مكنها ببعض المسدسات والعتاد[15].

وقد فتحت جريدة الأمة صفحات كاملة لأعمال المقاومين المغاربة. وكانت تشكل هذه الجريدة سندا غير عادي للمقاومين الذن كانوا يوصفون بمدح وتمجيد.

إن حسن الاستقبال الذي خصه الأستاذ الطريس ومدينة تطوان للمقاومين لم يكن ينحصر في تحسين ظروف عيشهم، بل تميز خاصة بحفاوة بالغة. إن السند المعنوي للمنطقة وتطوان بالخصوص كان عاملا جد مهم، وكان له وقع خاص عند الفدائيين الفارين من الجنوب. كما يجب أن نذكر بظروف السياسة العامة للمنطقة، والتي كان لها دور في هذه الوضعية المناسبة.

وقبل أن نتطرق إلى القسم الثاني من مداخلتنا، يجب أن نذكر أنه فيما يخص جيش التحرير، وابتداء من أكتوبر 1955 فإن الأحداث تطورت بسرعة، الشيء الذي جعل كل تدخل لصالح جيش التحرير من طرف الأستاذ الطريس لدى الإسبان بدون فائدة، وهذا لأن الطريس نفسه كان له خلاف عويص مع الإسبان في هذه الفترة بسبب نواياهم الانفصالية.

2- دور بعض إصلاحيي الريف الشرقي والأستاذ الطريس في جيش التحرير:

سنتطرق في هذا القسم إلي مسألتين: دور حمدون شراف في جيش التحرير، وعلاقة الأستاذ الطريس بجيش التحرير.

أ- دور حمدون شراف في جيش التحرير:

كان حمدون شراف مسؤولا عن بعض الخلايا لحزب الإصلاح الوطني، في رأس

كبدانة. وقد لعب دورا هاما في إفراغ البواخر المصرية من الأسلحة[16] في رأس الماء بالخصوص، ونقلها إلى المناطق التي كان رؤساء المقاومة قد قرروا تخبئتها في انتظار توزيعها على الفرق في اليوم الموعود. لقد أسندت له هذه المهمة لثلاثة أسباب:

- لمعرفته للمنطقة التي كانت مسقط رأسه والتي ستكون الموقع لنزول الأسلحة.

- لسلطته على بعض خلايا حزب الإصلاح والذين برهنوا فيما قبل على وطنيتهم خلال سنين طويلة، مقيدين أنفسهم بالقسم الذي أدوه خصيصا لعملية نقل السلاح والذي كان يحتاج إلى سر مطلق.

- لعزمه على أداء خطته.

ب- الأستاذ الطريس وجيش التحرير

لقد عثرنا من ضمن الوثائق الخاصة للأستاذ الطريس على تصميم العمليات العسكرية لجيش التحرير في الثلاثي أكنول - بورد - بوزينب، والذي لا يمكن أن يوجد صدفة بين هذه الوثائق.

هذه المسألة توجب بحثا معمقا لا يمكننا أن نقوم به في هذا الإطار وقد وجدنا أيضا بين هذه الوثائق أوراقا تتعلق بتنظيم وتمويل جيش التحرير، كما عثرنا على وثائق أخرى تؤكد أن الطريس كام على علم إلى حد ما بأعمال جيش التحرير، من بينها لمفات انخراط شخصية في جيش التحرير. والملفات التي استعملت لهذا الغرض كانت تحمل اسم وزارة الشؤون الاجتماعية التي تولاها الطريس من يناير 1955 إلى يناير 1956، لكننا على يقين أن الأستاذ الطريس لم يشارك في تحضير العمليات العسكرية لجيش التحرير.

3- نظرية تركيبية

يجب علينا في هذا الإطار أن نرى إلى أي حد كانت النظريات المذكورة، في الصفحات السابقة قد تمت، وهذا يتعلق بالعلاقات بين حزب الاصلاح الوطني من جهة، والحركة المسلحة وجيش التحرير من جهة أخرى.

وإحساسنا هو أن نظرية الحاج عبد السلام بنونة بالخصوص كانت صحيحة إلى حد بعيد، وقد حصل في الشمال. نفس الذي وقع في الجنوب فيما يخص العلاقات

بين الحركة الوطنية والحركة المسلحة ويجب القول إن إصلاحيي الريف الشرقي الذين ساهموا في افراغ السلاح من البواخر المصرية لم يشاركوا كممثلين رسميين لحزب الإصلاح الوطني، بل شاركوا بصفة انفرادية مع العلم أن هؤلاء الأفراد كانوا من أصل قبائلي.

ومن جهة أخرى، لقد رأينا بأن الأستاذ الطريس لم يكن ضد استعمال العنف في إطار الوطنية، وقد أعطى أسلحة إلى المقاومة. ويجب أن نذكر أن الطريس وإن لم يكن يشارك في قيادة الحركة المسلحة وجيش التحرير، فإنه كان على علم بكل ما يدور في هذا الموضوع بدون شك من طرف بعض عناصر حزب الإصلاح الوطني ومن ناحية أخرى، فإن الأستاذ علال الفاسي والأستاذ الطريس كانا يؤيدان المقاومة المسلحة.

وتبقى في النهاية مسألة الاكتتاب التي يجب أن توضح، لكن ليس لنا مع الأسف وثائق، في هذا الموضوع.

خاتمة

تحدثنا فيما قبل عن التمازج بين الحركة الوطنية السياسية والحركة المسلحة لكن يجب أن نوضح بأن هذا التكافل لا يعني خليطا، وهذا لأن كل حركة بقيت مستقلة بنفسها، وبمعنى أصح، يجب التكلم عن اتصال بين الحركتين. لقد حصل تكافل موضوعي بين الحركتين وهذا بكيفية جدلية.

لقد حصل هذا التمازج بكيفية غريبة في التناقض لا في التألف. لهذا فإنه، في تاريخ حركة اجتماعية ما، لما نمر من المعرفة إلى العمل، وهذا على ضوء نظرية الحاج عبد السلام بنونة، يجب في نظرنا أن تكون هناك تورة كبرنيكية (une révolution copernicienne) تتجاوز في آن واحد المعرفة والعمل. وهذا جد بديهي لأنه وجب شيئان لكي تقوم المقاومة المسلحة:

– وجب تجاوز في السياسة التي هي معرفة.

– وجب تجاوز في العمل الذي كان من قبل سليما داخل القبائل في المرحلة الثانية من تاريخ الحركة الوطنية.

وفي هذا الإطار، نود أن نسهب في مقولة «نيتش» مع تطبيقها في هذه الحالة، فنقول بأن الجسر بين المعرفة (وطنية المدن) والعمل (المقاومة المسلحة) لم يقم عند شخص واحد، ولكنه وقع بين نوعيين من الأشخاص (الوطنيون والمقاومون).

الهوامش

1- الحركات الاستقلالية في المغرب العربي. طنجة. نشر عبد السلام جسوس، ص 127

2- HALSTEAD, John P. *Rebirth of anation.* Cambridge, Harvard univertity Press; 1969; p 6.

3- (ترجمة الكاتب) BRONZES, De Tempel, *Fin d'un régime colonial.* 1964; p 11.

4- تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب الدار البيضاء1976 الجزء الأول ص 14.

5- *Nation et Nationalisme au Maroc* - Rabat - Danashr Al Maarifa 1988, P: 631.

6- صفحات من الوطنية المغربية من الثورة الريفية إلى الحركة الوطنية الدار البيضاء - دار النشر المغربية 1990 ص 13 وص 160.

7- محمد بن عزوز حكيم: أب الحركة الوطنية المغربية الحاج عبد السلام بنونة، حياته ونضاله. الجزء الأول 1987 ص 99.

8- يجب تخصيص دراسة معمقة حول هذه المسألة.

9- حقيقة أن المعرفة لكي تصبح كذلك تحتاج إلى دعامة (Support) وهي اللغة والثقافة العامة واللتان تشكلان الفرق بين الأمي والمثقف. ولكن هذا لا يهمنا تقريبا لأننا نهتم بالحالة الاستثنائية أكثر من الحالة العامة.

10- باستعمال العنف. تطرق الأستاذ زنيبر بتفصيل إلى الكيفية التي قررت القاعدة استعمال العنف بها.

11- محمد زنيبر: صفحات من الوطنية المغربية من الثورة الريفية إلى الحركة الوطنية: ص 21.

12- محمد زنيبر صفحات من الوطنية المغربية ص 122.

13- الطريس، ما قيل عنه من مطبوعات جمعية الطالب المغربية. المطبعة المهدية تطوان 1971 ص 66.

14- مذكرات في تاريخ حركة المقاومة وجيش التحرير المغربي من 1947 إلى 1956 - المحمدية - مطبعة فضالة 1988 ص 206 وما يتبعها.

15- انظر كتابنا *Approches du colonialisme espagnol et du mouvement nationaliste marocain dans l'ex-Maroc Khalifien* Rabat. Okad, 1988. p: 268.

16- بصدد إفراغ هذا السلاح، يجب الاضطلاع على هذه المصادر:

- العرض الذي قدمه حمدون شراف إلى رئيس اللجنة الوطنية للمقاومة وجيش التحرير حول عمله داخل المقاومة المغربية بين 1954 و1956 يوجد هذا العرض محفوظا في قسم التاريخ بالمندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير تحت رقم 1070، والمؤرخ بـ26 أكتوبر 1984.

DIB, Fethi, *Abdel Nasser et la Révolution algérienne.* Paris. l'Harmattan, 1958; pp 75-81.

Approches du colonialisme, pp: 280-281.

- مقال حمدون شراف حول عملية باخرة دينا المنشور في مجلة المقاومة وجيش التحرير. عدد 18 أبريل 1988 صص 49-59.

ملاحظة منهجية وأخلاقية
حول كتابة تاريخ المقاومة المغربية

أغزادي لحسن
كلية الآداب والعلوم الانسانية
- القنيطرة -

تعتبر أيام هذه الندوة مناسبة كريمة وضع خلالها وجها لوجه كل من مؤرخي المقاومة وبعض صانعي أحداث هذه المقاومة. والمستفيد الأول من هذه الأيام هي مسيرة البحث التاريخي في المغرب، إذ مر خلال مقابلة الأفكار ومن خلال مناقشة المداخلات ومن خلال عمليات التأثير يحاول الجميع ايصال ما جد من معلومات أو تقويم وتطوير معرفتها.

فالندوة أتت في إبانها حيث بدأ تاريخنا المعاصر يواجه يوما عن يوم تزايد الأسئلة التي تطرح عليه، كما بدأ يواجه آفاق انقلاب الأفكار والايديولوجيات وتطور مناهج الحياة المرتبطة بارتجافات العالم. وهكذا شاهدنا خلال هذه الأيام توضيح بعض الجوانب التاريخية التي ظلت من قبل غامضة أو مبهمة، فلا المبالغة طبعت المداخلات، ولا الديماغوجية لوثت صفاء المناقشات، فشكرا لجميع الذين ساهموا في تنظيم هذه الندوة.

أيها السادة :

ماذا تبقى في ذاكرة الناس عن المقاومة وجيش التحرير ؟ فبالنسبة لصانعي الأحداث ، بقيت أولا وقبل كل شيء رغم الهموم اليومية وصعوبة الحياة ، صورة عظمة الخلق ، والسجية ، والحزم ، والعزم والاستقامة ، أما بالنسبة للشباب الذين لم يعيشوا الأحداث والذين يواجهون رتابة الأيام ، فالمقاومة المسلحة لازالت تفتنهم ولا زالت توحي لهم بشيء يرغبهم في المعالي .

إن غزارة ما كتب في المقاومة وغنى المناقشات التي أثيرت حولها لم تترك المهتم غير مبال ، لكن البحوث والمقالات لها ما لها وعليها ما عليها ، ولأن كل باحث فاضل يصيب ويخطئ فالذين لا يخطئون أبدا هم أولئك الكتاب ما بين أصحاب المستوى المتوسط الذي لا يعني شيئا . فالمستوى المحترم والايجابي لهذه البحوث والمقالات هو الذي سبب لها قابلية النقد . وصاحب النقد هنا لا يرمي إلى التصحيح ولا يدعي الرأي الأفضل ، وإنما سيحاول الادلاء بوجهة نظر متواضعة لا غير ، اعتقادا منا جميعا أن المثالي وغير الملوث لم يسطر بعد .

وهكذا سوف لن أناقش الأفكار لأني لا أملك حقيقة ولا أملك بوصلة لأقود الآخرين وسط غابة الأهواء والانتماءات . فالاجتهاد ليس موقوفا على أحد فمداخلتي هذه تطمح الى اثارة الانتباه الى نوعية خاصة من التفكير والى منهجية معينة ، حلل بواسطتها بعض الباحثين المعطيات التاريخية . فكلامي سيطبعه الجدال وسيطبعه في نفس الوقت الاختزال ارجو ان لا تنشأ عن ظاهرة الاختزال سوء الفهم أو الفهم المضاد .

يدعي بعض من اهتم بتاريخ المقاومة المسلحة المغربية أنه التجأ الى التجرد والموضوعية وانه توخى الحقيقة التاريخية ، أظن أن في مثل هذا الكلام وفي هذه المواقف والادعاءات شيئا يحير البال ويجعلنا نتساءل هل باستطاعة المؤرخ ومهما

كانت قدرته وخبرته أن يجعل من موضوع المقاومة مجرد شيء تاريخي، وهل المقاومة وحركة التحرير أصبحت لا تؤلف الا رهانا بسيطا في الذاكرة الجماعية ليقف المؤرخ منها مثل هذه المواقف المنهجية؟.

أظن أنه من الأفيد إعادة الاعتبار لبعض الكلمات والمفاهيم والتعابير كالحياد والموضوعية والحقيقة التي أصابها اليوم التضخم وانهكها الابتذال وقبل كل شيء، ودفعا لكل التباس فأنا لا أقصد الواقع le réel و الواقعة (le fait) أو الحدث (l'événe-ment) لأن أخلاق مهنة المؤرخ تحرم عليه تزييف وتحريف وتشويه ما نعتقده واقعا أو واقعة أو حدثا فالمناهج المختلفة تجعل من غابت عنه الوقائع والأحداث يسيء الادراك والفهم. فأنا لا أتكلم عن المؤرخ الذي انحصر همه في البحث والتنقيب عن الوجادات، أو في محاولة بناء ماض كما كان، فهذا البناء ضرب من الخيال والمجاز لا غير. ولأن الماضي الانساني عندما كان حاضرا كان شيئا مبهما، وكثير الأشكال، غير واضح المعالم، يستحيل على الذين عاشوه أو شاهدوه أن يدركوا كنهه أو يتفطنوا لواقعه المعتقد. فعندما تناولته الكتابة أو الرواية دخل عليه الانتقاء والاختزال أي الذاتية والتشويه، ولهذا فأنا لا أجادلهم، وإنما أريد أن أجادل ذلك الباحث الذي يدعي الحياد ويدعي أنه يعرف الحقيقة والواقع حيث نجده يحلل ويعلل ويستنتج ويرسي القواعد بكل موضوعية وتجرد.

لنقولها بدون قناع، إن الذي يدعي الحياد يخدع وينخدع، ويتناقض مع نفسه لأن المؤرخ الذي اختار أن يضع نفسه في خدمة ظاهرة حضارية من الصعب عليه أن يدعي الحياد أو يوهم الناس بذلك. فاختيار موضوع الظاهرة هو نفسه نوع من اختيار الموقف، فالتاريخ ومنذ نشأته وهو في خدمة المشروع السياسي: أي أنه جدالي ومنازع بالطبع ومساهم في تكوين الرأي العام، فقراءتنا للتاريخ، رغم معرفتنا للوقائع المادية والملموسة ما هي الا سلسلة من التأويلات والصور التي

نقدمها من أجل اهداف تربوية. وما على من أقلقه كلامي هذا الا ان يعمق النظر ليرى ضباب الاديولوجيات التي تغشي كل موضوعية. فالتجرد والحياد ما هما إلا مجرد لوْك كلام.

يقول روني ريمون (René Raymond) إن مهمة المؤرخ لا تتفق ومهنة المناضل. نعم هذا كلام استاذ العلوم السياسية في جامعة السربون وهو أحد أقطاب مدرسة الحوليات والمختص في تاريخ المقاومة الفرنسية، وهناك الكثير من باحثينا الذين رددوا مثل هذا الكلام أما أنا فلا أتأبط كلام Raymond ولا أضع نفسي مكانه ولا أرى الأشياء بعينيه. فاذا كانت موضوعيته تعتريه فهي لا تسكنني بل أقول إن أخلاقي وارتباطاتي المجتمعية تمنع علي كل ابتعاد يؤدي إلى الانفصال عن الذين نؤرخ لهم. فأنا لست من أولئك الذين يقولون عندما تكتب دع ذاتيتك جانبا فالذاتية هي التي تعطي البحث ذلك الدفء الشخصي وتلك الشحنة من الهموم والأحلام. فالمؤرخ مثله مثل الفيلسوف أو الشاعر أو الرسام إذ عليه أن يترك بصمات ذاتيته ومشاعره فيما يكتب، فكلامي هذا لا ينبثق عن روح شوفينية، إلا أن الكتابة التاريخية صراع بين الخبر وبين الأنا l'égo، الذي يقرأ الخبر، أي أن الكتابة خاضعة لعالمنا الذهني. ومن العبث أن يتوهم الانسان أنه من السهل التخلص من الأرث الثقافي الذي يفرق بيننا وبين ذهنية الغرب، ولهذا فلا يمكن لأي مدرسة تاريخية فرض منظورها ومنهجيتها ولا يمكنها أن تجرد الباحث من وطنيته ومن معتقداته ومن همومه وأحلامه. نعم لقد انتهى زمن تستر المؤرخ وراء عمله، وانتهى زمن تستر المؤرخ وراء لا شخصية البحث العلمي.

وأخيرا هناك السؤال المنهجي الذي يطرح نفسه بالحاح والذي يتلقى آلاف الأجوبة غير الشافية: ما هي الحقيقة التاريخية؟

فبفضل تقدم قواعد الابستمولجية بدأ يتبين أن ما كنا نعتقده قوانين طبيعية

ثابتة ما هي الا حقائق مؤقتة، وأن البديهيات والمتعارفات Axiomes التي دعمتها لم تكن إلا انعكاسا عابرا لظرفية قابلة للإبطال والزوال.

فالحقيقة العلمية تعرض للمراجعة، لكنها بعيدة كل البعد عن أن تكون منزهة عن الغلط. والمعرفة العلمية لا تتقدم بالتراكم بل هي على عكس ذلك تغيير مستمر داخل المكتسبات السابقة. فأهم صفة يتسم بها العلم الحديث هي أنه يمحق نفسه. إذا كانت هذه هي وضعية العلوم الصلبة، فما بالكم بالعلوم الهشة التي لا تتحكم في موضوعها والتي ينتسب إليها التاريخ. فالحقيقة التاريخية معرضة دائما للجدل لأنها كما تقدمت معرفتنا للماضي كلما كبرت نقط الاستفهام وبرزت عيوب هذه المعرفة. ولهذا فان الحقيقة التاريخية غير موجودة.

نعم هناك واقع une réalité يقضي المؤرخ المحقق جل وقته في البحث عنه وفي محاولة تدعيمه وشرحه، ولكن كثيرا ما يتبين في الأخير أن هذا الواقع ما هو إلا وهم لأن ما تقدمه لنا المعرفة والدراية عن الواقع لا يوجد إلا داخل أدمغتنا. فالواقع لا ينفصل عن إدراكنا له فالشخص هو مخترع الواقع، وليس هناك ما يثبت أن هذا الشخص هو الوحيد في العالم. فمحاولة فرض مفهوم واحد لواقع معين يمكن أن يؤدي إلى شكل من أشكال العنف الفكري. وعليه يجب أن نقبل بالآخر ونقبل بتداخل الذاتيات. ولهذا فأنا أفضل أولئك المؤرخين الذين يفوح من كتاباتهم عبق خفي من الذاتية على الذين يبحثون في العلوم الانسانية «بتجرد خادع». فالتأمل البستمولوجي للمؤرخ حول مادته تأمل فلسفي قبل كل شيء، فلا يمكنه أن يأتي الا على شكل سيرة ذاتية داخلية، ومن حاول التنصل من ذلك جاءت أعماله معقمة وخالية من كل بعد وسمك.

فالمؤرخ يعبر عن نفسه وعن عصره من خلال رؤيته للماضي، وبعبارة أخرى فان التاريخ معرفة مرتبطة بأوضاع وحدس المؤرخ. واذا كان من الضروري على مؤرخ

المقاومة أن يظهر أحيانا شعوره نحو من يؤرخ لهم، فانه لا يخجلنا في شيء إذا كان التعاطف مع تلك الفئة القليلة التي حملت السلاح لطرد مغتصب أجنبي تسلط على أرضها وحضارتها. فالمؤرخ يعيش داخل نفسه حياة المجاهدين المقاومين المرابطين في الأودية وعلى قمم الجبال، فيفرح لانتصاراتهم ويثور لشقائهم فأخبار المقاومة تخلق فينا الانفعال، فهل هناك قانون يحرم عليها كتابة التاريخ ونحن في حالات نفسية؟ وهل نترك الواقعية والموضوعية مع كل ما فيها من بشاعة وبرودة تتحكم باسم الفعالية في حياتنا وتخمد صوت قلوبنا وتقضي على مشاعرنا؟ فالتاريخ غير الانحيازي مستحيل استحالة مطلقة والانسان غير مستعد لتغيير طبيعته.

هذه هي الملاحظة المنهجية البسيطة التي أوحت بها قراءة بعض البحوث الجامعية حول المقاومة المغربية. وأريد أن أشير في الأخير إلى نوع من الكتابات التاريخية، أعني تلك التي أنجزتها القلة القليلة ممن صنعوا ملحمة المقاومة. لقدلاحظنا أنه كلما ظهر كتاب من هذا النوع إلا وقامت حوله ضجة صامتة واتهم صاحبه بالخلفيات السياسية، أو بمحاولة التشويش أو بمساعدة الأسطوري على احتلال التاريخ أو اتهم بأنه كتب حتى يكتب التاريخ عن الدور الذي لعبه هو، أو أنه لا يرى من خلال كسر مرآة حسبه الكاتب كل المرآة. أظن أن هذه «اليوميات» أو «المذكرات» أو «الشهادات» لها قيمة خاصة يجب ألا توجه لها المآخذ لأنها كتابات تاريخية تضيء أحداث المقاومة من الداخل، وتساعد القارئ على ولوج عالم المشاعر والاحساسات، ولأن المقاوم الذي قاوم والمجاهد الذي جاهد، عاش حياة أسمى وأرفع: أي عاش المثل الأعلى، وعندما يصل الانسان إلى هذه الدرجة يفسح المجال لذاكرة القلب وللأسلوب المباشر ويضرب صفحا عن كل اتهام.

الكل يشعر أن التاريخ المعاصر بدأ يضيع من مصداقيته بل بدأ يموت، وهذا لا بسبب الشيخوخة أو بسبب كثرة الابتذال ولكن ربما بسبب نظرة المؤرخ الباردة إلى التاريخ. فالمقاوم الذي استشهد لم يستشهد من أجل الخبز اليومي، بل استشهد من أجل محاولة رد الاعتبار.

إسهام القبائل الصحراوية في مقاومة المستعمر الإسباني والفرنسي وفي تحرير الأقاليم الجنوبية

ادريس الناقوري
نائب قيدوم كلية الآداب
والعلوم الإنسانية
- الجديدة -

تحديد مفاتيح العرض:

1 - مساهمة القبائل الصحراوية في مقاومة المستعمرين وتحرير الأقاليم الجنوبية.

2 - من هي القبائل الصحراوية وماذا نعني بها؟

عندما نقول القبائل الصحراوية فانه يفهم من ذلك القبائل التي تقطن الصحراء. فنسبتها صفتها. فالتعريف هنا يكون باعتبار العنصر الترابي (الأرض). ويمكن أن يكون التعريف بالسلالة: الانتماء العرقي، ووفق اعتبارات أخرى.

وفي هذا السياق يجوز الحديث عن مجموعة القبائل التي استقرت في جنوب المملكة وفي الصحراء المغربية منذ عدة قرون وتشمل المجموعات البشرية الآتية:

1 - الرقيبات.

2 - تكنة.

3 ـ الحراطين (من أصل إفريقي).

4 ـ القبائل الصغرى(1).

ومن هذه المجموعات قبائل تتميز بشرف المحتد والانتماء إلى أصول عريقة في المجد والعلم، مثل:

الرقيبات ـ العروسيين ـ أهل ماء العينين ـ فيلالة(2).

على أن القبائل الصحراوية ومنها قبائل أيت باعمران، المجاورة لاتحادية تكنة، عرفت ومنذ القدم، بشجاعتها واستماتتها في الدفاع عن أراضيها وفي حماية المغرب من الحملات الأجنبية والمحاولات الاستعمارية التي بدأت تهدد البلاد، منذ خمسة قرون (نهاية القرن 15)، أي منذ بدأ الاسبانيون والبرتغاليون في التسرب إلى السواحل المغربية بغية السيطرة على المواقع الاستراتيجية وعلى النقط الحساسة فيه.

وقد عملت الدول المتعاقبة على حكم المغرب ومنها الدولة السعدية، على مواجهة المحاولات الاستعمارية وعلى طرد الجيوش الأجنبية وتحرير الأقاليم الجنوبية والصحراء المغربية.

وكرست المواجهات الكثيرة التي استمرت بين المستعمر وبين الدول المغربية، منذ عهد السعديين إلى الآن، تقاليد نضالية راسخة وتجربة جهادية طويلة اكتسبتها القبائل الصحراوية أو ورثتها عن الأجداد والأسلاف.

ذلك أن قبيلة الرقيبات مثلا، وهي التي تنشر في الصحراء المغربية وفي جزء من موريتانيا وفي منطقة تندوف، تعد من القبائل الصحراوية التي أبلت البلاء الحسن، منذ وقت مبكر في الدفاع عن حوزة التراب المغربي وفي حماية الصحراء. وليس ذلك بدعا إذا علمنا أن هذه القبيلة الشريفة كانت من القبائل التي ارتبطت بالمغرب وكانت تعتبر نفسها جزءا من الشعبة المغربي. وكيف لا تكون كذلك وهي تنتمي إلى الولي الصالح سيد أحمد الرقيبي وإلى مولاي عبد السلام بن مشيش، الشريف الادريسي (دفين جبل غمارة) كان من الصوفية، عاش في العصر الموحدي

وتوفي سنة 625هـ/ 1227م،فاذا كان مولاي عبد السلام بن مشيش قد جاهد في سبيل الدفاع عن المغرب وقاوم الأطماع الأجنبية في العصر الموحدي، فان أبناءه وأحفاده اقتدوا به وأخلصوا لنهجه وواصلوا مهمته في ظل الدولتين الموحدية والمرينية. وتبنى الموقف نفسه أبناء سيد أحمد الرقيبي في العصر الحديث عندما هبوا إلى جانب القبائل الصحراوية الأخرى لحماية الأرض المغربية وصيانة الوحدة الترابية من أقصى الشمال إلى أقصى التخوم الصحراوية (الكويرة والحدود الموريتانية)(4).

والرقيبات، هذا الاسم الذي يختزل عدة تسميات وبطون وعشائر بتكونون من قسمين كبيرين:

1 ـ رقيبات الساحل.

2 ـ رقيبات الشرق (القاسم).

يتوزع الجذع الأول منهم إلى عدة أفخاذ: أولاد موسى، السواعد، أولاد داود، الموذنين، أولاد الشيخ، التهالات.

أما الجذع الثاني فيشمل:

البيهات ـ أهل إبراهيم وداود ـ الفقرة.

وعلى الرغم من أن تاريخ الرقيبات لم يكتب بكامله فان المصادر المتوافرة وأغلبها مخطوط ومنها كتاب العلامة محمد سليم بن الحبيب ابن الحسين بن عبد الحي «جوامع المهمات في أمور الرقيبات» (المتوفى سنة 1353هـ) تثبت أن هذه القبيلة من القبائل الصحراوية الأصيلة التي بقيت على ولائها للدولة المغربية وكان لها إسهامها الكبير في مقاومة الاستعمارين الفرنسي والاسباني في الصحراء المغربية وفي تحرير مناطق من الجنوب مثل تلوين والساحل الجنوبي ومراكز أخرى في الصحراء المغربية. ذلك أن المقاومة ترتبط في عرف الرقيبات وبقية القبائل الصحراوية بمفهوم الجهاد. فهي واجب ديني ووطني وقومي. وقد اكتست المقاومة صورا متعددة:

1 ـ العزم والتصميم ويظهران في استشارة السلطة المركزية وفي استشارة

الأولياء والعلماء (مراسلات مع السلاطين).

2 ـ استقبال البعثات السلطانية (بعثة مولاي عبد العزيز إلى السمارة 1905 تقييد حسن بن يعيش حاجب محمد الخامس).

3 ـ إيفاد البعثات الصحراوية إلى السلطان أواخر1905 في عهد مولاي عبد العزيز.

4 ـ بناء السمارة (مركز جهادي لمكافحة المستعمر الفرنسي والاسباني).

5ـ المؤتمرات (مؤتمر تزنيت 1910 مع ماء العينين).

[كان يهدف إلى إنقاذ فاس وفك الحصار عن السلطان].

6 ـ المقاومة المسلحة: جهاد الشيخ أحمد الهيبة وأخيه مربيه ربه 1934-1918.

ـ مقاومة المحاولات الاسبانية لاحتلال سيدي إيفني 1919-1916 وطرفاية 1916.

وقد خاضت هذه القبائل: الرقيبات ـ تكنة... معارك ضارية ضد المستعمر واستطاعت بتعاون مع جيش التحرير 1958-1957 تحرير تلوين والمناطق المجاورة لها وطرفاية (معركة الدشيرة 22 دجنبر 1957) ومعركة إيكوفيون (المكنسة) 10 فبراير 1958 (5) وقد حرر إيفني (بالقوة) 1969.

إلا أنه بعد معركة إيكوفيون (التي قد يطول الحديث عنها) استرجعت إسبانيا عدة نقط حررها جيش التحرير والقبائل الصحراوية منها: بئر أنزران وتمكنت اسبانيا وفرنسا من السيطرة على الصحراء بعد ذلك.

ففي كل المعارك والمواجهات التي وقعت بين جيوش المستعمر وبين الدولة المغربية، أسهمت القبائل الصحراوية: تكنة بشقيها: آيت الجمل وآيت عثمان أوبلا، وخاصة قبائل آيت الحسن وآيت موسى وعلي وأزوافيط والرقيبات وغيرها من القبائل المستقرة في نواحي نون وفي الأقاليم الصحراوية، في صد المستعمر وفي تحرير مناطق كثيرة من التراب المغربي تقع جنوب كلميم أو تابعة لآيت باعمران. وأرغمت هذه القبائل: تكنة، أيت باعمران وقبائل الصحراء، المستعمرين المتحالفين، إسبانيا وفرنسا، على التراجع والتأخر(6) في احتلال المناطق الجنوبية أو

على الانسحاب منها نهائيا(7).

وتجدر الاشارة في هذا السياق كذلك إلى الدور الذي لعبته الزوايا المنتشرة بناحية وادي نون ومنها زاوية الولي الصالح مولاي العرابي التي توجد بالقصابي وزاوية شرفاء تغمرت (شرقي كلميم).

فقد كان أعيان القبائل يلجأون إلى هؤلاء الأولياء والصالحين قبل الشروع في مواجهة المستعمر الدخيل، لاستشارتهم واستفتائهم في أمور الحرب بغية الاسترشاد بآرائهم وتوجيهاتهم، وكانوا كذلك يطلبون منهم الاستخارة التي تعد تقليدا إسلاميا أصيلا. وهناك شخصيات وأعلام من قبائل تكنة وغيرها تشهد بصحة هذه الوقائع والأعمال. وشهاداتهم ما تزال في حاجة إلى تدوين وتحقيق فهي في معظمها روايات شفوية وهي على كل حال صحيحة ولا يرقى إليها الشك.

هذه لمحة سريعة حاولنا من خلالها كشف القناع عن الجهود والتضحيات التي بذلتها قبائل المناطق الجنوبية والصحراوية للدفاع عن حوزة الوطن وتحقيق وحدته الترابية. ومن المعروف أن إسهام القبائل المغربية في مقاومة المستعمر الاسباني والفرنسي وفي تحرير الأقاليم الجنوبية والصحراوية حقائق معروفة تاريخيا وعلميا يؤكدها الواقع الفعلي والوثائق والشهادات. وإذا كانت هناك أدلة وبراهين كثيرة تثبت مغربية الصحراء منها الدلائل التاريخية ومنها الوثائق القانونية ومنها العلاقات التجارية والاقتصادية القائمة منذ قرون بين الصحراء والدولة المغربية(8)، فان مشاركة أهل التكنة وقبائل أيت باعمران والرقيبات والعروسيين وأولاد أبي السباع وأولاد تدرارين وأهل ماء العينين والزرقيين وأولاد أدليم... إلخ. في المقاومة وفي حروب التحرير التي شهدتها منطقة وادي نون وبقية المناطق الصحراوية، لدليل على عمق الأواصر والوحدة التاريخية والسياسة التي كانت تربط المغرب بأجزائه الجنوبية وبالسكان القاطنين في تلك المناطق. وهي روابط ما تزال قائمة على الرغم من المحاولات الستعمارية الهادفة إلى فكها، وعلى الرغم كذلك من المحاولات الانفصالية الرامية إلى عزل المغرب عن صحرائه وخلق كيان طفيلي

لضرب وحدة المغرب الترابية والوطنية والسياسة.

ومن هنا يتبين لنا قيمة ذلك الاسهام العسكري والتاريخي والسياسي والوطني الذي قدمته قبائل الصحراء والذي يضاف إى الحجج القانونية والفعلية التي تدعم وحدة المغرب التي عمرت عدة قرون، وستظل بحول الله قائمة متماسكة ومستمرة بفضل إيمان المغاربة ووعيهم وحكمة ملوك الدولة العلوية الشريفة، وعلى رأسهم صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله، الذي حافظ على الأمانة وحرص على اتباع النهج الذي سلكه أسلافه الميامين منذ عهد مولاي إدريس إلى الآن. ومن نافلة القول التذكير بأن مسؤولية الدفاع عن وحدة المغرب الترابية والوطنية والمذهبية تقع على عاتق كل مغربي ومغربية. وهي ليست مسؤولية وطنية فحسب، ولاسياسية وكفى، ولكنها قبل كل شيء واجب ديني وخلقي. إنها واجب يتحمله الجميع ومسؤولية تواجه كل مواطن في ربوع هذا البلد الجميل والأمين. وينبغي أن يكون حرصنا على أداء هذا الواجب وتحمل تلك المسؤولية في هذه المرحلة الراهنة، بكل ما يحيط بها من ملابسات ومؤامرات أشد وأقوى من ذي قبل. كما يجب أن يكون دعمنا لجهود الدولة من أجل استكمال الوحدة الترابية وتثبيت حقوقنا التاريخية المشروعة دعما مستمرا، غير ممنون ولا مقطوع، لأن الأمر، كما يعلم الجميع من الأهمية بمكان ومن الخطورة بحيث لا يقبل التقاعس ولا التأجيل.

الهوامش

1ـ راجع الساقية الحمراء ووادي الذهب ـ محمد الغربي. ص: 113. وجوامع المهمات في أمور الرقيبات ـ محمد سالم بن الحبيب بن عبد الحي. (مخطوط) وسينشر بتحقيق ناعمي مصطفى.

2ـ الساقية الحمراء ووادي الذهب. ص: 129-127.

3ـ نفسه ص: 116 وما بعدها.

4ـ أكد هذه الحقيقة غير واحد من الباحثين المغاربة منهم حمداتي في أبحاثه وفي عرضه الذي شارك به في هذه الندوة. وغلاب في تاريخ الحركة الوطنية 814/2.

5ـ هذه الحقائق التاريخية معروفة ومكتوبة ولكن بعضها بقي مجهولا. ولكن الزوايا الشفوية وشهادات المشاركين في المعارك المختلفة ضد إسبانيا وفرنسا في جنوب المغرب وفي صحرائه تؤكد كلها الدور الذي لعبته القبائل الصحراوية وتحرير هذه الجيوب والمراكز المغربية في معارك: فم العسكري 1956 ـ مركالة 1956 ـ محاميد الغزلان، معركة أدرار، معركة الدشيرة 1957 ـ والمسيد (قتل في معركة الدشيرة700 إسباني وأظهرت بطولة الصحراويين).

6ـ ذكر غلاب أن من أسباب تأخر استقلال المناطق الصحراوية عدم دراية الحكومة المغربية إذ ذاك بملف الصحراء. تاريخ الحركة الوطنية 790/2.

7ـ يعترف الذين شاركوا في هذه المعركة من أعضاء جيش التحرير والمقاومة، ببطولة الرقيبات النادرة وبخاصة علي بوي وغيره من زعماء الرقيبات.

8ـ راجع في هذا: كتاب ناعمي مصطفى: الصحراء من خلال قبائل تكنة.

مقاومة الشيخ أحمد الهيبة للاستعمار الفرنسي

الحسن الباز
كلية الآداب والعلوم الانسانية
ـ أكادير ـ

لا يمكن الحديث عن حركة الشيخ أحمد الهيبة ودورها في مقاومة الاستعمار الفرنسي دون الحديث عن المشروع الاصلاحي لوالده الشيخ محمد مصطفى ماء العينين الأمر الذي لا ينفك بدوره عن التعرض للأهمية الخاصة لمنطقة الساقية الحمراء ووادي الذهب التي كانت مجالا للحركة الدينية والعلمية التي قادها الشيخ ماء العينين.

وتجمع أغلب الدراسات التي تعرضت للحديث عن الزاوية المعينية على أنها نشأت في منطقة الساقية الحمراء ووادي الذهب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر(1).

وقد ظلت هذه المنطقة منذ انتشار الاسلام في المغرب حلقة وصل بين شمال افريقيا وجنوبها. فعبر منعرجاتها امتدت طرق القوافل التجارية التي تربط الشمال بالجنوب، وفي واحاتها ترعرعت حركة عبد الله بن ياسين التي مهدت لقيام دولة المرابطين. ولم تخل أي فترة من تاريخ المغرب إلا ولهذه المنطقة إسهام في صنع

أحداثها مما يدل على أهميتها الاستراتيجية والسكانية.

كانت ولادة الشيخ ماء العينين بمنطقة الحوض من بلاد شنقيط سنة 1246هـ الموافق 1831م(2). ومن العناصر الأساسية في حياته:

1 ـ كثرة رحلاته فمنذ ان استكمل دراسته على يد والده الشيخ محمد فاضل بن مأمين(3)، وهو يضرب في الآفاق وينتقل بين ولاته وشنقيط وتندوف ومراكش وفاس والحجاز ومصر وغيرها، إلى أن استقر بالساقية الحمراء، ولا شك أن لهذه الرحلات أثرها الكبير في بلورة وعي الشيخ ماء العينين بما يواجهه العالم الاسلامي من أخطار الاستعمار، وما تعيشه الأمة المغربية من هموم ومشاكل.

2 ـ سعة أفقه العلمي وكثرة مؤلفاته: إذ يدل ما خلفه من الكتب والمصنفات على إلمام بمعظم جوانب الثقافة الاسلامية والعربية حيث ألف في العقيدة والفقه والأصول والسير والتصوف وعلوم اللغة العربية وغيرها(4).

3ـ تأسيسه للطريقة الصوفية والزاوية المعينية(5):

وترجع المحاولات التجديدية التي تنبني عليها حركة الاشعاع الديني للشيخ ماء العينين إلى الطريقة الفاضلية التي وضع والده الشيخ محمد فاضل أسسها. وقد انتشرت هذه الطريقة عن طريق إخوة الشيخ محمد فاضل وأبنائه، حيث أسس ابنه محمد مصطفى ماء العينين وهو الابن الثاني عشر لوالده فروعا للطريقة في منطقة الساقية الحمراء ووادي الذهب، وامتد نفوذه ليستقطب عددا كبيرا من الأتباع في مجاهل الصحراء وقلب المدن المغربية العريقة عن طريق الفروع المتعددة لزاويته في تزنيت والصويرة ومراكش وسلا ومكناس وفاس وغيرها.

وقد خصص الشيخ ماء العينين كتابه «مفيد الراوي على أني مخاوي لجميع الطرق» لعرض التجديدات التي تتميز بها طريقته الصوفية(6)، وان عبر عنها في كثير من مؤلفاته وممارساته الصوفية، فهو يرى «أن الطرق وإن تعددت واختلفت، فمرجعها كلها لأمر واحد هو الفناء في مشاهدة الله، والنظر إليه عن كل ما سواه»(7).

والجدير بالذكر أن الصحراء المغربية عرفت خلال تاريخها الطويل مجموعة من الزوايا التي اضطلعت بنشر الاسلام في كثير من بلدان افريقيا كزاوية أسا،

وزاوية سيدي البكري، وزاوية تينيلان، وزاوية كنتة، وملوكة، وزاوية الليلي، والزاوية الحكونية وغيرها، إلا أن أيا منها لم تستطع أن تحقق ما حققته الزاوية المالعينينية من مشاريع.

4 ـ وعيه بالأطماع الاستعمارية في المغرب والعالم الاسلامي:

وقد عبر عن ذلك في بعض ما خلفه من مؤلفات ومراسلات، ومن ذلك ما ورد في رسالته إلى أمير أدرار (في بلاد شنقيط) عندما احتج هذا الأخير على مهاجمة اتباع الشيخ ماء العينين للاسبان المقيمين بالداخلة حيث يقول:(8)

«والحاصل أن هؤلاء القوم الذين أخذوا في الداخلة ليسوا بأهل ميثاق ولا عهد ولا ذمة لمسلم وما فعل معهم إلا الحكم الذي أمر الله به.

ومن ادعى ما ينفيه قبل وقوعه فعليه بالبينة.. مع أنه يكفي في جواز قتالهم بل تعينه فجؤهم لبلاد المسلمين من غير علم لأحد منهم ولا إذن من أحد منهم مع إرادة الملك والتملك... والعجب كل العجب ممن يدعي العقل، ويشك أنه لا ضرر على المسلمين في خروج النصارى عليهم، وليس هذا إلا من جهله لما فعل النصارى بخروجهم على المسلمين في كل الأيام، كما وقع في الأندلس قديما، وما وقع في الجزائر وسطا، وما وقع في الاسكندرية ومصر واسطانبول حديثا، وغيره مما يطول بنا جلبه من كل بلاد للمسلمين دخلها النصارى لعنهم الله أولا بالأمان، وبعد ذلك استولى عليها في الزمان».

5 ـ حسن علاقته بالملوك العلويين: فقد كانت له صلات مع خمسة ملوك وهم: مولاي عبد الرحمان، مولاي محمد بن عبد الرحمان، مولاي الحسن الأول، مولاي عبد العزيز ومولاي عبد الحفيظ(9).

ومن الوثائق التي تحتفظ بها الخزانة المغربية:

ـ ظهير حسني يرتب بمقتضاه السلطان مولاي الحسن الأول أجرة شهرية للشيخ ماء العينين بتاريخ 5 شعبان 1304هـ 29 أبريل 1887 (10).

ـ رسالة من السلطان نفسه إلى الشيخ يخبره فيها بمسايرته لتطور الأحداث السياسية والدينية والثقافية في الصحراء المغربية(11).

ـ إعلان أصدره الشيخ أحمد الهيبة ابن الشيخ ماء العينين بتاريخ 20 ذي القعدة 1322هـ/ 26 أبريل 1905 للقبائل الصحراوية يطلعها فيه بتنفيذ السلطان مولاي عبد العزيز لمؤونة العسات المكلفة بحراسة الشواطئ المغربية(12).

6 ـ حصوله على ثقة القبائل الصحراوية:

فقد كسب الشيخ ماء العينين ثقة أغلب القبائل الصحراوية التي اجتمعت عليه في وحدة يعد اختطاط مدينة السمارة من أبرز مظاهرها.

7 ـ جهاده ضد الاستعمار:(13)

ففضلا عن طرده الانجليز من طرفاية ومحاصرة الاسبان في الداخلة تصدى للزحف الفرنسي الذي كان يتسرب من جنوب موريطانيا انطلاقا من السنغال.

ومن زاويته بالسمارة نظم المقاومة ضد الفرنسيين، كما كاتب جميع رؤساء الزوايا في موريتانيا وناشدهم أن يحملوا السلاح لمقاومة تقدم الفرنسيين، وقد لبى نداءه كثير من رؤساء النواحي الموريتانية، غير أن تطويق القوات الاستعمارية لحركته من الشمال والجنوب والشرق وقطعها لسائر الامدادات عليه، جعل حركته الجهادية تواجه مجموعة من الصعوبات اضطرته إلى تغيير مواقعه العسكرية من السمارة إلى تزنيت.

ورغم تلك الصعوبات فقد تمكن من تحقيق جملة من الانتصارات في الكثير من المواقع وكانت إقامته بمدينة تزنيت إلى وفاته سنة 1328هـ/ 1910م.

إن هذه العناصر في حياة الشيخ ماء العينين جعلت منه شخصية عظيمة بالجنوب المغربي في عصره، مما هيأ أسباب ظهور حركة ابنه الشيخ أحمد الهيبة ليقود مقاومة قبائل سوس والصحراء ضد الاستعمار الفرنسي مباشرة بعد توقيع معاهدة الحماية.

أسس حركة الشيخ أحمد الهيبة

يدل ما ورد في كتاب «المعسول» لمحمد المختار السوسي(16) على أن حركة أحمد الهيبة قامت على ثلاثة أسس:

1 ـ الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي في المغرب (الاساس الجهادي).

2 ـ محاولة ملء الفراغ السياسي في مغرب مطلع القرن العشرين (الأساس السياسي).

3 ـ التفاعل بين هذين الأساسين وبين ظروف الجنوب المغربي، خاصة في سوس والصحراء.

وقد انعقد أول مؤتمر من المستجيبين لدعوة الهيبة، وهم أفراد من بعض القبائل منهم من يعبر عن رأيه الخاص، ومنهم من يعبر عن رأي قبيلته، وبعد أخذ ورد انتهوا إلى أن مولاي أحمد الهيبة يكون مقدما للناس ان اتفق الناس وقاموا للجهاد(15).

وكان انعقاد هذا المؤتمر بمدينة تزنيت، وهو الأول من مؤتمرات ثلاثة انعقدت بالمدينة في نهاية ربيع 1912 الموافق لأواخر جمادى الثانية 1330هـ(16).

أما الأساس السياسي لهذه الحركة فيتجلى في النص الذي أورده محمد المختار السوسي(17) نقلا عن المؤرخ ابن الحبيب السكرادي، ويفيد أن بيعة الهيبة كانت بيعة إمارة، وكذلك في شعر الأديب الطاهر الافراني(18) الذي ترد في قصائده عن الهيبة عبارات ،مصطلحات لا تأتي إلا في تلك القصائد التي تلقى بين أيدي الخلفاء والأمراء.

وقد عين الهيبة عدد من القادة على القبائل ومنهم: القائد المدني على «الأخصاص» وأحمد بن الطالب على آيت عبلا(19) والقائد حيدة(20) وسمي (كبير المحلة)، والشيخ النعمة على تزنيت،(21)، وعمه علي بن الشيخ ماء العينين على تادلة(22).

كما عين عددا من القضاة ومنهم الفقهاء: علي بن عبد الله الالغي والحبيب السكرادي والعربي الادوزي والحسن بن عبد الرحمان الاكراري والحسن العنياني ومحمد أوعمو، وعلى رئاستهم الفقيه المحفوظ الأدوزي(23).

ويتجلى التفاعل بين الأساسين السابقين وبين ظروف منطقة سوس والصحراء في حجم القبائل التي انضمت إلى حركة المقاومة التي قادها الهيبة. فمنهما قبائل: آيت باعمران، والأخصاص وإفران ومجاط وولتيتة وجبال جزولة وأقا وأزغار،(24)

وإذاوزيكي وإداوتنان(25).

ومن الرؤساء والقواد: محمد بن عبد الرحمان رئيس قبيلة كسيمة،(26) والقائد أحمد سالم بن دحمان الأكلميمي،(27) ورؤساء رأس الوادي مثل الحسن التيوتي والقائد العربي الضرضوري(28).

وكذلك انضم إلى الحركة أصحاب الزوايا خاصة الزاوية الدرقاوية.(29)

ويمكن إجمال العوامل التي ساعدت على انضمام هذا الحجم من المشاركين في الحركة في العوامل الآتية:

1 ـ النعرة الوطنية والروح الدينية وكراهية الاستعمار(30).

2 ـ الرغبة في الانفلات من قبضة المخزن، حيث أثقل المخزن كاهل الأهالي بالضرائب المتصاعدة لتسديد الديون المتراكمة على خزينة الدولة من القروض الأجنبية(31).

3 ـ مبادرة الفقهاء والصوفية بالانضمام إلى الحركة، ومن هؤلاء الفقيه الحاج عابد البوشواري(32) الذي يقول عنه صاحب المعسول: «ولما كان له بين الهشتوكيين من عظم الحرمة وشفوف المنزلة لم يتخلف أحد منهم عن قبول ذلك»(33) والفقيه علي بن عبد الله الالغي، الذي «كانت له يد عليا في الاستحواذ على القلوب في كل مجمع بمواعظه المبكية وفصاحته المؤثرة حتى لا يتكلم في المجمع العام للقبائل سواه»(34).

4 ـ انتشار الطريقتين المالعينينية والدرقاوية في أوساط بعض القبائل فكثير من العلماء السباعيين(35) كانوا على طريقة الشيخ ماء العينين، وكانت قبيلة إداوزيكي تعظم الشيخ علي الدرقاوي وقد عين الهيبة ابنه محمدا رئيسا على تلك القبيلة(36).

مظاهر القوة في حركة المقاومة

وتتجلى في ثلاثة مظاهر:

1 ـ حماية الهيبة على مراكش: نجد في كتاب المعسول وصفا للاستعدادات لهذه الحملة في مثل قوله: «تموج خارج تزنيت بالمتواردين من القبائل حتى كأن الناس كلهم حشروا هنالك، فما شئت من خيل ورجال وفقراء وطوائف الطلبة

وأصحاب الألاعيب(37) وقوله: «خرج الشيخ أحمد الهيبة من تزنيت في شعبان ومعه كل من له مكانة بين السوسيين إلا بعض أناس قليلين»(38).

ونجد في المعسول وصفا للمراحل التي سارت فيها الحملة، والأماكن التي نزلت بها في طريقها إلى مراكش،(39) ومنها «أتبان (في ضواحي تزنيت) فوق وادي ماسة، اداو محمد بهشتوكة، الاثنين بأولاد التايمة، أمسكروض، أسيف ييج، كاديوين، انبنسيرين، إمين تانوت، أولاد ابن السباع، مزوضة، فروجة، تاصفصافت ثم مركش.

ومن عوامل نجاح الحملة:

1 - التموين والتنظيم: وهناك أمران أساسيان بهذا الصدد:

أولهما أن السنة كانت سنة خصب مما شجع الناس على التطوع لتموين الحملة.(40) وثانيهما مشاركة من سبقت لهم الخيرة في المعسكرات المخزنية مثل القائد حيدة بن ميس.(41)

2 - مواقف بعض القواد المخزنيين: فقد دفعت مجموعة من الأسباب القائد المتوكي إلى إعلان ولائه للهيبة ومنها:(42).

- شعوره بانفلات القبائل التي كان يحكمها من يده.
- شعوره بنقل التجمع السوسي المنضم حول قائد حركة المقاومة.
- رغبته في المحافظة على سمعته باعتباره شخصا يظهر بمظهر الصلاح.
- خوفه من سوء السمعة في الأوساط الاجتماعية، ومن سوء الذكر في التاريخ.

3 - وضعية مراكش قبيل دخول المقاومة إليها واتسمت هذه الوضعية بسمتين رئيسيتين هما:(43)

أ - الخلاف بين القواد المخزنيين في المدينة.

ب - الاستعداد النفسي عند أهالي المدينة لترحيب بحركة المقاومة.

4 - مواقف الهيبة في مراكش: من الأعمال التي قاوم بها أحمد الهيبة بعد دخوله مراكش: احتلاله بعض المباني المخزنية، وأسر بعض الفرنسيين، ومنهم

القنصل الفرنسي، والاستيلاء على بعض مستودعات التموين(44).

5 ـ الصدام المسلح بين المقاومين والقوات الفرنسية:

إلتقى المقاومون مع الجيش الفرنسي في معركتين هما: معركة أربعاء الصخور، ومعركة سيدي عثمان.

فقد خرج جيش كبير تحت قيادة الأغضف بن مصباح في اثني عشر مائة فارس(45) ووصل بعكرير أولا وتجاوزه إلى أربعاء الصخور(46) حيث اندحر(47).

وكان من المشاركين في هذا الجيش القائد الناجم وقد قتل كثير من المقاومين وفر الباقون(48).

وبعد هذا الانهزام توجهت حملة أخرى لملاقاة الجيش الفرنسي في «البحيرة» بين بنكرير وسيدي بوعثمان، وكان من المشاركين فيها كل القواد الراسلواديون ومنهم: القائد حيدة، والعربي الضرضوري، والقائد نصر بن التومي، والقائد علي بن منصور، والقائد أحمد بن مالك، والرئيس على الجميع هو حيدة، ومن المشاركين في الحملة المسفيويون والسباعيون والبرابيش من الرحامنة، أما الباقون من الرحامنة فقد ساعدوا الجيش الفرنسي وهاجموا المقاومين من الجانب(49) وقد بدأت هذه المعركة صباحا، وبعد الزوال ظهرت بوادر الهزيمة في صفوف المقاومين.(50)

ومن أهم عوامل هذه الهزيمة:

1 ـ موقف الدولة الحامية: أي موقف دولة قوية توغل نفوذها في المغرب ونجحت في كسب كثير من الأعوان والعملاء الذين يساعدونها في تحقيق مخططها وسياستها في إخضاع المغرب.

2ـ تصرفات بعض المقاومين في مراكش(51): وتتجلى فيما قاموا به من أعمال النهب، وتدل على انشغالهم بالمطامع المادية عن الأهداف الحقيقية لحركة المقاومة.

3 ـ استبداد الحجاب المقربين إلى الهيبة(52): مما أدى إلى استياء بعض المشاركين في الحملة ورجوعهم إلى مواطنهم.

4 ـ الاصطدام بالجو الحضري(53): وتفيد هنا مقولة ابن خلدون في أن البدو يفسد أمرهم إذا دخلوا الحضر

ورغم تعدد هذه العوامل يمكن القول: إن قوة الجيش الفرنسي ودهاء الادارة الاستعمارية في كسب المتعاونين معها هما العاملان الرئيسيان في فشل حركة الهيبة والمقاومين معه.

ويعطي محمد المختار السوسي بعض التفسيرات للهزيمة(54) ومنها

- إغفال القوة رغم حرارة الايمان عند المجاهدين.
- عدم وضوح الهدف والخطة عندهم.

وقد أورد قول الباشا منو - باشا مراكش في أحمد الهيبة: «الرجل فائض الايمان، غائض السياسة».

مرحلة التراجع في حركة المقاومة:

بعد الرجوع من مراكش استقر الشيخ أحمد الهيبة ومن بقي معه من رجاله في تارودانت، وتتسم هذه المرحلة من حركته بسمتين:

1 - استعمال السلطات الاستعمارية الأسلوب السلمي للصلح معه.

2 - استعمال أسلوب القوة والحرب بعد فشل الأسلوب الأول.

ويبدو أن من العوامل التي أعطت نفسا جديدا للحركة واستعدادا للمقاومين في هذه المرحلة:

1 - قتل الباشا (كابا) باشا تارودانت في عهد السلطان مولاي عبد الحفيظ، وكان من المنضمين إلى حركة الهيبة في الحملة على مراكش، ولكنه غير موقفه بعدما تلقى الأوامر من سلطات الحماية بمناوأة الهيبة.

2 - دور الشعراء في إلقاء القصائد التي ترفع من معنويات المقاومين وقائدهم.

3 - دور العلماء في تفسير معايير الهزيمة والنصر بشكل يطرد اليأس من النفوس، وتكلفهم بتثبيت معنويات المقاومين والحفاظ على مآلهم.

وعندما كان الهيبة في تارودانت هيأت السلطات الاستعمارية جيشا ضخما واتجه نحو تارودانت ولما نزل في تازمورت بضواحي المدينة هرب الهيبة من تارودانت إلى أسرسيف في آيت ميلك بهشتوكة، وتتميز هذه المرحلة بالأحداث الآتية:

1 - استمرار الحرب مع السلطات الاستعمارية ممثلة في القائدين حيدة ابن

ميس والقائد ابن دحان.

2 ـ احتلال أكادير من قبل سلطات الحماية.

3 ـ قتل المقاومين لفئة من القواد والعلماء الذين يوالون حكومة الحماية بعدما كان بعضهم في السابق من مناصري الهيبة.

4 ـ انضمام غالب قبائل هوارة وهشتوكة وكسيمة إلى الحكومة.

وبعد أسرسيف انتقل الهيبة إلى تيمكر ثم إلى كردوس، وخلال وجوده في كردوس وقع زحف استعماري على سوس، وكان ذلك في مرحلتين:

ـ المرحلة الأولى: بقيادة القائد حيدة بن ميس المنبهي.

ـ المرحلة الثانية: بقيادة جنرال فرنسي.

وقد أسفرت المرحلة الأولى عن قتل القائد (حيدة) مما دفع إلى رد فعل فرنسي تمثل في المرحلة الثانية التي تميزت بمشاركة القواد الكبار من مراكش إلى الجنوب الاكلاويون والمتوكيون والكنتافيون والحاحيون والراسلواديون، بالاضافة إلى 20.000 من القوات الحكومية المنظمة تحت قيادة فرنسية.

وزحف هذا الجيش على وجان بضواحي تزنيت، وواجهه البعقيليون وأهل وجان ومجاط، وقتل كثير من المقاومين، حوالي 80 من مجاط، ومثلها في الولتيتيين، ومن الجيش الاستعماري أزيد من 400 قتيل.

ورجع هذا الجيش إلى تزنيت كي يغير اتجاه زحفه نحو الجنوب، وبدأ التهامي الكلاوي التفاوض مع رجال الأخصاص ومجاط وأيت باعمران حول المدافع التي غنمتها القبائل يوم قتل حيدة، بدعوى أن الهدف من الحملة هو استرجاع هذه المدافع.

ولمالم يتوصل الجيش إلى نتيجة بأسلوب التفاوض زحف ليسترجع هذه المدافع بالقوة، فوقعت الحرب في (تيزي) بأيت باعمران، وسقط فيها من القتلى في رجال الهيبة حوالي 115.

واستقر الهيبة في كردوس وقد غادره بعض رجاله، ومنهم القائد (ارتما) الذي انضم إلى الحكومة وعينته قائدا على بعض هشتوكة، والقائد الناجم الذي استقر في

إفران مع القائد المدني.

وبقي الشيخ الهيبة في كردوس إلى وفاته سنة 1337هـ/ 1919م، وهو في الخامسة والأربعين من عمره.

وقد استمرت حركته سبع سنوات وأربعة أشهر والذي لا شك فيه أن لحركته هذه الفضل في تأخير احتلال الأطلس الصغير لمدة طويلة. وقد استمر أخوه (مربيه ربه) قائدا للمجاهدين ضد الاحتلال الفرنسي بعد وفاته، إلى أن جاء الاحتلال النهائي للأطلس الصغير وهرب (مربيه ربه) بخيله أمام قذائف الطائرات الفرنسية، وتسلل إلى أيت باعمران، حيث يتصاعد الدخول الاسباني آنذاك.

الهوامش

1ـ محمد الظريف : الحياة الأدبية في الزاوية المعينية من التأسيس إلى قيام المسيرة الخضراء ـ رسالة جامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا ـ كلية الآداب والعلوم الانسانية ـ الرباط ج1 ص: 30.

Encyclopédie de l'Islam (1983-1984) Tome (V) p: 896 وانظر تواريخ أخرى مخالفة نقلتها dette du Puigaudeau عن مراجع أجنبية في دراستها : "Une nouvelle généalogie de Cheikh Maï El Aïnin ü Mamï" **Hespéris Tamuda** (12) - 1971. p. 157.

3ـ ضبط لاسم بهذا الشكل في كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد ابن الأمين الشنقيطي ـ الطبعة الثانية 1958 ص: 365.

4ـ أنظر بعض هذه المؤلفات في دليل الرفاف على شمس الاتفاق للشيخ ماء العينين تحقيق الأستاذ البلعمشي أحمد يكن (مقدمة المحقق) نشر صندوق إحياء التراث الاسلامي ج 1 ص د إلى ح، وذكر منها (100)، وانظر الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة والرباط، تونس 1987 ص:564-569، وذكر منها (128) مؤلفا.

5ـ انظر محمد الظريف: الحياة الأدبية في الزاوية المعينية 55/54/1.

6ـ المرجع السابق 64/1.

7ـ الشيخ ماء العينين: نعت البدايات وتوصيف النهايات ـ ط دار الفكر ص: 11.

8ـ الشيخ ماء العينين: هداية من حار في أمر النصارى، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، ورقة 11 أ.

9ـ أنظر في الساقية الحمراء ووادي الذهب لمحمد الغربي ج 1 ص: 342 أنه كان يعتبر فيما بين 1888 و 1900 نائبا للمخزن، وانظر في المعسول 84/4 أنه كان يصدر عن تجلة عظيمة وإكرام لا نهاية له خصوصا في الدولة العزيزية أيام الوزير أحمد بن موسى. وانظر مبايعته للسلطان مولاي عبد الحفيظ في الوسط في تراجم أدباء شنقيط ص: 367.

10 ـ السيادة المغربية في الأقاليم الصحراوية من خلال الوثائق المخزنية ط البيضاء 1981 ج 1 ص: 138.

11 ـ المصدر السابق 84/1.

12 ـ المصدر السابق 182/1، وانظر وثائق أخرى في المصدر نفسه صص: 137, 170, 171, 189

13ـ انظر محمد الغربي: الساقية الحمراء ووادي الذهب 360/1 وما بعدها.

14 ـ انظر المعسول 105/4 - 116, 147/19, 162.

15ـ المعسول 105/4

16 ـ انظر كريدية إبراهيم، ثورة الهيبة من ماء العينين ص: 34 وما بعدها.

17 ـ المعسول 161/19 .

18 ـ انظر ترجمته في المعسول69/7-78 ، وهو من مواليد‡1284Á / 1865م بـلدة تانكرت بإفران الأطلس الصغير شملت رحلته العلمية بعد بلدته المدرسة الالفية ومدينة تارودانت ، ومارس التدريس في مدرستي تانكرت وبو مروان ، إنضم إلى الهيبة سنة 1912 وتوفي حوالي سنة 1955م / 1374هـ.

19 ـ المعسول 107/4 .

20ـ المعسول 125/4

21ـ المصدر نفسه 125/4

22ـ المصدر نفسه 143/12

23ـ المصدر نفسه 125/4

24ـ المصدر نفسه 108/4

25ـ المصدر نفسه 127/4

26ـ المصدر نفسه 160/4

27ـ المصدر نفسه 273/19

28ـ المصدر نفسه 121/4

29ـ انظر المصدر السابق 108/4 ,237/2

30ـ المصدر السابق 127/4

31ـ المصدر نفسه 127/4

32ـ هو عبد الرحمان بن عبد الله البوشواري (1270هـ-1350 م) (حوالي 1861م ـ 1931 م) درس العلوم الشرعية واللغوية في بعض مدارس البادية ثم في تارودانت واشغل بالتدريس في أيت فارس بأيت وادريم وافرا من قبيلة إيلالن وإيكونكا بهشتوكة ، وتنالت بأيت صواب . انظر ترجمته في المعسول 254/17

33ـ المعسول 106/4

34ـ المصدر نفسه 341/1

35ـ نسبة إلى قبيلة أولاد ابن السباع .

36ـ المصدر السابق 127/4

37ـ المصدر السابق 120/4

38ـ المصدر نفسه 238/2

39ـ انظر هذه المراحل في المصدر السابق 126/4, 127, 130, 131 .

40ـ انظر المصدر السابق 126/4

41ـ المصدر نفسه 126/4

42ـ انظر المصدر نفسه 128/4

43ـ انظر المصدر السابق ج 130/4, 132 - 134 ج 91/20 .

44ـ انظر المصدر نفسه 135/4, 137, 143, 145 .

45ـ المصدر نفسه 148/4

46ـ المصدر نفسه 173/4

47ـ المصدر نفسه 148/4

48ـ انظر المصدر نفسه 92/20

49ـ انظر المصدر نفسه 174/14

50ـ انظر المصدر نفسه 174/14

51ـ انظر نماذج من هذه التصرفات في المحصول 144/4 ,145و 91/20

52ـ انظر المصدر السابق 238/2 ,141/4, 149

53ـ انظر المصدر نفسه 142/4

54ـ انظر المصدر نفسه 149/4 ,151

المقاومة بالزوايا الرجراجية :
زاوية ابن حميدة نموذجا

محمد السعيدي الرجراجي
مدرسة تكوين المعلمين
- آسفي -

تقديم :

منذ أن ارتبطت بلادنا مع الشرق الاسلامي برباط الدين الاسلامي وهي تكافح كغيرها من الأقطار الاسلامية في سبيل عزة دينها وتقوية شخصيتها، وبلورة انتمائها وإيجاد مكان مشرف لها تحت الشمس.

ورجراجة التي هي إحدى القبائل المغربية البربرية القديمة كان لها فضل السبق إلى الاسلام حيث وفد منها سبعة رجال على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمهم بلغتهم ودعا لهم ورجعوا لبلادهم ينشرون دعوة الله ويجاهدون في سبيله.

ولقد كانت لهم مواقف مشرفة إما ضد البرغواطيين الذين كان مدهم كاسحا وإما مع غيرهم من الوثنيين والضالين، والمصادر تحفظ لنا أسماء الصحابة الرجراجيين الذين كانوا يتقدمون الصفوف كالسادة : واسمين ويعلى بن مصلين

وسعيد السابق وأخيه عيسى بوخابية... بل إن كل واحد من هؤلاء كان له دور يؤديه إضافة إلى الجهاد، فمنهم من كان مستشارا للجموع ومنهم من كان مشرفا على صيغ ثياب المجاهدين ومنهم من كلف بضرب الطبل الذي بقي معلقا بضريح شاكر ابن يعلى إلى القرن السادس(1).

دور الزوايا الرجراجية :

ودور الزوايا الرجراجية دور غني جدا من الناحية الجهادية والعلمية والصوفية، ومتنوع كذلك، وهذا مرده لأسباب منها :

أ ـ تعدد الزوايا، ففي المغرب من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلى الغرب زوايا رجراجية منتشرة خاصة في إقليمي الصويرة وأسفي حيث معقل الرجراجيين الأوائل ومساقط رؤوسهم، وحيث أن مواسمهم التي تدوم قرابة ستة أسابيع متصلة تقام بهذين الاقليمين.

ب ـ تعدد النماذج الانسانية بها من علماء ومجاهدين وصوفية وقضاة وعدول ووزراء وأهل البر والاحسان بعامة، ففي كل زاوية مدرسة قرآنية وأخرى علمية لصالح النشئ وترقية الانسان.

ج ـ تعدد الظروف المحيطة بها :

فكم تعرض الرجراجيون للضرر والتقتيل والتشريد ويقال إن خزار المغراوي قتل من رؤسائهم في يوم واحد ثلاثين فردا؛ وابن خزار معروف أمره على عهد الدولة الادريسية؛ هذه الظروف جعلتهم دوما متحفزين للجهاد ومتقدمين للصفوف ورافعين أصواتهم بذكر الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يتأخر الرجراجيون أبدا في الدفاع عن حوزة الوطن كلما كان مهددا من الخارج حتى إنهم يقولون : إن النقاب على الساحل الأطلسي من الصحراء إلى طنجة أغلبها قباب رجراجية.

رجراجة والأسر الحاكمة:

ولعل دورهم الاسلامي الجهادي هو الذي نأى بهم عن خوض غمار السياسة ومشاكلها ومؤامراتها وبالتالي صراعاتها التي كثيرا ما أدت ببعض الزوايا إلى محاربة المتولين أو إقلاق راحاتهم على الأقل، وليس صدفة أن نجد العديد من الزوايا تتعرض للامتحان سواء على العهد السعدي أو العلوي وتبقى الزوايا الرجراجية بمنأى عن ذلك بل بمناجاة منه، بل كانت علاقات الرجراجيين دوما مع السلطات القائمة علاقات تواز وتقدير وتكليف لفض المشاكل وحل النزاعات.

وهذا ليس معناه أن الجو كان دائما صافيا لا غيوم فيه، ففي قصة الامام عبد الله المليجي الشوشاوي الرجراجي مع علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني بعد حرق كتاب: «الاحياء» للامام الغزالي؛(2) وكذلك العالم عمر بن محمد الرجراجي الفاسي مؤلف كتاب «هداية من تولى غير الرب والمولى» مع أبي سعيد المريني، ما يدل على أن الفقهاء الرجراجيين كانوا يشدون النكير على الحاكم ولا يتأخرون في الصدع بآرائهم والجهر بها(3).

هذا مع أن للمرينيين دورا هاما في جمع شتات الرجراجيين بعد المحن التي لحقت بهم فكانت علاقاتهم وإياهم جد ممتازة، وحسب علمنا فان أقدم ظهير عند رجراجة يرجع لأبي الحسن المريني ويوجد مع وثائق زاوية سيدي سعيد السابق.

ولا عجب فرجراجة أول من بايع المرينيين كما ورد بالحلل الموشية إذ يقول صاحبها: «وكان أول من بايعه من أهل المغرب - يعني أبا سعيد عثمانا - هوارة ورجراجة ثم تسول مكناس ثم بطوية ثم قشتالة ثم سوارتة ثم بهلولة وميدونة.. هؤلاء هم السابقون لبيعته فوضع عليهم الخراج وكان ذلك سنة أربع عشرة وستمائة»(4).

والرجراجيون كانوا من أول يوم مسؤولين عن الدولة السعدية، فان عبد الله

القائم السعدي وولده أبا العباس الأعرج نزلا ببلادهم بأفوغال بالدرى(5) وظلا يقاتلان العدو البرتغالي بمن معهما من رجال حاحة ورجراجة إلى أن استشهد الوالد سنة 923هـ/1517م ليخلفون الولد الذي فتح حصن فونتي بحاحا بعدما بقي به البرتغال اثنتين وسبعين سنة كما قضى على أوكار البرتغال في تالمست وأسفي وغيرهما بين سنتي 928هـ/1591م و 929هـ/1592م قبل أن تصله بيعة الهنتاتيين بمراكش ليدخلها سنة 930هـ/1523م.

وقبل السعديين ومنذ تسلم الوطاسيون القمة وبدأت الشواطئ تسقط تباعا أدرك الرجراجيون ما يحاك لدولة الاسلام بالمغرب فهبوا مع من هب من إخوانهم المواطنين للقيام بالواجب وطرد المغير، هذا العمل الذي لم ير فيه مؤلف (الحضارات الافريقية) سوى عملا عنصريا وغير حميد إذ كتب: «ولكن المغرب زاغت عن صوابها عندما أبعدت الاسبان والبرتغال في أواخر القرن السادس عشر، فانغرس فيها الحقد الديني كما انغرس من قبل على سواحل الجزائر وتونس بين أهلها والأتراك، فانقطعت الصلة وأصبح البحر المتوسط جحيما(6).

الرجراجيون والعركة الوطنية:

وقبيل سقوط بلادنا تحت النير الأجنبي وبعد سقوطها ذاق الرجراجيون في زواياهم ما ذاقه أهل المغرب أجمعين من تعسف وضغط وهتك للحرمات وعذابات أليمة سواء من طرف الاستعماريين مباشرة أو من طرف زبانيتهم القواد الذين فتح لهم الاستعمار شهية التسلط فبغوا واستبدوا واستكبدوا وقتلوا واقترفوا... وهناك مآس كثيرة ارتكبت ضد صلحاء وعلماء ومرابطين خاصة في الزوايا التي كانت لها نجدة وكلمة وسمعة.

ودخل الرجراجيون فيما دخل فيه إخوانهم المغاربة حيت رأت الحركة الوطنية ـ وبعد هزيمة البطل الخطابي والقضاء على ثورة الأطلس ـ ان الأمر يحتاج إلى المقاومة

السياسية والاقبال على التعليم وإنهاض الشعب ومحاربة البدع والتدجل، ومقارعة الاستعمار عن طريق الوعي والايمان بالعلم وبذل كل شيء في سبيله والحكم بما أنزل الله ولو سلطة الرقيب باسطة نفوذها انطلاقا من أن الأحكام الشرعية لا سلطة للادارة عليها.

وحينما قدمت عريضة الاستقلال كان الرجراجيون ممثلين، إذ كان للسيد عبد اله ابن محمد الرباطي الرجراجي ـ قيم الخزانة العامة ـ شرف التوقيع مع الأبطال الذين وقعوها، وكان هناك آخرون ذاقوا السجون والمنافي وأوذوا في النفوس والأهل والمتاع.

الزوايا الرجراجية ونفي محمد الخامس:

وما أن نفي محمد الخامس رز المشروعية رحمه الله وعائلته الكريمة حتى أصاب الرجراجيين ما أصاب غيرهم، لكنهم لم يبقوا مكتوفي الأيدي، ولم يسترسلوا في النواح والعويل وإنما فعلوا ما فعل الشعب وما فعله معروف، إلا أنه ومن الانصاف أن نتعرض لبعض الحالات الفدائية التي وقعت في الاقليم والتي تدل على أن مواطنيه لم ينسوا قضية شعبهم الكبرى، ولا ملكهم المجاهد ولا استقلال بلادهم، ولم ينكصوا أو يخافوا جبابرة الاستعمار وذيوله وسواء كانوا داخل الاقليم أم خارجه فقد ساروا في درب النضال كبقية المغاربة.

ولعل بعض المعلومات عن بعض الأشخاص والحوادث التي وقعت في الاقليم تعطينا نظرة عن النشاط الوطني والفدائي داخل هذا الاقليم.

نوع العمليات(7):

ـ30 يناير 1955 بموكادور ـ الصويرة: الثامنة ليلا تلقى باشا المدينة رصاصتين من شخص مجهول عندما كان ذاهبا إلى منزله، وأصيب بجروح متفاوتة الخطورة في كتفيه وفخذه، ومع ذلك فقد استطاع الباشا مطاردة الشخص المجهول، مما أدى

بالفدائي إلى مواصلة إطلاق النار من فوهة مسدسه فجرح جرحا بليغا مغربيان وأوروبيان، وألقت الشرطة القبض على الفدائي(8).

- 11 غشت 1955 على بعد 20 كلم من الصويرة، أضرمت النار في مزرعة فرنسية يملكها معمر فرنسي يدعى فوساط كوميز، فاحترقت كمية هائلة من التبن(9).

-30 شتنبر 1955 بينما كان أحد الأوروبيين قرب دار العسكر بطريق الصويرة هاجمه أشخاص مجهولون وطعنوه بآلة حادة ولاذوابالفرار(10).

الإسم	نوع العملية	إسم التنظيم
أبو زية محمد بن مبارك	توزيع المناشير	الحسنية. عدد الأفراد 36
بوفوس الحسين	قتل يهودي بالصويرة	اليد الحمراء. عدد الأفراد 05
بركة أحمد بن علال	حرق سبع سيارات	الهلال الاسود. عدد الافراد 11
الشيخ محمد	حرق سبع سيارات	الهلال الاسود. عدد الافراد 11
بارزي الحسين	نقل المقاومين بالشاحنات	اليد السوداء. عدد الافراد 6
رباح أحمد بن المحفوظ	نقل الأسلحة والمناشير من تزنيت للصويرة	جيش الاطلس
اركيزة محمد بن علال	اغتيال فرنسي (دوار آيت امبارك)	جيش الأطلس 7
السعيدي الحاج احمد	إفلات مقاوم من الاعتقال بالصويرة	جيش الأطلس 7
احرضيض محمد	محاولة اغتيال باشا الصويرة	جيش الأطلس 5
باجنون محمد بن العربي	إطلاق الرصال على باشا المدينة حكم عليه بالإعدام لكنه لم ينفذ (12)	السرية جيش الأطلس 5
المكي الرجراجي بن عبد الله	سلم أسلحة إلى المسؤولين بجمعة	
السعيدي الرجراجي	سحيم(13) مع الاشتراك في قتل أحد الخونة وكذلك في بعض الاتلافات	

بعض المقاومين(13)

بيانات حول المقاومين(14)

بالنسبة لهؤلاء المقاومين يتبين أنهم من مختلف الشرائح الاجتماعية بحيث يشغل ذوو المهن الحرة حيزا كبيرا فيليهم الفلاحون ثم البحارة والعمال.

أما بالنسبة للأعمار فهم ما بين 18 سنة و57 سنة.

أما بالنسبة للمستوى الثقافي فان الذين قرأوا في الكتاب نسبة كبيرة والذين لا يقرأون نسبة متوسطة، ثم الابتدائي أقل من المتوسط أما الثانوي والعالي فشخص واحد محصل على العالمية بكلية ابن يوسف بمراكش(15).

ورغم أن أصول هؤلاء المقاومين الذين ذكروا والذين لم يذكروا قد تكون من الرجراجيين داخل المد الجغرافي في الاقليم أو خارجه أو تكون من أناس آخرين من حاحة أو من مناطق أخرى فالمهم أن الناحية لم تكن مستقرة ولا نائمة.

زاوية ابن حميدة

هذه الزاوية القائمة على ربوة والمشرفة على سفح جميل مغروس في الطريق الذاهب من آسفي إلى الصويرة والتي تبعد عن الأخيرة بما يناهز خمسين كلم، أسسها الصوفي الكبير الشيخ امحمد بن حميدة بن سعيد السعيدي الرجراجي.. الذي كان صديقا للشيخ محمد بن ناصر الدرعي، وقد عايش هذا الصوفي المولى إسماعيل رحمه الله الذي أنعم عليه بظهائر

وقد لعبت هذه الزاوية دورها الصوفي العلمي والانساني والسياسي، وبسبب هذا الأخير وقعت في مشاكل كثيرة إن لم نقل مآسي متعددة أخليت من جرائها لمدد مختلفة.

أولى هذه المآسي كانت أيام الخصومة التي نشبت بين اولاد سيدي محمد بن عبد الله على الملك ويظهر أن الزاوية كان هواها مع المولى يزيد، وبما أن القائد عبد

الرحمان بن ناصر الذي كان يحكم من آسفي إلى الصويرة. وكان في جانب المولى الحسين فقد خرب الزاوية رغم هزيمته بها

ثانية هذه المآسي كانت على يد القائد بوجمعة التلاوي الذي ثارت عليه القبيلة وكان من زعماء الثوار واحد من أبناء الزاوية فتعرضت للتخريب وتفرق أهلها خمس سنوات كاملة من سنة 1272هـ إلى سنة 1276هـ.

ثالثة مآسيها ـ وإن سلمت في الناحية البشرية على الأقل ـ فقد كانت أيام أزمة المغرب على عهد المولى عبد العزيز، حيث الفرنسيون يتشوقون إلى احتلال البلاد وحيث الملك المجاهد المولى عبد الحفيظ يرسي أسس دولته بمراكش، وكانت الزاوية في جانبه، فجاءت جيوش القائد الحاجي وجيوش القائد البشير السناح، وحوصرت الزاوية التي انتقلت إليها كل القبائل المحيطة بها ولكن الأزمة انفرجت. ورأى أن ذلك كان بتدبير من القائد الحاجي الذي كان يضمر ودا صادقا للزاوية كما تشهد بذلك المراسلات والعلاقات التي ما تزال متينة بين بعض سكانها والأسرة الحاجية.

ولم ينس هذا الموقف للزاوية في ذلك ككل الجنوب، فبمجرد أن أعلنت الحماية، كان من جملة التدابير التي اتخذها الفرنسيون في هذه الناحية انتزاعهم زاويتي إبن حميدة واكرات من نفوذ القائد الحاجي وإضافتهما إلى القائد الحاج لحسن خبان والغاية من ذلك مزدوجة

أ ـ معاقبة القائد الحاجي بإخراج أهم جوهرتين لديه لأنه جمع الجموع في شيشت ضد القوات الفرنسية(16).

ب ـ معاقبة الزاويتين وجعلهما تحت تسلط قائد معروف أمره كأكثر قواد وقته. مقاومة الاستعمار الفرنسي.

سبقت الاشارة إلى دور الزاوية ونفوذها الذي جلب لها محنا ومشاكل،

ونشير ثانية إلى أنها ذاقت من ويلات المستبد الفرنسي سواء عينا أو بواسطة الزبانية القواد ما تقشعر له الأبدان؛ وذنبها ان بعض رؤسائها كانوا متفتحين على المحيط الخارجي للزاوية، إذ كانت لهم علاقات مع كثير من الفقهاء والرؤساء والوجهاء والسياسيين والقضاة خاصة في نواحي الشاوية والبيضاء ومراكش والرباط وسلا وفاس وأسفي وعبدة، كما أن علاقاتهم مع القيادتين القريبتين من الزاوية وهما الاكريمية والحاجية أضافت كثيرا من البنزين إلى النار.

وكانوا على رأس من اكتوى بالنار الشديدة أكثر من أبناء عمومته وخؤولته الفقيه عبد الله بن محمد المقدم الرجراجي السعيدي.

فقد أدرك هيا الرجل ما يحاك ضد بلاده وعرشها وذلك لوعي متقدم لديه الشيء الذي جعله يدمن على قراءة الصحف التي كانت تصدرها الكتلة الوطنية كجريدة «الأطلس».

واستمر حقد المستعمرين وأذبانهم عليه يوم رفض التعامل مع إبادة الحماية حيث سبق له أن قبل وظيفة شيخ حيث سبق له أن قبل وظيفة شيخ بنصيحة من صديقه القائد أحمد الحاجي ليبعد عنه الشبه والتهم، ولكنه سرعان ما أدرك أن الوظيفة شيء وما يعتمل في نفسه شيء آخر فقدم استقالته(17) الشيء الذي ألب عليه قوى البغي فنفي إلى ضيعته بعيدة حيث بقي بها اثنتي عشرة سنة ابتداء من أبريل سنة 1945

وحياة هذا الرجل وأسرته مرت في مرحلتين رئيسيتين بعد النفي

1 - ففي الأول ظل يكافح في عدة واجهات إذ أثقلوا كاهله بضرائب لا قبل له بها وبإتاوات عجزت عنها محصولاته السنوية فاضطر للأخذ من هناك لتلبية رغبات المستعمر وفي هذا الظرف بعث أبناءه للدراسة بمراكش كما بعث واحد منهم عند الشهيد الزرقطوني للدراسة عنده وسيشارك لذلك لاحقا.

وطوال ثمان سنوات بقي مترصد العمل الوطني متتبعا مواقف صاحب الجلالة المرحوم محمد الخامس، بل إنه شرع في الكفاح عن طريق الشعر والنثر والخطب كلما حلت فرصة وطنية أو دينية كالمولد النبوي أو عيد العرش بل إنه أيضا كان يجمع العديد من الذين يرى فيهم قابلية للفهم والادراك فيشرح لهم كلمات الافتتاح للجرائد الوطنية ساعتها وقد يكون من المفيد الاتيان بفقرات كنماذج من بعض خطبه

قال حينما ذهب الملك في رحلة لطنجة سنة 1947 « ... مولاي وقوفك بطنجة، وخطبتك الشريفة بجمعتها، ودعاؤك لسلوك الاسلام زاد العروبة جرأة وإقداما لشعبكم ما ناهز الستين، ألا وهو يوم كان واقفا فيها جدكم الهمام، أبو النهضة وأبو الاصلاح وأمامه المخلصون من رعيته المتفانون في خدمته، على الأبراج ومواقعها التي كانت أقصى ما وصلت إليه يد الانسان في حينها، وتمثل لنا أيضا اليوم الذي طرقها الجبل الراسي جدكم الصنديد المغوار سيدنا إسماعيل قدس الله روحه، وزادنا طربا وتيها أن هذه البلدة صار الكل يدعي أنه بعلها وهي صليلته حتى برقت أعلامكم ذات الهلال الأخضر، فعند ذاك ذهبت أرجاس الشياطين وطار السكر ومضت الأحلام، والآن لله الحمد رجعت المياه لمجاريها، والعروس لمن هو أحق بها، ولا ينبئك مثل خبير

مولاي خطبتك في عشر أبريل، أحدثت في المعمور تبديل، وخشي منها الحقير والجليل، وتخططت الكنانة، ووصلت إلى دلهي واستشير عليها في القوقاز، ولا سيما حيث وصلت جبل طارق ووقفت على المجاز، فعند ذاك أذعن أقطاب السياسة الديمقراطيين وقالوا هذا الزعيم فاز

» مولاي قسما بوجهك يا سليل الرسول، لا يلحقك من الشجاعة والمهارة أتاتورك ولا زغلول وأين إسماعيل وسليم المرادخان، والأيوبي وصاحب الأراك

والزلاقة والمريني والحسن كان الجميع خلفهم الفيالق من الشجعان، وأنت وحدك يا عنترة الزمان.

إنني وأنا عبد الله مقدم رجراجة نزيل عبدة مؤقتا من رعاياك المخلصين، فلتقبل مني هذه الهدية يا نعم الملك الشريف ولو كنت ضعيف سائلا من الله أن يغمس سيدنا في ظله الوريف... وولدك وولي عهدك الضرغام، الأمير مولاي الحسن الهمام، من أيقظ شباب المغب في نصف عام، لهو أحق أن يقعد له ويقام، فلقد رأيت شهامته وأنت على كرسيك يا إمام.

وقال في خطبه سنة 1949 بمناسبة عيد العرش

خرج أعزه الله ـ يقصد الملك ـ والعناية تكلأه، كأنه طبيب جراحي مشمرا عن ساعديه ولم يبال فخفخة الملوك في أعيادها، وتكلم في خطابه الموجز البليغ بما أشى يوسفا وعلميا سليله، والمولى إسماعيل والمولى امحمد حفيده، ولم يرض بانحطاط شعبه بين الشعوب، وبين لهم ما تحمله من المشاق في السنة الماضية من إعانة المنكوبين، والتفريج على المعتقلين، وبناء المدارس وغير وغير؛ وأنى واشتكى من الخمول في أمور المياه والكهرباء والبريد، والفلاحة على الطرق العتيدة، فليست همة أتاتورك ومارك وجندارك، تساوي حبة من خردل في جنب أطنان همته، فهؤلاء الزعماء أرباب العقول، غايتهم اتعاب أفكارهم، في مصالح أوطانه وعاهلنا هذا أتعب فكره وأعطى موجوده الخاص بمصالحه الضرورية في مصالح شعبه ولا معين له إلا الله وهمته القعساء التي لا ترضى بالدون، ولم يدخر شيئا ينهض شعبه إلا فعله اقتداء بجده السلطان العظيم الشأن سيدنا ومولانا الحسن...»(19).

وكلام مثل هذا في تلك الظروف معروفة نتائجه، وليكون أكثر احتكاكا ندب ولده المكي ليكون صلة بينه وين رجال الحركة الوطنية، ولقد زاره الأستاذان

محمد اليزيدي والمهدي بنبركة في بداية الاستقلال، بل إن المرحوم الأستاذ علال الفاسي كان يعده واحدا من أصدقائه، وعلال هو الذي قال في حقه في تجمع جماهيري بتالمست سنة 1956 أثناء رحلة له لتلك الناحية «لا يوجد في هذه الناحية من مخلص سوى الزرقطوني وهذا الشيخ الوقور»(20).

نعم إن الزرقطوني ابن لهذه الناحية وضريح جده «مولاي بوزرقطون» لا يبعد عن زاوية ابن حميدة الا بنحو ثلاثين كلم، ويقصده الرجراجيون أثناء مواسمهم مرتين أثناء ذهابهم للصويرة وحالتما رجوعهم ولذلك يعرف في الناحية ب «مولى دورين».

أما بعد النفي، فقد تغيرت الصورة لديه وأظلمت الدنيا في عينيه، وكلماته وخطبه في هذه الفترة تذيب الحجر الصلد، بل إنه ألف تأليفين بدأهما ليتممهما بعد الاستقلال الأول سماه «سلم القاصدين إلى حضرة أشرف المرسلين» أتى فيه بصلات ترسيلية ليلطف بالعاهل المنفي وعائلته الكريمة والشعب المغربي.

والثاني سماه «مرآة الدسائس في المحنة النازلة بنا وأزالها الله بواسطة عبده محمد الخامس»(21).

وقد استبد به إبان النفي استبدادا فاحشا ومنع من أملاكه التي كان المرحوم محمد الخامس سببا في ردها عليه بواسطة قاضي آسفي السيد محمد بن قدور العبادي، بل منع حتى من منزله والباقي منه هدموه ليلا ونهارا

وهناك محطات رئيسية في هذا الموضوع

أ - إصراره رغم كل شيء على متابعة الكتابات الوطنية، ولولا خوف التطويل لأتينا بنماذج لخطب أخرى(22).

ب - متابعته لشد أزر الوطنيين والمكافحين سواء داخل الاقليم أو خارجه، ومعروف عنه أنه كان من الممدين للزرقطوني الشهيد بالمواد الضرورية في حياته،

خاصة وأن المرحوم الشهيد كانت له مصاهرة مع الزاوية اذ هو متزوج بإحدى كريماتها وأولاده منها ما يزالون يعيشون.

ج ـ مؤامرة ضد ولده عبد الحي الطالب بجامعة ابن يوسف بمراكش، وكانت داره وكرا وطنيا متقدما عرفه كل الذين كانوا فدائيين فيما بعد؛ تؤومر على الولد ظلما وافتياتا ليحكم عليه بثلاثة شهور سجنا بالصويرة، وكان دقيق العود لا يتحمل برودة ولا مهانات السجن فعاش والده الشيخ محنة قاسية وبذل في ذلك الجهد الجهيد إذ فرج الله كربته.

د ـ سجن ولده المكي بجمعة سحيم من أجل وشاية من أحدهم ومؤامرة دبرت حيث ادعي عليه بأنه أطلق الرصاصة ليلا من سلاح أوتوماتيكي.

وقد أدت هذه الوشاية إلى تفتيش المنزل بواسطة رجال الأمن، وعديد من المخبرين الذين مات آخرهم بمدينة آسفي منذ مدة قليلة بل فتشت حتى المطامير ولولا لطف الله لافتضح الأمر، فان العديد من الوثائق الهامة: جرائد ومنشورات خطب وطنية كتب ـ دراسات ـ صور الملك وعائلته كل ذلك وضع في مطمورة قريبة من تلك التي فتشت ولكنه الله سلم(23).

وفعلا كان الشاب المكي فدائيا سواء حينما كان في الرباط وقد سكن بمسجد السنة في إحدى حوانيته بمساعدة من الكاتب الخاص ساعتها لجلالة الملك السيد أحمد بن مسعود، أو حينما كان في البيضاء أو حينما كان بجمعة سحيم وقد سلم أسلحة للقائمين بالفداء، أو بالشياظمة حينما قام بأعمال تخريبية حسبما تشهد بذلك الوثائق(24).

هـ ـ اخباء المقاوم محمد الزرقطوني عنده أياما وليالي ذوات العدد فقد اختبأ بداره بضيعته التي نفي بها قرب جمعة سحيم ـ والمستعمرون يبحثون عنه، أسبوعين كاملين.

ولما توجس خيفة من افتضاح أمره خاصة وأن المقاوم كان يلح على أشياء كان يراها ضرورية كالجرائد العربية والفرنسية وبما أن الشيخ عبد الله كان لا يعرف لغة أجنبية ثانية وبما أن أولاده بمراكش للدراسة، فلم شراء الجرائد الأجنبية واعتقد أنه بإشارة من أحد أصدقائه الذين كانوا بالادارة ولكنهم مخلصونأدرك أن الشكوك تحوم حوله فبادر بإرسال المقاوم الشهيد عند ابنه عبد الحي الطالب بابن يوسف كما سبق، وهناك بالمنزل رقم 6 بدرب الشرفاء الكبير بالمواسين اختبأ طيلة شهر كامل، وكاتب الحروف هو الذي كان يبعثه اخوه ليشترى جريدتي «السعادة» و«المغربي الصغير le petit marocain» والأزمة في عزتها خلال شهري مارس وأبريل من سنة 1954

والزرقطوني كما سبق كانت له حظوة بدارنا فقبل أن يكون مقاوما كان هو ووالده من أحباب الوالد وثقاته، بل إنه بعث للدراسة عند ولده ومن ثم تكونت الخلية في التقدير الذي حظي به عنده، فقد حكى الأخ عبد الحميد للوالد الشيء الكثير عن الشهيد وأخبره عن المناشير التي حملها من هنا لهنالك، أو وصلها لهذا وذاك، والأخ لم يدرك الغاية مما يفعل فقد أدركها الوالد وكبر في عينه الرجل الذي شغل الناس بعدئذ.

و ـ وفي هذا الاطار تدخل تلك الحرب العوان التي مورست ضده إذ حرموه حتى من المساعدات التي كانت تقدم للفلاحين الكبار لا لشيء إلا لما سبق.

ومن ضمن الذين تنبغي الاشارة اليهم بزاوية ابن حميدة :

1 ـ السيدة ربيعة بنت المكي بن احمد وقد كانت يدا يمنى وقوية للشهيد الزرقطوني ولا عجب فزوجته ابنة اختها، فكم تحملت هذه السيدة وكم ذاقت من مهانات وكم من أعمال جليلة قامت بها مما يجعلها في سجل الخالدات لما قدمته للقضية المقدسة.

2 ـ السيد عبدان ابن الطاهر بن العياشي وهو ولد السيدة ربيعة المذكورة وقد كان شابا نشيطا وفدائيا مقداما، تعاون مع زوج ابن خالته الشهيد، وكان له عونا ومساعدا، وقد طاردته ذات ليلة إحدى الدوريات وأشبعته ضربا ولكما على رأسه فانفلت منها ليفر ويختبئ في مكان عبارة عن حفرة مليئة بالدم من جراء ما يذبحه الجزارون سريا وعاش في ارتجاج دائم في العقل، ولم يستفد بنفسه منذ ذلك الوقت؛ ولم يستفد شيئا كما لم يستفد كل الذين ذكرنا شيئا ماديا، وإنما استفادوا راحة الضمير والحرية والاستقلال، وتلك استفادة أهم من كل شيء.

وبعد فهذه عجالة جد مختصرة وقد تسعف الظروف لتناول أوسع بحول الله.

الهوامش

1 - انظر ما كتبه الشيخ عبد الحي الكتاني في كتابه : شاكرين يعلى نقلا عن البكري في المسالك والممالك.
2 - التشوف إلى رجال التصوف للتادلي.
3 - السيف المسلول لعبد الله بن محمد السعدي الرجراجي.
4 - الحلل الموشية ص : 130.
5 - قرية في الطريق السيار بين البيضاء والصويرة وتبعد عن الأخيرة بحوالي ثلاثين كلم.
6 - الحضارات الافريقية لدنيزيولم ص : 67.
7 - مجلة المقاومة وجيش التحرير - الوثائق الرسمية عن المندوبية السامية سلسلة أحداث ملحمة الاستقلال.
8 - جريدة السعادة «ماروك بريس» لوبتي ماروماں.
9 - ماروك بريس / الأمة.
10 - السعادة - لوبتي ماروكان.
11 - مجلة المقاومة وجيش التحرير - الوثائق الرسمية عن المندوبية السامية - سلسلة أحداث ملحمة الاستقلال.
12 - تاريخ الانخراط في المقاومة - 1944 بحزب الاستقلال تم انخراطه بواسطة السيد المذكوري في المنظمة السرية مقرها الرئيسي بالبيضاء المؤسس لها محمد الزرقطوني مقر الاجتماعات في المنزل - أطلق الرصاص على الباشا وحرمه - أصيب كذلك بجروح سائقه الفرنسي رئيس المصلحة الكهربائية وقد تحدثت الجرائد عن هذه الحادثة وأصدرت المحكمة العسكرية بمراكش حكما غيابيا بالاعدام.
13 - المكي بن عبد الله السعيدي من زأولاد زاوية ابن حميدة وقد تعرض للنفي مع والده حينما استبد به بطش المستعمر، ويستشار إليه بأكثر من هذا حالتما نتحدث عن زاوية إبن حميدة.
14 - مجلة المقاومة وجيش التحرير - الوثائق الرسمية عن المندوبية السامية - سلسلة أحداث ملحمة الاستقلال
15 - يوجه الشكر بالنسبة لهذه المعلومات للمندوبية السامية للمقاومين بآسفي خاصة الأستاذين السيدين المندوب الاقليمي مصطفى مؤقت وعبد الرحيم بودرة.
16 - انظر السيف المسلول لعبد الله بن محمد بن البشير السعيدي الرجراجي، فالرسالة منشورة كلها هناك.
17 - انظر الصورة ونفس المرجع.
18 - انظر نصها الكامل في كتابنا تواريخ مشرفة من حياة الملك والشعب.
19 - انظر نفس المرجع السابق.
20 - يرجع إلى كتابنا نظرات في حياة الفقيد الشيخ عبد الله السعدي الرجراجي خاصة في الفصل المعنوي - ب - وطنياته مخطوط.
21 - نفس المرجع.
22 - انظر كتابنا تواريخ مشرفة في حياة الملك والشعب.
23 - انظر كتابنا نظرات في حياة الفقيه الشيخ عبد اللهالسعدي الرجراجي.
24 - انظر الوثائق المصاحبة.

شهادات أعضاء جيش التحرير
ألقيت على هامش الندوة

عرض عام عن أحداث جيش التحرير بصحراء المغرب

الرائد إدريس بن بوبكر البويري

إنه لشرف عظيم أن أتناول الكلمة أمامكم في جمعكم المحترم في هذا الظرف التاريخي باسم إخواني المسؤولين عن جيش التحرير وقواده وضباطه وجنوده سواء منهم الحاضرون أو الغائبون، وسنعيش بهذه الكلمة جميعا أحداثا تاريخية وبطولات مجيدة صامدة، مبرزين إلى الوجود من جديد تاريخ جيش التحرير بصحراء المغرب، وقد مضى على ذلك ما يقرب من عشرين سنة. ويصادف إلقائي لهده الكلمة في هذه الأيام ذكرى أعز الذكريات وأعظمها وأخلدها ذكرى المسيرة الخضراء التي قادها بطل التحرير والوحدة جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله ورعاه.

فالسنوات الطويلة التي مضت منذ نهاية مهمة الجيش في بداية سنة 1960 مع ما تحمله من تقلبات وتمخضات وأحداث جسام وما تحمله من أعباء ثقيلة، لم تجعل صاحب الجلالة بالغافل عن الثلة التي ساهمت في تحقيق الاستقلال والحرية من قدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، فحباهم بعطفه وعنايته وعمل على تطهير صفوفهم وجمع كلمتهم ولم شملهم، وما هذا الجمع المبارك إلا إحدى فضائل ذلك العطف وتلك العناية، فقد قال الملك الجليل في

خطابه الافتتاحي للمؤتمر التأسيسي لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير يوم 26 مارس 1973

كم يسرنا وكم نحن متأثرون جدا أن نرى ثلة من قدماء المقاومين وقدماء جيش التحرير مجموعة على صعيد واحد، مؤلفة قلوبها، متماسكة أيديها حول مصلحة البلاد وحول مصالح الموظفين، وبفعلكم هذا قد ربطتم ماضيكم المجيد المعطر بالملاحم بحاضرنا هذا وخططتم لمستقبلنا ومستقبل أبنائنا خطة سوف تكون إن شاء الله متينة على تقوى ورضوان من الله، وإيمانا بأن كل شيء يزول ولا يدوم إلا المغرب وبعده لا يدوم إلا الله.

فعلا بعد التمحيص والبحث والنظر بإمعان في مشاكلكم رأينا أنه حان الوقت أن نجمع كلمتكم رغم تفرقكم، ونلم شملكم رغم كل ما عرفته أسرة المقاومة من تمخضات ومشاكل.

إن أسرة المقاومة التي جمع الله كلمتها في ظروف حرجة من تاريخ المغرب، والتي كلل الله جهودها بالنجاح لهي قمينة على أن تسير في طريقها الأحب طريق البناء والتمجيد، طريق التعرف، تعريف الأجيال الصاعدة بتاريخنا، بكفاحنا بتضحيات كل من استشهد وبتضحيات كل من هو الآن على قيد الحياة..

ثم قال أعز الله به البلاد في خطابه الاختتامي: «إننا لنحمد الله تعالى أن هدانا لجمعكم، كما نحمده سبحانه وتعالى أن هداكم إلى العمل جميعا متكاتفين بروح الاخاء والمودة فأنجح أعمالكم وكلل جهودكم بالفوز» إلى أن قال حفظه الله

«ولكن قبل أن تشرعوا في أي عمل أرى من الضروري أن نضع بعض النقط على الحروف، ذلك أن النصوص التشريعية ترمي إلى خلق مجموعة من قدماء المقاومين وجيش التحرير تكون منبثقة من القاعدة حتى نصل إلى المجلس الوطني منها، ولكم أن تتساءلوا من أي قاعدة سننطلق؟ هل القاعدة الحقيقية؟ أم القاعدة المختلفة، ذلك أننا نعلم أن أوراق المقاومة وقدماء جيش التحرير

ليست ولن تبقى اليوم بالشهادة الكافية غير المطعون فيها حتى تعطي لحاملها صفة المقاوم أو صفة عضو من جيش التحرير، بل هناك أشخاص معروفون محترمون ليست لهم الورقة للمقاومة ولا لجيش التحرير، وإذن علينا قبل كل شيء أن ننتقي لانتخاباتنا جميعا قاعدة لا يمكن لأي أحد أن يتقول فيها بأي قول كان».

هذان الخطابان الساميان هما الركيزة الأساسية لهذا الجمع، التفاتة صاحب الجلالة وتفكيره في رد الاعتبار والبر بمن أسدى الخير للوطن من أسرة قدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، وكذلك حث هذه الأسرة وتوجيهها إلى العمل على تطهير صفها وطرد الدخلاء عليها ورجوعها إلى أصلها وتاريخها المجيد تاريخ التضحية والكفاح لارجاع رمز السيادة المغربية إلى عرشه واستقلال المغرب وحريته وطرد المستعمر من الوطن.

سيدي الرئيس، إخواني الحاضرين، إن الكلام عن أحداث جيش التحرير بصحراء المغرب لا يتسع وقت للايفاء به مهما اختصرت، غير أني سأحاول تبسيط الموضوع واختصار الكلام والتجاوز عن ذكر كل الأحداث واجتناب تفصيل الوقائع لأنه لا يمكن أن نفي بحقنا في الكلام عن أحداث جيش التحرير الذي دامت مدة كفاحه أربع سنوات كانت كل أيامها ولياليها نشاطات مختلفة ومعارك دائمة وجهادا مستميتا وتضحية نادرة في سبيل الله والوطن والملك لا يمكن أن نكتب ذلك في سطور وأوراق معدودات ولا يمكن أن نقرأ ذلك في دقائق أو ساعات معدودات.

رغم ذلك كله فواجبي يحتم علي إزالة الستار عن مهمة جيش التحرير التاريخية بالجنوب المغربي وإبراز أحداثه بكل إيجاز لما لهذا الجيش من مكانة تاريخية، والتي لابد من إبرازها وإبراز حقائق ظلت سنين طوالا في طي الكتمان، والتعريف بها هنا حتى يأخذ الجيش مكانه في تاريخ نضال المغاربة من أجل حريتهم وكرامتهم، وحتى يعلم الجميع ان مدة أربع سنوات من كفاح الجيش ووجوده لم تضع، وأن الجيش لم يكن وجوده إلا في خدمة مصلحة

الوطن العليا تحت قيادة جلالة الملك المقدس محمد الخامس رحمة الله عليه ووارث سره جلالة الملك الحسن الثاني أعز الله به المغرب.

كان النشاط العام يشتمل على ميادين أنشطة ثلاثة

I - الميدان السياسي.

II - الميدان العسكري.

III - الميدان الاجتماعي.

I - الميدان السياسي

قبل دخول الجيش في النشاط العسكري أو ميدان المعارك التي يعتبر وجوده موقوفا عليها لأن الاستعمار لا يعرف إلا لغة الحديد والنار، فقد تقرر أن تكون هذه المعارك مبنية على أساس صحيح من المعرفة والتمحيص وطول النظر والبحث الدقيق في استراتيجية قومية يسلكها الجيش في خوض معركته المسلحة لانتزاع حق المغرب من مغتصبيه، حق المغرب في استرجاع صحرائه، فكان ضروريا أن يسلك الجيش نشاطا سياسيا لتدعيم وإنجاح النشاط العسكري، وقد ارتكز هذا النشاط على:

I - التوعية والتكوين

بدأنا بتكوين الجماعات القبائلية والعمل على خلق جماعة بكل قبيلة للتشاور معها وأخذ رأيها في جميع المسائل التي تهم القبيلة مباشرة أو الصحراء بصفة عامة، إما في المسائل المتعلقة بالخطط الحربية أو غيرها، وتخصيص رواتب شهرية لكل رئيس قبيلة أو زعيمها أو شيخها ليضمن بذلك كل منهم الاستقرار والاطمئنان على مصيره الاجتماعي، كما تم توزيع الأسلحة عليهم، فتكونت بذلك مجالس أيت الأربعين المؤلفة من مختلف القبائل الصحراوية.

كذلك قمنا بنشر الوعي القومي بين سكان الصحراء بتوزيع مناشير دورية عليهم وإلقاء محاضرات وتوجيهات وعقد مؤتمرات واجتماعات في جميع أطراف الصحراء، وإنشاء شبكة من الدعاة للقيام بنشر دعاية واسعة

للمغرب ولملكه وخلق مناسبات لبث وفود وشخصيات صحراوية للقصر الملكي العامر بالرباط لاعلان ولاء الصحراء وسكانها لصاحب الجلالة ملك المغرب، وإظهار ـ للعالم أجمع ـ تعلق سكان الصحراء بالعرش المغربي وتشبثهم بمغربيتهم. وفتح باب التنافس لذلك فيما بين القبائل الصحراوية لاظهار إخلاصهم لوطنهم وولائهم للعرش العلوي المجيد وتشبثهم واعتزازهم بوطنيتهم ومغربيتهم ودينهم الاسلام، فاستطاع الجيش أن يعرف سكان الصحراء بحقيقة صاحب الجلالة ملك المغرب وما له من يد بيضاء على المغرب وأبنائه المغاربة حتى أصبح لا توجد خيمة إلا وفيها راية مغربية وصورة صاحب الجلالة وأفراد عائلته الشريفة، فالتجأ عدد من الشخصيات الصحراوية البارزة إلى الوطن الأم أمثال: حرمة ولد بابانا، فال ولد عمير أمير الترارزة، الداي ولد سيدي بابا، الأمير سيدي أحمد ولد عيدة، الشيخ احماد والمختار ولد اباه وعدد كبير من الشخصيات تطول القائمة بذكر أسمائهم وقد صرحوا في عدد من الخطب في عدد من المهرجانات والتجمعات بعد التجائهم مباشرة ينتقدون سياسة الفرنسيين والاستعمار في الصحراء، مما زاد في نشر الوعي الوطني داخل الصحراء، كما جلب أكبر عدد من أفراد القبائل الصحراوية ووحدهم حول فكرة الكفاح من أجل تحرير الصحراء وأقنعهم بالعمل الصالح لطرد الكفار، وقد تحملوا مسؤوليات في تسيير الجيش وتقلدوا رتبا سامية كقيادة الرحى والمائة وغير ذلك.

2 ـ التنظيم:

ولأجل تركيز الجيش لأداء مهمته التاريخية بانتظام تكون مجلس سياسي في مؤتمر بوخشيبة الذي ترأسه سمو ولي العهد آنذاك جلالة الملك الحسن الثاني، وقد تكون المجلس من أبر العناصر الصحراوية وأكثرها تمثيلا لقبائل الصحراء أمثال القائد الحبيب بن بلال، الداي ولد سيدي بابا، حرمة ولد بابان، وغيرهم كما تكون مجلس عسكري من قواد الرحى الذين سيأتي ذكر أسمائهم فيما بعد حينما نتكلم عن الميدان العسكري، كما تكونت

قيادة عليا للجيش مركبة من ثلالة أقسام

1-2 القسم العسكري. ويضم السادة محمد بنحمو المسفيوي، أيت اسعيد كمسؤول عن الجيش ونائبه الأول بويري الحاج ادريس بن بوبكر

2-2 القسم السياسي. مقره بالدارالبيضاء ويضم عناصر مكتب جمعية المقاومة والتحرير السادة الفقيه محمد البصري - مولاي عبد السلام الجبلي - عبد الرحمان اليوسفي - صفي الدين حسن بوشعيب الحريري - التهامي نعمان - وأيت يدر محمد بنسعيد الذي كان بالجنوب يباشر عمله إلى جانب المسؤولين بالقيادة العسكرية العليا المذكورة.

3-2 القسم المالي المسؤول عنه المرحوم إبراهيم بن عبد الله التزنيتي المرابطي إلى جانب العسكريين المذكورين. كما تكونت قيادة مركزية للجيش بكوليم سهر على تنظيمها لضمان نجاح أعماله بانتظام مكونة من ستة أقسام:

- الكتابة العامة المسؤول عنها المرحوم محمد مذكور.
- الشؤون العسكرية المسؤول عنها أزيدان عبد السلام.
- الشؤون المدنية المسؤول عنها سعد الله صالح.
- المواصلات المسؤول عنها محمد برهماين.
- كتابة الضبط المسؤول عنه حسن الساحلي.
- التموين: المسؤول عنه هشابي بناصر

وهؤلاء الذين يعد بعضهم من مسؤولي بعض فصائل المقاومة السرية المغربية ومؤسسيها أمثال هشابي بناصر اليد السوداء وهو من رفقاء الشهيد رحال المسكيني. وأزيدان عبد السلام ومحمد برهماني أسد التحرير

كما أن حسن الساحلي ومحمد بنسعيد الصغير ومحمد بوزاليم من أعضاء المنظمة السرية إحدى فصائل المقاومة السرية المغربية وتنان أحمد من أسد التحرير وللمسؤولين عن الأقسام المذكورة ارتباط بقواد الرحى بمناطق الجيش كما أن لهم مصالح تابعة لأقسامهم التداريبية العسكرية والذخيرة الحربية - التفتيش العام - السجن - الاستعلامات - المستشفى العام - اللاسلكي -

الاحصاء العام ـ المرابط (الكاراج) ويسير هذه المصالح كل من السادة تنان أحمد ـ بولحية محمد بن علي ـ العربي بن الناجم ـ محمد بن سعيد الصغير ،ومعهم مساعدون آخرون. كما كانت قيادة فرعية شرقية سنتطرق إلى ذكرها بعرض خاص حينما تحضر اللجنة الوطنية بإقليم الراشدية لدراسة ملفات أعضاء جيش التحرير بالناحية حتى يتسنى الحضور لباقي المسؤولين عن الجيش بالناحية من ضباط وجنود، وقد سبق لي أن قدمت يوم 17-10-1978 عرضا جزئيا عن أحداث جيش التحرير بإقليم ورزازات.

إخواني قدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير لم يكن في الامكان الوقوف على جميع الأحداث كبيرها وصغيرها وعرضها بصورة مفصلة ومبسطة، نظرا ـ كما تعلمون ـ للوقت الوجيز والقصير ولذلك سنقتصر في هذه العجالة على سرد بعض محتويات وثائق تاريخية قائمة الذات وحافلة بأوسع المعاني والمفاهيم ومنها على الأخص:

ـ معاهدة بين ممثلي قبائل الرقيبات وتكنة وآل الشيخ ماء العينين تتضمن 22 قبيلة مع أسماء ممثليها وهي على سبيل المثال لا الحصر أهل الشيخ ماء العينين ـ أهل بلقاسم وإبراهيم ـ البيهات ـ الفقراء ـ سيدي علال ـ السلالكة ـ التهالات ـ أولاد الطالب ـ أولاد الشيخ ـ أولاد موسى ـ الموذنين ـ أيت لحسن ـ الزرقيين ـ يكوت ـ فيلالة ـ أيت يوسى ـ أولاد ادليم ـ تدرارين ـ مجاط ـ الفيكات ـ الميار ـ التومالت ـ السواعد ـ إلى غير ذلك.

ومن ضمن النداءات يذكر أيضا

ـ النداء الموجه إلى الرقيبات الشرفاء لتوعيتهم بأخطار الاستعمار ويدعوهم إلى الاتحاد والتضامن لتحرير البلاد والتمسك بالتعاليم الدينية الاسلامية.

ـ نداء إلى سكان الصحراء المغربية في الوقت الذي تكالبت عليها أطماع الاسبان.

ـ رسالة القيادة العليا لجيش التحرير المغربي الموجهة إلى رئيس أركان

الحرب للقوات الملكية المسلحة تضمن الولاء والاخلاص ورفع آيات الشكر والامتنان على الهدية الثمينة الغالية التي كانت بمثابة فاتحة عهد جديد مبارك.

- قائمة بالوفود الصحراوية ومن ضمنها وفد موريطانيا التي حلت بالرباط لتجديد ولائها للسدة العالية بالله والأعتاب الشريفة، ومن بينها أيضا وفد الرقيبات الساحل، ويمثل ناحية فديرك وبيرنزارن إلى أدرار صطوف، وفد العروسيين - الزرقيون - اليكوتيون - وفد الركيبات الشرق ويمثل نواحي بئر أم كريم وتيندوف وعين بن تلي - الشرفاء بالحكونية - وفد واد الذهب - الوفد الموريطاني - آيت باعمران.

ومن بين هذه الوثائق التاريخية الهامة أيضا

- لائحة شهداء جيش التحرير بالصحراء وأيت باعمران وتضم شهداء إيفني كذلك، وتحتوي على 264 شهيدا وما يزيد على ذلك.

- لائحة أيت الأربعين وممثلي قبائل الصحراء.

وبالاضافة إلى محضر باجتماع مؤرخ في7 يبراير 1957 عقد بمقر القيادة العليا لجيش التحرير للمغرب العربي بالصحراء الكبرى حيث تم تقسيم المناطق الصحراوية إلى سبع مقاطعات وذلك في نطاق التنظيمات العسكرية للجنة، هناك بلاغات عسكرية عن الأعمال والهجومات والحوادث والعمليات العسكرية الصادرة عن القيادة العليا نسوق منها كأمثلة حية

- البلاغ رقم 33 بتاريخ 15-01-58 وينص على مقتل 600 جندي من صفوف العدو من بينهم 20 ضابطا

- البلاغ رقم 35 بتاريخ 4-2-58 وينص على مقتل 78 جنديا من صفوف الأجنبيين وغنم 30 بندقية.

- البلاغ 39 بتاريخ 21-2-58 وينص على 93 قتيلا.

- البلاغ رقم 51 بتاريخ 3 يوليوز 1958 حول العمليات العسكرية بجهة الصحراء الشرقية ويتضمن سلسلة من الاشتباكات والمعارك.

- البلاغ رقم 25 وينص على30 من القتلى في صفوف العدو.

ـ البلاغ رقم32 بتاريخ 10-1-1958 وينص أيضا على مقتل 208 من جنود العدو ومن بينهم 10 ضباط.

ـ وهذه البعض من البلاغات العديدة التي كانت تصدر بعد المعارك التي يفوق عددها 221 معركة ما بين آيت باعمران والصحراء الجنوبية والصحراء الشرقية.

يضاف إلى ذلك عدد من التقارير التي وقع تحريرها على إثر الهجومات التي قام بها جيش التحرير والتي امتدت إلى اطار بموريطانيا مع الفرقة التي قامت بالهجوم على أم العشار والمجاهدين الذين شاركوا في العمليات المنجزة وتقارير أخرى مفصلة.

II ـ الميدان العسكري:

عند اقتحام الجيش ميدان المعركة ودخولها بعدما تمهد له الطريق بالدعاية والاتصال المباشر مع الصحراء، وقبل ذلك، كان يتبادر المسؤولين عن الجيش ثلاث مراحل أو ثلاث أفكار رئيسية لوجود الجيش وحياته:

1 ـ الاقدام أو الفكرة لخوض معركة التحرير والوحدة:

إن ظهور فكرة خوض ميدان المعركة لتحرير المناطق الصحراوية المسماة بالصحراء المغربية الكبرى التي لم يشملها تصريح 2 مارس 1956، والتي لم يشملها كذلك الاتفاق المغربي الاسباني حول توحيد تراب المغرب واستقلال المنطقة الشمالية يوم 7 أبريل 1956

إن ظهور الفكرة برزت للوجود بعد هذا، يوم أن انتهت مهمة المقاومين داخل المدن وفي الريف في إطار جيش التحرير بالشمال. فلقد تقرر التفكير في امتداد المعركة التحريرية إلى تلك المناطق وتحويل أنظار الشعب وصموده وكفاحه إلى خوض معركة التحرير والوحدة الكاملة بعد أن خاض معركة إرجاع رمز السيادة المغربية محمد الخامس قدس الله روحه من منفاه السحيق، وكانت الاعتبارات التي دفعت بالمسؤولين إلى اتخاذ هذا القرار بالتفكير والاقدام على خوض معركة التحرير هي:

ا ـ استعداد الشعب لتحمل جميع التضحيات وتحمس الجماهير الشعبية وقابليتها لتصفية مخلفات الاستعمار وتحرير بقية المناطق المغتصبة لتوحيد التراب المغربي خاصة وأن الانتصار الذي حققه الشعب بقيادة بطله محمد الخامس رحمه الله لتحقيق الاستقلال، لا زال جديدا لم يطل عليه الزمان

2ـ انهزام الاستعمار في المغرب واندحاره نتيجة †31شهرا من الكفاح المسلح لقي العدو خلالها أشد المقاومة من طرف المقاومين في المدن أولا، ومن طرف أعضاء جيش التحرير بالجبال ثانيا، ثم اشتغال العدو بالثورة الجزائرية التي يزداد لهيبها يوما بعد يوم، وقد تحطمت معنوية الجنود الفرنسيين وبلغت من الانحطاط والانخفاض درجة لم تبلغها إلا في المدة التي وقع فيها احتلال فرنسا

- 3 - حيرة الديبلوماسية الفرنسية والتخلي المؤقت الذي حدث لها من طرف أصدقائها في الميدان الدولي.

ا-4ـ استغلال الصداقة الشكلية الموجودة في ذلك الوقت بين المكافحين المغاربة والاسبانيين وسوء التفاهم الموجود آنذاك بين فرنسا وإسبانيا

ا-5 - انعزال فئة قليلة من قدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير بالشمال من مسؤولين وضباط وجنود واقتناعهم عن إيمان ووطنية صادقة بعدما اشتغل غيرهم بالتفكير فيما يعود عليهم بالنفع الخاص لضمان معيشة تناسب عمل كل واحد منهم، انعزال فئة قليلة واقتناعها بأن مهمتها لم تنته بعد وأن تحرير الوطن وتوحيد ترابه واسترجاع صحرائه الكبرى لا زال كل ذلك ينتظر تضحياتهم إلى جانب إخوانهم الصحراويين المجاهدين لخوض معركة الاستشهاد بعد أن خاضوها داخل المدن وبالجبال لتحقيق الغاية التي آمنوا بها، وكل واحد منهم جعل نصب عينيه إما تحرير الصحراء وجميع المناطق المغتصبة أو الموت فوق ترابها

وبعد تنسيق الفكرة مع صاحب الجلالة محمد الخامس طيب الله ثراه

واتصالات عديدة في الموضوع أبدى العاهل المغفور له تحمسه وتشجيعه وتأييده المطلق لهذا الجيش في مهمته السامية.

ورغم بساطة المسؤولين بالقيادة العليا للجيش وعدم معرفتهم بتلك الأصقاع، ورغم عديد من الاعتبارات والاحتمالات، لم يكونوا في يوم من الأيام يجهلون مدى خطورة العمل الذي سيقدمون عليه، ولم يكونوا خياليين ولا متهورين بل كانت لهم خطة مرسومة وغاية واضحة دخلوا على أساسها الصحراء وكانت الغاية والفكرة الأساسية التي بني عليها جيش التحرير بصحراء المغرب هي الاقدام على تنفيذ فكرة خوض معركة التحرير، وكانت تتمثل في إرغام فرنسا وإسبانيا والضغط عليهما لايجاد الحل السياسي مع الحكومة الشرعية لصاحب الجلالة الملك محمد الخامس رضي الله عنه في شأن وضعية تلك الأقاليم المغربية التي لازالت بيدها وربط الصلة مع قبائل الصحراء واستمالة زعمائها وتعريفهم بوطنهم الأم وملكهم وإقناعهم بوجود قوة المغرب كقوة ثالثة إلى جانب القوة الفرنسية والقوة الاسبانية اللتين ظلتا منفردتين بالصحراء طيلة أزيد من نصف قرن، وأن المغرب له حقه المشروع في الصحراء وله نفوذه عليها كما كان في الماضي، ومزاحمة الفرنسيين والاسبانيين في الصحراء وعدم ترك الميدان فارغا لهم يعبثون فيه كيفما شاؤوا وقطع سياسة الاستعمار في الصحراء كي لا تطول مدة استعماره التي تكبد العدو خلالها أشد المقاومة من المجاهدين الصحراويين وعلى رأسهم المجاهد الكبير الشيخ ماء العينين الذي ظل هو وأبناؤه وعشيرته يجاهدون الوجود الأجنبي من سنة 1900 ولم يضعوا السلاح إلا بعد سنة 1934. ومما يؤكد صمود هؤلاء الأبطال الصحراويين ما أجاب به المجاهد المذكور ردا على استفتاء ورد عليه من طرف جماعة من العلماء أرغمهم الاستعمار على مراسلة المجاهد ودعوته إلى الكف عن الجهاد، فأجابهم برسالة تتضمن الآية الكريمة من قوله تعالى ﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار، تدعونني لأكفر

بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار، لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وإن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار.صدق الله العظيم. وختم الرسالة بقوله: «سأستمر في مقاومة الاستعمار إلى النهاية ما دام في عروقي دم ينبض وروح تستر». فاستمر جهاده بعد ذلك مدة ما يزيد على أربعة وثلاثين سنة. النداء الذي وجهه الشيخ محمد الامام إلى القيادة بالشمال للالتحام بالجنوب وهي الرسالة التي حملها أخونا أبه ماء العينين مصطفى سنة 1953-1954 وبعد وصول جيش التحرير إلى المنطقة كانت عشيرته وأبناؤه وغيرهم من الأبطال الصحراويين المجاهدين من مختلف القبائل سباقين إلى الانضمام إلى صفوف الجيش لاستئناف جهادهم، وأسندت إليهم مهام مختلفة قاموا بها أحسن قيام، ولم يكن المسؤولون عن الجيش في أي وقت من الأوقات يعتقدون أنهم سوف يقومون بمهمتهم لتحقيق غاية التحرير والوحدة دون رعاية وقيادة صاحب الجلالة محمد الخامس رحمة الله عليه وولي عهده آنذاك جلالة الملك الحسن الثاني اللذين يعتبران المرجع والسند الرئيسي لكل حركة تحريرية، ويعتمدون في خطتهم وعملهم على مساعدة الحكومة المغربية ماديا ومعنويا وعلى مساندة وتأييد الشعب بأجمعه.

- 6 - وأخيرا استعداد القبائل الصحراوية للانضمام إلى المغرب الوطن الأم بعد أن حصل على استقلاله واستطاع (حسب ما يروج في أذهان الصحراويين) بقيادة ملكه أن يرمي بالكفار في عرض البحر نظرا لما يتجلى به الصحراويون من قوة الايمان بالله.

2 ـ الخطة لتحقيق التحرير

كانت الخطة التي رسمها المسؤولون عن جيش التحرير بصحراء المغرب لبلوغ تحقيق فكرة التحرير تتمثل في ثلاث نقط رئيسية:

2 1 القيام بهجومات منظمة على المراكز العسكرية الفرنسية بالصحراء بمعونة سكانها بعد تدريبهم وتزويدهم بالسلاح والامكانيات

الضرورية وبث روح التضحية فيهم.

2 - 2 القيام بحرب العصابات والتخريب ضد القوافل الاستعمارية التي تجتاز أطراف الصحراء وإيقاف أوراش البحث عن المعادن فيها.

2 3 بث روح الوطنية وإحياؤها بعدما أماتها الاستعمار في نفوس بعض أفراد القبائل الصحراوية كما كان عليه الشأن في داخل المغرب، وتعريفهم بوطنهم الأم المغرب وخلق جو سياسي لمناهضة الاستعمار الفرنسي والاسباني.

هذه بكل اختصار هي الظروف التي برزت فيها فكرة تحرير الصحراء وتلك هي الغايات التي دخل الجيش من أجلها الصحراء، وتلك أيضا هي الخطة والوسائل التي يعتقدها المسؤولون عن الجيش كافية لبلوغ الأهداف والغايات وتحقيقها بقي لنا الآن أن نعرف بالمعارك التي خاضها جيش التحرير بصحراء المغرب.

ـ المعارك:

كانت العناصر التي ذكرناها سابقا والتي اقتنعت عن إيمان قوي ووطنية صادقة بأن مهمتها لم تنته بعد، فتسربت من الشمال إلى الجنوب في أوائل شهر يونيه1956 وانفردت منها فرقة واجتازت وادي درعة وتقدمت إلى الصحراء وتوغلت في داخلها من أجل الكفاح في أوائل أكتوبر 1956 تحت قيادة المسؤول العسكري للجيش السيد محمد بن حمو المسفيوي. والمدة بين يونيه وأكتوبر تعتبر مدة طويلة نسبيا وما ذلك إلا لضرورة التمهيد للعمليات الكبرى باستقرار سياسة الجيش وربط الاتصال مع القبائل الصحراوية لاشراكهم في المعارك، ثم انتظار جلاء الجيش الفرنسي من مناطق جنوب الشمال المحرر لأنه من العسير القيام بأي عمل في الصحراء والطابور الخامس يراقب الناحية ويراقب وجود الجيش ويرى تحركاته ويلاحظ استعداده. رغم ذلك فلقد وقعت عدة هجومات من جيش التحرير على مراكز العدو بأم العشار والزمول وفم الحصن وزكدو ومركالة، تكبد العدو فيها خسائر في الأرواح بلغت مائة وخمسين قتيلا وعددا كبيرا من الجرحى. ورغم هذا كله

فاننا نعتبر بداية نشاط جيش التحرير العسكري ومعاركه هي شهر أكتوبر 1956، إلا أننا نعتبر أيضا أن المدة بين 7 أبريل 1956 وأكتوبر 1956 مرحلة الاستعداد والتهييء والتفكير في خطة العمل. ففي المعارك الأولى التي وقعت بين جيشنا وقوات العدو المستعمر الفرنسي أصيب فيها العدو بذعر كبير وفزع شديد في صفوف قواته فقد فيها وعيه فجهز على إمكانياته الموجودة في ناحية القتال وحاول تسخيرها في المعارك لولا وعي الشعب المغربي في إقليم أكادير الذي كان قويا والذي حال دون استعمال تلك القوات ووصولها من الخلف لنجدة الجيش الفرنسي المهدد بالاضمحلال في مراكزه بالجنوب، وكان الجلاء لم يتم بعد عن المناطق المستقلة.

وفي أوائل يناير 1957 دخلت عدة فرق من الجيش إلى أدرار ناحية أطار واصطدمت مع القوات الفرنسية استغرقت المعارك فيها مدة ثلاثة أيام خلف فيها العدو أكثر من مائة وسبعين قتيلا وكثيرا من الجرحى، وتم إسقاط ثلاث طائرات حربية وكانت هذه المعركة من أعنف المعارك التي وقعت بين جيش التحرير والقوات الفرنسية بالصحراء الجنوبية. وأولى المعارك الواقعة بموريطانيا وكذلك هي بداية تخلي المسؤولين العسكريين الاسبانيين عن الصداقة الشكلية معنا كما سنبين ذلك فيما بعد، وقد كان لهذه المعركة أيضا تأثير قوي وصدى بالغ في نفوس الاستعماريين وعملائهم واشتد جزعهم لما يصلهم من أخبار عن تطور المعركة والخسائر التي تلحق بهم، فجهز المستعمر جميع وسائله المادية والعسكرية للقضاء على فرق جيش التحرير، فاستطاع أن يأخذ من الميدان (44) أسيرا باليد بعدما نفذ ما لديهم من كل وسائل الدفاع، كما أسفرت المعركة عن عدد من المفقودين من أفراد الجيش ووقعت معركة الرغيوة التي لا تقل أهمية عن سابقتها وذلك بين تندوف وبئر أم كرين في 13 فبراير 1957، خلفت فيها قوات العدو أكثر من مائة وخمسين قتيلا وعددا كبيرا من الجرحى، وتم أسر عدد من ضباط وجنود العدو منهم ضابط يسمى كاكسيكيرا سلمه إلى والدته بكورسيكا جلالة الملك محمد الخامس طيب الله

تراه. ولم تصب قواتنا بأي أذى وأي خسارة. وهذه الانتصارات قد قلبت وضع الصحراء رأسا على عقب، فأصبح كل أبنائها يتواردون على الجيش للانضمام إليه بقدر ما يبتعدون عن الفرنسيين والاسبانيين، وكان هذا ما دفع بالاسبانيين إلى الارتماء في أحضان فرنسا، وبهذه العمليات انتهت المرحلة الأولى من معارك الجيش التي استفاد المسؤولون فيها من عدد من المزايا والحقائق كعقلية السكان الصحراويين ومدى استعدادهم للتضحية في سبيل وطنهم وعوائدهم وطبيعة الأرض وسبلها ومسالكها ومقدار الامكانيات التي يسيطر بها العدو على الصحراء الشاسعة الأطراف وأهمية تلك المناطق بالنسبة للوطن الأم المستقل وما إلى ذلك، كما حدث اندماج مباشر مع سكان الصحراء وتفتحت عيونهم على حياة جديدة كانوا يحيونها من قبل حياة حمل البندقية من أجل الكرامة والاسلام، وقد أزيل الحاجز الذي كان يفصل بينهم وبين الجزء المستقل من وطنهم واتسعت قائمة المعارك وامتدت كما سأبين ذلك في جدول أهم المعارك حينما ننهي الكلام عن المرحلة الثانية من الجيش العسكري بصحراء المغرب الذي تحول من مجابهة الجيش الفرنسي إلى مجابهة الجيشين معا الفرنسي والاسباني في الصحراء الجنوبية والشرقية والغربية وبأيت باعمران.

وقد بلغت المعارك بأيت باعمران وحدها أكثر من خمسين معركة خسر فيها العدو أكثر من 1200 قتيل وأزيد من ألف جريح، ودامت هذه المعارك من 22 نونبر 1957 إلى 5 يونيه 1958 تحرر فيها أزيد من تسعة أعشار منطقة أيت باعمران وفي الصحراء الغربية التي يحتلها الاسبان بلغت فيها المعارك أكثر من سبعة وعشرين معركة أعنفها معركة الدشيرة معركة المسيد ـ معركة أكراكر ـ معركة العركوب ـ معركة سيدي أحمد العروسي بالساقية الحمراء. وقد خسر الاسبان في هذه المعارك أكثر من ألف قتيل ومثله من الجرحى وتم أسر واحد وأربعين من جنود العدو كما تم غنم عدد مهم من الدخيرة والعتاد الحربي وعدد من الشاحنات والسيارات العسكرية وأجهزة لاسلكية، وقد اضطرت إسبانيا بهذا العمل إلى الاعتراف باستقلال منطقة طرفاية، وكانت فترة هذه المعارك مخصصة

لضرب الوجود الاسباني بالمنطقة بينما كانت تحدث مناوشات وبعض العمليات في نطاق حرب العصابات ضد الوجود الفرنسي بصحراء كولومبشار والقنادسة وتندوف بالصحراء الشرقية، كما كانت توضع بعض الألغام في الطرق التي يستعملها جنود الاحتلال الفرنسي، وقد خلفت هذه الألغام والمناوشات والعمليات الحربية عددا كبيرا من القتلى والجرحى في صفوف العدو زيادة على الخسائر المادية التي لحقت بقياداته العسكرية ومعداته الحربية.

هذه إخواني بكل إيجاز أهم المعارك التي خاضها جيش التحرير بصحراء المغرب خلال أربع سنوات من وجوده بالجنوب وقد أسفرت على نتائج سياسية واجتماعية وعسكرية هامة يطول المجال بذكرها منها المكسب المادي بتحقيق استقلال منطقة طرفاية وتحرير تسعة أعشار منطقة أيت باعمران وتهييء استقلال باقي المناطق التي تحررت بعد ذلك بفضل الدبلوماسية الرشيدة لملك البلاد وجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده، كما أن وجود الجيش هز كيان الاستعمار وكان خطرا على مصالح الدولتين المستعمرتين ليس بالنسبة للمغاربة فحسب بل وحتى بالنسبة لغيره من الدول المناهضة للاستعمار والاحتلال من طرف فرنسا وإسبانيا آنذاك منها الجزائر الجارة القريبة من معركة جيش التحرير

وفيما يلي أسرد عليكم جدولا عاما لأهم المعارك التي دارت رحاها بين جيش التحرير بصحراء المغرب وقوات الاستعمار الفرنسي والاسباني بالصحراء المغربية الكبرى وأيت باعمران.

المعارك	تاريخها	خسائر العدو	ضحايانا
- فم الاعشار	1956/07/06	25 قتيلا وأكثر من100جريح و4 طائرات	شهيد و6جرحى
- مركالة	1956/08/15	87 قتيلا وسقوط 4 طائرات	13جريحا
- المحاميد	1956/12/06	32 قتيلا وإحراق 3 سيارات	شهيد واحد
- السويحلات	1956/12/28	4 من القتلى وإصابة بعض المصفحات	لا شيء
- الزمول	1956/12/28	قتيلان من حراس المركز	لا شيء
- أدرار	من 12 إلى 1957/01/27	176 قتيل 98 جرحى وإسقاط أربع طائرات	26شهيدا44 أسيربسلاحهم
- رغيوة	من 13إلى 1957/02/16	150 قتلى وأسير واحد وعدد من الجرحى	جريح واحد
- اشت	1957/01/16	30 قتيل وعدد من الجرحى	شهيد و5جرحى
- أم الاعشار		25 قتيل وعدد من الجرحى و4 سيارات	شهيد وجريح
- الجبل الأحمر بالشرق	1958/01/18	60 قتيل و100جريح وإحراق دبابة	جريح واحد
- أيت باعمران 50 معركة	من 1957/11/23 إلى 1958/06/05	أكثر من 1200قتيل ومثلها من الجرحى وذخيرة حربية مهمة	أكثر من 100شهيد
- في الصحراء 15 معركة ضد الاسبان	من 1957/11/26 إلى آخر مارس 1958	أكثر من 1000قتيل ومثله من الجرحى وذخيرة مهمة	ما يزيد عن70 شهيدا مع الاسبان
- مع الفرنسيين 167 47 لغما		1000قتيل ومثلة من الجرحى	28 شهيدا 28جريحا

وفي ما يلي جدول لبعض تلك المعارك والهجومات خاصة تلك التي كانت مع الجيش الاسباني بعد انتقال معارك جيش التحرير من أيت باعمران يوم 23 نونبر 1957وبعد تطويق مدينة سيدي إيفني وأغلب تلك المعارك قامت بها المقاطعة التاسعة بقيادة المجاهد بن عسو صالح.

المعارك	تاريخها	خسائر العدو	ضحايانا
معركة بوجدور	1957/11/21		
هجوم تاكدارات			
أهل بديهات	1957/11/27		
الطريق	1957/11/28	40 قتيلا وعدد من الجرحى	شهيد واحد
العيون	1957/12/17	25 قتيلا	
الهجوم على مدينة العيون	1958/01/11	25 قتيلا	شهيد واحد
معركة المسيد	1957/12/22	أكثر من 120 قتيلا	بعض الجرحى
معركة كتلة زمور	1957/12/22		
معركة الدشيرة	1958/01/13	من 600 إلى 1000 قتيل و 300جريح	12شهيدا
معركة تافودارت	1958/02/08		6 شهداء و 10جرحى
طريق السدرة	1958/02/09	40 قتيلا و60 جريحا	
هجوم أكيندلف	1958/12/15		
هجوم تاسلبه	1957/11/25		
معركة أشاطر	1957/11/26	30 قتيلا و20 جريحا	

لاأستطيع ذكر جميع المعارك بكل تفصيل التواريخ وخسائر العدو وضحايانا لأن ذلك يتعلق بأكثر من مائتين وعشرين معركة الموجود تسجيلها في ملفات خزائننا ، ويمكن لي أن أذكر مواقعها بكل تجرد كما لا يمكن لي أن أحصر عدد الشهداء الذين سقطوا في ميدان الشرف ذلك أننا كنا نمر في كفاحنا وهجوماتنا بجوار مناطق سكنية مما قد يزداد معه عدد الضحايا من السكان من شهداء ومعطوبين والذين لم نتمكن من إحصائهم والتعرف عليهم.

وتلك المعارك المذكورة قد قام بها الجيش في عدد من المقاطعات أو الرحى يتناوب قوادها ورؤسائها كلما كانت هناك نجدة مقاطعة لأخرى أو ضرورة تدخل أكثر من مقاطعة في معركة معينة كما حدث بأيت باعمران.

وفيما يلي لائحة لرؤساء المقاطعات أو قواد الرحى منهم :

- المرحوم امبارك منار
- غاندي عمر الطاطي
- ميلود بن علي
- اللبق ادريس الجبلي
- أبا الشيخ بن السالك ولد أبا علي
- حبوها الحبيب
- قاضي ملال بن الحبيب
- بن عسو صالح
- ناضل الهاشمي بن عثمان
- علي بن دحان المسيوي
- الشردي محمد
- علي بويه ميارة
- التامك يدة محمد
- المرابطي الأنصاري محمد بن المختار
- الحارتي ادريس
- صالح بن أحمد الجزائري

ولكل مسؤول من هؤلاء المذكورين نائب أو نائبان كما لهم ضباط آخرون كقواد المائة ونوابهم وقواد الثلاثين ونوابهم ورؤساء الطلائع ونوابهم ونواب الاتصال والجنود في الأخيرة.

بالاضافة إلى رؤساء المقاطعات أو قواد الرحى الذين سبق أن شاركوا في انطلاقة الجيش الأولى بينما لم يكتب لهم الاستمرار في صفوف الجيش وبعدما قضوا مدة طويلة في تكوين النواة الأولى للجيش بصحراء المغرب أمثال :

- جناح بن عاشير بن الحسن
- الرحماني علال
- العلالي الكبير بوزكري
- التومي بناصر
- لمراني ادريس العلوي
- ساهل محمد بن الجيلالي
- لحسن بن اسماعيل
- أوعياش ادريس

وللتذكير مرة أخرى فإن هناك قوادا آخرين سنتطرق إلى ذكر أسمائهم فيما بعد حينما نستعرض أحداث جيش التحرير بالصحراء الشرقية باقليم الراشيدية، وقد أصدر الجيش بلاغات عسكرية عديدة بعد كل معركة أو معارك يمكن لي أن أتلو أمامكم بعضها ويطول بنا المقال لو أردنا ذكر عددها ومراجعها كلها.

ويجدر بي في هذا المجلس أن أنوه بشجاعة وبطولة هؤلاء القواد، كما يجب علي أن أبرز أمامكم مدى تضحياتهم ومدى جلدهم وتحملهم لكل الصعاب في

سبيل أداء واجبهم المقدس كما أنوه ببطولة باقي الضباط والجنود دون أن أنسى الدور الذي قام به في ميدان العلاج بعض السادة الأطباء وما أسدوه من خدمات جلية لتقديم كافة المساعدات الفعالة وأنوه بالدور الذي قاموا به وأذكر من بينهم

ـ الدكتور محمد بن المختار	ـ الدكتور عمر الورزازي
ـ الدكتور السنتسي	ـ الدكتور عبد الله العلوي
ـ الدكتور محمد بلكناوي رحمة الله عليه	ـ الدكتور بنونة
ـ الدكتور الصقلي	

كما لا أنسى أيضا المسؤولين الاداريين الذين يعتبرون علاوة عن مهامهم الادارية السلطوية قوادا لجيش التحرير بسبب ما خاضوه الى جانب جيش التحرير من مواقف عملية وشجاعة، وبسبب ما أبدوه من انسجام ومواقف فور تعيينهم بطلب من القيادة العليا للجيش من لدن صاحب الجلالة محمد الخامس ـ طيب الله ثراه ـ ومن هؤلاء الاداريين:

ـ المرحوم عبد الرحمن الزيات	ـ مروان محمد
ـ إيجاوان عبد الله	ـ محمد الأسفي
ـ المرحوم عبد العزيز الماسي	ـ علي أبرني
ـ علي الجرفي	ـ أحمد بن علي

وكذلك مساعدة أهل القضاء الذين قاموا بدورهم وواجبهم الوطني لتسهيل مأمورية الجيش منهم القضاة:

ـ محمد بن اسماعيل ـ بوشبوك محمد ـ أحمد بن الماحي

III ـ الميدان الاجتماعي:

يتلخص نشاط الجيش في هذا الميدان في أربع نقط رئيسية:

ا ـ تأسيس مراكز للاسعافات في جميع أطراف الصحراء خاصة وقد صادف وجود الجيش اجتياح الصحراء مجاعة لم يسبق أن عرفتها من قبل فاستمر الجيش طيلة وجوده يقوم بإمدادات للسكان الصحراويين ويوزع عليهم التموين الضروري للحياة فاستطاع بعمله هذا أن ينقذ أرواحا بشرية كانت معرضة للموت المحقق

وتوزيع اسعافات على الضعفاء والمساكين الصحراويين والعجزة

2 - تعليم وإيواء أكثر من ثلاثة مائة وستين تلميذا من أبناء الصحراء في كل من مدينة الدارالبيضاء وأكادير وتفراوت وغيرها من المدن الداخلية، وما ذلك إلا لبث روح التوعية والاخاء بالعناية بفلذات أكباد إخواننا الصحراويين.

3 ـ إنشاء مراكز لإيواء أبناء الشهداء في بويزكارن وتتحمل جميع حاجاتهم في الحياة وفي التعليم منذ بداية وجود الجيش الى سنة 1960

4 ـ سعاف عائلات الشهداء والمعطوبين والأسرى وتخصيص رواتب شهرية لكل واحد منهم وإنشاء مستشفيات بكولمين وأيت باعمران وبعض المناطق من الصحراء لمعالجة الجرحى والمرضى بل وحتى لايواء وإقامة المقعدين منهم. هذه بكل اختصار هي نشاطات جيش التحرير بصحراء المغرب في مختلف الميادين السياسية والعسكرية والاجتماعية. ولا يفوتني ان أخص بالكلام قضية سيدي إيفني ومعارك الجيش بأيت باعمران وأسباب تدخله فيها لمواجهة الجيش الاسباني خاصة ونحن الآن نعيش ذكرى أيام المعارك التي وقعت بدايتها صبيحة يوم 23 نونبر 1957. ويحق لنا أيضا أن نحيي ذكرى هذه المعارك في إقليمها نظرا لعدة عوامل أبرزها ارتفاع عدد القتلى في صفوف العدو حيث بلغت فيها الخسارة في الأرواح مقتل ما يزيد على2.000 جندي إسباني، وكذلك أيضا كثرة عدد المعارك حيث بلغت أكثر من خمسين معركة بمحيط أيت باعمران الضيق ومسالكه الوعرة بالنسبة لأطراف الصحراء الشاسعة، وكذلك أيضا ارتفاع عدد الشهداء والمفقودين والأسرى من مجاهدي وأفراد جيش التحرير والسكان المدنيين.

ففي صباح يوم 23 نونبر 1957 بدأت معارك أيت باعمران بهجوم على مدينة سيدي إيفني، تاليوين، تغزا، ثلاثاء هصباوة، وتبوكوكت وأيت السيمور ومسني.. وغيرها، فالتحق بصفوف الجيش عدد من الجنود المغاربة الذين كانوا مع الاسبان في جيشهم، وقد انضموا إلى صفوف جيش التحرير بأسلحتهم، وعددهم يفوق 75 من ضباط الصف وجنوده وإليهم يرجع الفضل في تأطير المعارك المذكورة.

ويجدر بي هنا أن أنوه بشجاعة وصمود أبطالنا الذين قاموا بهذه المعارك بأيت

باعمران من رؤساء المقاطعات، كالأبطال الأنصاري المرابطي محمد المختار،إدريس الحارتي، ميلود بن علي، علي المسيوي، وعلال بن الحبيب، وكذلك نوابهم وقواد الثلاثين ورؤساء الطلائع وباقي الجنود الذين لا يسمح المجال بذكر أسمائهم بأجمعهم، كما لا يفوتني أن أنوه بالدور الفعال الذي قام به الأخ السيد محمد بن ابراهيم البعمراني بتنظيماته واتصالاته ودقة تنفيذ تعليمات القيادة العليا للتمهيد لخوض معارك جيش التحرير بأيت باعمران وباتصالاته مع الجنود المغاربة في الجيش الاسباني من ضباط الصف وجنود لحملهم على الالتحاق بصفوف جيش التحرير، فتم ذلك كما أسلفنا، وإليه يرجع الفضل في نجاح الجيش في المعارك المذكورة، كما لا يفوتني أيضا بهذه المناسبة أن أنوه بالأبطال رؤساء المقاطعات الذين خاضوا المعارك الضارية في الصحراء ضد الجيش الفرنسي والاسباني على السواء منهم:

- ناضل الهاشمي بن عثمان
- غاندي عمر
- ميارة علي بويا الرقيبي
- ابن التامك اليتوسي
- رحماني علال
- عنتر امبارك ولد فيضل الايتوسي
- فضلي ولد فرجي محمد
- المرحوم منار مبارك
- عسو بن صالح
- با الشيخ ولد با علي الرقيبي
- المرحوم بيبة سالم الحسني
- المساهل محمد بن الجيلالي
- سيدي احمد ولد مان الايتوسي
- عبد الرحمان براقو

وكذلك نوابهم وباقي الجنود، ففي المعارك التي خاضها الجيش بأيت باعمران كان كل من هجم على مركز إلا واستقر فيه، بعد الاستيلاء عليه وطرد الاسبانيين منه وقد دخل الجيش هذه المعارك نتيجة تغيير إسبانيا لسياستها ضده وضد قضية المغرب العادلة في استرجاع صحرائنا وذلك بتواطئ المستعمر الإسباني مع المستعمر الفرنسي. ويتلخص ذلك في أنه بعد الهجوم الذي شنته إحدى فرق الجيش على مدينة آطار بتاريخ 12 يناير 1957 ضد الجيش الفرنسي كما ذكرنا سابقا وعاد الجنود من أفراد جيش التحرير إلى حدود المنطقة التي تستعمرها إسبانيا، هنا تعرضت لهم القوات الاسبانية التي كانت تنتظرهم واحاطت بهم من كل جانب، ثم طلبت منهم

تسليم السلاح مدعية أن القانون الدولي يقضي بذلك ووعدتهم بأنها ستحمله وتسلمه إلى القيادة العليا للجيش. وكان الضباط والجنود آنذاك يعرفون أن اسبانيا صديقة فأعطوا العتاد الحربي إلى المسؤولين العسكريين الاسبانيين على أساس أنهم سيوصلونه بدورهم إلى قيادة الجيش، ثم أن السلطات الاسبانية نقلت الضباط والجنود مجردين من السلاح على متن طائراتها إلى أماكن لقيهم فيها أفراد من الجيش. ولم يسلم السلاح ولو بعد مضي مدة طويلة وكانوا يتماطلون في تسليمه بوعود واعتذارات وظل الجيش ينتظر سلاحه مدة طويلة بدون جدوى. وفي هذه الأثناء حدثت اغتيالات بأيت باعمران حيث قتل المجاهدون الباعمرانيون بعض الخونة والمتعاونين مع الاسبانيين وذلك بتحريض وإيعاز غير مباشر من قيادة الجيش، وقام الجيش بعد ذلك باعتقال بعض هؤلاء المجاهدين حفاظا على سلامة العلاقات مع الاسبان وحفاظا على الخطة العامة للجيش، ولكن الحوادث تطورت بعد ذلك بسرعة في انحراف إسبانيا وارتمائها في أحضان فرنسا وتأكد ذلك بعد اجتماع المسؤولين الاسبانيين والفرنسيين في (سباستيان). فلم يستطع الجيش بعد هذا المحافظة على الصداقة مع إسبانيا مدة طويلة بعد أن تمادى المحتلون الاسبانيون في عدائهم وتواطئهم مع المحتل الفرنسي، وبدأوا يعتقلون مئات المواطنين المخلصين ويودعونهم في السجون والمعتقلات أو يبعدون بعضهم إلى جزر كناريا، وتبين بصفة قطعية لا مراء فيها ان اسبانيا تنوي القضاء على العناصر الحية بأيت باعمران وانها تواطأت مع المستعمر الفرنسي وبالتالي تنوي الدخول مع الجيش الفرنسي في المعركة ضد جيش التحرير، وبعد هذا اضطرت قيادة الجيش لتنظيم معارك أيت باعمران يوم 18 أكتوبر 1957 وخوض معاركها والبداية فيها صبيحة يوم 23 نونبر 1957 فدخلها وخاضها بكل ما لديه من امكانيات وبكل ما لديه من المعدات وبكل ما تحمله من مشاكل ومتاعب وصعوبات، وقد خلفت هذه المعارك 36 أسيرا اسبانيا وغنم عدد منهم من الذخيرة والعتاد الحربي ومقتل اكثر من 2000 جندي اسباني وإصابة عدد كبير من الجرحى، فتحررت بهذه المعارك التي يفوق عددها الخمسين تحررت أكثر من تسعة اعشار منطقة أيت باعمران ولم يبق إلا مدينة سيدي ايفني وحدها، فقد بقيت

محصنة باسطون بحري هائل وما يقرب من أربعين ألف جندي اسباني كما استشهد من أبطالنا ما يزيد عن المائة وأسر منا 14 مجاهدا كما فُقد آخرون.

إخواني:

مرة أخرى أقف أمامكم بكل فخر واعتزاز باسمي الخاص وبالنيابة عن إخواني المسؤولين عن الجيش من ضباط وجنود على رأسهم أخي أيت السعيد محمد ابن حمو المسؤول عن الجيش، لأتناول الكلام عن أحداث جيش التحرير بصحراء المغرب، وهذه المرة عن أحداثه الفرعية بالمغرب الشرقي وأجدني مضطرا لاعادة فقرات من العرض العام الذي سبق لي أن قدمته أمامكم في مدينة تزنيت يوم 23نونبر 1978 وبعده بمدينة طانطان حيث تم درس ملفات رجال الجيش بالمغرب الجنوبي الغربي، وما ذلك إلا لأبرز من جديد الدور الذي قام به الجيش في حرب الاستقلال والحرية والوحدة الترابية، وذلك للدور الذي يجب ألا نغفله ولا ننساه ولا نتركه دون الاحاطة به العمل بروح جنوده جيلا عن جيل، ويا ليته لو حضر منا الآن مراسلوا الصحف العالمية كلها حتى ينقلوا إلى آذان وأعين سكان العالم أجمعين صيحات المغاربة المناضلين في سبيل وحدة ترابهم. فينقلون إليهم شهادات قائمة الذات لا تحتاج إلى برهان على أن المغرب الذي يتمسك جنوده الأبطال الآن بترابهم الوطني ضد أطماع الجزائريين ومن يسير في فلكهم هو ذلك المغرب الذي كان جنوده قبل ما يقرب من ربع قرن يحاربون العدو المستعمر الفرنسي والاسباني في نفس البقاع التي يطمع الجزائريون النيل منها ويصيبونه بالضربات القاسية في أرواح أبنائه وفي ممتلكاتهم.

وأعيد تلك الفقرات اليوم حتى أكون قد ختمت بعرضي هذا سجلا عن أحداث جيش التحرير بجنوب المغرب بصحرائه الكبرى لما في ذلك من ارتباط كامل بين ذلك العرض وما سأقوله عن أحداث التحرير في المنطقة الشرقية من وطننا العزيز وحتى يتم الارتباط بين أعمال القيادة الفرعية، موضوعنا اليوم، بأحداث القيادة المركزية والقيادة العليا المشرفة على تسيير الجيش بكافة مناطقه الغربية والجنوبية والشرقية من ترابنا الوطني المفدى.

وأيضا حتى إذا ما طوي السجل كنت قد أديت واجبي المقدس في خدمة تاريخ المغرب في مرحلته النضالية من أجل استقلاله وحريته ووحدته الترابية، وما ذلك إلا لتلبية نداء جلالة الملك الحسن الثاني قائدنا المظفر حيث قال ضمن خطابه الافتتاحي للمؤتمر التأسيسي لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير يوم 26 مارس 1973

(وأن أبناءنا وأبناء أبنائنا ليجهلون هذا كله وليسوا مسؤولين بل نحن المسؤولون، كُتبنا المدرسية خالية من هذا، كليتنا لا تدرس هذا، آثارنا لا تدل على هذا إلى أن قال فعساكم وعساكم أن تسدوا هذا الفراغ. أرجوكم أن تسدوا هذا الفراغ..) إلى آخر الخطاب الملكي السامي.

تلك بعض فقرات العرض لأحداث جيش التحرير بصحراء المغرب، سأتناول الكلام الآن عن أحداث جيش التحرير بالمغرب الشرقي.

وقبل ذلك أبين أن وجود الجيوش بهذه المنطقة الشرقية جاء بأوامر ملكية بعد أن استقر قبل ذلك في غرب وجنوب المغرب لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب وباقي المناطق الأخرى من صحرائنا المغربية الكبرى، تلك الأوامر السامية التي جاءت لتصد أطماع الاستعمار الفرنسي الذي كان محتلا للمنطقة وتخوض حربا ضارية إلى جانب عناصر جيش التحرير الجزائري. وأيضا ليرتكز الوجود المغربي ويبسط سيادته على المنطقة كلها ويسترجعها كلها ويسترجعها إلى حظيرة الوطن المغربي، وكنا دائما مطيعين للأوامر الملكية منفذين لتعاليم العرش العلوي المجيد خداما أوفياء لإعلاء كلمة الدين والوطن والملك.

إخواني:

سأحاول اختصار الكلام مهما أمكن لي ذلك حتى لا آخذ من وقتكم الثمين فترة انتم في أشد الحاجة إليها لمناقشة العرض.

كان مقر القيادة الفرعية بمدينة أرفود، وهذه القيادة مقسمة إلى قسمين: القيادة العليا المذكورة سابقا، القسم السياسي والقسم العسكري في شخص السيدين المدعو الفقيه الفكيكي ومنير احمد بوشعيب ويساعدهما السادة عبد

الرحمن البيضاوي والورداني امبارك والمنتصر حسن البومليكي.

واقسام القيادة المركزية في شخص السادة:

وردي الحاج عبد القادر - فضلي زكريا - فهمي بالعيد - المدعو مصطفى البيضاوي - صادق محمد بن الفكاك - ناصف السكتاني - الرحماني حمو - وبعض هؤلاء الآخرين لهم رتب عسكرية (قائد الرحى).

وأقسام القيادة المركزية كما ذكر سالفا هي:

قسم الشؤون العسكرية.

قسم الشؤون المدنية.

قسم المواصلات

الكتابة العام.

كتابة الضبط.

قسم التموين.

ولهذه الأقسام مصالح أخرى تابعة لها كالتدريب العسكري - الذخيرة الحربية - التفتيش العام - الاستعلامات - المستشفى العام - اللاسلكي - الاحصاء العام - المرآب (الكراج)، وغير ذلك، كما هو شأن الجنوب، وأن للجيش بالناحية الشرقية مراكز هي مدلت، قصر السوق سابقا - (الراشيدية حاليا)، الريساني، الخميلية، الطوس، بودنيب، بوعنان، عين الشوطر، عين الشعير، المنكوب، بوعرفة، تاندورة، بركم، وجدة التي كان يوجد بها المستشفى العام الذي كان السيد الورداني إمبارك مسؤولا عنه، تالسينت، الحجوي، ايشت - وغير ذلك.

والرتب العسكرية التي كان يحملهارجال جيش التحرير هي قائد الرحى - نائب قائد الرحى - قائد المائة - نائب قائد المائة - قائد الثلاثين - نائب قائد الثلاثين - رئيس الطليعة - نائب رئيس الطليعة - ونائب الاتصال - والجندي في المرتبة الأخيرة.

وإليكم أسماء بعض من كان يحمل هذه الرتب:

قائد الرحى:

السادة: وردي الحاج عبد القادر - العبيدي عباس - فضيلي زكريا - فهمي

بالعيد ـ المدعو مصطفى البيضاوي ـ الشرادي محمد الزموري ـ ناصح محمد ابن المحجوب ـ الرحمان حمو ـ ناصف محمد المدعو السكتاني ـ أكودي زايد امبارك.

نائب قائد الرحى

ليلز محمد بن حمو ـ عبد السلام الخطاب ـ امبارك عنتر ـ ولد الفضيل ـ بوكنوب محمد ـ دادي البشير بن سليمان ـ الرحموني الحسن بن الرحموني ـ حمو الساسي ـ سابق محمد بلفكاك.

قائد المائة

محمد الصنهاجي ـ عبد الله بن محمد بن الجيلالي ـ البضاوي ـ كلميمي محمد ـ معمر بن دحان ـ مولاي امبارك الكلميمي ـ بن الشيخ أحمد بن الشيخ المعروف بإن احمد الكحل ـ وزوري امبارك بن بوجمعة ـ الكبير العموري ـ محمد ولد البدري ـ الشنان بوشعيب ـ الشناوي البشير ـ عبد الرحمان الكيلي ـ الحاج ميمون الريفي ـ ازويتة محمد ـ فيكيش فهمي عبد القادر ـ مولاي امبارك الوجدي ـ بالحسن الزيان ـ الطالب رمضان ـ عبد الله المكناسي ـ عبد الله الكحل ـ ابو لي ادريس ـ عبن عبد العظيم ـ الطوريس عبد الله وهذا إسباني الجنسية أسلم بعد انضمامه لجيش التحرير وكان مكلفا بإصلاح العتاد العسكري ـ طرشن بعمامة ـ الشعباني دحمان ـ الكميري العربي ـ محمد الصنهاجي.

نائب قائد المائة:

السادة: الطالب بوجمعة بن أحمد ـ بونكان سليمان الحربي ـ احمد بوزيد الجريري ـ محمد بن الفقير الجيلالي ـ البيضاوي ـ الجيلالي الباعمراني ـ عبد الرزاق بن احمد ـ لحسن احمو لعتابي ـ دحان عبد السلام ـ أحمد الجبلي ـ عبد السلام المرابطي ـ البشتاوي البشير بن الحبيب ـ البشير بن البدري ـ لقودري العيد بن العربي.

قائد الثلاثين:

بوزهار ـ محمد المراكشي ـ حرمة بن علي المدعو بوكاشة ـ الحاج لعفوه عبد القادر المرموشي ـ اكبيرة حسن ـ امحزون ابراهيم ـ عبد الرحمان إشتاتة ابن قدور

الفاسي ـ ابو حفص العموري ـ الكاسمي عيسى بن سليمان الجريري ـ لطرس العموري ـ بوشن زايد ـ ميمون اسايور ـ سعيد احدو لقصيبي ـ حرمة بن علي النتيفي ـ الهيلالي الحسين المدعو لقرع ـ امبارك بوحمامة ـ بلال بن محمد لكحل ـ أيت خلوق لحسن ـ عبد الرحمان ابا احمو ـ عبد الله لمنيعي ـ البشير الجريري ـ الشهيد احماد الجريري ـ صالح ازيمو ـ امبارك اباخان ـ باسو اقجي ـ بورعود لقصيبي ـ ابن الحسين لعتابي ـ بن قدورالنتيفي ـ عبد القادر النتيفي ـ صالح أومليلت ـ محمد الحسن ـ حمادي الريفي حمادة ـ احمد ولد دونات ـ سعيد أقبلي ـ بوترعة موسى ـ مرسلي عبد الكبير ـ قاسمي جلول بن سليمان ـ لعقيدي عبد الله ـ اولعيد العربي ـ صابر ادريس ـ السادات بن احمد ـ لا سبيل إلى ذكر باقي رجال جيش التحرير الذين يحملون بقي الرتب العسكرية من نواب قواد الثلاثين وغيرهم.

وقد قام هؤلاء الضباط والجنود بالهجوم على مراكز العدو المستعمر الفرنسي في كل من: تنازارات، حاسي الطفة، المولمية، ام الصبع، جبل لعريعيرة، واد الخريويعة، عبو الكحل، واد شعبة النخلة بجبل لكروز قرب الدفيلية، عين ملياس، جبل عنتر، البراكة الكحلة، الجبل الأحمر، رحاة الغنم، تسامت، الزوبية، درمل، الصفيصيفة، ايش، جبل لعمور، جبل المعيز، واد الحلوف، توميات، عوبة فلفل، احجيفة، عينة ميزط، رصفة لبرابر، كنكسو، لعبادلة، اسخونة، جرفة التربة، الدويفعة، ام كطاية، الصفصاف، واد كير بالمكان المعروف اجريكات، المريجة، الملاح، تنية المجاهدين، زلمو، شعبة النمورة بالجبل الأحمر، القنادسة، كولمبشار، درب شان، حاسي خوي، بوكاين موغل، لحمر جردة جانفي بجبل عربد وغيرها

ومن هذه المراكز ما احتله المجاهدون من رجال جيش التحرير واتخذوها مراكز أقاموا بها، ومنها ما تعرض من طرفهم لعدة هجومات لمرة أو مرتين بل أكثر بكلو مبشار وبمنزل رونو حيث وقعت معركة باتصال رجال جيش التحرير مع جنود مغاربة بالجيش الفرنسي تم إحراق 19عربة وشاحنة كبيرة وغنم 5 بنادق 15.7م وبندقية الصيد و25 قنبلة يدوية، وتم تبادل إطلاق النار بعد فرار الجنود المغاربة والتحاقهم بجيش التحرير على رأسهم السيد الفضل زكرية قائد الرحى، واشتباك

آخر بجرادة جونفي بجبل عربد خلف 6 قتلى في صفوف العدو وفر 16 جنديا مغربيا والتحق بصفوف جيشنا ومعهم 4 بنادق ماص 49 و9 ماص 36 ولانص كرانادرور ورشاش 24.

وقد اشتركت معظم المقاطعات ـ وهذا الاسم كان يطلق على (الرحى) ـ في معركة ضد العدو بمركز منونات دام من الرابعة صباحا إلى الثامنة ليلا ترك فيها العدو 303 من القتلى ومثلهم من الجرحى واستشهد منا بضعة رجال.

وهجوم آخر بالجبل الأحمر استمر من السادسة صباحا إلى التاسعة ليلا وخلف العدو وراءه 75 قتيلا واستشهد منا أربعة.

كما كانت اشتباكات أخرى في كل من الجبل الأحمر ـ المنونات المعروفة بالشبكة ـ لعبادلة الدويفعة ـ حرجة الترسة.

وكان أعضاء جيش التحرير الذين عملوا بتلك العمليات ينتمون إلى القبائل التالية.

أولاد جرير ـ ذوي منيع ـ لعمور ـ القنادسة ـ التوات ـ كولومبشار ـ تندوف ـ تافيلت ـ لعبادلة ـ الشعابنة ـ اولاد ناصر ـ بني وكيل ـ لفاكيك ـ آيت خباش وغيرهم، كما شارك إلى جانبهم رجال من القبائل الداخلية بالأطلس المتوسط وغيره أهمها أيت عطا ـ أيت اعتاب ـ لقصيبة وخنيفرة وغيرها.

وبعض عناصر جيش التحرير من هذه العناصر بقايا فرقة المرحوم الحاج بوبو وغيره، الذين كانوا بجيش تحريرهم وكذلك بعض أعضاء المقاومين من المدن كالدار البيضاء، والخميسات والرباط وما إلى ذلك وقد خلف بتلك الهجومات والاشتباكات والمعارك ما يزيد على 1500 قتيل من أفراد الجيش الفرنسي والاسباني وعدد آخر من الجرحى، وتم إسقاط طائرة من الجبل الأحمر وطائرتين من جبل كروز منها طائرة الهيليكوبتير، وكتب الله لثلاثمائة من رجالنا الاستشهاد في سبيل وحدتنا الترابية وفقدنا عشرين رجلا آخر كما أصيب منا مائة رجل بجراح متفاوتة.

وقد اقتضت الظروف أن يقتنع المسؤولون على الجيش أن مسؤولية التحرير لابد وأن يباشر تحملها قائد البلاد جلالة الملك وحكومته. وهكذا بدأت ثمار جهاد

التحرير تأتي أكلها تدريجيا بالطرق التي يراها القائد الأعلى للأمة المغربية قيمة مجدية، وهكذا تحقق استقلال مدينة سيدي إيفني وكانت بعده المسيرة الخضراء التي استرجع المغرب بها صحراءه بقيادة الملك الشهم جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده الذي باشر تسييرها وتتبع مراحلها وتطوراتها ولازال يسعى بكفاحه المستمر لتحقيق انتصارات أخرى.

وما على المغاربة جميعا وعلينا نحن بالخصوص نحن أسرة قدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير إلا أن نوحد صفوفنا وجهودنا وكلمتنا وراء جلالة الملك الحسن الثاني للرفع من مكانة أمتنا المغربية وصيانة مكتسبات الوطنية والمحافظة على وحدة ترابنا واستقلالنا فنكون مع هذا كله كما قال العاهل المحبوب في خطابه الافتتاحي للمؤتمر التأسيسي لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير أن نكون أسرة لجميع المغاربة لا فريسة لهذا أو خنجرا في يد ذاك ولا نكون زبناء لأحد ولا خداما إلا لله والوطن والملك.

فقال حفظه الله «إننا نريد أن تكون اسرة المقاومة وأسرة جيش التحرير اسرة لجميع المغاربة لا فريسة لهذا أو ذاك، نريد أن تكونوا حملة مشعل من الفخارة والاعتزاز لا مجتمع أناس هم بمثابة زبناء لهذا أو ذاك، نريد أن تستعيد المقاومة وأسرة التحرير حريتهما وكرامتهما وشرفهما» إلى آخر الخطاب الملكي الشريف ثم قال في خطابه الاختتامي للمؤتمر

«إننا حينما جمعتكم ذكرتكم بأن دوركم في الماضي لم يكن دورا سلبيا ولم يكن دور المقاومة أو تحرير قطعي، بل دوركم كان دورا تحريريا بالنسبة لبلدكم بمعنى بالنسبة للاستقلال وبالنسبة لما ترتب على الاستقلال، فلذا خضتم معركة سياسية قبل أن تكون معركة عسكرية صرفة. وأريد أن تبقوا مشاركين لنا لخوض هذا الجهاد الأكبر الذي طالما في خطبه كرره رحمة الله عليه والدنا جميعا محمد الخامس رحمة الله عليه حينما كان يقول ويردد ما كان يقوله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة أننا رجعنا من الجهاد الأصغر لنخوض الجهاد الأكبر».

إخواني الحاضرين

لم يبق لي ككلمة اختتامية لهذا العرض إلا أن أقول باسم إخواني المسؤولين عن جيش التحرير من مسؤولين وضباط وجنود أننا نعاهد الله والوطن وجلالة الملك الحسن الثاني أن نبقى دوما محافظين على وحدة ترابنا مكافحين عن وطننا منفذين لأوامر قائدنا العظيم جلالة الملك الحسن الثاني دام له النصر والتأييد بارين بقسم المسيرة الخضراء.

حضرة السادة الأفاضل

استمعتم إلى عروض جيش التحرير بالجنوب وقد سبق أن ألقيتها عن دائرة صغيرة أمام اللجنة الوطنية بحضور بعض قادته من ضباط وجنود، واليوم نستعرض أمامكم في دائرة أوسع في ندوتنا العلمية التاريخية هذه بحضور ثلة من المثقفين المفكرين والباحثين المعنيين بكتابة التاريخ وتصحيحه، وبحضور طلبة وطالبات ومدعوين، ولنا أمل عرضها في نطاق ودائرة أوسع أمام الرأي العام المثقف ضمن الكلام عن تاريخ المقاومة السرية المغربية وواقعها في مؤلف يحمل ذلك الاسم يكشف الستار عن حقائق وجوانب من ذلك التاريخ والواقع الذي يجب أن يعرفه كل المغاربة خاصة الشباب المثقف، فيعرف أن جهاد الملك في الحفاظ على وحدة الشعب المغربي واستقراره واصالته العريقة في المجد والحفاظ على كيانه كدولة مربية استمرت ما يزيد عن اثنى عشر قرنا ويعرف الشباب المثقف دفاع الملك عن حرية الوطن ووحدة ترابه ويعرف أيضا استجابة أفراد المقاومين وجيش التحرير ومشاركتهم ملكهم وقائدهم جلالة الملك المغفور له محمد الخامس ووارث سره جلالة الملك الحسن الثاني دام عزه وأطال الله عمره، ويعرف الثورة ضد الاستعمار التي أعلن عن انطلاقتها يوم 20 غشت 1953 فيعرفوا أن المقاومة السرية المغربية كانت من الشعب تحت القيادة الروحية للعرش العلوي لضمان استمرار مشروعية الدولة العلوية الشريفة لتحقيق تقدم المغرب ورفاهية المواطن المغربي سدد الله خطاكم ووفقنا جميعا لعمل ما يرضي الله ورسوله ويحقق آمال ورغبة جلالة الملك أمير المومنين ويحفظه في سمو ولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه الرشيد المولى رشيد وباقي أفراد أسرته الكريمة والشعب المغربي من كل مكروه، والسلام.

SOMMAIRE

- Séance d'ouverture ---------- 9

Allocution du Haut Commissaire aux Anciens Résistantes et Membres de l'Armée de Libération ---------- 11

- Allocution du Recteur de l'Université Ibn Zohr, Agadir ---------- 17

Allocution du Doyen de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines d'Agadir ---------- 19

- Allocution du Comité Organisateur ---------- 23

1° Axe: LES ORIGINES DE LA RESISTANCE MAROCAINE DU NORD JUSQU'AU SAHARA(1)

- Les jalons de la lutte nationale et de la Résistance pour l'Indépendance et l'unité ---------- 29

Mohamed Benjelloun

- Notion de la Résistance marocaine: exemple du Sahara ---------- 39

Mustapha Naïmi

Le rôle du Trône et du Peuple pour le parchèvement de l'intégrité territoriale ---------- 47

Chabihana Hamdati Ma El Aïnaïne

Aperçu sur la Résistance du Sahara Marocain contre la pénétration coloniale française et espagnole ---------- 55

Mohamed Zniber

2° Axe: LES ORIGINES DE LA RESISTANCE MAROCAINE DU NORD JUSQU'AU SAHARA(2)

- Les origines de la Résistance marocaine et les étapes de son évolution ---------- 67

Abdallah El Ayachi

- Destructuration des institutions traditionnelles et préparation de la colonisation française ---------- 77

Touria Berrada

- Résistance des tribus Zaèrs contre la pénétration française (1906 - 1913) - 95

Allal Elkhdimi

- Quelques observations sur la lutte armée de l'avènement du Protectorat à l'Indépendance du Maroc ---------- 111

Mohamed Elfellah Alaoui

- Aperçu sur la lutte des Marocains pour la souveraintė et l'unité territoriale entre 1900 et 1913: exemple du Sahara marocain ------------ 129
Ettaleb Akhiar Cheikh Ma Al Aïnaïne
Mohamed Cheikh

3° Axe: LA RESISTANCE MAROCAINE DE LA SIGNATURE DU TRAITE DU PROTECTORAT A 1936

- Quelques aspects obscurs de la résistance armée au Nord du Maroc 1913 - 1925 ------------ 141
Abdelaziz Tamsamani Khalouk
- Quelques réflexions sur la politique coloniale espagnole au Nord du Maroc ------------ 151
Ahmed Mhadarha
- L'intervention française dans la guerre du Rif: ses causes et ses conséquences (1924 - 1926) ------------ 159
Mohamed Kharchiche
- Aperçu sur la Résistance Marocaine pendant la guerre du Rif en 1926 d'après un texte étranger ------------ 167
Mohamed Zniber
- La politique berbère de la France au Maroc (1913 - 1930) ------------ 179
Abdelhamid Hssaine
- La politique coloniale de l'Espagne au nord du Maroc (1931 - 1936) --- 191
Boubker Bouhadi

3° Axe: LA LUTTE POLITIQUE DU MOUVEMENT NATIONAL MAROCAIN

- Mobilisation des habitantes du Sud marocain pour la défense de l'intégrité territoriale (1904 - 1955) ------------ 203
Cheik Laghdaf Larabas Ma Al Aïnaïne
- De la Résistance armée dans les montagnes à la Résistance politique dans les villes 1927 - 1934 ------------ 209
Bouchta Bouasria
- La lutte politique à Salé pendant les années trente ------------ 229
Larbi Ouahi
- Programme de la lutte nationale du parti "Choura wa -l- Istqlal" entre 1947 et 1951 ------------ 237
Mohamed Maârouf Daffali
- Al Youssoufia: Idéologie du nalisme marocaine ------------ 257
Ali Hassan

Le rôle de la presse dans la lutte politique du Mouvement National Marocain de la fin de la 2ème guerre mondiale à la déclaration de l'Indépendance -- 271
Jamaâ Bida
- Répercussions de l'action nationale sur les hommes du Mouvement National et leur environnement ------------------------- 285
Houcine Bouchama

5° Axe: LA RESISTANCE ARMEE PENDANT LES ANNEES CINQUANTE

Aspects du Mouvement National à Casablanca pendant les années cinquante: approche analytique de la Résistance ------------------ 297
Mohamed Rezzouk
- Le soulèvement du 20 Août 1956 à Oued Zem: Les origines et les réalités 305
Khalid Bensghir
Eclairage sur l'histoire de la Résistance nationale pour l'Indépendance à Marrakech -- 343
Ahmed Azghouz
Problématique des liens entre le parti de la Réforme Nationale et la Résistance armée 1953 - 1956 ---------------------------- 371
Abdelmajid Benjelloun
- Observations méthodiques et éthiques sur l'écriture de l'histoire de la Résistance marocaine ------------------------------------ 383
Lahcen Aghzadi
La participation des tribus sahraouies à la résistance contre les colonisateurs espagnols et français et la libération des provinces du sud ------- 389
Idriss Nakouri
- La résistance du Cheikh Ahmed El Hiba contre le colonialisme français - 397
Hassan El Baz
- La résistance de la confrérie des Regragas: cas de Zaouia Ibn Hmida --- 411
Mohamed Essaidi Erragragui

Témoignages des membres de l'Armée de Libération

Témoignage sur la création de l'Armée de Libération dans le Sahara marocain -- 429
El Bouiri Idriss Ben Boubker
- Séance de clôture ----------------------------------

Colloque organisé en collaboration avec le Haut Commissariat aux Anciens Résistants et Membres de l'Armée de Libération

Réalisation de la couverture
Mohamed Sanoussi

Dépôt légal: 96/1523

الهلال العربية للطباعة والنشر

ARABIAN AL HILAL Impression et Edition
21 Rue Descartes - Les Orangers, Tel: 70-60-99 - Fax: 70-77-51

الرباط 21 زنقة ديكارت حي الليمون - تلفون: 70-60-99 فاكس: 70-77-51

Royaume du Maroc

Université Ibn Zohr
Publications de la Faculté des
Lettres et de Sciences Humaines
Agadir

Série colloques et journées d'Etudes

LA RESISTANCE MAROCAINE CONTRE LA COLONISATION

1904 - 1955

ORIGINES ET MANIFESTATIONS

ACTES DES TRAVAUX DU COLLOQUE

13 - 14 - 15 Novembre 1991

1997

LA RESISTANCE MAROCAINE
CONTRE LA COLONISATION
1904 1955
ORIGINES ET MANIFESTATIONS

Université Ibn Zohr
PUBLICATIONS DE LA FACULTE DES LETTRES
ET DES SCIENCES HUMAINES
AGADIR

LA RESISTANCE MAROCAINE CONTRE LA COLONISATION

1904 - 1955

ORIGINES ET MANIFESTATIONS

1997